

اهداءات ٢٠٠٢

أ/ثروت اباظة

القاهرة

محمد عبد المنعم خفاجي

من تاريخنا المعاصر

رابطة الأدب الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٣٧٧ هـ — ١٩٥٨ م

حقوق الطبع محفوظة

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح — تليفون : ٥٠٨٥٢

هذا الكتاب

(١)

هذا الكتاب « من تاريخنا المعاصر » ينتظم دراسات واسعة لأعلام معاصرين من الشرق العربي ، من مصر وسوريا ولبنان والعراق والحجاز والأردن وفلسطين وليبيا .

وبعض هؤلاء الأعلام من المفكرين ، أو الساسة ، والبعض الآخر من الأدباء أو الشعراء أو الكتاب أو النقاد أو رجال القلم . . ومن بين هؤلاء الأعلام طائفة قد صارت حياتها الآن ذكرى في سجل الخلود ، وطائفة أخرى لاتزال تسعى بيننا وتكافح من أجل رسالة الفكر والثقافة والأدب .

وروح القومية العربية تنبثق من خلال سطور هذه الدراسة ، وصفحات هذا السفر الضخم ، الذى هو تأريخ لكفاح أعلام معاصرين ، أبلوا فى سبيل القومية العربية خير البلاء ، وبذلوا من جهودهم وأنفسهم وأموالهم أعز ما يبذله المصلحون والمجاهدون . وقد خرج الكتاب فى عيد مهرجان القومية العربية ، عيد ميلاد الجمهوريه العربية المتحدة « مصر وسوريا » ، هذا الميلاد الذى نرجو أن يعز به الله شأن العرب ، ويرفع من منزلة دولة الشعر والأدب ، فى الشرق العربى المجيد المكافح . .

(٢)

تحدثت فى هذا الكتاب عن شخصيات عربية عزيزة على قلبى ، لها فى نفسى أطيب الذكرى ، وأجمل الأثر .

فمن بين الأعلام المصريين المعاصرين الذين ترجمت لهم هنا : إبراهيم دسوقى أباظة ، والدكتور حلمى بهجت بدوى ، ومصطفى عبد الرازق ، والشيخ محمد الخضر حسين ، وأحمد زكى أبو شادى ، والدكتور محمد عبد الله دراز ،

والعقاد ، ومحمود غنيم ، ووديع فلسطين ، وسواهم .

ومن أعلام الأردن : روكس بن زائد العزيزى الأديب الناقد البحاثة المعروف .

ومن الحجاز : عبدالله عبد الجبار ، ومحمد سيعد العامودى ، وعبد القدوس الأنصارى وأحمد السباعى .

ومن العراق : محمد رضا الشبيبي ، والصافى النجفى الذى تتقاسمه الآن كل من سوريا ولبنان ، وعباس شبر ، وموسى الطالقانى ، وعبد الحسين مطر الخفاجى ، ومحمد جواد مطر الخفاجى .

ومن لبنان : أحمد عارف الزين ، وإيليا أبو ماضى الذى تتقاسم عبقريته لبنان ومصر والمهجر الأمريكى .

ومن ليبيا : بشير السعداوى المجاهد الوطنى الخالد الذكر .

وفى الكتاب صور عميقة عن الشعر الحجازى المعاصر ، ودراسات لأعلام الكتاب الذين تحدثت عنهم ، ذكرتها نماذج رفيعة لأدبهم وكتاباتهم ، وتخليدا لموضوعها الذى كتبت فيه ، ومن بين هذه الدراسات : الأردن وتاريخه القديم والحديث ، والشعر الفلسطينى المعاصر قبل النكبة وبعدها ، وخليل مطران وأيامه الأخيرة ، ومشكلات الأدب المعاصر ، وشاعرية العواد فى رأى إبراهيم هاشم الفلالى ، وسوى ذلك من الموضوعات الخطيرة التى سقناها فى هذا الكتاب .

وينتظم الكتاب أيضاً صورة لمعركة نقدية جرت بينى وبين محمد عواد أحد الشعراء الحجازيين ، الذى أثارته الدراسة النقدية التى كتبتها عن شعره فى كتابى « الشعر والتجديد » فكتب مهاجماً عدة مقالات نشرها فى صحيفة البلاد السعودية ، وكانت مقالة « بينى وبين العواد » التى وردت فى هذا الكتاب أحد ردودى فى هذه المعركة الأدبية الطريفة . .

(٣)

وفى الكتاب مع ذلك كله صور واضحة لتطور الأدب والشعر المعاصرين فى مصر والشرق العربى ، وفيه كذلك نماذج عديدة للكتابة والنقد الأدبى ومشكلات الفكر المعاصرة .

وقد لا يكون الكتاب أنيقاً فى طباعته ، ولا رائعاً فى مظهره ، ولكنه فى مادته أجل شأناً ، وأكبر أثراً ، وأعظم خطراً من ذلك ؛ ودراساته العديدة عزيزة على نفسى ، لأنها طالما أرقتنى ، وعشت معها أوقاتاً جميلة، فى أمسياتى الساهرة الطويلة .

وعندما يفتح القارىء صفحات هذا الكتاب ليطالع فيه ، سوف لا يذكر الجهد الطويل الذى بذل فى كتابته وتصحيحه ونشره ، وسوف يمضى معجباً حيناً ، وساخرا حينا آخر ، ومع ذلك فإنى سأكون سعيدا بإعجابه وابتسامته ، وبسخطه وسخريته ، وحسبى أن أقدم إليه هذا الكتاب ، كتابى الخامس بعد المائة .

والكتاب من قبل ومن بعد تاريخ لجوانب من حياتنا الفكرية والأدبية والثقافية والاجتماعية والدينية والسياسية المعاصرة فى شتى أنحاء البلاد العربية ، بلاد المجد والحضارة والتاريخ . . .

المؤلف

إيليـا أبو ماضى

(١)

وفجأة مات الشاعر العربى الكبير إيليـا أبو ماضى ، بعد أن ردد اسمه على كل لسان ، وغنى بشعره فى كل مكان .

إن إيليا أبا ماضى حى بقصائده الرفيعة ، وأدبه الإنسانى ، وموسيقاه الرائعة ، وقصصه الجميل ، وتسلسل الحركة فى شعره تسلسلا عجيبا .

إنه شاعر الصور الفنية اليقظة ، والتجارب الباطنة العميقة ، والإيحاء الذاتى المؤثر .

مات إيليا فى الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٥٧ عن ثمانية وستين عاما ، إذ كان مولده عام ١٨٨٩ م . مات بعد أن حمل — كما يقول الأستاذ الكبير والشاعر المبدع محمد عبد الغنى حسن — « لواء الشعر العربى فى المهجر ، وكانت أنغامه عزاء المنكوبين ، وطمأنينة الحائرين ، وابتسامة فى وجه الزمان إذا عبس ، وأثبت كيان الفكر العربى فى العالم الجديد » .

وقد بلغ أبو ماضى غاية نضوجه الشعرى فى (الجداول) ، ولا سيما فى قصيدته (فلسفة الحياة) التى تعد من أشهر شعر أبى ماضى وأروعه [١] ، والنزعة الإنسانية سائدة فى شعره ، وتتردد فيه النزعة الواقعية أحيانا ، والنزعة التأملية ، وهو من شعراء الطبيعة ، وله العديد من المطولات الشعرية التى من بينها : الحكاية الأزلية ، والطلاسم .

(٢)

وفى الجداول نجد نزعة الحيرة والتفاؤل بالحياة جد ظاهرة ، وقصيدة

---

(١) ص ١١ إيليـا رسول الشعر العربى الحديث للناعورى .

الطين تعد من أشهر قصائد أبى ماضى ، بل من أشهر القصائد فى الشعر العربى الحديث .

نسى الطين ساعة أنه طين حقير فصال تيها وعربد

ويعقد الأديب الأردنى الكبير روكس العزيزى شبها بينها وبين قصيدة الرميثى التى كانت هى الأصل الذى احتذاه أبو ماضى وأخذ منه معانيه ، وهو ينظم قصيدته .

وقصائده ، (المساء) ، (وزهرة أقحوان) ، (والعميان) ، (واليتيم) ، (والمجنون) و (الأشباح الثلاثة) من القصائد المشهورة .

ومن روائع الديوان قصيدته (الطلاسم) :

جئت ، لا أعلم من أين ، ولكنى أتيت
ولقد أبصرت قدامى طريقا فمشيت
وسأبقى سائرا إن شئت هذا أو أبيت
كيف جئت ، كيف أبصرت طريقى ، لست أدرى

والقصيدة من عيون الشعر العربى الحديث ، ولها شهرة ضخمة لاتعادلها شهرة .

وفى قصيدته (اليتيم) يقول أبو ماضى :

خبرونى ماذا رأيتم ؟ أأطفالا يتامى أم موكبا علويا
كزهور الربيع عرفا زكيا ونجوم الربيع نورا سنيا
والفراشات وثبة وسكونا والعصافير بل ألذ نجيا
إننى كلما تأملت طفلا خلت أنى أرى ملاكا سويا
قل لمن يبصر الضباب كثيفا إن تحت الضباب فجرا نقيا
اليتيم الذى يلوح زريا ليس شيئا لو تعلمون زريا
ربما كان أودع الله فيه فيلسوفا أو شاعرا أو نبيا

(٣)

أما ديوان الخمائل فمن أشهر قصائده : (الشاعر والملك الجائر) ، و (الفراشة المحتضرة) ، و (الأسطورة الأزلية) ، والديوان مملوء بروائع الفن القصصى الشعرى البديع ، مع الموسيقى العذبة ، والألحان الجميلة .

يقول أبو ماضى فى الخمائل من قصيدته (أنت والكأس) :

أنت والكأس فى يدى　　فلمن أنت فى غدى ؟
فاستشاطت لقولتى　　غضبا فى تمرد
وأشاحت بوجهها　　وادعت أننى ردى
كاذب فى صبابتى　　ماذق فى توددى
قلت : عفوا فإنها　　سورة من معربد
وجرى الصلح والتقى　　ثغرها وثغرى الصدى
أذعن القلب طائعا　　بعد ذاك التمرد
فنعمنا هنيهة　　بالولاء المجدد
بين ماء مصفق　　وهزار مغرد
ثم عادت وساوسى　　فأنا فى تردد

إلى آخر هذه القصة الحائرة ، وفى قصيدته « أنا وابنى » يقول أبو ماضى :

قال ابنى وهو حـ　　ـيران بما يحكى ويقرا
كيف كان الله　　إنى قد وجدت الله سرا
أسمع الناس يقو　　لون به خيراً وشراً
فأفدنى ، قلت : يا　　ابنى أنا مثل الناس طراً
لى فى الصحة آرا　　ء وفى العلة أخرى
كلما زحزحت سترا　　خلتنى أسدل ستراً
لست أدرى منك بالأ　　مر ولا غيرى أدرى

(٤)

وإيليا [١] ابن « المحيدثة » تلك القرية الوادعة إحدى قرى لبنان الجميلة ، ولد فيها عام ١٨٨٩ م ، وفى عام ١٩٠٠ وفد على مصر مهاجرا ، وأقام فيها إحدى عشرة سنة بين الإسكندرية والقاهرة ، يعمل فى التجارة ، ويهوى الأدب ، ويحضر ندواته ومجالسه ، ويكتب فى صحفه ومجلاته ، وينظم الشعر ، ويشارك الشعراء فى تذوقه وفهمه ، متأثراً فى موسيقاه الحلوة بمدرسة شعراء الإسكندرية . وفى عام ١٩١١ نشر ديوانه « تذكار الماضى » ، وفى العام نفسه هاجر إلى العالم الجديد مقيما فى سنسناتى ، وفى صيف عام ١٩٢٦ انتقل إلى نيويورك يعمل فى الميدان الأدبى ، وأسهم فى الرابطة القلمية التى أنشئت فى نيويورك وتولى رياستها جبران خليل جبران ، وإن لم يكن من الذين حضروا أول اجتماعاتها فى إبريل ١٩٢٠ . . وفى عام ١٩٢٩ أنشأ جريدة « السمير » بنيويورك ، وكانت من أوسع المجلات العربية ذيوعا فى العالم الجديد .

وفى المهجر الأمريكى أخرج ديوانه « ديوان إيليا أبى ماضى » عام ١٩١٦ [٢] ، وطبع فى نيويورك ، ويشمل شعره التأملى والوطنى والقصصى ، ثم نشر عام ١٩٢٧ ديوانه « الجداول » الذى طبع فى مطبعة مرآة الغرب فى نيويورك ، وقدم الديوان للقراء ميخائيل نعيمة ، وفى عام ١٩٤٦ أخرج ديوانه « الخمائل » [٣] . . وبقى من شعره مجموعات كبيرة لم تجمع فى ديوان .

وخطرات أبى ماضى الفلسفية ، وقوة الفكر وتركيبه ، وعمق التجربة وحيويتها ، وحيرته بين التفاؤل والتشاؤم والانطوائية والانبساطية ، وموسيقاه العذبة الجميلة التى تجدها فى كثير من قصائده ، ومن بينها قصيدته « تعالى » التى يقول فيها :

---

(١) راجع ص ٩٧ وما بعدها الشعر العربى فى المهجر الاستاذ محمد عبدالغنى حسن .
(٢) يذكر الناعورى أنه صدر عام ١٩١٩ ، ص ١١ إيليا أبو ماضى رسول الشعر العربى الحديث طبع عمان
(٣) فى المرجع السابق ص ١١ أنه خرج عام ١٩٤٠ وأعيد طبعه عام ١٩٤٩ .

تعالى نتعاطاها كاون التبر أو أسطع

وكذلك انطواء الرمزية فى موضوعه الشعرى أو تجربته مع الإبقاء على الصياغة المألوفة ، وصبغة الرمزية الفلسفيةفى بعض قصائده ، من مثل «الطين» التى تتضمن محاورة بين غنى متكبر ، وفقيروديع ؛ ومثل « التينة الحمقاء » التى تتآمر نفسها على ألا تثمر كى لايطرقها طير ولا بشر ، واتجاهه إلى اتخاذ موضوع قصيدته من أتفه الموضوعات فى مثل قصيدته « الحجر الصغير » . . كل هذه من خصائص شاعرية أبى ماضى الذى يعد من فحول الشعراء الابتداعيين فى الشعر العربى الحديث .

(٥)

إن إيليا خالد فى روائعه ، وسيظل خالدا فى هذه الروائع مابقى للفن والجمال سلطان ، وموسيقى أبى ماضى وطيوف القصة وملامحها فى شعره ، وشتى ألوان الجمال التى يصبغ بها شعره ، وروح البساطة والوضوح والصدق التى ترفرف على قصائده ، كلها من عناصر الخلود فى أدبه ، وقد لا يستطيع الشعر العربى أن يعرض الخسارة فيه بعد سنين طوال [١] .

(٦)

وأخيرا وفى يوم الأحد ٢٤ من نوفمبر ١٩٥٧ — الثانى من جمادى الأولى عام ١٣٧٧ هـ نعى الشاعر إيليا أبو ماضى حيث توفى فى نيويورك فحزن العالم كله لوفاته ، حزن لوفاة طفل قرية المحيدثة الغريب ، وصاحب دكان (السجاير) فى مصر الذى عشق الأدب والشعر ، وشاعر الطلاسم والطين ووطن النجوم وسواها من روائع القصيد ، والذى أسهم فى تطوير الشعر العربى : من حيث الموضوع والشكل ، حتى عد أحد رواد الحركة الشعرية الجديدة ، والذى عرض الكثير من المشكلات الإنسانية وناقشها فى ملحمة الطلاسم الخالدة ،

---

(١) راجع ما كتبته عن إيليا أبى ماضى فى كتبى : الشعر والتجديد ، ودراسات فى الأدب والنقد ، ورائد الشعر الحديث ، ومن رواد الأدب المعاصر .

كمشكلة القضاء والقدر وموقف الإنسان منها ، والذى دعا إلى الطمأنينة والتفاؤل بالحياة ، والإيمان بجمالها الموهوب ، فى مثل قوله :

أيهذا الشاكى وما بك داء   كيف تغدو إذا غدوت عليلا
إن شر النفوس فى الأرض نفس   تتوقى قبل الرحيل الرحيلا

هذا الشاعر هو الذى تألقت موهبته فى ديوانه « تذكار الماضى » في مدينة الاسكندرية ، ثم فى « ديوان أبى ماضى » الذى ظهر فى نيويورك ثم فى الجداول والخمائل ، حتى صار أبرز شعراء المهجر الأمريكى شعرا ، وأظهرهم فى بساطة الأسلوب ، وإنسانية الموضوع .

وجهود إيليا أبى ماضى مع رشيد أيوب وجبران خليل وعبد المسيح حداد وسواهم فى إنشاء الرابطة القلمية سوف تبقى ذكرى على مرور الأيام .

أبو الأدبـــــــــــاء

(١)

كان المغفور له خالد الذكر ، إبراهيم دسوقي أباظة مثالا كريما حيا يحتذى ، في رعاية الأدب ، وتقدير الأدباء ، وكان أدباء مصر وشعراؤها يلقبونه « أبا الأدباء » ، وكان بيته ملاذ المفكرين والكتاب والعلماء ، إذ كان بمثابة ندوة دائمة مستمرة ، ينشد فيها الشعراء روائع قصائدهم ، يطلبها رب البيت حينا ، ويطلبها زواره حينا آخر ، وينشدها الشعراء دون ما طلب حينا ثالثا . وكان الأدباء كذلك يتحدثون حول أفكارهم وآرائهم وآخر إنتاجهم الأدبي في مجلس الأباظي الوزير ، وكانت تطرح مسائل الثقافة واللغة والأدب والنقد في حلقته ، ويتناقش الحاضرون فيها ، وقد يلج بهم الجدل أمامه ، وهو راض مبتسم جذلان ؛ ولقد زرت بيته عام ١٩٣٨ في حي المالية ، وكان النقاش حادا حول مادة (فقرة) واللغات التي فيها ، وكان في الحلقة الأديب الكبير كامل كيلاني ، وبعض الزوار ، وانتهى الأمر بأن طلب الأباظي تحكيم (اللسان) فكان حكمه فصل الخطاب ، وفي العباسية شهدت ندوة الوزير الأباظي في بيته وحوله أعلام الأدب والشعر ينشدون لافي مدحه ، ويقولون ولكن ليس في تعداد مآثره ؛ وإنما يسمعون الدسوقي ما نظموه من شعر وما كتبوه من مقالات .. ولا ينتهي الأمر بإبراهيم عند هذا الحد بل فتح بيته لتكريم الأدب والأدباء ، ففيه أقيمت حفلة تكريم الشاعر الكبير الدكتور إبراهيم ناجي بمناسبة صدور ديوانه « ليالي القاهرة » ، وكثير من حفلات الأدب والشعر .

وتمر الأيام وتؤلف جامعة أدباء العروبة بإيحاء الوزير الأباظي . وتعقد هذه الجماعة مواسمها ومهرجاناتها الأدبية في مدن مصر ، وينتقل الأدباء إلى هذه المدن ، ولا يصلون حتى يجدوا الوزير الأباظي قد سبقهم لحضور هذه المهرجانات والمواسم الخالدة .

ولا يمضى يوم إلا ولشاعر قصة يرفعها للدسوقى ، ولأديب مظلمة يوسطه فى حلها ، والدسوقى يسمع مبتسما جذلان قرير العين ، ثم ينهض فى الصباح ليقضى حاجة هذا الأديب والشاعر دون ملل أو عبوس أو ضجر .

ويخرج الأدباء مؤلفات ، والشعراء دواوين ، ويذهب هؤلاء وأولئك إلى منزل الأباظى يطلبون منه أن يكتب مقدمة أو تصديرا لهذا الكتاب ، وذلك الديوان ، فلا يرفض لهم طلبا ، ولا يخيب لهم رجاء ؛ ومن ثم وجدناه يحتفى بروائع ناجى فيصدر ديوانه « ليالى القاهرة » ويكرم شاعرية غنيم فيكتب مقدمة لديوانه « صرخة فى واد » وهكذا . . وكان مع أعبائه الجسام ، ومسئولياته فى الحكم لا يغلق بابه دون صاحب حاجة ، ولا يمتنع عن مقابلة إنسان.

(٢)

كان (١) الأباظى صاحب مدرسة أدبية حديثة ، ألف من أجلها « جامعة أدباء العروبة » وكان مركزها العام بالقاهرة وافتتحت لها فروعاً بالقطر . ففتح فرع الفيوم سنة ١٩٤٩ وفرع الزقازيق سنة ١٩٤٨ .... مما جعل الناشئين فى عهده يثبون وثبات أدبية ذات لمحات فنية وومضات أدبية رائعة ، نذكر من أولئك الأدباء الذين تربوا على أدب « الغزالى أباظة » أحمد عبد المجيد الغزالى والعوضى الوكيل وغيرهما . وقد كان يحاول أن يخلق بهذه الجامعة نهضة أدبية حديثة تأخذ أحسن ما فى القديم والحديث . وإذا صح أن نوجز القول فى خصائص هذه المدرسة الأدبية الإبراهيمية الحديثة ، فإنه كان رحمه الله يريد من المدرسة الحديثة أن تتسم بطابع الجدة والطرافة والأسلوب الأنيق والعبارة السهلة ، وهى تحتفى بالفكرة احتفاءها باللفظ وتعنى بالموسيقى عنايتها بالصياغة والصنعة ، والمنهج الفنى لهذه المدرسة الأدبية هو العناية بالمعنى وعقد الصلة بين القول والقائل ، ليكون القول صورة صادقة من قائله ، بل قطعة من نفسه وبضعة من شعوره . ومن خصائص هذا المنهج ، وهذا شأنه ، أن

---

(١) ص ١٢٥ ذكرى دسوقى أباظة .

يحارب الانصراف إلى الأسلوب والتوجه إلى الزينة اللفظية ، وقد نهض الدسوقى بعبء تأليف جامعة أدباء العروبة ، حتى تعمل على نهضة الأدب بإيقاظ الذهن العربى وحسن توجيهه لأبعد آفاق المجد والسؤدد ؛ وتشجيع نوابغ المفكرين والنابهين من رجال القلم . وتجد فى توثيق الأواصر بين الأدباء ، فى مصر ، ثم توثيقها بينهم وبين أدباء العالم العربى ، لهذا الغرض لم تكن تحتكر الأدب العربى بل كانت تغتبط وتبتهج بكل من يدعون للنهوض به أفراداً أو جماعات ، وتمتد يدها مخلصة لكل جمعية تنحو نحوها ، وتسير على نهجها بعيدة عن السياسة والحزبية بعدها عن الأغراض الذاتية .

وقد عرف الناس (الغزالى أباظة) منذ أن كان طالباً فى مرحلة التعليم الابتدائى كاتباً بارع الأسلوب ، عالى الفكرة ، يدير معانيه السياسية فى عبارات قوية الأداء متينة النسج تنطوى على الفكرة الجادة فى مواطن الجد وتتقمص الفكرة الساخرة حين تنفع السخرية ويجدى التهكم . ولقد نشأت هذه الأساليب المرنة التى ابتدعها (الغزالى أباظه) كثيراً من كتاب هذا الجيل الذين يعالجون بأقلامهم الساخرة الفكهة اعوص مشاكلنا السياسية . وطالما تساءل الناس عن (الغزالى أباظة) الذين شغلهم ردحا طويلا من الزمن بقلمه الجاد فى سخرية ، والساخر فى جد ، حتى عرف الجميع أنه (إبراهيم دسوقى أباظة) السياسى الاديب . وكتابه (ومضات الادب بين غيوم السياسة) من أجل مصادر تاريخنا الأدبى المعاصر ، وفيه صور لكتابة الأباظى الادبية والنقدية .

لقد قام وحده بالدعوة للاحتفال بذكرى شاعر النيل المرحوم حافظ إبراهيم وكانت لجنة الاحتفال تتخذ منزله مكانا مختاراً وظلت اجتماعاتها تتوالى حتى كان الحفل لائقاً بحافظ إبراهيم، اجتمع له ممثلون للبلاد العربية من كل قطر شقيق . ولقد اشترك فى مناسبات أدبية كبرى، ومن بينها حفلات ذكرى شوقى، كذلك تحدث وأطال فى دراسة وافية لشاعر القطرين خليل مطران ، وإلى جانب هذا النشاط الأدبى الجم حنا على جامعة أدباء العروبة فشد أزرها بإنشاء الفروع وإقامة المهرجانات الوطنية والقومية والأدبية فى عاصمة البلاد وعواصم المديريات .

وقد ترجمت للأباظي ترجمة ضافية في كتابي «قصة الأدب المعاصر»، مما جعلني أذكر هنا أطرافا من حياته، دون أن أكتب هنا دراسة مستفيضة لشتى جوانب شخصيته وعبقريته.

(٣)

إن حياة الأباظي سجل حافل بالعظمة والمجد والعبقرية وعزة النفس، وحب التضحية في سبيل الوطن، ونبل الأخلاق من إيثار ووفاء وإخلاص وسماحة نفس وطهارة يد.

ولد فقيدنا[١] عام ١٨٨٩م لأبوين كريمين. فكان أبوه المغفور له إبراهيم أباظة بن السيد أباظة، سيداً في قومه وجيرته، وكانت والدته الشركسية الأصل تزدان بالوقار، ويشع من وجهها نور السماحة وصفاء النفس، وقد قست الأقدار على هذين الأبوين الكريمين. ففقدا أبناءهما الذكور واحداً بعد آخر حتى بلغ عدد من ثكلاه تسعة من الذكور قبل أن يرزقا ولدهما دسوقي. فكان حبهما عليه يملك مشاعرهما، وكان إشفاقهما من أن يمسه أي سوء يستبد بقلبيهما، وكانت أقل وعكة تلم به تقض منهما المضاجع. وقد عز عليهما أن يفارقاه وأن يسمحا بابتعاده عن موطنهما بالريف. واكتفيا بتلقينه مبادىء القراءة على أيدي مدرسين خصوصيين. وتركا له الحبل على الغارب.

التحق بمدرسة الناصرية الابتدائية وكان يكتب في صدر «جريدة اللواء» مقالاته «قلوب مع الحسين وسيوف مع بني أمية».. ثم التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية. وفي سنة ١٩٠٨ أخرج كتابه «حديقة الأدب» ضمنه ما كتبه ونظمه. وكان لمقالاته الجريئة في جريدة «اللواء» وجرائد الحزب الوطني بتوقيع «الغزالي أباظة» أكبر أثر في الحياة السياسية.. وهو في الرعيل الأول من الوطنيين الذين عملوا على رفع صوت مصر عالياً مسموعا في الخارج،

(١) ص ٧٩ ذكرى دسوقي أباظة من كلمة الأستاذ الكبير المرحوم علي أيوب.

إذ أنه بعد أن التحق بالمدرسة الخديوية ثم مدرسة الحقوق كان يسافر إلى أوربا كل عام ويحضر مؤتمراتها السياسية ويكتب فى أكبر جرائدها . وقد نشرت له جريدة « الطان الفرنسية » كلمة « المطالب الفرنسية » يوم كان باستمبول سنة ١٩٠٨ وهو لما يزل طالبا بالحقوق . ولما أنشىء نادى المدارس العليا كان ممثل الحقوقيين فيه ، كما أنه مثلهم فى الاحتفال بتأبين المرحوم مصطفى كامل ورفع الستار عن صورته ، وألقى قصيدة من نظمه . وكان لا يحتفل بالسنة الهجرية فجاهد هو وإخوانه حتى قرر الاحتفال بها رسميا ؛ وفى سنة ١٩١٢ حصل على ليسانس الحقوق ، وقرر اسمه فى جدول المحامين المشتغلين غير أنه لم يشتغل بها طويلا ، فقد لاحظ والده المرحوم إبراهيم بك السيد أباظة وعمه المرحوم إسماعيل أباظة باشا أنه يخوض غمار السياسة ويتعرض لأخطارها فخشيا عليه فترك المحاماة تحت ضغط منهما شديد . ثم انتظم فى سلك الموظفين فالتحق مفتشا للضبط بمحافظة مصر .

بدأ[1] انضواؤه تحت لواء الجهاد الوطنى وهو طالب بمدرسة الحقوق . فقد اشترك فى المظاهرة الكبرى التى قام بها طلبة الحقوق يوم ٩ نوفمبر سنة ١٩٠٨ احتجاجا على عرض الجيش البريطانى فى ميدان عابدين (ميدان أحمد عرابى الآن) لمناسبة عيد ميلاد ملك بريطانيا وقتئذ . وكان لهذه الظاهرة دوى كبير فى المحافل وتردد صداها فى الصحف الأوروبية إذ كانت من أهم المقومات الإيجابية للشباب فى مقاومة الاحتلال . وتكررت هذه المظاهرة من طلبة الحقوق ، ومنهم الفقيد يوم ٩ نوفمبر من العام التالى — (١٩٠٩) . وبدأ يكتب فى الشعب والعلم من صحف الحزب الوطنى وهو بعد طالب فى مدرسة الحقوق . وكان يوقع مقالاته بإمضاء (الغزالى أباظة) نسبة إلى بلده الطيب (غزالة) . فلقيت مقالاته استحسانا كبيرا من المواطنين حتى صار اسم الغزالى أباظة علما له ولمقالاته الوطنية قبل تخرجه من المدرسة وبعد تخرجه .

---

(١) ص ٧٣ ذكرى دسوقى أباظة من كلمة للاستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى

وأذكر أن أول ما نشر له بهذا الإمضاء قصيدة من الشعر الوطنى ظهرت فى عدد ٤ أبريل سنة ١٩١٠ من صحيفة (الشعب) وكان عنوان القصيدة (أكرههم)، يريد المحتلين. قال فيها ضمن ما قال :

أكرههم لأنهـــم أعداؤنا قد ســـلبوا ماوهب الله لنا
أكرههم لأنهم لم يحفـــلوا بوعدهم بل أخلفـــوا وضللوا
أكرههم فقل لهم يا (شعب) أن ليس يرضى بالهوان الشعب

وهذه القصيدة تدل على أن نشأة الفقيد الوطنية قد امتزجت بنشأته الأدبية فى سن مبكرة من الشباب . فلا غرو أن صارت الوطنية عقيدة فى نفسه حببت إليه الإخلاص والجهاد فى سبيل الله والوطن طول حياته . ويبدو مبلغ تعلقه بالزعيم محمد فريد من مقالة تفيض وطنية وإخلاصا نشرها فى عدد فبراير سنة ١٩١١ من صحيفة (العلم) تحت عنوان (الـكلمة الهائلة) كتبها على أثر الحـكم على فريد بالحبس ستة أشهر فى تهمة صحفية لا أساس لها من الحق ولا من الصحة . بدأها بقوله : «كنت فى الجلسة الرهيبة . نعم حضرت الحكم على فريد بك . فسمعت الحـكم . وكذبت سمعى مرارا . ولـكننى انتهيت بتصديقه»، وختمها بقوله عن الكلمة الهائلة التى جعلها عنوانا لمقالته، وعلق بها على ذلك الحـكم الجائر وهى (لتحى الحرية) . وتعددت مقالاته فى صحف الحزب الوطنى عاما بعد عام، كأنه محرر مقيم فيها . ولم يكن كـذلك، وإنمـا كان رحمه الله مقيما على العهد .

وقد نشأ[١] دسوقى أباظة وسياسة بلاده تجرى مع الدم فى عروقه . وقضى وهذه السياسة شغله وشاغله . لم ييأس قط يوماً ولم يلق سلاحه . ولم يقل قط يوماً . . نفسى . . بل كانت قولته دائماً . . وطنى . . وبنى وطنى .

ولم يحبس نشاطه يوماً فى دائرة محدودة ، بل كان هذا النشاط يفيض

(١) ص٦٢ ذكرى دسوقى أباظة — من كلمة الدكتور محمد حسين هيكل .

دائما إلى كل ناحية يرى الرجل فيها خيراً لوطنه . ذلك أنه كان رجل عقل ، وعاطفة وشعور دقيق ، وكان متمسكا بأهداب دينه محبا لتراث الإسلام والعروبة فى تسامح مع أبناء وطنه جميعا وإكرام لهم جميعا . لهذا كله لم تكن مشاغله فى السياسة لتنسيه الأدب والشعر ، ولا كان الأدب أو الشعر لينسيه السياسة أو شئون الاجتماع ، أو أيا مما يمس هذا الوطن فى حاضره وفى مستقبله ، وفى صلة الحاضر والمستقبل بالماضى العزيز عليه ، الحبيب إلى قلبه . كان دسوقى أباظة رجل عقل ، وعاطفة ، وشعور دقيق . وكان عقله وعاطفته وشعوره تتضافر كلها فى توجيه حياته السياسية . ولقد كان حريصا على التقاليد التى ورثها عن آبائه وأجداده ، والتى ورثها عن قومه فى ماضيهم ، فكان لا يرى الخروج على هذه التقاليد فى حياته الخاصة ، وكان يؤثر المحافظة عليها ما استطاع فى الحياة العامة ، وكان يعتز بها اعتزازه بنفسه ، لأنها كانت بعض نفسه ، لم يثر عليها ، ولم يكن يرضى الثورة من غيره عليها ، إلا أن تحمله الصداقة والوفاء على السكوت على هذه الثورة إذ يقوم بها صديق يحبه ، أو زميل سياسى يحرص على زمالته . وكان اعتزاز دسوقى بنفسه عميقا فى أغوار نفسه .. كان فى صباه وفى شبابه الأول ، من أنصار مصطفى كامل ، والحزب الوطنى ، عن عقيدة وإيمان ، دفعاه ليكتب فى جريدة اللواء لسان الحزب ، مقالات وطنية ، تفيض بحرارة الشباب وقوته . ولقد أراده والده على أن يتفرغ لدراسة الحقوق ، وألا يكتب فى السياسة فلم تطاوعه نفسه على أن يفعل ، بل استمر يكتب بحرارة ضاعفتها هذه النصيحة . فلما كانت ثورة سنة ١٩١٩ واتحدت كلمة الأمة بعد توكيلها الوفد المسافر إلى مؤتمر السلام بفرساى ، وكان قد أتم دراسة الحقوق ، وانتظم فى خدمة الحكومة ، أبت عليه نفسه إلا أن يترك خدمة الحكومة احتجاجا على بطش البريطانيين وأن يندمج فى هذا النشاط الوطنى الجديد ، وأن يبرز فيه مشبوب العاطفة ، جم النشاط قوى الإيمان ، مندفعا فى الاتجاه الوطنى الذى كان مندفعا فيه إذ كان يؤيد مصطفى كامل والحزب الوطنى . فلما تألف حزب الأحرار الدستوريين فى سنة ١٩٢٢ انضم

إليه وحماسته هى حماسته ، وعاطفته الوطنية على أشدها ، ونشاطه لا يفتر ، وحرارة الشعور المتدفق تدفعه بالقوة التى كانت تدفعه بها يوم كان طالبا للحقوق يكتب مقالاته فى جريدة اللواء . رفعته صفاته هذه إلى مكان الثقة من نفوس رؤساء الأحرار الدستوريين وزعمائهم ، فكان أثيرا عند المغفور لهم : عدلى (باشا) يكن ، وعبدالعزيز(باشا)فهمى ، ومحمد محمود (باشا) . واختاره محمد باشا حين ألف الوزارة فى سنة ١٩٢٨ مديرا لمكتبه ليكون الحفيظ الأمين على سره ، فهو موضع ثقته واحترامه . وكان محمد (باشا) ، وهو الزعيم النبيل النزيه ، يكبر فى دسوقى نزاهته وطيب عنصره وسماحة نفسه وكرم خلقه .

ثم كان النظام البرلمانى فرشح نفسه للمجلس النيابى عن دائرة (بردين) فنجح فى جميع أدواره وكان من أكبر أعضائه البارزين . وفى سنة ١٩٣٤ رشحت الحكومة رجلين من كبار المحامين لوكالة المجلس النيابى فصمم إخوانه على ترشيحه فقاومت الحكومة والأحزاب ذلك ، ولكنه نجح نجاحا كبيرا ، فأصبح الوكيل الأول لمجلس النواب بأغلبية وفشل مرشح الحكومة وتوالت التهانى واعتزم المفكرون والأعيان بمديرية الشرقية على تكريمه فأقاموا حفلة تكريم حضرها جمهور كبير من الأعيان والوزراء وازدحمت مدينة الزقازيق بالوافدين فبدت كأنها فى عيد (على حد تعبير جريدة الأهرام) .

وفى سنة ١٩٣٦ تكونت الجبهة الوطنية على أثر النهضة الأخيرة من زعماء الأحزاب السياسيين، ثم ألفت الجبهة لجنة سميت (لجنة الجبهة الوطنية) فاختاره الأحرار الدستوريون عضوا ممثلا لهم فيها . وفى سنة ١٩٣٨ أسفرت نتيجة انتخاب هيئة مجلس النواب عن اختياره وكيلا للمجلس، ورأى لفيف من حضرات نواب وشيوخ الأمة أن يحتفلوا بتكريمه فشهدت دار حزب الأحرار الدستوريين مساء الاثنين ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٨ ليلة فذة ، وقد اجتمع لتكريمه نواب الامة وشيوخها ووزراؤها من مختلف الهيئات .

وفى سنة ١٩٤١ عين وزيرا للشئون الاجتماعية .

وفى سنة ١٩٤٤ عين وزيرا للمواصلات .

وفى سنة ١٩٤٦ عين وزيرا للأوقاف .

وفى سنة ١٩٤٧ عين وزيرا للمواصلات ثم وزيرا للخارجية « بالنيابة » ، ثم وزيرا أصيلا لها .

(٤)

وفى صباح ٢٢ يناير ١٩٥٣ ، طوى الموت علما من أعلام الإنسانية والأدب والوطنية الرفيعة . هو المغفور له إبراهيم دسوقى أباظة . . . الذى أصبح ذكرى خالدة فى سجل التاريخ ، وقد عبر الشعر والشعراء عن مدى الفجيعة فيه يقول المرحوم إبراهيم ناجى يرثيه ويصور فجيعة الأدباء فيه :

ودعت أحلامى وعفت حياتى	ودفنت بعدك فى التراب شباتى
هيهات ليس الدمع فيك بمسعد	جفت على حوض الردى عبراتى
يتمثل الماضى إلى بأنسه	متألق الآمال والبسمات
فإذا التفت لحاضرى ألفيته	جهماً ، وفزعنى خيال الآتى
ما أرتجى ! ؟ ذهب الصديق وعقنى	زمنى وأصبح فى القفار لداتى
وإذا انطوى طيب الزمان وحسنه	لم يبق غير الوجد والحسرات
عذراً أخى عى البيان وخاننى	قلبى وغصت بالدموع لهاتى
أين الدسوقى والمروءة والندى	وعظائم الأعمال والخطرات ؟
أين الليالى الحاشدات بفضله	مأهولة معمورة الجنبات ؟
واحسرتا صارت فساح رحابه	قبراً بعيداً ، ضيق العرصات
لمن الشكاة ، وكنت مهما ضاق بى	صدرى أبث له طويل شكاتى ؟
وألوذ من ترحابه بصداقة	مأمونة جلت عن العثرات
وألوذ من آفاقه بكواكب	شفافة الأنوار والضحكات
نفس تعيد لك الحياة رخية	فكأنها روض من الجنات
ومروءة تلقاك عن قرب وعن	بعد بما ترجو من الحسنات
إقدام أبطال وحزم غضنفر	فى لين أخلاق وعلم ثقات

يا هادم العقبات من صخر ومن شـوك لى الرحمن من عقباتى
ومقلماً ظفر الأعادى لفتة من لى إذا كثر الغداة عداتى ؟
ويحى ! تشاكلت الليالى كلها حزناً عليك عشيتى كغداتى
أرنو إلى الأدب الرفيع تركته لطوارىء الحدثان دون حماة
أرنو إلى الأخلاق قد خليتها لحوالك الظلمات دون هداة
أرنو إلى الدنيا فأهتف قائلا لمدامعى : هاتى معينك هاتى

ويقول الشاعر الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد فى ذكرى إبراهيم :

أقيموا الوزن أو ميلوا فما (ابراهيم) مجهول
فتى ميزانه بالقسط عند الله مكفول
له فى كل تاريخ من المجد أكاليل
فلا الماضى بمنسى ولا الحاضر معزول
وراعى الشعر لا ينساه مرعى منه مطلول
سلوا الإحسان والإحسان طبع فيه مجبول
وأقرب شأوه فى الجود مشروب ومأكول
وأيسر جوده باد لمرأى العين مسئول
وكم أعطى ولم يسأل وبعض السؤل ممطول
وبعض الناس قد يمحو نداه القال والقيل

ويقول الشاعر الكبير محمود غنيم يرثيه بمرثية فيها من نسج البحترى بلاغتها ورواؤها واحتدام العاطفة فيها :

ألا ما لهذا الروض صوح زاهره وذابت أغانيه وأجفل طائره ؟
ألا ما لهذا البحر غيض عبابه وعطل مرساه وأسكت هادره ؟
ألا ما لهذا الغاب حل حرامه وخلاه مكسور الذراعين كاسره ؟
ألا ما لهذا الطود خر أساسه ؟ ألا ما لهذا الغيث أخلف ماطره ؟
ألا أيها الوفاد حلوا رحالكم طوى الموت إبراهيم وانفض سامره

سلوا القصر . . ما للقصر غشى سماءه ... قتام وقدت من حداد ستائره ؟
وماذا به من وحشة وتجهم ... وكان به فيض من البشر غامره ؟
سلام على القصر الذى ريع أهله ... فريعت له من كل قصر حرائره
أطوف به فى صمته وكأنه ... مصلى عتيق لا تقام شعائره
وكنت أغنيه فيطرب ربه ... فما باله قد أعول اليوم شاعره ؟
سلوا عن عكاظ هل تعطل سوقه ... وهل حطمت أعواده ومزاهره ؟
سلوا الأدب الفياض هل غاض نبعه ... وهل طويت أقلامه ومحابره ؟
أمن بعد إبراهيم للشعر موكب ... يقام بمصر أو تدق بشائره ؟
وهل بعد إبراهيم من متكلم ... يحاضرنا أو من سميع نحاضره ؟
لقد كان حصنا للأديب فإن يمت ... فكل أديب تاعس الجد عاثره
مضى ناظم الشعر الرصين قلائداً ... وناقده نقد البصير وناشره

ويقول الشاعر الكبير العوضى الوكيل فى رثاء الأباظى :

مضى الطاهر الصديق لله معجلا ... تقياً نقيا طاهر الكف سامياً
أعاف نفاق الناس والبغى بينهم ... وما أكثر الباغى بهم والمرائيا
أعاف الرضا والسخط فيهم لطية ... فأنكر ذا سخط وأنكر راضياً
وذا جفوة ما كان بالأمس جافياً ... ولكنه قد كان يهتز راجياً
ولم أر كالأيام يأتى لها غد ... فيأكل آماساً لديها مواضيا
ولم أر كالأيام تصبغ أهلها ... صبائغ شتى تبهر الطرف رائيا
تضيع مقاييس الرجال بأمة ... إذا لم يك الميزان بالخلق عالياً
سقى الله قبراً فى « غزالة » ضمنت ... صفائحه نوراً من الله هاديا
أهل فأخزى البدر فى سبحاته ... وأخجل فى آفاقهن الدراريا
يكاد تراب القبر يسنى أشعة ... مطهرة تعشى العيون الروائيا
سنى بسمة من ساكن القبر عذبة ... تظل — وإن أودى — تنير الدياجيا
مشيت إليه فى خشوع ورهبة ... ولم لا ؟ وفيه قد دفنت الأمانيا

أقبـــله حينا وأستاف طيبه ... وأرخص من عينى ما كان غاليا
وناديت حتى كاد من فرط لهفة ... يرد على قلبي اللهيف ندائيــا
ولو خط فى عين لميت حفيرة ... لـكان دسوقى بين جفنى ثاويآ
فمن لنوادى الشعر بعد عميـــده ... وكان محيـاه يزين النواديا
ومن ذا تناجى بالقصيد وسحره ... أحقا عبـــاد الله ألا تناجيا
فياراعى الأشعار كيف تركتها ... وأنت ترى تلك الليـالى ضواريا
ويا آية فى المكرمات وغاية ... ويا أولا فى المكرمات وثانيا
ويا أيها الورد الذى رق ماؤه ... وأروى فلم يترك من الناس ظاميا
إذ ما بكى باك عليك بدمعـــه ... فلا حزن حتى يذرف الدم قانيا

ويرثيه الشاعر محمد على الحومانى فيقول مصورا مدى الفجيعة فيه :

نم ملء عينك . لا الحياة خليقة ... بك أن تعيش ، ولا الخلود مشاع
ما كنت إبراهيم فينا قائلا ... إلا ليسمع مخـــذم ويراع
أسكت حين رأيت كل مثرثر ... سرب البيان على يديه يراع ؟!
حدث أبا الأدباء هل من أمة ... فوق السماء يسودها الإقطاع

ويقول الشاعر أحمد عبد المجيد الغزالى يعد مآثر الدسوقى وجلائل أعماله :

إمام الأباة الطاهرين وشيخهم ... وأكرم من ضحى بأغلى الذخائر
وأول من راد النفوس على الفدى ... وأظمأها للنور خلف الدياجر
لئن خلت الايام منك ، فما خلا ... ضمير الليـالى من خلود المآثر

ويقول فيه طاهر أبو فاشا :

أبا الشعراء والايام تلهى ... حوادثهـا ،وصرف الدهر ينسى
عرفتك مذ عرفت النبل معنى ... تجسمه يـد تأســو وتؤسى
وجئتك والطريق إليك تلقى ... على أذنى جرسـا بعـد جرس
فكنت تقيم سـالفة الليـالى ... وتبنى المجـد مبتكرآ وترسى
وترتجل المعـالى كالمعـانى ... وتصبح فى جلائلهـا وتمسى

وجملة ما نقول عن الأباظى إنه كان عظيما فى كل شىء ، عظيما فى حياته وسيرته وأعماله وشخصيته ، رحمه الله ، وأكرم مثواه .

محمد رضا الشبيبي

(١)

شيخ جليل وقور ، فى سمت جليل ، وزى نبيل ، وتواضع أشبه بتواضع الزهاد ، وحكمة دونها تفكير الحكماء ، يجمع إلى الدين خلقا عربيا أصيلا ، وشمما يمثل عزة نفسه ، وجلال منصبه ، وعراقه محتده .

إنه شيخ النهضة العلمية والفكرية والأدبية فى العراق الشقيق ، وعلم من أعلام الفكر العربى الحديث فى بلاد القومية العربية .

للشبيبى ديوان من الشعر ، عنيت بنشره جمعية الرابطة العلمية الأدبية ، وطبع فى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام ١٩٤٠ .

ويقول الشبيبى نفسه فى مقدمة الديوان : « تألفت هذه المجموعة الشعرية خلال مدة لاتقل عن الثلاثين سنة ، كان الشطر الأول منها حافلا بالحوادث الجسيمة ، اتجه الناس فيه اتجاها جديدا لم يسبق له مثل ، ومالوا إلى الاهتمام بمظاهر التقدم والرقى على اختلافها ، وذلك بمجرد إعلان الدستور فى بلاد الدولة العثمانية عام ١٣٢٦ — ١٩٠٨ م ، وقد امتاز العصر المذكور بكونه عصر اليقظة فى الفكر والشعور ، تفنن الخيال العربى فيه فى التعبير عن هواجس النفوس الطامحة إلى مجاراة الأمم الناهضة ، وحاول الأدب أن يمثل الحياة ، وذلك فى مختلف صورها الضاحكة والباكية ، وشتى مظاهرها المشرقة أو الداجية .. وما هذه المجموعة الشعرية فى الحقيقة إلا من وحى تلك الأيام إلى نهاية الحرب العامة ، بل إلى ما بعدها بعدة سنين ، وليس لى أن أبدى بشأنها رأيا من الآراء سواء من حيث قيمتها الفنية ، أم من جهة مدى تأثيرها ، أم مبلغ جدواها إن قدر لها شىء من الجدوى أو التأثير . وغاية ما أسمح به لنفسى من القول أن الديوان لم يكن نابيا عن بيئته ، بل كان على الأرجح ملائما للزمان والمكان الذى نظم فيه ، كما أن أغراضه لم تكن سياسية قط ، وإنما كانت فى جملتها أغراضا إصلاحية . ولعل طبيعة البلاد ، وما ألم بها من

أحداث ، أو ما اجتازته من أزمات ، وفيها ما يثير الشجن والألم الممض ، أكبر مصادر الإلهام فى هذا الديوان » .

ويستمر الشبيبى فى مقدمته قائلا ، « فإذا كانت للشاعر جولة فى وجه من وجوه الإصلاح ، أو ناحية من نواحى الخير ، وإذا ومضت فى فنه شعلة تنير السبل الحالكة ، أو علت صرخة تثير العزائم الخامدة ، أو سرت نفحة تحيى الرمم البالية ، فقد أدى الرسالة وهى هدفه الأقصى ، وفيها عوض عن كل فائت لمن عشق فنه ، أو أخلص لمثله الأعلى » .

وفى أول الديوان يبدأ باب الحماسة أو الشعر الوطنى ، ثم الحكميات أو قصائد الحكمة ، ثم الاجتماعيات ، ثم الأخلاقيات والإلهيات ، ثم الوجدانيات ، فالوصفيات ، فالرثاء ، فالمتفرقات .. وبذلك ينتهى الديوان الذى يقع فى أكثر من مائتى صفحة من القطع الكبير .

والديوان حافل بشتى الصور والأحاسيس والعواطف الرفيعة ؛ والصور البيانية الأصيلة .. ومن قصائد الديوان قصيدته « حماسة لا سياسة » ويقول فيها الشبيبى :

ألا فى سبيل الله والوطن العانى	سهادى إذا جن الظلام وأشجانى
وفى ذمة الشعب المضيع حملة	من الدهر ألقاها وحيدا وتلقانى
وسومى نفسى فى الكفاح رخيصة	وكنت فتى إن سامنى الوقت أغلانى
ونفثى من صدرى شواظا تضرمت	به وسرت فى فحمة الليل نيرانى
وردى كيد الكائدين عليهم	وكان قمينا أن يضعضع أركانى
إذا كاد أنأى الناس عنى كدته	وإن كاد أدنى الناس منى أعيانى
رجال لهم فى العرب دعوى كما أدعى	بآل زياد قبلهم آل مروان
لهم ما استقامت قط عندى طريقة	وناهيك فيهم من وجوه وألوان
تعسف قوم بالعراق وساوموا	على وطن ما سيم يوما بأثمان
همو احتقبوا الأوزار يقترفونها	وقالوا جنى عمدا وما هو بالجانى

وقد تنكر الحر العراقى أرضه فينأى ليدنو منه من ليس بالدانى

نسج رفيع ، وصور شعرية أخاذة ، وخيال شاعرى خصب ، واعتزاز برسالة الشعر والشاعر فى الحياة ، وليس الشبيبى ممن يجهل مكانه فى العالم العربى، إنه أحد الشعراء الملهمين ، وأحد زعماء الوطنية القلائل فى العراق ، ورائد من رواد النهضة العقلية فى بلاده . إنه نابغة النجف الأشرف ، والشاعر العالم الوطنى المخلص .

الشبيبى من أعرق البيوت وأكرمها فى العراق ، شغله الدرس الطويل ، والتفكير العميق ، والبحث المتواصل ، عما سواه .

وهو غير مكثر من النظم والنثر ، إن الشعر عنده شعور تجيش به النفس، ويصدر من القلب ، وفى شعره مسحة عباسية . تلازمها صور الحاضر وظلاله ، يحب الرصين من الأساليب ، والواضح من التعبير ، والبليغ من ألوان الأداء والبيان ، ومن صور الاداء المشرق الأخاذ .

وشعر الشبيبى مدرسة كاملة تتلمذ عليها شعراء العراق المعاصرون ، إنه قمة سامقة فى البيان وإجادة التصوير . ورسم العواطف الوطنية الجليلة ، وقصائده صور حية تعبر عن وثبات النفس ، وطموح الخيال ، وسمو النزعة ويروى له :

ليس هذا الشعر ماتروونه إنه هذى قطع من كبدى

ويقول الشبيبى من قصيدته (لغة الحب) :

تفاهمتا ، عينى وعينك ، لحظة وأدركتا أن القلوب شواهد
مشت نظرة بينى وبينك وانبرى من القلب مدلولا على القلب رائد
كأن الذى حاولت ثم حاولت من الحب معنى بيننا متوارد
أحاديث لم تلفظ وللنفس منطق وجيز وألفاظ اللسان زوائد
إذا لم تجد فى ظاهر الرأى علتى أما أدتا عيناى ماأنا واجد
كثير محبوك الذين تجلدوا وأما الذى جارى هواك فواحد
صرفت إليك النفس عن شهواتها وجاهدتها ، ما حب من لا يجاهد
وما طال عهدى بالقصيد ومن رأى لكم نظراتى قال هن القصائد
دواوين هذا الشعر تفنى وللهوى هوى الروح ديوان من الشعر خالد

(٢)

والشبيبي عدا الديوان كتب عديدة فى مقدمتها :

١ ــ تاريخ الفلسفة من أقدم عصورها إلى اليوم ولا سيما الفلسفة العربية

٢ ــ أدب النظر فى فن المناظرة

٣ ــ تذكرة فى نعت ما عثر عليه من الكتب والآثار النادرة

٤ ــ فلاسفة اليهود فى الإسلام ، وهو تلخيص لفلسفة ابن كمونة وابن ملكان وغيرهما من فلاسفة اليهود فى الإسلام

٥ ــ المسألة العراقية

٦ ــ تاريخ النجف الأشرف ، وهو تاريخ مطول للنجف الأشرف فى القديم مع تطور العلوم والآداب فيها

٧ ــ المأنوس من لغة القاموس

٨ ــ أصول ألفاظ اللهجة العراقية ، وهو بحث تاريخى أدبى فى أصول ألفاظ هذه اللهجة وفى علم اللهجات ووسائل النهوض باللغة ويلى ذلك معجم بألفاظ اللهجة الشائعة فى العراق ، وقد نشر أولا فى مجلة المجمع العلمى العراقى ببغداد ، ثم نشر فى كتاب مستقل عام ١٩٥٦ ، وطبع بمطبعة المجمع العلمى العراقى فى ١١٦ صفحة من القطع الكبير .

(٣)

وكتابة الشبيبي الوطنية والعلمية والأدبية تمثل كتابة فحول الكتاب فى العصر العباسى ، رصانة عبارة ، وسمو معنى ، وبلاغة اسلوب ، وشرف غرض ، وجزالة لفظ ، وسمو نفس . . إن نثره لا يقل عن شعره فصاحة وبلاغة ، وتشهد له مقالاته بدقة البحث والتفكير والاستقراء ، ينحو فيها غالبا نحو استخراج القضايا العامة من تتبع الوقائع وأطراف الحوادث الخاصة . . إنها تشرق عليها البلاغة من كل جانب ، وتمتاز بتنسيق الأفكار ، وتجويد الترتيب والتبويب[١] .

---

(١) راجع ١١٣ — ١٢٨ الأدب العصرى فى العراق العربى — قسم المنظوم الجزء الأول — لرفائيل بطى — المطبعة السلفية بمصر .

أحمـــد الصافى النجفى

(١)

شاعر من أعلام الشعر العربى الحديث ، وممن أعلوا مكانة الشعر والشعراء في الشعوب العربية ، واعتزوا برسالة الشعر ومنزلة الشاعر فى حياتنا الاجتماعية ، حتى إنه ليقول :

وأمـــير رام أن أمدحه   قلت : أحتاج لمن يمدحنى
إن لى فوق معاليك عـلا   كنت لو تفهمه تفهمنى

ويقول فى ثقة بنفسه وبالإنسان خليفة الله فى الأرض :

أخلصت فكرتى إلى الحق حتى   كدت أغدو لو جئت قدما نبيا
أنا لا أقرب الدناءة يوما   احتراما لجوهر الله فيا

ويقول فى شعره وشاعريته وشخصيته :

ولى فى الشعر مدرسة وشرع   وآيات تـــلوح ومعجزات
أعلـكم بشعرى الشعر لكن   تعلـكم حيـــاتى ما الحياة

ويقول الشاعر إلياس أبو شبكة عن الصافى : « إن أحمد الصافى النجفى ، هذا الاسم ، سيعيش طويلا ، ويخيل إلى أنى أرى خيال الأسطورة على أحرفه[(١)] » .

والصافى من شعراء الحرية وأعلام الوطنية فى العصر الحديث ، وشعره حديث رائع بليغ عن القومية العربية ، وحاضر العرب وكفاحهم الوطنى ، ونضالهم للاستعمار .

---

(١) ص ٢٣ عبقرية الصافى .

(٢)

وعن شاعرية الصافى كتب العديد من الدراسات والبحوث[١] ، يقول فيه الشاعر إيليا أبو ماضى : « الصافى شاعر وإن لم يكن له ديوان ، شاعر وإن لم تكن له قصيدة ، شاعر بروحه وهواجسه .

ويقول رئيف خورى : الصافى تقمصت فيه أرواح شعراء كثيرين ، ففيه روح المتنبي وروح المعرى وابن الرومى وأبي نواس وأبي العتاهية وأبي الشمقمق[٢] » .

ويقول إلياس أبو شبكة عنه : فى مجموعة الصافى « أشعة ملونة » طعام القلب والفكر هممت فى إحدى الليالى أن أنال قسطا منه فما استطعت إلا أن ألتهمه كله ، وقال : « ما أبعد الصافى عن الفن وأقربه إلى الطبيعة ، ما أبعده عن الفن الميت ، عما يعلق بعينى المرء ومخيلته من الصور المصبوغة والأفكار المحنطة ، وما أقربه إلى الفن الحى ، إلى ما فى الطبيعة من الصور الحية والألوان النابضة والشعور اللطيف ، ففى هذه المجموعة « أشعة ملونة » : صدق الحس وقوة النظر ، ووضوح الفكرة العميقة ، تطفو عليها جميعاً سذاجة فى الأداء ، يستهويك فيها دافقها الفورى . » : فيا شعراء اليوم تعالوا إلى لأدخلكم إلى الطبيعة فى شعر الصافى ، تعالوا لأهديكم إلى طريق الخلود فى شعر ساذج » .

وكتب صاحب مجلة المعرفة الدمشقية يقول عن الصافى : « سيحسدنا القادمون على أنا عاصرنا الصافى » .

---

(١) راجع فى : مجلة العرفان عدد تمرين الأول ١٩٥٢ دراسة الأستاذ محمد يوسف مقلد — وفى مجلة النجم الجديد فى حلب دراسة للأستاذ محمد شعبان — وفى المجلة الجديدة لسلامة موسى دراسة للاستاذ روكس العزيزى ، وله دراسة كذلك فى مجلة الاعتدال النجفية — وفى السياسة الأسبوعية عام ١٩٣٣ دراسة عن الصافى للشاعر محمود حسن إسماعيل بعنوان العبقرية المتمردة

(٢) مجلة المكشوف البيروتية — ويقول عبد الله العلايلى عن الصافى فى جريدة الجمهور : « كنت أعيش على مفتاح فلسفة الصافى فعثرت عليه فى هذا البيت » :

وأبغضت الجميل لأن حبى ... به يختص من دون الدميم

وقال حسين مروة عن ديوان « شرر » : « فى هذا الديوان من ألوان الفن الشعرى ، ومن سبحات الذهن الوثاب ، ومن وهج الخيال المتوقد ، ومن خصب الخواطر الحية ، ماينبغى أن يحمل الناقدين منذ الآن على إنصاف هـــذا الشاعر العظيم » .

ويقول شرارة من حديث له فى محطة الشرق الأدنى عن ديوان « شرر » للصافى النجفى : « الصافى هو الشاعر الوحيد من شعرائنا المعاصرين الذين يعبرون عن حضارة خاصة ، شأنهم شأن طاغور والمتنبى وجوته .

ويقول ميخائيل نعيمة للصافى بمناسبة ظهور ديوان شرر : « إنه ديوان يقرأ من الدفة إلى الدفة دون ماملل . ولعل أجمل مافيه خلوه من التصنع والتبرج فى تصوير دنياك التى تعيش فيها بجسمك وروحك ؛ إنها دنيا غنية بالفكر والعبر ، وبالهواجس والوساوس ، وبالرؤى النيرة والقاتمة ، وباللذة والألم ، وبالكبت والانطلاق ، ثم بالاعتداد بالنفس إلى أبعد بكثير من طاقة النفس »

ويقول صاحب مجلة الضاد الحلبية : الصافى شاعر ملهم يستمد من الطبيعة صورا شعرية جميلة ، ويطلق قوافيه حرة صافية مليئة بالفن الأصيل ، عامرة بالقوة والصراحة والانسجام ، إنه شاعر من الطراز الأول ، يتغلغل فى صميم الحياة ، ويعبر عن دقائق العواطف ، بأسلوب سهل لطيف .

وكتب الشاعر القروى إليه من سان باولوا فى جمادى الاولى ١٣٧٤ هـ يقول:

« قرأت شعرك فإذا هو دنيا من الفن قائمة بنفسها وملكوت تتربع على عرشه سعيدا دون مزاحم أو شريك . إنه شعر لاضريب له فى مواضيعه البسيطة وصوره الجميلة ومعانيه الساحرة ، وسيظل كذلك حتى تجد لك ضريبا فى حالك واستقلالك وقيافتك وزهدك وسخريتك وظرفك ، يهبه الله ماوهبك من سمو الخيال وخصب القريحة وبراعة التصوير وصدق اللهجة وفيض العاطفة ورهافة الحس . إنك عندى أبرع من نحت التماثيل الشعرية الزاخرة بالحياة من صخرة الواقع الملموس ، فى حين يعقد أدعياء الشعر من (لاشيئهم)

صخورا يهوون بها على قلوب الناس وأرواحهم ؛ فما أصدقك ياأخى وما أدله عليك وأوصفك فى بيتك القائل :

حمانى من التقليد ماعشت أننى   إذا رمت أمراً لم أجد من أقلد

فهذا فخر كله حق ، وكله شعر » . والسلام عليك وأجزل الشكر لك من أخيك المعجب بك » .

وكتب إلىَّ الصافى من صيدا بلبنان يقول :

« كتب عنى الشىء الكثير فى الصحف والمجلات وبعض المؤلفات كما أن كثيرين من العلماء الأدباء يعدون دراسات عنى وعن الطريقة التى سلكتها فى الشعر وبعض الصحف والمجلات التى كتبت مقالات عنى واحتفظت بها هى ليست اليوم فى تناول يدى لأرسل لكم شيئا منها ، يضاف إلى ذلك ما أعانيه من آلام وأسقام أبعدتنى عن بلادى منذ ثمانية وعشرين سنة لم أستطع خلالها أن أعود إلى العراق ولو لفترة وجيزة .

وقد أثار شعر الصافى كثيراً من حملات النقاد بحق وبغير حق ، ويقول الصافى من قصيدة له عنوانها « النقاد اللئام » :

سأشكر نقادى اللئام لأننى   ركبت عليهم فى طريقى إلى المجد
فإن قصروا فى السير يوما وخزتهم   فثاروا وساروا مسرعين من الحقد
يضجون من حقد وأضحك هازئا   بهم وهم يجرون بى دونما قصد

ويقول فى آخر ديوانه « أشعة ملونة » :

يقولون لى : أصداف شعرك جمة   وياليت ما قد قلته كله در
فقلت : وبحر الشعر كالبحر جامع   وفى بحر شعرى ماحوى البر والبحر

وقصيدة « صباغ الأحذية » ينوه بها السحرتى فى كتابه « الشعر المعاصر

على ضوء النقد الحديث[1] » كمثل للتجربة الذاتية ، وكذلك قصيدة « صيد جديد » و « اللذة الخالدة » « وخير وشر » ، وينوه بموسيقاه الشعرية فى كثير من قصائده[2] ، مشيراً إلى خلو بعضها من الموسيقى[3] ، ومنوها بفكرات الشاعر العميقة وتوجيهه النظر إلى أغوار الأشياء فى كثير من شعره[4] ، ويذكر السحرتى أمثلة للتجارب العامة فى شعر الصافى ، ويذكر طغيان الفكرة على العاطفة فى كثير من قصائد الصافى والعقاد[5] ، وأمثلة للرمزية الفلسفية فى شعر الصافى من مثل قصيدته « أيتها الفرخة » ، ويدعو إلى ضرورة نقل روائع الصافى مع روائع أعلام الشعر العربى المعاصر إلى الأدب العربى[6] .

(٣)

ينتمى الصافى إلى أسرة عراقية عريقة ، وأمه من صور بلبنان من أسرة آل معتوق ، ويقول الصافى عن أسرته :

فآبائى الصيد من هاشم وأخوالى الغر من عامل

وقد ولد الصافى عام ١٣١٣ هـ — ١٨٩٥ م فى النجف الأشرف ، وترعرع على ضفاف الفراتين ، ودرس مبادىء القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم ، حتى بلغ الحادية عشرة من عمره ، فأخذ آنذاك يتعلم مبادىء العربية والفقه ، متتلمذا على كثير من الأساتذة الموهوبين مثل : السيد حسين الحمامى، والسيد أبو الحسن الأصفهانى ، وسواهما .

ثم انقطع عن الدراسة ، وأكب على المطالعة فى كتب الأدب ودواوين الشعر ، منذ قيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، وأخذت مواهبة فى الشعر تظهر بوضوح ، ونظم بعض القصائد والمقطوعات ، وبدأ يشتغل بقضايا بلاده الوطنية ، فكان من الممهدين لثورة العراق الأولى عام ١٩١٩ ، وهى الثورة التى انتهت بتتويج فيصل الأول على العراق ، وشعر بمحاولة الإنجليز القبض عليه ففر إلى إيران ، وعمل مدرسا للأدب العربى فى المدارس الثانوية

(١) ص٤٨ (٢) ص٥٤ (٣) ص٥٣
(٤) ص٩٨ (٥) ص١٠٧ (٦) ص ٢٥٥ الشعر المعاصر

بطهران ، وأخذ يتعلم الفارسية حتى أتقنها ، وبدأ يكتب المقالات فى الصحف والمجلات فى طهران ، وانتخب عضواً فى النادى الأدبى الفارسى ، وفى لجنة الترجمة والتأليف ، وترجم كتابا فى علم النفس لوزارة المعارف الإيرانية ، وترجم كذلك رباعيات الخيام عن الفارسية إلى العربية ، وتعد أصدق الترجمات ، وأقربها شبها بأصلها الفارسى ؛ وفى عام ١٩٢٧ عاد إلى بغداد .

وفى عام ١٩٣٠ انتقل إلى سوريا مريضا للاستشفاء ، وتنقل فى ربوع سوريا ولبنان ، وهوحتى اليوم يقيم فى صيدا بلبنان[١] ، عاكفا على الأدب وخدمة القومية العربية ، وقضايا الشعب العربى ، والكفاح من أجل الأمة العربية وحريتها .

(٤)

وللصافى من المؤلفات : رباعيات الخيام — وقد طبعت خمس طبعات — هزل وجد وهو مجموعة من المقالات .

وله عدة دواوين فى مقدمتها : الأمواج وقد طبع ثلاث طبعات - التيار - الأغوار - هواجس - ألحان اللهيب - أشعة ملونة - حصاد السجن - شرر - اللفحات وهو ديوانه التاسع وآخر ما أظهره من مجموعات شعره .

والصافى يحب الأدب القديم ويتذوقه ويقرؤه معجبا به . أما الشعر الجديد[٢] ، فلا يمثل فى نظرة الحياة والنفس إلا بمقدار قليل ، وهو معجب بالمتنبى ، ويراه سيد الشعراء ، ويعجب كذلك بالبحترى والشريف الرضى وأبى نواس وابن الرومى .

ويرى أن الشعر الجديد ليس بشعر ، وإنما هو أزياء تأتينا من الغرب كسائر الأزياء فى الألبسة وفى تنسيق الشعر وأنواع التأنق .

---

(١) راجع : عبقرية الصافى — لإبراهيم عبد الستار — مطبعة الحضارة بطرابلس ١٩٥٣

(٢) ص ٦٣ عبقرية الصافى .

(٥)

وقصيدة الصافى « اللذة الخالدة » التى يقول الشاعر عنها إنها أحب قطعة من أشعاره إليه[١] تمثل فنه الشعرى أتم تمثيل ، يقول الشاعر فيها :

أنا مهما كتف الدهر يدى وطوى بؤسى كتاب الأنس طى
لم أدع من بين لذات الصبا لذة تعتب بالترك على
وأرى اللذات ماتت كلها قبل لكن ذكرها فى القلب حى
ليتها ماتت ولم تبق لها نار ذكرى فى الحشى تكوية كى
وكأنى حين أبغى عودها مستعبد إذ أتتنى الشمس فى
وأرى لى لذة خالدة تتجلى دائما فى ناظرى
لذة تنعش أحشائى إذا رام أن يشوى الأسى أحشاءشى
جئت ليلا عائدا من نزهة والهنا يرقصنى فى بردتى
لم أكد من بلدتى أدنو وقد لاح لى من بلدتى أول حى
وإذا جبانة تبدو ، وإذ بأنين مستفز أذنى
يتعالى فى الدجى من هرة خلتها تبكى فأبكت مقلتى
لمعت وسط الدجى مقلتها ورنت تعلن بالشكوى إلى
رمت أن أنهضها لكن هوت وغدت تلثم رجلى ويدى
وإذ من حجر قد كسرت ركبة منها فهدت ركبتى
فرموها خارج البلدة من غير أكل تغتذى منه ، ورى
فلذا أسرعت للدار بها وهى تعلو مثل طفلى كتفى
ثم أحضرت إليها مسرعاً كل ماكان من الأكل لدى
برئت فى كنفى من دائها ثم عاشت مثل أخت لابنتى
فاعترتنى لذة من عملى سكر القلب بها فى جانبى

---

(١) ٥٨ عبقرية الصافى — وراجع القصيدة فى ص ٣٦ ديوان التيار .

إن في الصهباء سكرا وأرى سكرة الوجدان أحلى سكرتى
إن هـــذه لذة خالدة لم تزل تزداد لى شيئا فشى

ففيها من القصة ملامحها وتسلسلها ، ومن المسرحية حركتها وأطيافـ رواتها . هى تمثل إنسانيته وصوفيته وذهنه العميق ، وأسلوبه الصافى البليغ ، والصلة التـامة بين شعره وقلوب قرائه والمتأدبين بروائع قريضه . إنها تصور الصافى الفنان والمصور الحـاذق أبدع تصوير .

(٦)

وديوان حصاد السجن — وهو ثمـار سجنه مـدة ثلاثة وأربعين يوما فى بيروت أثناء الحرب العالمية الثانية بأمر القوات الانـكليزية عام ١٩٤١ ، وقد نشر فى دار الـكشاف البيروتية عام ١٩٥١ — قدمـه رئيف خورى ، ويمتاز بدقة الوصف ، وغرابة التخيل وروعته ، وعمق التجربة الشعرية ، ويتحدث فى هـذا الديوان عن غرفة السجن ، وآلامه ، بل يفتخر بسجنه ، ويرى فيه طريقا إلى الحرية كما يقول :

أهلا بسجنى لشهر أو لأعوام فإنمـا يوم سجنى تاج أعوامى
قضيت حراً حقوق النفس كاملة واليوم فى السجن أقضى حق أقوامى

ويقول مفتخراً بسجنه من قصيدته « إما تاج وإما سجن » :

سجنت وقبلى فى العلا سجنوا أخى وآمل فى العلياء أن يسجنوا الابنا
إذا لم نورث تاج مجـــد وسؤدد لأبنائنا طـرا نورثهـــم سجنا

ويقول من قصيدته العزم واليأس :

إنـــا فى سوى العلى مـا رغبنا نمـلأ الـكون رهبة إن غضبنا
مـا جزعنـا للسجن يوم غلبنا إن من رام مثلمـا قـــد طلبنا
لا يبـالى إن سيق للسجن سوقا

ويتحدث عن غرفة السجن حديثا دقيقا واعيـــا فى قصيدته : « غرفة أم صندوق » ، وعن ليل السجن فى قصيدته التى سماها أيضا « ليلة السجن » .

والديوان حافل بالانفعالات الوجدانية وبصور من الغنائية الفردية ، وبتمجيد الحرية ودعاتها .

(٧)

أما ديوانه أشعة ملونة فقد صدر منذ بضعة عشر عاما ، وظهرت الطبعة الثانية منه عام ١٩٥٦ ، وصدر الديوان بدراسة للشاعر إلياس أبى شبكة ، قال فيها أبو شبكة : ليس فى « أشعة ملونة » صياغة لفظية ، على أن فيها ما هو أجمل من ذلك ، فيها صدق الحس وقوة النظر ووضوح الفكرة العميقة ، تطفو عليها جميعا سذاجة فى الأداء ، يستهويك فيها دافعها الغورى ، وكبر وأنفة أصبحا عزيزين حتى فى البادية ، فالذل لا خيال له فى شعر الصافى » .

ويمثل ديوان « أشعة ملونة » فلسفة الصافى فى الحياة تمثيلا صادقا ، ويقول فيه :

جس الطبيب يدى فارتاع من مرضى وقال : داؤك يعيى طب إبليس
لكننى سأداوى اليوم جسمك من أسقامه ، قلت : قبلا داو لى كيسى

(٨)

أما ديوان « شرر » فقد صدره الصافى ببيتين من شعره هما :

خلقت فوق سماء الفكر مكتشفا مجاهل الشعر فى جناته الفيح
من قدرة العصر فى التحليق مقدرتى لكن أجنحتى من معدن الروح

وقالت عنه دار صادر ببيروت : « إن شعر الصافى نسيج فريد فى الشعر العربى ، هو نسيج مبتكر ، والصافى متمرد فى شعره ، وغواص ماهر يغوص إلى لجج الفكر ، ويأتيك بما ندر من درر الروح .

ومقدمة الديوان كتبها الصافى نفسه ، وقال فيها : « هذا هو ثامن ديوان لى ، بل ثامن مرحلة من مراحلى الشعرية » ، ويقول : فطرت منذ الصغر على الانحراف عن الجادة العامة التى لا أرى فيها جديدا ، لأسير فى طرق لم تسلك ، واثقا من أنى سأكشف أشياء لم يألفها السائرون فى الطرق العامة ، ولا فرق عندى بين أن أكشف أشواكا أو أزهارا » .

ويقول عن شعره الذى ينظمه : « فأبقيت كلا على حاله ، قليلا كان أو كثيرا ، جيدا أورديئا ، وإذا اضطررت إلى تنقيح لفظة ، أو تبديل كلمة ، أو تقديم جملة ، قمت بذلك دون أن أخل بجوهر الخاطرة التى سنحت ، فالأبيات المفردة من شعرى هى كالمقطعات والقصائد ، جميعها جاءت عفو الخاطر . . . أنا أمين فى ترجمتى وفى شعرى ، ففى ترجمتى لم أدخل شيئا من فكرى ، وفى شعرى لم أدخل شيئا من فكر الناس » .

ويقول الصافى عن شعره من قصيدته « شعر معتق » وهى إحدى قصائد الديوان :

يتعب الناس من سماع قريضى   رغم ما يجتنونه من حبور
إن شعرى عتيق خمر قوى   ليس يسطيعه سوى السكير
تصرع السامعين جرعة شعرى   إن فى جرعتى دنان خمور
بيت شعرى يطوف بالناس دنيا   بالغا فى المسير سرعة نور
إن شعرى بالكهرباء مليء   ملهب الحس والحجا والشعور
مفعم بالغذاء يطفى قليل   منه جوع الحجى وجوع الضمير
لى نور لسدرة الخلد ينمى   ولذا يبهر النواظر نورى

وله قصيدة فى الديوان عنوانها « الشعر الصادق » ، وأخرى عنوانها « شعرى » يقول فيها :

تسر برؤية شعرى الجميل   ولم تدر من أين أحضرته
نفذت به من بين ثنايا الخطوب   ومن دم قلبى رويته

وعنه نفضت غبار الحروب وطيف الكآبة أبعدته
فأصلحته ثم زينته فجاء جميلا كما شئته

ويقول فى شعره وهو شعر الطبع والملكة لا شعر الصنعة والزخرف :

لا أقبل الشعر إن لم يأت طوع يدى فلست أسعى إليه سعى مجتهد
الشعر يقصدنى إذ لست أقصده كأن روحى نمير والقريض صدى

ومن شعره فى الديوان قصيدته « ذكريات » :

يا ذكريات حلت لى مع مرارتها فذكرياتى أشـــواك أزهار
يا دار كم فيك أسرار وأخبــار ما كان أجملها لو تنطق الدار
إن كان للأفق فى عليائه قمر فلى على الأرض طول الليل أقمار

والديوان حافل بشتى الانفعالات النفسية ، والتجارب الباطنية العميقة .

(٩)

أما ديوانه « التيار » فقد طبع بمطبعة دار اليقظة العربية بدمشق ونشرته لجنة الترجمة والتأليف والنشر العراقية ، وكتب منير القاضى كلمة صدر بها الديوان ، جاء فيها : « تصفحت تيار « الصافى » فاحصا ، فألفيته ديوان شعر اجتماعى ، واضح الأسلوب ، دقيق التعبير ، منبعث عن نفس ثائرة على ما انطوى عليه المجتمع البشرى من معائب ، هازئة بعاداته المصطنعة ، حذا فيه الصافى حذو المعرى ، ولا تخلو قصائده من نكتة بديعة ، أو فلسفة رقيقة ، والصافى فى تياره قد أبدع .

ومن قصائد الديوان البديعة قصيدته « ثوبى الجديد » يقول فيها فى فلسفة وسخرية وروعة تصوير :

لبست ثوبا جديدا فاكتسبت به شأنا جديدا وصار الكل يكرمنى
تغيرت نظرات الناس لى ولقد كانت ترينى نفورا حين تبصرنى
فصار يبسم لى من كان يعبس بى وصار للصدر يدعونى ويجلسنى

كأنما أنا هذا اليوم غيرى فى أمسى ، ومابدلت روحى ولا بدنى
ظننت ألبستى للبله خادعة وإذ بها خدعت حتى ذوى الفطن
الشكل تفتنه الألوان زاهية وليس بالجوهر الغالى بمفتتن
جديد ثوبى كالإعلان يجلب لى أنظارهم فيسليهم ويحزننى

وقصيدته « نشيد العروبة » فى « التيار » خير مايصلح للقومية العربية فى تطورها الجديد . . ومن أروع قصائد الديوان قصيدته « غرفة الحبيب » وهى آخر قصائد الديوان ، وهى حافلة بالموسيقى والحركة والغنائية وجمال التصوير ، وفى صدرها يقول الشاعر :

قد زرت غرفة من أحب إذا بها كل الأثاث أحبه ويحبنى
فغدوت ألثم كل ما شاهدته وأضمه لجوانحى ويضمنى
أما السرير فعدت منه بغيرة حتى طفقت أسبه ويسبنى

إلى آخر هذه القصيدة الجميلة الممتعة .

ويلى هذه القصيدة الرفيعة فى فنها قصيدة أخرى ، تعادلها فى قيمتها الفكرية والذهنية ، وهى قصيدة الصافى « الرجعة » وهى فى أول ديوان « التيار » ومطلعها :

رجعت لسالف أياميه وعدت إلى حبوتى ثانيه

وهذا الديوان حافل بشتى الصور الاجتماعية والنقدية الرفيعة .

(١٠)

وديوانه « إيمان الصافى » يمثل عقيدة الصافى القوية ، وإيمانه العميق أتم تمثيل ، وفيه الكثير من صور شعره فى الإلهيات ، وقد طبعته جمعية التمدن الإسلامى بدمشق . .

وبعد فأحمد الصافى من الأفذاذ فى الشعر ، ومن رواد الفكر العربى المعاصر ، ومن أعلام التجديد فى الشعر فى العصر الحديث ، ومن حملة راية الوطنية والقومية العربية المخلصة فى الشرق العربى ؛ وهو من أجل ذلك جدير منا بكل إجلال وتقدير .

محمد على اليعقوبى

(١)

عميد الرابطة الأدبية فى النجف الأشرف بالعراق ، والخطيب المفوه البليغ ، والشاعر الوطنى الجليل ، صاحب ديوان اليعقوبى الذى نشر فى النجف الأشرف عام ١٩٥٧ فى ٣٢٨ صفحة .

والجانب الوطنى فى شعر اليعقوبى ضخم متعدد النواحى ، ويشتمل الديوان على عدة أبواب : الفلسطينيات ، جهاد المغرب العربى ، السياسة ، والاجتماع ، الوصفيات ، الإخوانيات ، وحى الأسفار ، عواطف ودموع ، الحربيات ، محافل التكريم ، التأبين والرثاء ، متفرقات ،

وقصائد الديوان حافلة بالطلاقة الفنية ، وقوة التعبير ووضوحه ، وباضطرام الشاعرية والخيال والعاطفة ، وتأجج الملكة الشعرية فى نفس الشاعر .

(٢)

ومن شعر الديوان قصيدته « ليلة فى الحيرة » التى جاء فيها :

لم أنس شرقى السدير لياليا سلفت لنا بمنازل النعمان
بالحيرة البيضاء حيث يد الهوى ذهبت بكل حشاشة وجنان
وغنمت منها ليلة لم يسلها قلبى إذا رام السلو لسانى
فى حيث لم أطع اللواحى فى الهوى وأطعت داعى الحب حين دعانى
رقت حواشيها وراق أريجها والشمل فى أمن من الحدثان
والروض تعبق بالشذا أزهاره فياحة وقطوفهن دوانى

إلى آخر هذه القصيدة الممتعة الجميلة .

ويقول فى تكريم الصافى :

نحييه وإن نأت الديار ونكرمه وإن شط المزار

ونهتف باسمه فنميل تيها كما مالت بشاربها العقار
وما برحت تحن له اشتياقا قلوب لايقر لها قرار
بأجنحة الهوى طارت إليه تجاب بها المهامه والقفار
فليس لها سوى العبرات ماء وليس لها سوى الزفرات ثار
لها بدمشق حين تحط وكر ومن أرض العراق لها مطار
وحول الرافدين لنا قلوب لكم يا واردى بردى حرار
إذا العربية افتخرت وعزت فأحمد عزها وبه الفخار
وإن يد البلاغة إن أشارت فليس لغيره فيها يشار

إلى آخر هذه القصيدة الممتعة القوية ، العميقة المشاعر ، الواضحة الملامح والسمات الفنية .

إن اليعقوبى شخصية قوية فى الشعر العراقى المعاصر ، وله مدرسة يتتلمذ عليها كثير من الشعراء المعروفين فى العراق ، وجهوده ومؤلفاته وتحقيقاته مما يعز شأن الأدب والأدباء فى هذه البلاد الشقيقة .

شاعر من العراق

الشاعر العراقى « عباس شبر » صاحب ديوان « جواهر وصور » من الشعراء الموهوبين المجيدين الملهمين .

وقد أشرف على نشر هـــذا الديوان الأستاذ جواد شبر ، وطبعته دار الـكتاب اللبنانى ، ونشره وصدره الخطيب السيد جواد شبر ، وجاء فى تصديره للديوان : « جواهر وصور » ، جواهر منظومة فى صور رائعة ، انتزعها الشاعر من أوضاع مجتمعه ، ومن البيئة التى يعيش فيها ، وانك لتكاد تلمس من ورائها أفكاره وآراءه وفلسفته فى الحياة ، والشاعر حزمة من عواطف ثائرة ، وتجارب قيمة ، تـكشف عن روح حساسة ، وعقلية خبرت معالم الحياة وأشعتها درسا ومعرفة ، حتى استخلصت من بينها هـذه الإضمامة الفواحة من الحـكم والتجارب الحية ، والديوان باقة لاتتجاوز الرباعيات والثنائيات ، وفى آخرها أرجوزة سماها « وحى العزلة » .

وللشاعر ديوانه الشعرى الـكبير ، وله خوالج النفس وهو قطع شعرية ، سجل فيها خواطره وآلامه وآماله أصدق تمثيل .

وكتب مقدمة الديوان الأستاذ جعفر الخليلى صاحب جريدة الهاتف الأدبية ، وجاء فيها : « صاحب الديوان عالم فقيه ، من بيت علم وفقه ، نشأ نشأة دينية ، وهو اليوم فى طليعة رجال القضاء الشرعى فى العراق ، فـكان لابد أن يتأثر ببيئته وأسرته ودراسته .

والديوان حافل بشتى الحـكم والأمثال ، وهو ممزوج بفلسفة عميقة ، وبانفعالات نفسية منوعة ، وهو دليل على مواطن تحليق الشاعر فى سماء المعانى ، وآفاق الشعر الرفيع .

ويقول صاحب الديوان من تصدير له لهذا الديوان : « هذه طائفة من خواطره وأفكاره وآراء كنت قد نظمتها فى مناسبات شتى وظروف مختلفة

فى رباعيات وثنائيات ، وسميتها بجواهر وصور ، وهى فى موضوعها لا تكاد تتعدى الحكمة والشعر الحزين .

والديوان رائع الطبع والإخراج ، وتكاد تكون كل صفحة منه لوحة فنية رائعة .. ويحتوى على ١١١ رباعية ، ١٠٨ ثنائية ، ثم أرجوزته « من وحى العزلة » التى تصور نفسية شاعر هجر الشعر ثلاث سنوات ثم عاد إليه .

ومن مثل رباعيات الديوان : الرباعية الثامنة عشرة ، ويقول فيها الشاعر :

كيمياء الوجود كم فيك فكر نا ، وحارت عقولنا استغرابا
فتراب قد استحال عظاما وعظام قد استحالت ترابا
من لقوم تضاربوا فى خبايا ضرب الله دونهن حجابا
فاستوى مخطىء على غير علم ومصيب لم يدر أن قد أصابا

ومن مثل ثنائيات الديوان : الثنائية الثالثة بعد المائة ، ويقول فيها الشاعر :

ويزعم قوم أننى متشائم ويا ليت بالأيام عهدهم عهدى
أيحسن بالأيام ظنى وربما سقانى نقيع السم فى جرعة الشهد

أما أرجوزة « من وحى العزلة » فهى ملحمة شعرية جميلة تمثل شاعرية موهوبة ، ويقول فيها الشاعر متحدثا عن شعره وقصائده :

عشقتها والسن دون العقد وتم من بعد عليها عقدى
ولم أكن أصدقتها نضارا ولا لجينا لا ، ولا عقارا
وإنما كان صداقها السهر وجولة الفكر وإجهاد البصر
لم أنسها دامعة المآقى وقد تلوت آية الفراق
تقول لى : ياسيدى ماذنبى ألم أكن مخلصة فى حبى ؟
ألم أرافقك طويل الزمن غير رضاك قط لا يهمنى ؟
ألم أعاشرك فأحسن عشرتك ألم أؤهل للخلود أسرتك

هلا ينجي أمها من نقمتك ماكان من خدمتها وخدمتك
كنت رقيق القلب غير قاسى فكيف فيك خانني قياسى
أهكذا تفقد بعض رحمتك قيثارة ملأتها بنغمتك ؟
ألم أكن سلوتك الوحيدة ألم أكن ورقاءك الغريدة ؟
أطرد عنك الهم والأحزانا حتى تسيل مهجتى ألحانا

إلى آخر هذه الأرجوزة الرفيعة .

إن ديوان جواهر وصور فى أناقته مظهرا وموضوعا وفناً يمثل جهدا غير قليل لناشره ومحققه ولصاحبه كذلك ، فهو حافل بصور غير قليلة من الشعر العميق الجذور والأفنان ، المملوء بطاقة شعرية أصيلة ، وموهبة فنية متكاملة .

الشاعر العراقى موسى الطالقانى

١٢٣٠ — ١٢٩٨ هـ

(١)

الطالقانى من أسرة عراقية عريقة فى العلم والأدب ، ومن أقدم البيوت فى النجف الأشرف ؛ هاجر جدهم الأعلى السيد جلال الدين الحسينى من طالقان بخراسان عام ٩٣٥ هـ إلى النجف ، ومنها : السيد عبد الحسين الطالقانى (٩٧٣ — ١٠٦١ هـ) ، والسيد حسين مير حكيم الطالقانى (١٠٤٠ — ١١٢٧ هجرية) وهو من مشهورى العلماء فى عصره ، والسيد حسين الطالقانى (١٠٨٨ — ١١٦٢ هـ) ، والسيد أحمد الطالقانى الكبير (١١٣١ — ١٢٠٨ هـ) والسيد عبد الله الطالقانى (١٢٠٨ — ١٢٨٥ هـ) ، والسيد محمود الطالقانى (١٢٤٨ — ١٣١٩ هـ) ، والسيد مشكور الطالقانى (١٢٨٢ — ١٣٥٤ هـ) ، وسواهم [١] .

والسيد موسى الطالقانى من [٢] صدور علماء الأدب ، ومشاهير شعراء العراق فى القرن الثالث عشر الهجرى ، ومن المعاصرين للسيد محمد سعيد الحبوبى.

ولد فى النجف ، وتتلمذ على علمائها ، وعلى والده من بينهم ، وهو السيد جعفر الطالقانى من أعيان علماء عصره ، وظهر ذكاؤه اللماح ، وتحصيله الكثير ، وما زال مكبا على العلم والأدب ، حتى صار من المرموقين فى علوم الدين واللغة والأدب والشعر ، ونظم القصائد البليغة ، واعترف له معاصروه بالتفوق فى الأدب والشعر ، وعده البعض من شعراء الطبقة الأولى فى عصره [٣] .

---

(١) راجع كلمة الإمام الحجة الشيخ أغا بزرك الطهرانى فى مقدمة الديوان .

(٢) راجع مقدمة الديوان للسيد محمد حسن آل الطالقانى

(٣) راجع عصور الأدب العربى ص ١٢٣ لمحمد كاظم الكفائى

ويقول عنه محقق ديوانه السيد محمد حسن آل الطالقانى : «لم يدع فنا من فنون الشعر التى اقتضتها حياته إلا أخذ منه النصيب الوافر ، لذلك جاء شعره صادقا عن حياته وحياة معاصريه ، على أن فن الغزل لديه أظهر من سائر فنونه .

وقد تأثر شعر الطالقانى فى شعره بالشريف الرضى ، وكان له فوق شعره نثر بليغ وكتابات فصيحة ، وقد ألف عديداً من الكتب فى مسائل الدين .

(٢)

والديوان يقع فى نحو الخمسمائة صفحة من القطع الكبير ، عدا المقدمات التى صدر بها الديوان ، وتقع فى ٨٤ صفحة ، وفى صدر الديوان كلمة للإمام كاشف الغطاء . . ويشتمل الديوان على أبواب : المدائح ، المراثى ، الوجدانيات ، التهانى ، الموشحات ، الحماسيات ، التخميس والتشطير ، المراسلات ، الإخوانيات ، المتفرقات .

وقد حقق الديوان الأديب البارع ، والشاعر المبدع السيد محمد حسن آل الطالقانى ، تحقيقاً جليلا ، ينم عن جهد وأصالة فى البحث ، وروح علمية نادرة ، وطبع الديوان فى النجف عام ١٩٥٧ م .

ومن صور شعر الطالقانى ما قاله فى الغزل :

يا سقيم الجفون جفنى سقيم — وغرامى كما عهدت مقيم
منذ آنست فوق خدك نارا — صعقا خر منك قلبي الكليم
أنا (موسى) وكل من لامنى فى — الحب فرعونها الظلوم اللئيم
بى أفدى من جاء يلفت جيدا — مثلما ريع فى الصريمة ريم
يتشكى الهوى إلى ويبدى — أن داء الغرام فيه قديم

وهو شعر غنى بطاقته الفنية وأصالته وروحه النفسية الشاعرة . ومن شعر الديوان أيضا قوله :

من العدل أن أبكى وثغرك باسم — وتسهر أجفانى وجفنك نائم ؟

وأدعو ـ فلا تصغين ـ دعوة سيد تلبي نـداه في الهياج الصوارم
أسرك أن أطوى الضلوع على الغضا متى سجعت فوق الغصون الحمائم
أسرك إمساكي بكفي على الحشا غداة أنيخت في الرسوم الرواسم
وقفت فقاسمت الربوع : فسقمها لجسمي وللربع المحيل السواجم

ويمتاز أسلوب الشاعر بصدق التعبير ووضوحه ، وكثرة ما فيه من بديع وأناقة بيانية ، وصور مشرقة بالجزالة وضخامة التركيب .

أما السيد حسن آل الطالقاني ، فقد أخرج الديوان إخراجا جميلا رائعا محققا ، فله يد على الأدب والشعر لا تنسى ، ونحن نسأل الله له مزيدا من التوفيق والرعاية لجهوده الأدبية النبيلة ، حياه الله وبياه .

الشعر المعـــاصر فى الحجاز

(١)

عادت البلاد العربية الحجازية إلى سابق مجدها فى الشعر ، وعادت للشعر قوته ونهضته وازدهاره ، فكثر الشعراء ، وتعددت مناحيهم الفنية ، ومذاهبهم فى الشعر ، فمن اتباعيين ينظمونه متأثرين بثقافتهم الفنية القديمة التى كان يتأثرها أمثال بشار وأبى نواس والبحترى وأضرابهم ، من الشعراء القدماء ، ومن ابتداعيين ينحون به منحى التجديد ، ويترسمون خطا الابتداعيين فى الشعر العربى الحديث ، من أمثال مطران وأبى شادى وناجى وعلى محمود طه ، وسواهم ، ومن شعراء يؤثرون الرمزية ، وآخرين يغريهم سحر الواقعية ، إلى ما سوى ذلك من شتى ألوان التجديد التى بدأ الشعراء فى الحجاز يتابعون خطوات روادها ، ويشايعون دعواتها الفنية ، وينظمون شعرهم على أساس فكرى مختلط بدعواتها وأفكارها الجديدة .

وأخذ لفيف من الشعراء فى هذه البلاد يولون وجوههم شطر مصر ، وآخرون نحو الشام أو العراق ، يقرأ هؤلاء وأولئك إنتاج الشعراء فى هذه الأمم العربية الشقيقة ، ويعرفون الكثير من نشاطهم الأدبى ، ويدمنون على مطالعة دواوينهم ، جاهدين فى التأثر بالجديد من مذاهبهم وآرائهم فى الشعر ، وبذلك أخذ الشعر العربى الحجازى يجرى مجرى الشعر الحديث فى هذه الشعوب ، ويتمثل النهضة العقلية والأدبية فيها ، فالأسلوب والصور وطرائق التفكير والتعبير تجرى كلها مجرى ما يقرأونه لشعراء مصر وسوريا والعراق : وشعراء النهضة الحديثة والشعراء المعاصرين على حد سواء ، من أمثال شوقى وحافظ والزهاوى والرصافى وغيرهم .

فأنت ترى شعرا منثورا ، وترى أوزانا جديدة فى الشعر هى من أوزان

المدرسة الحديثة ، وترى تفكير هؤلاء الشعراء مصورا فى قوالب تكاد تردها إلى مصادرها من شعر الشعراء المعاصرين ، ومن تفكير العصر الحاضر وأدبه .

الشعراء هناك شديدو الولع بالإطلاع على شتى ألوان النتاج الأدبى ، الذى يظهر فى مختلف الشعوب العربية ، وإن كانوا أشد إقبالا على آداب مصر عامة ، وعلى الشعر المصرى خاصة ، فالفلالى يحتذى حذو على محمود طه فى موسيقاه وصوره الغنائية ، وعواد يتبع خطوات مدرسة أبولو وأبى شادى خاصة ، وفى شعر حسين سرحان صور من غنائية ناجى العذبة ، وهكذا ، ثم تجد أثر الشعر المهجرى فى شعر محمد العامر الرميح ، والشعر العراقى والمهجرى معا فى شعر أحمد الفاسى ، أما حمزة شحاته فيقف معتزا بشخصيته الفنية المستقلة مع تطور كبير يساير الحركة الذهنية للآداب الشرقية عامة .

ويسجل الدكتور طه حسين أطرافا من هذا الاتجاه فى مقدمته لديوان « الأمس الضائع » للشاعر حسن عبد الله القرشى فيقول : « إخواننا فى هذه البلاد قد قرأونا فيمن قرأوا من الأدباء المعاصرين ، ثم تأثرونا ، ثم حاولوا أن يذهبوا مذهبنا ، فهم يذهبون مذهبنا فى الشعر ، يتغنون ما نتغنى من الحب والأمل ، ويشكون ما نشكو من اللوعة والحرمان والفرح[1] » .

على أن لفيفا من الشعراء فى هذه البلاد قد أخذوا ينحون منحى شعراء المهجر أمثال الريحانى ونعيمة وجبران وإيليا وشفيق معلوف وإلياس أبى شبكة ، يقول أحمد العربى الشاعر السعودى : « إن أثر أدباء المهجر من السوريين قوى ظاهر فى أدبنا الحديث وشعرنا المعاصر[2] » .

ويقص علينا عواد قصة شباب العرب نجد وهم يطالعون الشعر المهجرى ، ويسألهم فيجيبونه : إننا من عشاق شعراء المهجر ، ولا سيا أن شعراءنا

(١) ١١ و ١٢ مقدمة طه حسين لديوان القرشى « الأمس الضائع » دار المعارف بالقاهرة

(٢) راجع كتاب « من وحى الصحراء » فى ترجمة العربى .

لم يطبعوا دواوينهم[١].. وهناك شباب آخرون يقرأون الآثار الأدبية العالمية في لغاتها الأصلية أو مترجمة إلى العربية ، وقد ترجم أديب سعودي قصة تاغور الخالدة « الزنابق الحمر » .

كل هذه الصلات الفكرية بين شعراء الحجاز والشعراء والأدباء العرب وأعلام الفكر والأدب والشعر في العالم ، أخذت بيد الشعر الحجازي المعاصر إلى القوة والازدهار والحياة ، فشمله التجديد من كل جوانبه ، وانتقلت حركة التجديد ودعوته إلى تمرد ذهني عند الشاعر محمد حسن عواد ، وأصبح التجديد في الشعر ليس مقصورا على الديباجة والأسلوب ، بل تناول الموضوع أيضا ، فآثر الكثير من الشعراء الموضوعات الاجتماعية والوطنية والأدبية ، وفضلوا أمثل الطرق وأوضحها لعرض هذه الموضوعات في صورة خالية من التكلف والغموض والتزييف .

وقد أخذت الآراء الحديثة في الشعر تنتقل إلى عقول الشعراء الحجازيين ، فيقول العربي مثلا : إن العاطفة والوجدان هما قوام الشعر وعنصر الحياة فيه ، والنظام المجرد أشبه شيء بلغو الكلام يلقى لغير غاية ، أو غرض مقصود .

ويقول عبد الله بلخير يصور إيمانه وإيمان الشعراء بالفكرية الواقعية في الأدب : « لا يمكن للأديب أن يهرب من واقعه ، فهو إن لم يحس بمشاكل مجتمعه وبلده وقومه ، وإن لم يشاركهم آمالهم وآلامهم ، ويعبر بلسانهم عن الأجمل والأفضل والأسمى ؛ فشل في تأدية رسالته كأديب . فمن الشعب ، من قلب الشعب ، وللشعب ، لكل الشعب ، يكون الأدب الواعي ، وهو الذي ينشره وينميه »[٢] .

(٢)

هذه الحركة الفكرية الخصبة عند الشعراء العرب في الحجاز ،

---

(١) ٤٦ من وحي الحياة العامة .

(٢) ١٠ ملحق كتاب « العذراء السجينة » لعبد السلام هاشم حافظ .

هى التى سارت بالشعر فى هذه البلاد من الدور الاتباعى إلى الدور الابتداعى، ومن الاهتمام بالأمور الذاتية والغناء الوجدانى إلى العناية بهموم الإنسانية والغناء بأناشيد الحياة .

وهناك نماذج عديدة فى الشعر الحجازى ، هى مع قلقها ترتفع إلى المستوى الإنسانى الجدير بذكاء الشعراء العرب الموروث .

يقول عواد من قصيدته « سر الطبيعة والحياة »[1] :

لم هـذى الرياح تدوى شمالا   وجنوبا تفرق الأمطارا ؟
لم ذا البحر فى هدوء إذا شاء   وإن شاء أرسل التيارا ؟

إلى أن يقول :

لم نحيا على البسيطة جـبرا   ونعيش السنين فيها حيارى ؟
أترى الفلسفات والدين والعلم   أقامت للسالكين المنارا ؟
هل أفاقت عقولنا من سبات   هل شققنا من حيرة أستارا ؟
وتدور الحياة والشمس والأقمار   والليل والنهـار بدارا
رب آمنت أنك القادر الفرد   ملكت الظلام والأنوارا
ونهانا نار الحباحب[2] فى الليل   وأوهى من الحباحب نارا

وفى هذه القصيدة تلمس حيرة العقل ، وتزوعه الجبار لتحدى الطبيعة وفهم أسرارها ، ونجد تصويرا قويا لم يطغ على شخصية الشاعر ونزعته التحررية ؛ ونجد فرقا بعيداً بينه وبين النماذج التقليدية التى كنا نقرؤها فى مثل ديوان « العقد الثمين » للشاعر الكبير محمد بن عثيمين (١٢٧٠ - ١٣٦٣ هـ) .. ويؤمن العواد بأن رسالة الشعر فى الحياة هى إنماء ثروة الحياة فى النفس ، وشعل مصابيح الفكر الإنسانى ، وشرح حقيقة الجمال ، والصعود بالآدمية إلى أفق سام من آفاق الخلود ؛ ويقول : إن مما يلهم الشعر استيحاء المناظر المؤثرة ،

---

(١) ٣٢ و٣٣ نحو كيان جديد لعواد .

(٢) النهى : العقل ، نار الحباحب : شعاع يضىء بالليل من ذباب يسمى « الحباحب » وهو كالفراشة .

واستبطان العواطف الحية الدافعة ، والأفكار القوية الجائلة[1] .

ويقول حمزة شحاتة :

لست تدرى ، نعم ، ولا أنا أدرى   لم تهفو إلى لقائك روحى ؟
ولماذا أكون فيك كما ترسف   فى السجن فكرة المكبوح ؟

فنجد تصورا وتصويرا جديدا لا إلف للشعر فى هذه البلاد به

وغنائية عمر بن أبى ربيعة وناجى وعلى محمود طه تتمثل فى مثل هذا الشعر لصاحب ديوان « ألحانى » :

أسلسل دمعتى وحدى   فتجرح دمعتى خدى
أنا المكدود أخفى الجهـ   ـد لا أشكو من الجهد
وجيب القلب يهدمنى   ويعصر مهجتى وجدى
ويحسبنى خلى البال   مسروراً بما عندى

ويعبر : محمد سعيد العامودى وهو من أعلام الأدب السعودى المعاصر عن نزعته المتفائلة فى الحياة فيقول :

أما الحياة فإنى لست أفهمها   إلا غناء وألحانا وأشجانا

ويقول من قصيدة عنوانها « الزمن والإنسان » :

أنا بالأمس حينما كنت طفلا   ليس دأبى غير البكا والسهاد
كان هذا الزمان ينسل فى بطء   أمامى ويختفى باتئاد
ثم لما تلك الطفولة ولت   وتلاها الشباب غض الإهاب
بات هـــذا الزمان يمشى حثيثا   غير ماخائف ولا هياب
وتقضى عهد الشباب سراعا   تاركا خلفه الوجود وراء
غير أن الزمان أصبح يجرى   هكذا هكذا أراد وشاء
ثم لما أصبحت شيخا كبيرا   فاهما للحياة فر الزمان
إنما فهمنا الحياة كمال   عيبه أن داءه النقصان

(٢) ١٩٢ تأملات فى الأدب والحياة لعواد ، القاهرة ، مطبعة العالم العربى

ولقد خلت أنى سوف ألقى منه لى صاحبا وفيا وخلا
فأردت السير الحثيث إليه غير أن الزمان فات وولى

فنرى نزعة جديدة لا إلف للشعر الحجازى بتصويرها . ويقوله عبد القدوس الأنصارى وهو من أعلام الأدباء من قصيدة له يتحدث فيها عن الحياة :

من دأبها خدع المشوق بها ويشوقها التنكيل بالحر

وهو شعر غنى بموسيقاه وعذوبة ألفاظه ورقة أسلوبه ، ويقول الغزاوى شاعر الملك فى تحية مصر :

يامصر أنت وقد دأبت منارة للمهتدين ، وسعيك المترسم
يامصر قد أغضيت عمن ليلهم فيك السهاد وفى جمالك تيموا

وينتقل الشعر عند محمد حسن فقى وحسين سرحان والصيرفى وطاهر زمخشرى وحسن عبد الله القرشى ومحمد العامر الرميح نقلة جديدة فنقرأ لزمخشرى من ديوانه « همسات » مثل قوله الغنائى الجميل :

حجبت عنى سناها حطمت من كبريائى
هى كانت أصل دائى ويكفيها دوائى
غير أنى صرت أرضى من هواها بشقائى

ويقول القرشى من قصيدته « إلى أين[1] » فى حيرة وأسف عميقين :

إلى أين هذى دروب الحياة
أضعت بها العمر ، واحسرتاه
سراب يخايلنى كالمياه
فإن جئته صحت : واضلتاه

---

(١) ص ٦٠ الأمس الضائع

ويقول الرميح من قصيدته « مع الليل[1] » :

لنفترق الآن كل إلى غاية ينطلق
لنفترق الآن من قبل أن يضمحل الظلام
ويصحو الأنام
وتكشف أسرارنا المبهمة
ونختار من أى درب نعود
وكيف السبيل لحطم القيود
وما من طريق إلى النجوة
وما من مفر
وما من سبيل إلى العودة

فنجد لوناً جديداً من ألوان التصور والتصوير ، ونمطا فى التجديد هو من آثار الشعر المهجرى ولا ريب .

ويقول محمد حسن فقى من قصيدته « الطائر الحزين » :

يا أيها الغريد فى روضه
وأيها المحروم من غمضه
نبشت فى قلبى الشقاء الدفين
فحسبك الآنا

يكفيك يا طائر هذا النحيب
لا تبك إلفا قاسيا لا يجيب
وخل ذا النوح وهذا الأنين
فالفجر قد حانا

وقم معى نقرأ سر الوجود
فى الروضة الغناء بين الورود

---

(١) ٢٥٩ مذاهب الأدب .

وضع على الجدول هذا الحنين
بالشجو ألحانا

ويقول حسين سرحان فى غنائية رفيعة :

فى جوف قلبى طلل دارس	عفا عليه الدهر حتى محاه
يعج بالآمال حتى هوى	فى ذكريات كان فيها رداه
آثار حب ومغانى صبا	أيام كان العمر حلوا جناه
كم حل فيها من حبيب مضى	طواه فى ربع البلى ما طواه

ويقول الصيرفى فى عذوبة :

التقينا
وانتهينا
ونفضنا
ما تبقى من يدينا
وبكينا
ذلك الماضى بكينا
رحمة الله عليه وعلينا

(٣)

إن الشعر الحجازى المعاصر فيه من ماضيه روح الصحراء وجمالها ، وإشراقها وصفاؤها ، فهو ينم عن هذه البيئة التى أنبتت الشعراء الأقدمين ، فبعضه ينسج على منوال الأقدمين فى جزالة لفظه ورقة معناه وتأثره بوحى البادية وعيشها الحر الطليق فى بساطة وفى سذاجة بعيدة عن تعقيد الحياة العقلية والفنية المتوثبة إلى نهايتها ؛ والكثير منه أيضا متأثر بحاجات العصر والفكر والحياة الحديثة . وقد أخذ هذا الشعر يتسم بالنزعة الإنسانية ، ويتابع الخطوات الرائدة فى الأدب والفن والثقافة ، وإن كان لما يزال فى حاجة إلى كثير من وثبات التحرر والانطلاق والخيال .

ويعد العواد الشاعر الابتداعي الأول من بين الشعراء المعاصرين في الحجاز ، فقد قفز بالشعر من دائرة الجمود والتقليد قفزة جريئة بفضل أصالته الفكرية وموهبته الشاعرة ؛ ونماذج التحرر والابتداع في شعره كثيرة ، وهو يماثل محمد سرور الصبان أبا النهضة الأدبية في هذه البلاد في رصانة الديباجة وتميز الشخصية ؛ وشعره ذو ألوان ومعظمه رومانسي ، تظهر فيه النزعة الذهنية بوضوح .

أما شعر حمزة شحاته ، وهو من الرواد الأوائل في الشعر العربي الحجازي ، فهو مزيج من الكلاسيكية والرومانسية والواقعية ، ونجد النزعة الاجتماعية سائدة في شعر العامودي ، والكلاسيكية عند الغزاوي وأحمد العربي وحسين عرب والقنديل ، والرمزية عند الرميح ، وبذور الواقعية عند محمد سعيد بابصيل وأحمد الفاسي ، والرومانسية عند الزمخشري والقرشي والصيرفي .

وترى الغنائية سائدة في الشعر الحجازي المعاصر ، وزعيم الغنائية فيه هو الشاعر الفلالي ؛ وممن عرفوا بالغنائية الجميلة العالية حسين سرحان ومحمد حسن فقي .

(٤)

والشعراء في الحجاز يمكن تقسيمهم إلى ثلاث طبقات :

١ — الطبقة الأولى ومن أعلامها : حسن عواد وحمزة شحاته والفلالي وأحمد إبراهيم الغزاوي وأحمد قنديل ومحمد سعيد العامودي وعمر عرب وأحمد العربي وعبد القدوس الأنصاري . . وقد بدأت هذه الطبقة حركة التجديد في الشعر ، وتفاوتت نزعات هؤلاء الشعراء ومذاهبهم ومناحيهم في التجديد ، وزعيم هذه الحركة وموقد شعلتها هو أبو النهضة الأدبية الحديثة الشيخ محمد سرور الصبان .

٢ — والطبقة الثانية من أعلامها : عبد الله بلخير ومحمد حسن فقى وعبد الله خطيب وحسين سرحان وطاهر زمخشرى وحسن عبد الله القرشى ومحمد العامر الرميح وحسين سراج وأحمد الفاسى وحسن الصيرفى . . وقد تابعت هذه الطبقة السير فى طريق التجديد والإبداع والموهبة وتصوير المشاعر الذاتية والعواطف القومية والإنسانية .

٣ — الطبقة الثالثة ومن شعرائها : حسن خوزندار ، وأحمد جمال ، ومحمد كامل خجا ، ومحمد سعيد بابصيل ، وعبد السلام هاشم حافظ . . وهى تتابع السير فى الطريق التى سلكها الشعراء من قبل ، ومن بينها شعراء يمكن أن يكون لهم شأن فى تاريخ الشعر المعاصر فى الجزيرة العربية . .

(٥)

إن الشعر الحجازى المعاصر فى تطوره ووثبته وتمرده على القيود والجمود يمثل الفكر فى المملكة السعودية تمثيلا كاملا ، وهو أكثر من النثر خطراً ، وأضخم شأنا ؛ وأوضح تصويراً للعقلية العربية الجديدة وتمثيلا لها فى هذه البلاد ؛ وهذا شأن الشعر فى الجزيرة العربية فى مختلف العصور ؛ يسبق النثر ويتفوق عليه ، ويستبدونه دائما بالمنزلة العالية فى المجتمع العربى .

ومن ماضيه وحاضره يمكن أن نتنبأ بمستقبله ، الذى سوف يحطم فيه الأغلال الفنية ، ويصبح أشد تمثيلا المشاعر والعواطف الإنسانية ، وأكثر حرية فى التعبير الصادق عن حاجات المجتمع وأهدافه ومطامحه ؛ ومنه سوف تنبع دائما حركات البعث الأدبى المرتكز على أصول عميقة من الثقافة وحرية الفكر وقوة الإيمان بالتجديد . .

محمد سعيد العامودى

(١)

عالم من أعلام الأدب الحجازى المعاصر ، ورئيس تحرير مجلة الحج التى تصدر بمكة المكرمة ، وهو كاتب وأديب وشاعر وصحفى ومؤلف وعالم ، واسع الاطلاع ، محيط بكثير من ألوان الثقافة ، ترجمت له فى كتابى « الشعر والتجديد » وتحدثت عن شعره وأسلوبه فى ما ينظم من قصيد .

ويقول عن العامودى الأديب الكبير عبد الله عبد الجبار : إنه من أوسع أدباء الحجاز ثقافة واطلاعا[١] .

ويصفه الفلالى بقوله : النضوج فى التفكير والاستقامة فى الخلق ، والوقار فى السمت ، والوضوح فى البيان ، تلك هى شمائل العامودى ، والعامودى من أدباء الرعيل الأول فى الحجاز ، ولكنه لم يتخل عن رسالته الأدبية كما تخلى عنها بعض زملائه ، وبقى مخلصا لرسالة الأدب ، ماضيا فى سبيلها حتى الآن . وذلك دليل أصالته الأدبية ، وقد عرفت له هذه الميزة فأسندت له القوامة على تحرير مجلة الحج ، فنهض بها نهوضا واضحا ملموسا ، لا ينكره إلا مكابر لا يقيم وزنا لجهود المجاهدين[٢] .

« ويقول الأستاذ الكبير عبد القدوس الأنصارى عن العامودى[٣] :

ليس محمد سعيد العامودى ، بالكاتب المجهول فى عالم الأدب والثقافة فى بلادنا حتى يحتاج إلى تقديم أو تعريف ، إنه فى طليعة الرواد بالنسبة للأدب الحديث فى هذه البلاد . . هو من بناته الأوائل وواضعى أسسه ورافعى راياته فى الآفاق ، وهو مخلص لفنه وفكره وثقافته ؛ لا يقول إلا ما يراه حقا ، ولا يلج موالج الزيف مهما تكن البواعث والدوافع قوية أو ملزمة ،

---

(١) ١٠١ : ٢ المرصاد ، الطبعة الثانية

(٢) ٢٦ : ٢ المرجع نفسه

(٣) ص ٦ — مقدمة الأنصارى لكتاب « من تاريخنا » تأليف العامودى

يرضى ضميره وتفكيره ويتعمق فى مطالعاته ، ويستلهم كل ذلك فيما يكتب وبذلك كله استوى له ما أسميه « كفتى العمق والاتزان » ، وقد استطاع بما وهبه الله من مران أدبى مصقول ، أن يقول كل ما يريد . . . وفى الحق أن بحوثه فى ميادين التاريخ والاجتماع والصحافة والثقافة بحوث ممتعة مفيدة ؛ تجمع إلى جمال الأسلوب ، وبهاء الاستعراض ، جمال الدقة ، وبهاء التمحيص ، وهو فى ذلك موفق ، وقلما يتأتى ما وفق إليه — للأدباء الباحثين ، والباحثين الأدباء .

والعامودى شاعر بعيد النفس عريق الشاعرية ، ولكنه بوصفه « رائدا وبناء » رأى أن الشعر لم يخلق فى العصر الحاضر ليوجه وليكيف الأمة إلى هذا الحد البعيد المدى الذى هيىء النثر له باتساع آفاقه لأن يجول فيه ، فان أدب اليوم ، هو أدب السرعة والانطلاق وأدب التحرر من مختلف القيود ، وهذا ما لا يتسنى لأدب مقيد بالوزن والقافية ، وبغير الوزن والقافية . . . إن لأدب اليوم رسالة كبرى هى التغلغل فى أعماق الحياة إلى أبعد حد ، لضمان إيقاظ خامدها ، وإنهاض جامدها ، وتعديل معوجها ، وتقويم منآدها ، وتبسيط معقدها ، وكبح جماح متطرفها وترقية منحطها ، وتقديم متأخرها . . وهذا ماكان الأستاذ العامودى من العاملين المخلصين فى حقله ، المجيدين فيه الثابتين فيه .

ولعلى لا أكشف سرآ إذا قلت : إن الأستاذ الكاتب من الأدباء القلة الذين لايتركون أية مناسبة عالمية تمر ، أو أية عاصفة تهب فى أرجاء الدنيا ، أو أى حدث كبير يقع ، إلا ويجيل فيه فكره ثم يشرع قلمه ، فإذا به يحبر ويدبج المقالات التاريخية أو الأدبية ، وإذا به يدمج التوجيه الذى يرى توخيه لمواطنيه ووطنه فى طيات مقاله ، إدماجا سداه ولحمته اللباقة فى الاستعراض . وكل قارىء لما كتب يفطن بطبيعته إلى هذا السر ، وإلى هذا الهدف وهو يصل من ذلك إلى مبتغاه بأسلوب ليس رمزيا ، وليس صريحا ، إنه أسلوب الكاتب القدير فى فنه الذى يراعى الأجواء ، ويفهم اتجاهات الرياح ، ويعرف

كيف يسير سفينة بحثه بين التيارات المتضاربة ، والجو المغبر المكفهر ، حتى يصل بها آخر الأمر إلى ساحل السلامة والنجاح .

وهذه الغاية لايوفى إلى ذروتها إلا كل كاتب موهوب . ولا أقول غير الواقع ، إذا ما أنا سلكت الأستاذ العامودى فى هذا الصف من الباحثين القلائل عندنا ، وهم الذين نحن أحوج إليهم من سواهم ، وبخاصة أدباء « الفن للفن » .

(٢)

يرى العامودى أن الأدب صورة من صور الحياة وأنه مثلها فى تطور دائم مستمر ، بل هو تابع لها ، وتطوراته تابعة لتطوراتها .

وأن فى الأدب العربى الحديث تطورا ملموسا ، بل تمددا يشمل الأدب فى جميع مناحيه ، فى المعانى والألفاظ والأساليب . والموضوعات ، والاتجاهات التى يتجه إليها الكاتبون ، وإذا كانت هناك بعض آثار من الأدب تحاكى فى سيرها الأدب القديم فهذه الآثار الأدبية لأن مصدرها التقليد والمحاكاة تخرج فى اعتبار كل النقدة ومؤرخى الآداب عن كونها آدابا تمثل عصرها الذى يمارسها أصحابها فيه .

ويؤمن بأن تطور الأدب ناشىء عن تطور الحياة [1]

(٣)

وقد ولد محمد سعيد عبد الرحمن العامودى بمكة المكرمة عام ١٣٢٤ هـ — ١٩٠٥ ، وتعلم فى مدارسها ، ثم انتظم فى سلك مدرسة الفلاح ، فتخرج فيها فى أواخر عام ١٣٢٨ هـ — ١٩٢٤ ، واشتغل بالتجارة بجانب والده السيد عبد الرحمن العامودى حتى عام ١٣٤٦ هـ ، ثم وظف بإدارة عين زبيد ، ولكنه استقال منها بعد قليل .

---

(١) راجع ٣٣٦ — ٣٣٨ وحى الصحراء .

ولما أسست إدارة الطبع والنشر عام ١٣٤٧ هعين فيها ، ثم استقال فى منتصف عام ١٣٤٨ﻫ ، وفى عام ١٣٤٩ﻫ عين سكرتيرا لهيئة التحقيق والتفتيش وفى عام ١٣٥٠ ﻫ عمل رئيسا لديوان المديرية العامة للبرق والبريد والتليفون بالمملكة السعودية (١٩٣٠ — ١٩٤٨م) ، ثم عمل مديرا لشعبة المواصلات بمديرية الحج العامة عامى ١٩٤٨ و ١٩٤٩ م ثم مديرا لمكتب الاستعلامات والنشر ورئيسا لتحرير مجلة الحج بمكة ١٩٥٠ — : وعين عضواً بمجلس الشورى السعودى من ١٩٥٣ — إلى ١٩٥٥ م . . وهو يشرف الآن على تحرير مجلة الحج .

وله مؤلفات لم يطبع منها سوى كتاب (من تاريخنا) فى عام ١٩٥٤ بمصر . ويشتغل فى الوقت الحاضر بتأليف كتابه (أعلام المكيين) ، وهو معجم يشتمل على تراجم رجال الأدب والعلم ، ومن تولوا إمارة مكة منذ العصر الإسلامى الأول إلى العهد الحديث .

وقدأشرف على تحرير جريدة (صوت الحجاز) الأسبوعية فى مكة فى أوائل عهدها .

وكان من مؤسسى « جمعية مشروع القرش » ولجنة إحياء مخطوطات تواريخ الحرمين ، ولجنة النشر العربية بمكة ، واشترك فى الدورة التاسعة للمؤتمر الثقافى العربى المنعقد فى جدة عام ١٩٥٥ .

كما اشترك مندوباً عن مجلس الشورى فى حفلات البرلمان الإيرانى عام ١٩٥٥ فى طهران .

(٤)

ومن صور كتابته الفنية ما كتبه بعنوان «فكرة القومية العربية»، قال[١] :

« يحاول بعض الكاتبين الفضلاء أن يؤكدوا أن فكرة القومية العربية

---

(١) العدد الخامس من مجلة الأضواء التى تصدر بجدة لصاحبها الأستاذ محمد سعيد باعشن .

تتعارض مع الفكرة الإسلامية ، أى الفكرة التى تدعو إلى وحدة المسلمين !

يحاولون أن يقنعونا بأنه لاداعى البتة لأن ينادى العرب بالقومية العربية.. طالما أن الإسلام بالنسبة لكل المسلمين هو مايجب أن ينادى به المسلمون !

وحق لامرية فيه أن الإسلام هو أول مايجب على كل المسلمين أن يتشبثوا به .. غير أن السؤال هنا : هل تتعارض الفكرتان : الفكرة العربية ، والفكرة الإسلامية ؟

هل حينما يقول العرب بالقومية العربية باعتبارها من الحقائق التاريخية الثابتة . . هل يتناقض قولهم هذا مع فكرة الوحدة الإسلامية ، وهى الأمل المنشود ـ ولا ريب ـ لجميع المسلمين ؟

ثم هل العرب وحدهم بين سائر الشعوب الإسلامية الأخرى يجب عليهم أن يتخلوا عن قوميتهم العربية ، بل أن لايتلفظوا بكلمة « عرب » أصلا . . وإلا قامت عليهم قيامة الآخرين ؟ !

فى العالم أكثر من خمس دول إسلامية مستقلة ذات سيادة . . وهى غير عربية ، فهل تخلت هذه الدول عن قومياتها ؟ فإذا كان الجواب بالسلب . . فلماذا يريد هؤلاء الكتاب الفضلاء أن يفرضوا على العرب وحدهم وجوب تخليهم عن قوميتهم العربية ؟

وليت شعرى مامعنى « إذا عز العرب عز الإسلام ! » إذا لم يكن معناه الواضح إقرار الكيان العربى ، باعتباره كيانا مستقلا ، متميز الملامح والخصائص والسمات . . مع التسليم بأنه جزء من الكيان الإسلامى الشامل ، بحيث لا يمكن أن تتم أى وحدة حقيقية للمسلمين إذا أتيح لها أن تتم .. إلا على أساس أن العرب هم أقوى العناصر وأبرزها فى هذه الوحدة الكبرى ؟ ! »

(٥)

وللعامودى شعر كثير ، وهو فيما ينظمه عذب الأسلوب ، رقيق الديباجة ، جميل البيان ، لطيف المنزع .

ومن شعره من قصيدته « الحب الزائل » :

أكثرى ، أكثرى من الإعراض   واهجرينى فإننى عنـك راض
أكثرى ، أكثرى من الصد ، فالصد   أيا هنـد لا يثير امتعاضى
أكثرى ، أكثرى فلا فرق عندى ال   يوم ، بين الدنو والإعراض
أكثرى من جفاك إن جفاك ال   عذب أمسى من أقدس الأغراض
قد قضى الله بيننا بافتراق   ليس دفع لما المهيمن قاضى
فسلام على الهوى وعلينا   وسلام على العهود المواضى

ويقول من قصيدة عن السياسة :

قيل عنها بأنها بنت أفعى   حية فى سباسب الأرض تسعى
تكتسى حلة من المخمل النا   عم دوما ، وفى الحدائق ترعى
ويراها الراءون تمشى الهوينا   فى هدوء تحاذر الناس جمعا
وتغنى فى سيرها وخطاها   إنها بالغناء تطرب سمعا
هى فتانة المظاهر والأشـ   كال ، جذابة كما هى تدعى
فلها فى الحياة لحن إذا شا   ءت افاض السرور أو سح دمعا
ولها فى النضال شأن عجيب   يصرع النابه المحنك صرعا
بل لها أدمع ترقرقها العيـ   نان إن صادفت جفاء ومنعا
بل لها حكمة تشوب دهاء   يتحاشى إبليس لقياه روعا
لا ترى فى طريقها غير ورد   كلما يممت بلادا وصقعا
لا ترى غير من يقدسها بل   يفتديها بالروح والنفس طوعا
قد أشيدت لها التماثيل فى الشر   ق وفى الغرب ليس ذلك بدعا
إنها فى جوانب الشرق قد لا   قت لها مرتعا خصيبا ومرعى
وهى فى الغرب مثل سيف صقيل   اصلتوه ، فجاء يلمع لمعا
فى ضفاف التامين والسين والر   ين لها الاقتدار يمتاز صنعا
ثم روما ، ويا لصولة روما   إن روما لها السوابق قطعا

يا خليلى وقد سمعت الذى قا　لوه عنها قد فاق وصفا ونوعا
هذه البضة اللعوب ألا تع　رفها ؟ قال لى : (السياسة) طبعا

ويقول من قصيدة يخاطب بها الشباب الحجازى :

هب داعى العلا ينادى الأماما　فأرونا النهوض والإقداما
واستحثوا كوامن الهمم العل　يا إلى المجد ، واحملوا الأعلاما
حرروا الفكر من ركود جناه الـ　جهل فينا ، وحرروا الأقلاما
نحن فى عصر نهضة عمت الكو　ن ، وأضحت للعالمين لزاما
نحن فى عصر نهضة أيها النش　ء فسيروا ولا تهابوا الزحاما
تلكمو النهضة الشريفة إنا　إن حدونا بها نجارى الأناما
تلكمو النهضة القويمة إن قم　نا بها نبلغ المنى والمراما

* * *

يا شباب الحجاز هيا إلى الإصلا　ح نسعى تحمسا واعتزاما
يا شباب الحجاز بالعمل المنـ　ـتج نحيا ونلحق الأقواما
يا شباب الحجاز بالعلم نعتز　فهلا نعيره الاهتماما
آن أن تدرأ الجهالة عنا　إنها أصبحت ستارا وذاما
آن أن ندحر الجمود فحتا　م إليه ركوننا وإلاما ؟
آن أن ننشد الحقيقة إنا　قد سئمنا الخمول والأوهاما
يا شباب الحجاز ما عاش من يلـ　ـزم نوما فأيقظوا النواما
عاجز فى الحياة من يطلب الرا　حة فيها ويبتغيها دواما
ساحة المجد لا يفوز بها غيـ　ـر الذى يسبق الجموع اقتحاما
فاعملوا وابذلوا الجهود على أن　تحفظوا أيها الشباب الوئاما
نظموا السير وأفهموا الناس طرا　أننا أمة تحب النظاما
واملأونا تباهيا وارشفونا　من رحيق الفخار جاما فجاما

ومن رباعياته :

الشعر فن جميل لدى الطباع الجميلة
إنى أراه دواما سر الحياة النبيلة
لكنه بات يشكو ذوى النفوس العليلة
هم صيروه مهانا يحيا حياة ذليلة

الجهل داء عضال كما يرى العقلاء
لكنما هو داء له لديهم دواء
فالعلم طب حديث للجاهلين شفاء
وليت شعرى بماذا يعالج الأغنياء

أما الحياه فانى لست أفهمها إلا غناء وألحانا وأشجانا
أرى الزهور وقد أضحت أرائكها تغدو فتشدو عليها الطير تحنانا
وأسمع الصادح الباكى يذكرنى عهدا من الحب فيه كان ما كانا
يومى وأمسى مجال للترنم والذ كرى ، وهذا غدى أيضا لقد آنا

وطنى أنت نعمتى مثلما أنـ ـت شقائى فكيف هذا التناقض
إى وربى نعم فإنى سعيد بك لما قد كنت بالأمس ناهض
وشقى معذب حين ألقا ك وقد حل فيك هذا التمارض
حكمة الله هذه وقضاه وقضاء الإله ليس يعارض

لاتقولوا لمن يتاجر فى مبـ ـدئه : كيف أنت فيه تتاجر
لا تقولوا له : لقد جئت ذنبا هو ذنب من الذنوب الكبائر
حسبكم منه فعله فهو درس لأولى الأنفس الشريفة ظاهر
حسبكم أنه بغير ضمير حينما الناس يذكرون الضمائر

ويقول فى وصف حال المحب :

زفرات ما تنقضى وشجون تتوالى وأدمع تنهال
وخفوق وحيرة واضطراب وهموم موصولة تنثال
وجيوش من الأمانى ولكن كسراب بقيعة لا ينال

ذاك حال الشقى بالحب دوما حين تحصى الشئون والأحوال
شأنه أن يظل نضو غرام تنتحيه الهموم والأوجال

(٦)

والعامودى [١] من أعلام الأدب الحجازى الحديث ، ومن الرواد المفكرين والكتاب الموهوبين ، والشعراء المجيدين . وكتابه « من تاريخنا » يمتاز بأسلوبه الرفيع ، وعبارته الطلية المشرقة ، وبلاغته الواضحة النيرة ! . وله ديوان شعر مخطوط اسمه « الذكرى » ، وهو شاعر عريق الشاعرية بعيد النفس، كما يقول الأستاذ عبد القدوس الأنصارى [٢] ، وقد انصرف من أدب « الفن للفن » إلى البحث العلمى ، وقد عاش العامودى مخلصا لرسالة الأدب ، ويعد من أدباء الرعيل الأول الذين كافحوا فى سبيل خلق أدب حجازى حديث ، ونهضة فكرية ثقافية حقيقية . ومجلة الحج التى يتولى العامودى تحريرها عامل من عوامل النهضة الأدبية والثقافية فى البلاد السعودية .

وشعر العامودى يمتاز بغنائية جميلة مشرقة ، ويرى هو الشعر فناً جميلا فيقول :

الشعر فن جميل لدى الطباع الجميلة
إنى أراه دواما سر الحياة النبيلة

بل هو لا يرى الحياة ذاتها إلا غناء وألحاناً :

أما الحياة فإنى لست أفهمها إلا غناء وألحانا وأشجانا

ويعتد العامودى بالشعر والشعراء ، ويعول عليهم فى النهوض بالبلاد فيقول :

لم يمتنا إلا الجمود فهيا حاربوه بالهدم ياشعراء
أنتم أنتم وليس سواكم جيشنا حين تشعل الهيجاء

---

(١) صفحة ١٩٠ كتاب الشعر والتجديد تأليف المؤلف .

(٢) ص ٦ مقدمة كتاب « من تاريخنا » .

حاربوه بقسوة فهو خصم لايحابى بل حية رقطاء
حاربوه بحكمة ودهاء إنما آية الحرب الدهاء

ويعالج العامودى أدب القصة فى الحجاز .. وأسلوبه فى كتابته يمتاز بالجودة والابداع والوضوح والسهولة ، ورسالته فى شعره ثقافية واجتماعية ، إنه خصم الجمود والجهل والغرور والأنانية ، وهو يبشر فى شعره بمثالية رفيعة .

(٧)

آراء له فى الأدب والحياة :

تتراءى لى السعادة — السعادة التى أراها جديرة بهذا الاسم — فى اللحظة التى يشعر فيها الإنسان بأنه أدى الواجب . . وأرضى الضمير .

من هو الأمسخ ، والأسمج والأسخف بين جميع طبقات الأشرار ؟
خطر لى يوما أن أعرض هذا السؤال على طائفة من الأصدقاء . فكانت أكثر إجاباتهم ، وأوشك أن أقول كلها ، فى جانب ذى الوجهين .

بين الكثير من المتعلمين يوجد جاهلون من الطراز الاول . جاهلون بفن الحياة ، وبالنفس والأخلاق ، وآداب السلوك . على حين أنك كثيراً ما تجد بين أولئك الذين لم يطرقوا أبواب المدارس أصلا : رجالا ممتازين ، رجالا يصح أن تقول عنهم إنهم بالنسبة لأولئك : عمالقة وأفذاذ ! .

ما أجمل وأنبل أن يتلاقى أدب الفن ، أو أدب الدرس . مع الادب النفسى ! .

قد يكون من الميسور جداً أن يغدو أى إنسان أديبا : ولكن ما أعسر أن يصبح كل أديب ذا شخصية فى الادب ! :

يقول الفنان الكبير محمد عبد الوهاب :

« الفن شجرة عالية ، لا تنال ثمرتها الشهية إلا إذا أدمت قدميك أشواكها :
والفن شجرة تثمر الخلد ، ولا يرويها إلا العرق والدموع : فقل لمن يريد الغاية قبل البداية : تردد ، فالطريق طويل » :

هذه كلمة فنان موهوب ، وصل فى الفن إلى درجة النبوغ ، فما أحوجنا أن نقف عندها طويلا ! بل ما أحوجنا أن يقف عندها أيضا كثيرون ممن يلوكون كلمة الفن فى الصباح والمساء .

لعل أصدق تعريف للذكاء — بالنسبة لمفهوم عدد كبير من الناس — هو القدرة على التكيف .. أستغفر الله ، بل القدرة على التقلب ، أو بعبارة أخرى صريحة : الذكاء هو أن تستطيع تحقيق أطماعك بأية الطرق ، هو أن تكون ناجحا وكفى .

نعم : وبصرف النظر عن علاقة ذلك بأى مبدأ من المبادىء ، أو أى حق للآخرين : وشيء آخر : هو أن تعرف كيف تجارى التيار ، كيفما كان الاتجاه ، وأن تحسن صناعة الانسجام ، الانسجام مع جميع الناس ، أفاضلهم وأراذلهم على السواء :

لا أعتبر النفاق نقصا فى الرجولة وكفى ، وإنما أعتبره كذلك : نقصا فى الإيمان .

من مفارقات الكبرياء ، أنها على الدوام — تبدو متعجرفة ، منتفخة الأوداج أمام الأصغر والأضعف : فى الوقت الذى تبدو فيه حقيرة كسيرة ، ذليلة النفس : أمام الأكبر والأقوى :

الادب فن التعبير الجميل ، غير أن الثقافة العميقة هى التى تضفى عليه القوة : والثقافة التاريخية على وجه الخصوص هى التى توسع من آفاقه ، وتفتح له الميادين .

والتاريخ دراسة وتحقيق : غير أن الأسلوب الفنى الجميل هو الذى يمهد له السبيل إلى أعماق النفوس ، وهو الذى يصنع له الخلود .

من حسن حظ الرجل ضعيف الحس أنه لا يحس بواقعة .

عندما يتحول الصحافى إلى تاجر ، فياخيبة الأمل ، ويا للخذلان المريع .

من يحقد عليك ، لايمكن أن يرضى عنك ، مهما تحاول أنت أن ترضيه ، وهو قد تلجئه حاجته إلى أن يتملقك ، غير أن حقده الدفين ما يفتأ يظل هو الجاثم وراء كل سلوك يبدو منه نحوك : ولسان حاله يقول : «هكذا خلقت» .

من أقوال أحد وزراء العصر العباسى : « الرحمة خور فى الطبيعة : » : فلو أن هذا القول لم يكن باطلا وسخيفا ، لكان من حق الإنسانية بأسرها — على مدى العصور — أن تندب نفسها ، ولكان من حق جميع الفضائل الراقية أن تنادى بالويل والثبور :

ما هى اللامبالاة ؟

إنه يبدو لى أنها لاتتجاوز فى الأغلب الأعم ، صفة عدم الشعور بأى واجب أو أى التزام .

(٨)

وكتب بعنوان « حضارة بلا أخلاق » يقول : ماد هى الحضارة أولا ؟

قد يقول قائل : إنها بلوغ الأمة مركزاً ممتازاً فى التقدم العمرانى والاقتصادى ، وقد يضيف إلى ذلك ، شيئا ، أو أشياء أخر . . . كأن يقول مثلا : وبلوغها أيضاً مركزاً شبيها بذاك فى ميادين العلم والفن والثقافة والتفكير !

وظاهر أن هذا هو مبلغ فهم الكثرة الغالبة من الناس لمعنى الحضارة ، فأية أمة من الأمم سارت فيها أمورها الاقتصادية والعمرانية على نسق تقدمى.. وقامت فيها دولة للعلم والأدب وارفة الظلال ، وارتقى فيها التفكير وأصبح المتعلمون فيها هم السواد الأعظم . . . صح أن يقال عن هذه الأمة إنها أمة متحضرة أو إنها فى سبيل التحضر ، ذلك لأن بناء حياتها الجماعية أو الفردية أصبح قائما على دعائم ثابتة من جميع العناصر الأولية لكل حضارة من الحضارات .

والواقع أن العلم والأدب والثقافة والاقتصاد والعمران أصول لاشك فيها لكل حضارة قديمة أو حديثة ، ومن العبث ، ومن لغو الحديث أن يقال عن أمة ينقصها العلم ، أو ينقصها الأدب ، إنها أمة متحضرة ، كما أنه من باطل الأباطيل أن يقال عن أمة متأخرة فى حياتها الاقتصادية ، وليس لها أى إنتاج قائم بذاته ، وليس فى بلادها أى مظهر من مظاهر العمران والتنسيق . . إن هذه الأمة لها فى الحضارة نصيب !

ولكن هل صحيح أن هذه وحدها ، هى الأصول الأولى لكل حضارة ؟ وهل صحيح أن مجرد كون الأمة أصبحت غنية مترفة سواء فى حياتها المادية أو حياتها العقلية ، يكفى - بدون أى شىء آخر سواه . . . - لأن يعدها فى مصاف المتحضرين ؟!

إن الجواب على مثل هذا السؤال قد يكون عسيراً لدى أولئك الذين تعودوا - بدافع من سوء الفهم أو بدافع من التقليد - أن ينظروا إلى الحضارة

على أنها مظهر مادى لا أكثر ولا أقل . . . إن أولئك الذين يحملون مثل هذ التفكير الخاطىء . وأولئك الذين فتنتهم حضارة أوربا الراهنة ؛ بآلاتها الضخمة ، ومظاهرها الساحرة الخلابة ، وما يمكن وراء هذه المظاهر من إشباع لشتى أنواع الغرائز . . . ثم أولئك الذين أتيح لهم أن ينهلوا من معاهد الغرب ، ويعيشوا بين ظهرانى أهله زمناً طال أو قصر ، أولئك وأولئك جميعاً ، ماذا يجيبون على مثل هذا السؤال ؟

لاشك أن فريقاً متطرفا منهم لايتردد فى أن يقول إن هذه هى الشروط الوحيدة لكل حضارة وهى تكفى لاكتمال معناها ، وتثبيت كيانها ، فلندع هذا الفريق وما يقول فلا نظن مجرد الكلام يغنى شيئاً ، ولننظر إلى ماعسى أن يقوله الآخرون من أولئك الذين تعشقوا حضارة الغرب ، وآمنوا بأمثلتها العليا ، ولكنهم يختلفون عن الفريق الأول بالنظرة الوئيدة ، وطول التفكير!

هذا الفريق المتسم بالتفكير المتئد والأناة وعمق النظرة ، بالإضافة إلى سواه من رجال العلم والبحث والفكر ، سواءاً كانوا قدامى أو محدثين ، شرقيين أو غربيين ، هؤلاء جميعاً يتفقون فى أن الحضارة ـ ونحن نعنى كل حضارة بالطبع ـ لايمكن أن تكمل بتلك العناصر وحدها ، وإلا أصبح معنى الحضارة شيئاً قمينا بكل زراية . . . لابد للحضارة إذن من عنصر آخر يضم إلى كل هذه العناصر ، بل لأحرى بهذا العنصر أن يكون بالنسبة إلى بقية العناصر : عنصرها الأساسى ، لأنه العنصر الأقوى والأكمل والأهم . . ولأن وجوده بمثابة وجود الروح مع الجسد ، لابد إذن من وجود هذا العنصر الأساسى ، لكى يبعث فيها الحيوية ، وينق فيها الدم ، ويدعم فيها الأسس ، ويركز فيها الجهود ويحقق من وجودها غاية الإنسان المثلى ، وسعادة الفرد وسعادة الجماعة ، وأهداف الحق والخير والجمال . .

ونحن إذا قلنا إن « الأخلاق » هى العنصر الأساسى لكل حضارة . . . عليها يجب أن تقوم ؛ وعلى ضوئها يجب أن تسير ، فإنما نقول هذا ، ويقوله معظم الناس ، لأن التاريخ وسنن الاجتماع قد أثبتا بصورة جلية أن كل حضارة

من الحضارات القديمة ، وفى طليعتها الحضارتان اليونانية والرومانية إنما كان أول عوامل انهيارها : « انهيار الأخلاق ! » .

وأول ما تتمثل الأخلاق فى الصدق والشجاعة والصراحة والوفاء بالعهد ومراعاة حقوق الغير ، واحترام الآخرين ....

وما من شك فى اننا إذا نظرنا بهذا المنظار إلى حضارة الإسلام فى عصرنا الذهبى ، وجدنا أن هذه الأخلاق السامية جميعها هى ما كان يتسم به بناة هذه الحضارة فى عصور ازدهارها ، ثم إذا ارتقينا إلى عصر صدر الإسلام وجدنا هنالك المثل الأعلى فى التحلى بهذه الأخلاق ! . . وفى تاريخ عصر النبوة ، وعصر الخلفاء الراشدين أبلغ الشواهد على إثبات هذه الحقيقة الساطعة وهو مالا يختلف فيه اثنان ، أو يجادل فيه إنسان .

وثمت حضارات قديمة ووسيطة ... حضارات قضى عليها جميعها بلا شك فساد الأخلاق ، بل حتى الحضارة الإسلامية نفسها ما خرجت عن هذا القانون، وإنه من المؤسف أن نقول : إن حضارة المسلمين قضى عليها الفساد الخلقى أيضاً ؛ وهو ما كان نتيجة لضعف الروح الدينية ، وتفشى الاختلاف والتفرق فى أواخر عهود هذه الحضارة ، ولكننا لا نبعد إذا قلنا إن قسطاً وفيراً من هذا الانحطاط وهذا الفساد فى الأخلاق إنما يعود إلى العناصر الدخيلة على المسلمين ، أو بعبارة أصح : العناصر الدخيلة على العرب الذين كانوا قبل اختلاطهم بتلك العناصر أقوى ما يكونون من ناحية الأخلاق !

* * *

والآن ـ ونحن نعيش فى عصر الحضارة الغربية ، وهى حضارة حازت أكبر تقدم فى كافة ميادين العلم والفن والثقافة والاقتصاد ، وهذا طبيعى كنتيجة للنهضة الفكرية الشاملة ؛ وتطور الحياة والزمن ـ ... الآن ونحن نعيش فى عصر حضارة أوربا العلمية والصناعية ؛ وقد شاهدنا كيف أنها بلغت الذروة فى أساليبها التنظيمية ، وفى مجدها العلمى ، بعد أن تم لها أن تحطم الذرة . . .

الآن ونحن نعيش فى عصر أحدث الحضارات — كما هو الواقع — وأرقاها كما يقولون ... فقد حق لنا أن نتساءل : ما هو نصيب الأخلاق من هذه الحضارة يا ترى ؟ !

إذا أردنا أن نستوحى الإجابة على هذا السؤال من أعمال أساتيذ الجامعات فى أوربا ، وأمريكا ، ومن سلوك وآداب كبار رجال الفكر فيها ومن غيرهم .. وغيرهم من الأحرار ؛ ودعاة الإصلاح الاجتماعى ؛ والسلام العالمى ؛ وجدنا أن الأخلاق تحتل - ولا جدال - فى هذه الحضارة مكانها الرحيب . . !

ولكننا إذا أردنا أن نستوحى نفس هذه الإجابة من سلوك رجال آخرين ... رجال يمثلون الأغلبية الساحقة فى المجتمعات الأوربية والأمريكية ، وحسبك أن فى مقدمتهم بعض كبار الساسة والزعماء والحكام العسكريين ؛ وكبار أصحاب الشركات ورجال المال والاقتصاد ؛ والكتاب والباحثين ومحررى الصحف ؛ وأعضاء البرلمانات وغيرهم من أفراد الطبقات العليا والوسطى .. إذا أردنا أن نستوحى الإجابة على سؤالنا عن أعمال كل هؤلاء ، وجدنا — مع مزيد من الأسف — ان الأخلاق وبالأخص أنواعها التى أشرنا إليها آنفا تكاد تكون مفقودة .. وأحسب أن هذا لم يعد أمرا مبهما أو غامضاً ، أو يحتاج إلى طول مراجعة ، وطول تفكير !

إن العنصر الأخلاقى مفقود فى حضارة اليوم ، وهذا مالم يعد فيه شك ، وهذا ما أصبح يشكو منه عقلاء الأوربيين الأمريكيين أنفسهم ، ونحن نسأل : أليس هذا الفقدان جديراً بأن يكون فى طليعة أسباب الحروب العالمية المتتابعة ، وما يراه العالم على الدوام من تلبد الجو ، وتوالى الأحداث والخطوب ، ووقوع الأمم جميعا فريسة لهذه الحروب وما يتبعها من ذيول . ؟ !

أين العنصر الأخلاقى فى هذه الحضارة ، وقد أصبح الصدق معدوماً فيها ، والوفاء بالعهود ليس له وجود ، ومراعاة حقوق الإنسان أو مراعاة حقوق

الشعوب فى إعطائها حرياتها ، أصبحت من الأمور المستحيلة . . . ومن المخزى — لا سيما وأنه لا يتفق مع الأخلاق — أن أكثر الشعوب تراعى حقوقها قولا فقط ... وفى وقت الشدائد والأزمات .. حتى إذا جاء وقت الفعل والتنفيذ بعد أن تنقشع السحب ، ويصفو الجو وتذهب الشدائد ويرتفع كابوس الأزمات .. إذا بكل ما قيل يصبح أسطورة ... وإذا بكل ما وعدت به الشعوب يتبخر مع الريح ، كأن لا قيمة للأقوال مطلقاً ، ولا قيمة للوعود والعهود مطلقاً ، ولا قيمة لأى معنى من معانى الأخلاق !

أين العنصر الأخلاقى فى حضارة اليوم ، وهى لا تزال تئن فى نفس مواطنها من جور تحت الطبقات وطغيان الرأسمالية ، ودسائس رجال الأحزاب ، وألاعيب السياسيين المحترفين ، ولا تنس بعد هذا ما عرف عن هذه الحضارة من إباحتها للإباحية ... واستهتارها بالاستهتار ... إلى آخر ما هنالك مما يجوز ذكره هنا ومالا يجوز ... !

وقصة هذه الحضارة مع الشرق معروف أمرها .. إنها قصة الاستعمار بل هى قصة التحكم بالغصب ، وإذلال الشرقيين ، واستغلال خيرات بلدانهم ، ولا تزال هذه القصة إلى الآن على المرسح ، ولما ينته فصلها الأخير .. !

أين العنصر الأخلاقى من حضارة اليوم ، وقد رأى العالم فى قضية فلسطين أشنع الأمثلة على التفسخ الأخلاقى «واللامبالاة» بأى حق أو أى انصاف أو أى عرف أو أى قانون ؟ !

الحق أن حضارة اليوم قد أثبتت فعلا تجردها التام من أهم العناصر الأساسية اللازمة لبناء كل حضارة فى الوجود .. إنها حضارة بلا أخلاق ... ولسنا فى هذا نتجنى عليها ، فهل يعيد التاريخ نفسه ، لكى يرى الناس مصيراً لهذه الحضارة شبيهاً بالمصير الذى آلت إليه كل حضارة من هذا النوع قضى عليها أن تنهار بأسباب فقرها إلى العنصر الأخلاقى ؟ !

عبد القدوس الأنصاري

(١)

من رواد الأدب الحجازي الحديث ، ودعاة التجديد فيه.. أديب عالم مؤلف باحث ، أثر في الفكر الحجازي والعربي تأثيرا كبيرا ، ومجلته المنهل « هي جامعة كبيرة يتزود منها الشباب السعودي بقسط كبير من المعرفة والثقافة .

يرى الانصاري أن من الحتم على الأدب أن يكون في الطليعة وفي المقدمة ، ليحافظ على مركزه في النفوس وفي الحياة ، خصوصا أن الاستقلالين السياسي والاجتماعي لايأتيان إلا من زعيم نفسي قوي بالغ التأثير ، وذلك الزعيم هو الادب القومي في أسمى معانيه ، إذ هو من شأنه أن يضرب على الأوتار الحساسة في قلوب الأمة فيجتذبها ويهيب بها إلى النشاط والطموح والعمل المستمر الجبار ، والأدب العربي الحديث أهل للزعامة ، وضمين لقيادة الامة في ميادين النهوض ، إذ اتجه إلى دراسة المدنية الإسلامية العربية ، من جميع نواحيها ، وقدم نتائج دراساته إلى الأمة العربية في مؤلفات وأساليب تلذ مطالعتها [١] .

(٢)

ويصف الفلالي الأنصاري وأسلوبه فيقول : « هو الشخصية الوقور ، ذات الكلام الموزون ، الذي لا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً في أداء المعنى الذي يريد ، وهو في كتابته مثله في كلامه ، مثله في شعـــره . هو رائد من رواد الأدب الصحيح ، الذي لا يأخذ بالبهرج ، ولا يؤخذ به ، ينفذ إلى الحقائق دون أن تخدعه التهاويل ، وكتابه « بناة العلم في الحجاز الحديث » أصدق شاهد على ذلك .

إنه أسلوب هادىء منساب في يسر وسهولة ، يمتاز بتصويره الجميل الذي

---

(١) من مقال كتبه الأنصاري وعنوانه: ظاهرة مجيدة في نهضة الأدب العربي (٢٠١ — ٢٠٦ وحي الصحراء) .

لا يزدحم بالألوان الزاهية ، وإنما هو على قدر وبميزان ، وهو أسلوب فصيح جميل العرض ، سليم الأداء ، أشبه بالنافورة التى ينبعث منها الماء بميزان ، فتعطيك منظراً جميلا كالشجرة المتهدلة الأغصان ، وكما أن غير النافورة لا يستطيع أن يريك الماء فى شكل الشجرة المتهدلة ، فليس فى أدبائنا من يريك هذا الأسلوب القوى البارع إلا الأنصارى ، يكره التهويل ، ولكنه يحب الأناقة الموزونة التى لا تضايق صاحبها ، ولا تقعده عن أخذ حريته فى حركاته وسكناته[1] » .

(٣)

ومن نماذج نثر الأنصارى ما كتبه بعنوان « عهد جديد[2] » :

كان الفتى قد بلغ السادسة عشرة من عمره ، وكانت الأحلام المعسولة تتراقص أمامه كما تتراقص مياه الغدير الصافى للظمآن فى الفيافى الجرداء ؛ وكانت الحياة فى نظره رؤى وأحلاماً ، فيها الكثير من الغموض والإظلام ، وقد أكسبته الحوادث والأحداث الجسام التى مرت قطعانها به ، وهو ناعم الأظفار ، مرونة محدودة ، ودقة نظر غير بعيدة الأهداف فى الحياة والأحياء ، وكان الفتى خجولا متطوياً على نفسه ، محباً للعزلة أنى وجد لها سبيلا ...

ومن صور كتابه الأنصارى مقالته فى افتتاحية مجلة المنهل[3] ، وعنوانها « تطور » . . . !

« . . أما أننا فى تطور ، فذلك ما لا يمترى فيه ذو عينين . . وتطورنا أحدث تطور نشأ فى العالم ، وهو يشمل شتى مرافقنا .

كانت منازلنا تبنى على الطراز العتيق . . طراز القرون الوسطى . . بالحجر والطين ، وتسقف بجذوع النخل والجريد والخسف وما أشبه ، أو بأعواد القندل .. وتبيض بالنورة .

---

(١) ٥٢ و٥٣ : ١ المرصاد ، الطبعة الثانية .
(٢) كتاب بناة العلم فى الحجاز الحديث للأنصارى ، و٥٢ : ١ المرصاد .
(٣) عدد ذى القعدة ١٣٧٦ هـ — يونيو ١٩٥٧ .

واليوم صارت تبنى على أحدث طراز . . وبالخرائط التى تكفل وسائل الراحة والصحة ، وتقى من الحرارة فى زمن الصيف ، وتكفل الدفء فى زمن الشتاء . . إنها تبنى الآن بالأسمنت وتسقف ، بالأسمنت المسلح ، وتبيض بالجص ، وتضاف إليه الألوان المبتغاة . . وتضاء بالكهرباء .

وكانت شوارعنا ضيقة ، وطرقنا خربة .

وشوارعنا اليوم قد أدخل على كثير منها التحسين فعبدت بالأسفلت ، وكذلك طرقنا الرئيسية .

وكانت وسائل المواصلات لدينا هى الجمال والبغال والحمير .

واليوم ولى عهد تلك الوسائل دفعة واحدة . . وأقبل علينا دفعة واحدة عهد السيارة والطيارة .

وكانت مدارسنا ضئيلة ومعدودة على أطراف الأصابع . . واليوم فتحت لدينا مدارس ابتدائية وثانوية عديدة وبها عشرات الألوف من الطلاب ، يعبون من أنهار العلم عبا ، وعلاوة على ذلك فتحت لدينا بعض الكليات ، والاستعداد قائم على قدم وساق ، لإنشاء « الجامعة السعودية » . . لتتوج النهضة العلمية السعودية الحديثة .

وكانت صحافتنا محدودة العدد . . ضئيلة الاخراج ، وها هى اليوم فى تعدد وتمدد ، وفى تحسن فى الانتاج والاخراج .

وكانت مطابعنا يدوية ورجلية قديمة ، وها هى اليوم تنافس مطابع الخارج فى الجدة والمتانة وسرعة الانتاج وجمال الاخراج .

وكانت المياه العذبة فى مدننا محدودة . . واليوم جلبت المياه العذبة إلى كثير من مدننا الرئيسية من عشرات الأميال ، فأوجدت ريا بعد ظمأ ، وأثمرت حدائق فى أماكن كانت صحارى وقفارا .

وكانت المخابرات السريعة لدينا مع الداخل والخارج متمثلة فى اللاسلكى ذى الاشارات القديمة . . وقد أسرع التطور إلى هذه المواصلات فانشىء لدينا « التليفون اللاسلكى » على أحدث طراز .

ولم تكن لدينا إذاعة ، فصارت لدينا الآن، وهى بسبيل التحسين والتقوية فى الصوت والانتاج والاخراج .

وأدخل على جيشنا التنظيم الحديث وصارفيه مظليون وطيارون حربيون، وناهيك بالبعوث التى ابتعثت إلى الخارج ، وبما تخرجه الكلية الحربية فى الرياض وفروعها المنتشرة فى البلاد من ضباط وعسكريين حديثين ، يحمون حمى الدين والوطن ، ويعيدون للجزيرة العربية سالف مجدها الشامخ العظيم .

وتمدد العمران فى بعض مدننا الرئيسية تمددا عجيبا .

ولا تنس التنظيمات الاجتماعية الكبرى ، وفى طليعتها تنظيم شئون الحج والحجاج وتأمين راحتهم .

ولا تنس المشروعات الكبرى : كتوسعة المسجدين الشريفين فى المدينة ومكة .

ولا تنس إنشاء المستشفيات والمصحات والمراكز الصحية لتأمين الصحة العامة والخاصة وقاية وعلاجا .

ولا تنس المشروعات العمرانية التى استتبعها مشروعا التوسعة من فتح شوارع جديدة ، وتنظيم مجارى المياه والتليفونات والمجارى للعامة فى المدينة ومكة .

ولا تنس المصارف والبنوك والفنادق العديدة التى أنشئت فى غير ما بلد .

ولا تنس العمارات الضخمة التى أقيمت فى المدن الرئيسية .

ولا تنس السكك الحديدية التى أنشئت فى داخل البلاد ، وما هو بسبيل الانشاء والاحياء .

لا مرية إذن فى أن هذا تطور حميد ، وأن له ما بعده من تقدم وتنظيم وإنعاش للصناعة والزراعة اللتين بلادنا أحوج ما يكون إليهما . . فبالصناعة الحديثة نحمى بلادنا من الحاجة الرتيبة إلى استيراد كل شىء . . وبالزراعة

الواسعة تكفل لبلادنا الرفاهية ، ونضمن لها الحياة فى حالتى الرخاء والغلاء وفى حالتى السلم والحرب . . وأملنا أن يحدث هذا التطور المأمول فى أوجز برهة ممكنة ، وأن تتحول جهود الأثرياء وذوى العقول إلى ميدان هذا النشاط الدافق العجيب الذى يكفل لهم أعظم ربح رتيب ، ويضمن للبلاد أعظم تطور حميد .

(٤)

ولد عبد القدوس بن القاسم بن محمد الأنصارى الخزرجى ، أبا وأما . . عام ١٣٢٤ هـ فى المدينة المنوره ، وفيها تلقى ثقافته[١] .

ودرس أول ما درس القرآن والسيرة النبوية على فضيلة المرحوم خاله وابن عمه علامة المدينة المنورة الشيخ محمد الطيب بن اسحق بن الزبير الأنصارى . . ودرس عليه مبادىء النحو والصرف والبيان . . وغيرها من علوم العربية والفقه والتاريخ .. ثم دخل مدرسة العلوم الشرعية التى أسسها فضيلة المرحوم الأستاذ السيد أحمد الفيض أبادى عام ١٣٤١ هـ ، وكان شيخه رئيس مدرسيها ، فاستمر فى الدراسة عليه وعلى فضيلة السيد الفيض الذى درس عليه الجغرافية والحساب ، وتعلم الخط العربى على « الخوجة شكرى التركى » رحمه الله فى المدينة المنورة .

ولما تخرج من المدرسة وأخذ شهادتها العالية فى عام ١٣٤٦هـ سرعان ماعين فى ديوان امارة المدينة المنورة الذى كان يرأسه المرحوم الشيخ إسماعيل حفظى ، وكان إمير المدينة إذ ذاك عبد العزيز بن إبراهيم .

وفى عام ١٣٤٩هـ رقى إلى وظيفة مأمور أوراق ، وعين نائبا لسكرتير مجلس الإدارة ، وسكرتيرا للجنة تسوية الديون ، ولجنة الإسعاف الطبى ، ولجنة الصدقات ، ثم أستاذا للأدب العربى بمدرسة العلوم الشرعية .

وفى عام ١٣٥٩ صدر أمر من الملك عبد العزيز بن سعود بنقله وترقيته

---

(١) راجع ١٨٧ وحى الصحراء .

إلى رياسة تحرير جريدة « أم القرى » الرسمية بمكة المكرمة . . فانتقل إلى مكة المكرمة . . وبعد عامين استقال منها وعين فى ديوان نائب جلالة الملك « الأمير فيصل بن عبد العزيز » ولى العهد الآن ورئيس مجلس الوزراء . . وفى الديوان تقلب طيلة هذه المدة من عام ١٣٦٠هـ إلى الآن عام ١٣٧٦هـ فى وظائف عديدة : معاون مدير شعبة الملحقات . سكرتير مجلس الوكلاء الذى هو بمثابة مجلس الوزراء إذ ذاك . . معاون مدير الشؤون المالية . سكرتير الإدارة العامة للديوان ، مدير شعبة الأنظمة والمشروعات . مدير الشؤون المالية ، ثم عمل من سنة ١٣٧٤هـ فى وظيفة مستشار بديوان رياسة مجلس الوزراء للشؤون المالية . .

وفى سنة ١٣٦٤هـ عين عضوا بمجلس المعارف . . وفى سنة ١٣٦٥هـ عين عضوا بلجنة المصطلحات الطبية .

هذا هو تاريخ الأنصارى فى الوظائف الحكومية .

أما من الوجهة الصحفية فقد أسهم وهو تلميذ فى تحرير بعض الصحف الخارجية . . حرر فى مجلة المرشد العربى التى كانت تصدر بحلب فكتب فيها مقالات عن القومية العربية واللغة العربية ، وحرر فى مجلة الشرق الأدنى سنة ١٣٤٥ فكتب فيها مقالا بعنوان « بماذا ينهض العرب ؟» ، وحرر فى المقتطف والسياسة الأسبوعية والرسالة . ثم أنشأ أخيرا مجلة المنهل عام ١٣٥٥هـ .. وفى الميدان الأدبى أنشأ فى عام ١٣٤٨ الحفل الأدبى فى المدينة المنورة وكان أول منتدى أدبى فيها وفى المملكة العربية السعودية ، تلقى فيه الخطب بالعربية الفصحى ارتجالا ، وكان هذا المنتدى مثابة الوافدين . . ودعا فيه الحاج أمين الحسينى والسيد شكرى القوتلى ، والدكتور محمد حسين هيكل ، وألقوا فيه خطبهم ، ودعا فيه كثيراً من زعماء العالم العربى الإسلامى . .

وأنشأ فى سنة ١٣٤٩ أول كتاب حديث طبع بالمملكة العربية السعودية ، وهو رواية « التوأمان » ، وكان فيما بين سنة ١٣٤٢ و١٣٤٥ مولد الحركة الأدبية

الحديثة فى المدينة المنورة . . وقد ألف فى ذلك عام ١٣٤٤ هـ كتابا لا يزال مخطوطا لم يظهر حتى الآن.

وعمل فى حقل إحياء الأدب العربى الفصيح وإحياء اللغة العربية فى دواوين الحكومة بما كان ينشره فى جريدة صوت الحجاز وأم القرى والمنهل من تصحيح الكلمات السائرة على أسنة الأقلام فى الدواوين خاصة وفى الكتب والمقالات الأدبية عامة . .

وهذه البحوث قد نشرت فى كتيب طبع ١٣٥٣ هـ تحت عنوان «إصلاحات فى لغة الكتابة والأدب» . . وفى ذى الحجة عام ١٣٥٥ هـ تمكن من إصدار أول عدد من مجلة المنهل التى كان الدافع إليها محض السعى وراء إحياء الأدب العربى والفكرة العربية والقومية العربية . . ولم يكن عنده إذ ذاك سوى أربعين ريالا سعوديا أى نحو أربعة جنيهات مصرية . . وقد استمر صدور المنهل بعد ذلك حتى الآن .

وفى حقل الشعر كان ينظم الشعر وينشره تحت توقيع « الشاعر المجهول » فى مجلة المنهل ، وله قصيدة نشرت فى كتاب « وحى الصحراء » أول كتاب جمع تراجم ونتاج أقلام الأدباء المعاصرين فى الحجاز شعرا ونثرا وقد ألفه المرحوم الأستاذ محمد سعيد عبد المقصود والأستاذ عبد الله بلخير وطبع فى مصر وقدم له الدكتور محمد حسين هيكل .

ورأى المستر جون فلبى يقدم إلى المدينة المنورة فى عام ١٣٤٩ هـ ويصعد فى حمارة القيظ اللافح فى أوقات الظهيرة إلى الجبال ويهبط الأودية باحثا منقبا عن آثار المدينة ليخرج منها سفراً جامعا باللغة الإنكليزية ، فدفعه شعور باطنى مسيطر على أن يخرج للناس كتابا علمياً مركزا موفقا مستوعبا عن آثار المدينة المنورة لئلا يفوز بالسبق فى هذا المضمار هذا الأجنبى الداخل فى بلاد الحجاز باسم الإسلام . ويقول الأنصارى : رسمت الخطة العلمية التى تتمثل فى تحقيق بالذات الآثار ومواقعها بالوصول إلى أماكنها وفحصها

شخصياً وعلميا ، ثم مراجعة الكتب التاريخية عنها وأخذ أصح ماأراه مما كتب عنها . ومضيت في هذه الخطة ثمانية أعوام فلما انتهى أمد الدراسة العملية والعلمية كتبت الكتاب في شهر واحد وأعان فضيلة أستاذنا المرحوم العلامة المصلح السيد أحمد الفيض آبادي رحمه الله بمشورة فضيلة شقيقة قاضي جدة إذذاك السيد محمود أحمد أمد الله في عمره على طبعه بدمشق الشام طبعا علما. فظهر الكتاب في أقل من ١٠٠ صفحة من الحجم المتوسط وتلقفته أيدى الناس ، وقرظ كثيرا ، واعتمده كثير من العلماء كالدكتور هيكل رحمه الله وعمر رضا كحاله في كتابه (جغرافية شبه جزيرة العرب) والدكتور محمد حميد الله في كتابه باللغة الأردية عن آثار هذه البلاد في رحلته وحجه إليها . وترجم الكتاب إلى الفرنسية وغيرها .. واعتمد عليه فضيلة الشيخ محمد فؤاد عبدالباقي في تعليقاته على طبعة صحيح مسلم الأخيرة بدار إحياء الكتب العربية بمصر .

وألف بعد ذلك ترجمة لأستاذه السيد أحمد الفيض آبادي واسم الكتاب « بناة العلم في الحجاز الحديث » وطبع الكتاب في مصر ونفد ..

وأخرج عددين ممتازين من المنهل بقلمه هما (على هامش الرحلة إلى مصر) وقد ضمن هذا السفر جميع ملاحظاته ومعلوماته ودراساته عن مصر الناهضة وقد تحقق بعضها في عام ١٩٥٢م .. وثاني السفرين « أوعية وظلال » .. وهو في شؤون سياسية عربية وإسلامية وأدبية واجتماعية وتاريخية ووجدانية شتى .

وقد كتب عشرات المقالات في صوت الحجاز وأم القرى والبلاد السعودية والحج والمنهل .. وغيرها كما ألقى عدة أحاديث مختلفة النواحي في محطة الإذاعة السعودية .. بعضها نشر وبعضها ترجم وبعضهـا لايزال مطويا في الصحف الخاصة .

إن الشعور الذي كان وما يزل يسيطر على جوانحه واتجاهاته يتمثل في الاندفاع نحو بعث جديد للأمة العربية ، تقوم فيه على أقدامها وتنهض بأعباء الحياة الحافلة بالعلم والأدب والاستقلال السياسي والاقتصادي .. والقضاء على كل ألوان الاستعمار الكاذب ..

والوحدة العربية حلم جميل مازال يحلم به . . وقد كتب عنها فى مجلة « الشرق الأدنى » التى كانت تصدر بمصر . . أول مقال سياسى .

كذلك يسيطر على مشاعره الاندفاع نحو استعادة مجد اللغة العربية وتعميم استعمالها فى بلاد العرب وحدها بل فى كل بلاد العالم : . وسيتم ذلك بحول الله تعالى . . إذا مانهض العرب بواجباتهم الحيوية واستطاعوا أن يفرضوا وحدتهم وعزتهم على العالم بما أودع فى كيانهم من حيوية خارقة وأمجاد تالدة والدليل على هذا قائم . . بما تلقيه الإذاعات العالمية حتى الاستعمارية من ضروب البحوث باللسان العربى .

(٥)

وللأنصارى شعر جميل عذب رصين ، وقد تحدثت عن شعره وشاعريته فى كتابى (الشعر والتجديد) .

ومن شعره قصيدته (إغفاءة الشاعر وانتباهته) ، التى يقول الأنصارى فيها :

فى واحة تعبق روضاتها وتبعث الغبطة ربواتها
خميلة دانت زميلاتها لحسنها المنمنم المستفيض

———

تعابث النسمات أشجارها ليستثير الشدو أطيارها
وتفتح الأكمام أزهارها لتلهم الشاعر وحى القريض

———

آوى إليها شاعر ملهم سامى الخيال بالأسى مفعم
لما رأى أمته تحجم عن المعالى وتسوم النقيض

———

وبينما الشاعر فى وحدته يجلو جمال الكون فى جنته
تطربه ألحان قيثارته فى ذلك الروض الأغن الغريض

إذا بصوت مفعم بالأنين منبعث من عمق قلب حزين
فالتفت الشاعر كى يستبين فهاله الشعب يكاد يفيض

فاستيقظ الشاعر من غفوته واعتزم التوبة من هفوته
وأزمع التفكير عن جفوته وعاد يدعو قومه للنهوض

وصادفت دعوته أذنا صاغية تواقة للهنا
آلمها سقوطها فى العنا وراعها أن الجناح مهيض

ما كان إلا أن سرت كهرباء حيث اعتناق المجد والإرتقاء
فى ذلك الشعب فولى الشقاء وانجبر الكسر وقام المريض

وهكذا الشاعر إن يعتصم بعزلة الفكر تردت أمم
وإن يحن منه التفات لهم أنقذهم من دركات الحضيض

فالشعر نبراس لمن ينشدون ذرى العلا بضوئه يرشدون
فان خبا مصباحه بعض حين عنهم فهم من أمرهم فى جريض

ومن شعر [1] الأنصارى قوله من قصيدة عنوانها « بداية شاعر ونهايته » :

---

(١) ص ١٩٣ الشعر والتجديد تأليف محمد عبد المنعم خفاجى .

صقل البيان فكان فى الشعر وحى الربيع وبسمة الزهر
وحكت قصائده بروعتها ذهب الأصل ونسمة الفجر
ما زال فى تحليقه غرداً يغزو الجمال بشعره السحرى
طوراً يناغى الطير سابحة بسمائها تهفو إلى الوكر
ويزور آنا ساحة البدر فيشع بين الأنجم الزهر
ماراعه إلا أن اختنقت أنفاسه من شدة الذعر
هذى عواطفه لقد كبتت وتصدعت وهنا على الصخر

ويقول منها فى الحياة :

من دأبها خدع المشوق بها ويشوقها التنكيل بالحر

وهو شعر غنى بموسيقاه وروحه الغنائى، وبسمو معناه ، وعذوبة ألفاظه ، ورقة أسلوبه ، وجمال الإبداع فيه .

عبد الله عبد الجبـــار

(١)

يعد « عبد الجبار » فكرة جديدة فى الأدب الحجازى الحديث ، فهو زعيم الأدب الجديد فى جزيرة العرب ، وزعيم المدرسة الجديدة فى الفكر الحجازى المعاصر ، والذى دعم أصول المدارس الجديدة الفكرية والأدبية فى بلاده ، وكما كان بشار زعيم المحدثين فى مطلع العصر العباسى ، فعبد الجبار رائد التطورات الجديدة فى الأدب الحجازى .

وثقافة عبد الجبار وذهنيته وتفكيره الدقيق ، وإيمانه بمثالية الأدب وإنسانيته وحيويته ، ووعيه العميق لكل تطور وجديد فى الأدب ، وتشبعه بالثقافات المصرية الأصيلة ، ووقوفه على خصائص المدارس الفكرية والأدبية المعاصرة المتصارعة . . كل هذا مما جعل عبد الجبار مشرق الفجر الجديد فى الأدب العربى فى وطنه ، وبدء عهـــد مزدهر للأدب فى الحجـاز .

وعبد الجبار من أجل ذلك كله ملء قلوب وعقول الشباب العربى فى بلاده ، إنهم يعرفونه كما يعرف التلميذ أستاذه ، ويصرون على أنه هو المدرسة الجديدة فى أدبهم أو رائدها ، على حد سواء .

وإذا كان الأدب الحجازى فى جملته وغالبيته أدبا تقليديا محضا لا أثر للتجديد فيه ، كلاسيكيا محافظا لاسمة له ولا شخصية واضحة تغلب عليه ، فقيرا فى أفكاره ، ضئيل الحيوية ، ينحو نحو الألفاظ والاسلوب ، ويحرص عليها أكثر مما يحرص على المعانى ، ضعيف الأهمية فى أصالته وطاقته ، فإن ظهور عبد الجبار ، وزعامته للمدرسة الجديدة فى الأدب ، قد نقله إلى طور جديد ، يتسم بالجدة والثورة والخصب والنماء والحياة ؟ ونقل مفهوم

الأدب عند الأدباء هناك فى وطنه ، من أدب يحرص على الفن للفن إلى أدب يؤمن بأن الفن للحياة وفى سبيل تجديدها والسمو بها .

ويحرص عبد الجبار على صحة الاسلوب وجماله ورقته وإمتاعه وقوة تأثيره ، ويضيف إلى ذلك حيوية العبارة وموسيقاها ، إلى التأثيرات الفكرية والخصائص الذهنية للأسلوب وما يحمل فى طياته من أفكار وتوجيه ، مع البساطة والصدق والوضوح . وهى خصائص أصيلة لطاقة قوية جبارة .

(٢)

وقد ولد عبد الجبار فى مكة المكرمة عام ١٣٣٨هـ ، وتلقى ثقافته الأولى فى المدرسة الفخرية العثمانية ، ثم فى مدرسة الفلاح . التى أكمل فيه دراسته الثانوية عام ١٣٥٥هـ ، ثم غادر عبد الحجاز إلى مصر فى بعثة دراسية للإلتحاق بجامعات مصر ومعاهدها ، فالتحق بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة وتخرج منها عام ١٣٥٩هـ ، وعاد إلى وطنه فعمل مدرسا فى مدرسة تحضير البعثات والمعهد السعودى العلمى ، ثم تولى إدارة هذا المعهد ، واختير بعد ذلك مدير البعثات العلمية السعودية بالقاهرة سنة ١٣٦٩هـ ، إلى أن آثر أخيرا أن يعيش للأدب حرا طليقا بعيدا عن القيود الرسمية .

ويصفه الأستاذ الكبير محمد الحومانى[١] بالوداعة والأصالة والتواضع فى غير تهافت ، والجرأة فى غير طيش ، ويقول : إن أدبه صورة حية لبلاده ، من رقة اللفظ وجزالة الاسلوب ، وطرافة المعنى وقوة المنطق .

ولعبد الجبار مسرحيتان أصيلتان فى الادب هما : العم سحتوت ، وأمى ، وله كذلك «الشياطين الخرس» ، وسيخرج له ولى كتاب ضخم عنوانه «قصة الأدب فى الحجاز» .

---

(١) ص ٣٥٨ الأصفياء .

(٣)

ويصور عبد الجبار إيمانه بحرية الفن وجمالية التعبير وأصالة الروح الفنية فيه في مقال له عنوانه « من مشكلات الادب العربي الحديث[1] » ، والالتزام في الادب من الاصول التي يؤمن بها أديبنا ويدعو إليها .

ومسرحيته « الشياطين الخرس » من الادب الهادف المصور النزاع إلى الانطلاق والحرية والتجدد . .

إن عبد الجبار شخصية أصيلة في الادب الحجازي المعاصر ، ومن ثم كان هو رائد التفكير الحر في العهد الحاضر في بلاده .

وهذا مما يدعونا إلى الغبطة بمستقبل الادب في الحجاز ، وبأنه يسير إلى القوة والازدهار والحياة ، وتتجمع له من الخصائص الجديدة طاقات قوية تميزه عن الادب التقليدي الجامد الباهت القديم في روحه وزمنه ، وهذا كله يشير إلى الانبعاث وبدء البعث الجديد .

(٤)

وتتضح منزلة عبد الجبار في نفوس الشباب السعودي في رسالة كتبها أعضاء البعثة العلمية السعودية بالقاهرة إلى وزير المعارف في بلادهم بمناسبة نقل عبد الجبار من القاهرة ، قالوا :

« أستاذنا الكبير الأستاذ عبد الله عبد الجبار تألمنا كل الألم لنقله في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى إخلاصه العميق وتوجيهه السديد ، وأنتم تعلمون ياصاحب السمو ماضي هذا الرجل الذي قدم للعرش المفدى وللوطن المقدس من خدماته الجليلة ماتنطلق به أجيال مثقفة تقدمت إلى البلاد لتسير بها في ركب التقدم ، حتى لقد أصبح منصب المراقبة العامة مرتبطا في أذهاننا وفي نفوسنا بشخصه ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن وجود الأستاذ

---

(١) ص ٣٠٩ الأصفياء .

عبد الله عبد الجبار على رأس البعثة العلمية السعودية بمصر أصبح أمراضروريا لمواجهة المشاكل العديدة التى تنتج عند الالتحاق الطلاب بالكليات عند مايجيئون إلى مصر فى أوقات متأخرة وظروف متباينة تحول إلى حد كبير دون التحاقهم فى الظروف الروتينية العادية . وفى هذا الصدد تكون مساعى الاستاذ بصفته الشخصية هى العامل الاول فى تذليل كل هذه العقبات ، وليس أدل على ذلك من أن كلية الآداب بجامعة القاهرة رفضت هذا العام قبول الطلبة فيها ، واستطاع الاستاذ عبد الله بصبره الكبير وجهوده الشخصية أن ييسر قبول أربعة عشر طالبا دفعةواحدة . وأنتم تعلمون ياصاحب السمو أن قبول جميع أفراد بعثة هذا العام الضخمة وهم على ما تعلمون من نقص فى مجاميعهم وتباين فى اتجاهاتهم كان حلما يداعبنا ، ولكن اخلاص الاستاذ عبد الله وجهوده وصبره استطاعت صفاته هذه أن تحقق هذا الحلم الذى هو ادعى إلى رضاكم وسروركم ، إننا نعتقد أن المراقب العام هو همزة الوصل بيننا وبين وزارة المعارف الحريصة كل الحرص على ايجاد جو من الاطمئنان والتوجيه السديد ، وقد أثبت الاستاذ عبد الله فى هذا السبيل كل جدارة لمسناها جميعا عمليا فى توجيهاته وادارته ورقابته .

إننا نعلم كل العلم انه ليس من حقنا أن نعترض على مايصدر من قرارات إدارية تنظيمية ، ونعلم فى نفس الوقت أن أولى الامر حريصون كل الحرص على المصلحة العامة وعلى مصالح البعثات التعليمية ، ولكننا ندرك إلى جانب ذلك أن حرصكم على مصلحتنا ومصلحة الوطن وأملكم الكبير فينا يحتم علينا أن نناشدكم تهيئه الجو السليم وابقاء الاستاذ عبد الله عبد الجبار فى منصب المراقبة العامة لانه من العوامل الاساسية التى تساعد على تهيئة هذا الجو ، اننا نتطلع اليكم — ياصاحب السمو : فى هذه الآونة ونحن مؤمنون كل الإيمان بأن الرسالة الغالية التى تحملها نفسكم الكريمة بتحقيق النهضة التعليمية والتربوية التى حملكم جلالة الملك اياها سوف تدفع سموكم إلى تحقيق مطلبنا بإسناد منصب

المراقب العام لمربينا المخلص الاستاذ عبد الله عبد الجبار وبذلك سوف تضيفون إلى صفحاتكم الناصعة فى خدمة الثقافة الواعية صفحة جديدة لن ينساها لكم التاريخ الحديث ولا نخالكم تجهلون ياصاحب السمو أن هذا الالتماس وهذه الرغبة تتمثل فى نفوس جميع أبنائكم الذين يتلقون العلم فى مصر، والله يرعاكم ويرعى رجال العلم المخلصين فى ظل الوطن والعرش .

(٥)

وهذه مقالة كتبها عبد الجبار بعنوان «من مشكلات الأدب العربى الحديث» ، وعرض فيها لآراء ذات اهمية كبيرة فى الأدب ، وهى آراء تصور اتجاهات «عبد الجبار» الفكرية والأدبية قال :

« تحتل هذه المشكلة التى تتبلور فى هذا السؤال : «لمن يكتب الأديب؟ للخاصة أم للعامة ؟» ، مكانا خصبا فى عقول الأدباء والنقاد ، ومناقشاتهم ومساجلاتهم، وتتفرع عنها مشاكل أخرى مثل مشكلة الحرية فى الفن . والجمالية فى التعبير ، وغير ذلك مما نحاول أن نلقى عليه ضوءا كاشفا فى هذا المقال . الواقع أن الأديب لا يكتب للعامة ولا يكتب للخاصة ، وإنما يكتب أولا وقبل كل شىء لأولئك الذين يتجاوب معهم فى الإحساس والشعور ، وبقدر ما يكون تشبع هؤلاء بالروح الفنية ونزوعهم للميول الأدبية يكون حرص الأديب على أن يقرأوا أدبه ويستوعبوا فنه ويتصلوا بنتاجه . وإذا كان الأديب واقعيا هادفا فإنه يسره أن يقرأ أدبه الطبقات الكادحة والطبقات المتوسطة والعمال والزراع وصغار الموظفين ، لأنه حينئذ سيجد نفسه تنداح فى نفوسهم أفكاره وعواطفه وتتغلغل فى أفكارهم وعواطفهم ، وكلما اتسمت هذه الفئات بسمة الأدب والفهم ازداد حرص الأديب الهادف على مخاطبتها وتجلية شعورها . ولا شىء يذكى قريحة الاديب كالشعور بالتجاوب الصادق بينه وبين من يكتب لهم ويصور حياتهم ؛ أفراحهم وأحزانهم ، ملاهيهم ومآسيهم ، ولا شىء يضايق الأديب مثل إحساسه بغباء الكثرة الكاثرة من الدهماء ،

أولئك الذين لا يفهمون كلامه أو لا يفهمونه على وجهه ، أولئك الذين لا يترجمون الإشارة والرمز - وقد اضطر إليهما - إلى تعبير واضح صريح يهز كيانهم ، ويؤثر فى أعماقهم أبلغ تأثير .

وإذا كان الأديب غزليا مترفا ، فإن شعوره بالغبطة والابتهاج لا يتم إلا إذا قرأ شعره وقصصه أولئك الأغنياء المنعمون من ذوى الذوق الفنى المترف الذين يتفقون معه فى المنزع والمشرب والإحساس بحياة الصالونات ، وحياة اللهو والقصف والمجون .

وإذا أوتى هؤلاء حظا من الثقافة والذوق الأدبى فإن حرص الشاعر الغزلى على أن يقرروا أدبه يتضاعف ، لأنهم أقدر الناس على إدراك براعته فى رسم تلك الحياة الغنية المترفة وتصوير أجزائها وملابساتها وملامسها الناعمة وطيوبها الفاغمة وبراعمها الحريرية .

ومهما يكن من شىء فإن الباعث الأساسى الذى يدفع الأديب للإنتاج هو هذه المشاركة العاطفية والوجدانية - هو ذلك الإحساس المشترك سواء أكان إحساسا بالغنى أو بالفقر أو كان إحساسا بالكدح أو بحياة الفراغ والجدة ، وسواء أكان إحساسا بالذل والعبودية والاضطهاد أو إحساسا بالعز والتسلط والاستعلاء . وكلما أحيط ذلك الإحساس بالإطار الأدبى من جانب القراء المستهلكين كانوا أكثر إيثاراً من جانب المؤلفين المنتجين ! وهذا التجاوب إذن هو الذى يعقد الصلة الروحية بين الأدب والقراء .

بقيت هناك زاوية هامة لم يتعرض لها الذين تناولوا هذا الموضوع مع أنها بديهية وهى أن الأديب يكتب لأعدائه ، كما يكتب لأصدقائه أياكانت لون هذه العداوة ، شخصية أو أدبية ، سياسية أو دينية ، حزبية أو طائفية ، ولو سبرنا نفسية جرير وهو يهجو الفرزدق أو الفرزدق وهو يهجو جريراً ، لألفينا كلا منهما حريصا أشد الحرص على أن يصل هجاؤه لقرنه وأن يهتز وأن يزلزل كيانه المعنوى زلزالا عنيفاً مدمرا . . . ويخيل إلى أن

أحدهما فى لحظة من لحظات الحنق الأسود لو خير بين أن يقرأ الناس جميعا شعره ما عدا خصمه ، وبين أن يقرأه خصمه وحده دون بقية الناس لاختار الحالة الثانية !

فالاديب اذن يكتب لعدوه كما يكتب لصديقه على السواء .

وما أكثر القصص الواقعية الحديثة والقصائد المتحررة الواعية التى تحفل بها المجلات الحرة التى تصور مآسى الشعوب وحياة البؤس والشقاء ، صدقونى إذا قلت لكم إن منشئ تلك القصائد والقصص لا يسعدهم شىء قدر ما يسعدهم أن يقرأها الطغاة والمستبدون والمستعمرون والمستغلون ، لانها السلاح الذى ينفذون به فى صميمهم ، ولان الادباء يريدون — عن وعى وعن غير وعى — أن يعكروا صفو هذه الطبقة الجشعة المستبدة ويحيلوا جناتهم النفسية جحيما أليما وعذاباً مقيما .

فالاديب الواقعى اذن لا يكتب للكافة وحدها ولا يغترف من واقع الجماهير ليرد إليهم فحسب ، وإنما يكتب لهم ، ويكتب لاعدائهم ، وربما كان حرصه على تنغيص حياة هؤلاء الاعداء ووخز ضميرهم وإثارة إحساسهم بفقدانهم الشعور الإنسانى ، لا يقل عن حرصه على رفع مستوى الجماهير وتحريكهم لرد الحقوق السليبة ونيل الحرية المفقودة ولا يكون ذلك إلا بمخاطبتهم والكتابة إليهم . . . وثمت شىء آخر يدعو لتوجيه الخطاب لهذه الفئات وهو توهينها وإضعاف روحها المعنوية وتحطيم تلك الاصنام البشرية التى تعبد من دون الله .

والملاحظ أن شكسبير وموليير من المؤلفين الذين تمثل رواياتهم باستمرار فى بلدان الديمقراطيات الشعبية والاتحاد السوفياتى . . . كما تمثل فى غيرها من البلاد . ومعنى هذا أن شكسبير وموليير يخاطبان أصحاب اليمين وأصحاب الشمال على السواء ، فهما إذن لم يكتبا لفئة معينة من الناس لا خاصة ولا عامة

وإنما كتبا للناس جميعا ، والسر فى هذا أنهما اكتشفا أكسير الخلود والبقاء، وهو الروح الإنسانى الخالد . . . مع توافر العناصر الفنية الاخرى بطبيعة الحال . . .

هذه صورة مقتضبة لواقع الادباء النفسى حين يكتبون أدبهم الفنى ويذيعونه على الناس ، والواقع أن الاديب حر لايعرف القيد ، وأن الناقد الادبى لا يسعه أن يفرض على الأدباء التزام مذهب بعينه ، أيا كان هذا المذهب ، فالبيئة والتربية والثقافة والمزاج الشخصى وروح التفاؤل أوالتشاؤم ، والانطوائية أو الانبساطية وغيرها من العوامل هى التى تعين خط السير للأديب فتجعله كلاسيكيا أو رومانسيا ، واقعيا أو رمزيا . ويلوح لى أن جوهر الخطأ فى هذه القضية يتبلور فى الخلط بين المذاهب الاجتماعية وبين المذاهب الأدبية ، فقد يعتنق أديب مامذهب الاشتراكية ، ولكنه لا يستطيع أن يكون أديبا اشتراكيا ، ذلك لأن مزاجه الفنى قد تجوهر فى الشعر الغنائى مثلا . . . وإذا ما حاول أن يقصر نفسه على أن ينتج أدبا واقعيا أدركه الفشل أو تمخض عن غباء وصور شوهاء لا غناء فيها . . .

وأعرف أديبا شاعرا درس مذهبه الاجتماعى دراسة دقيقة شاملة، وسجل آراءه فى كتب ومقالات . وطالما تاقت نفسه إلى أن يصور أحاسيسه عن مذهبه شعرا . ولكنه ما إن يهم بذلك حتى يخامره إحساس غريب واحد وهو أنه يتصور نفسه فى متاهات مجهولة تفضى به إلى شاطىء مجهول فينظم قصائده دائرة حول هذا المحور الغريب ! !

وقد تكون أديبا واقعيا تؤمن إيمانا جازما بالواقعية ، ولكنك مع ذلك لا تستطيع أن تنتج إلا أدبا رومانسيا حزينا دائرا حول ذاته الحائرة الحزينة، وذلك لأن طاقتك الفنية قد تحددت فى هذا الاطار ! .

وليس معنى هذا أن الشاعر الغزل الرقيق مثلا ، لايمكن أن يكون أديبا وطنيا بارعا ، كلا ، فقد تتعدد ميادين الكلام أمام الأديب فيبرز فى هذا

الميدان كما يبرز فى ذاك ويتوج بأكليل الغار هنا كما هناك . . . ولنضرب لذلك مثلا : أديب عرفته العربية سباقا فى كل حلبة من حلبات الشعر والنثر التى يطرقهـا ، ذلكم هو الأستاذ محمد على الحومانى ، فهو فى قصائده العربية والاسلامية والوطنية يحلق فى سماء الفن والشعر بأجنحة قوية مكينة تماما مثل ما كان يحلق فى ريعان شبابه حين كان يناجى ربة الشعر بالقصيد مستلهما حواءه الملهمة ، فإذا هى أفانين من السحر والخمر الحلال تسبي العقول والقلوب بروعتها وفتنتها وجمالها ورقتها .

والسر فى هذا هو استعداد الحومانى الفنى والنفسى وشعوره بقيمة الحرية الأدبية واحساسه بضرورة الاستجابة القوية فى نظم القريض . . ولو افترضنا جدلا أن معتسفا افترض على الحومانى أن ينظم قصيدة وطنية فى الوقت الذي لاتستجيب نفسه إلا للغزل والنسيب أو قصيدة غزلية حين لا يكون متهيئا إلا لتصوير حنق العرب على اليهود ورسم مشكلة اللاجئين فى قضية فلسطين ! أقول لو حدث ذلك الاعتساف لحرمنا وحرم الأدب الحى من روائع الحومانى فى الغزل والتشبيب ومن أوابده الشعرية فى الوطنية والعروبة والإسلام على السواء ، فإن شرما يمنى به الادب أن يقسر الاديب نفسه أو يقسره غيره على الكتابة فى هذا الموضوع أو ذاك دون استجابة نفسية صادقة — ولست أدرى أيهما أجدى على الاديب : أن نترك الادباء أحرارا ينتجون كما يريدون ويعبرون عن ذواتهم كما يشاءون ، أم أن نقسرهم على التزام مذهب بعينه ، ونحبسهم فى إطارنا الواقعى فينتجون أدبا مسيخا فاترا ؟ ! فأخشى ما يخشى على الأديب الواقعى هذه الدعوة القاسرة التى حشدت فى زمرة الأدباء الواقعيين كثيراً من أدعياء الأدب . . .

ويجب أن نشير هنا إلى مشكلة الحرية فى الواقعية وسفور الآراء الاجتماعية والسياسية التى قد تحيل القصة الفنية إلى مقال اجتماعى ، والقصيدة

الحديثة إلى خطبة منبرية لفقدان عنصرى الفن والجمالية . ولا مراء فى أن زعماء الواقعية الهادفة كانوا متحيزين فى الفن وأن جدارة الأثر الفنى لديهم جميعاً رهينة بما يبثه الفنان من الدعاية لأفكار معينة والدفاع عنها بحرارة وشجاعة . . . وهذه الروح التحيزية تجافى قضية الحرية فى الفن والأدب ، ويتناولها بالنقد والتفنيد كثير من الأدباء والنقاد مما لا نود تفصيله فى هذا المجال . . . ولكن الأدباء المتقدمين يدافعون عنها ويشرحون مزاياها ، فقد كتب إيليا أهرنبورغ مقالا عنوانه « نعم إن أدبنا متحيز » جاء فيه : « إنه من الطبيعى جدا ، أن يحب الكتاب أشياء ويكرهوا أشياء أخر ، وإذا كانوا يتميزون عن معاصريهم فإنما يتميزون بحساسية عواطفهم ، لا بالعواطف الخابية .

« إن (دانتى) قد عاش نفس حياة معاصريه فساهم فى نضالاتهم السياسية وخصها بكثير من أشعاره ، وهذه الروح التحيزية لم تحل أبدا بينه وبين أن يبدع ، بل على العكس ساعدته على خلق هذه « الكوميديا الإلهية » التى لا تزال تحرك إحساساتنا على الرغم من أن أصداء أحداث القرن الذى كتبت فيه قد سكنت منذ أمد بعيد » .

ونلاحظ أن التقدمية تدعو إلى حرية الفنان . ولكن هذه الحرية ليست تجريدية وإنما هى مقيدة بالواقعى الملموس .

ومع هذه الواقعية والروح التحيزية فإن انجلز يفرق بين التحيز والنزوع ، ويرى أن آراء الكاتب كلما كانت مغلفة كانت أدعى لسمو الأثر الفنى وتحقيق أصالته الفنية . . .

وقد كتب بصفة خاصة عن النزوع إلى الرواية الاشتراكية فى نهاية القرن الماضى إلى مرغريت هاركنس قائلا : « إنى لأبعد ما يكون عن اتهامك بالخطأ لأنك لم تكتبى قصة اشتراكية خالصة ، رواية ذات نزعة Tenden graman كما نسميها نحن الألمان كى تمجد آراء الكاتب الاجتماعية والسياسية » .

ليس هذا ما أعنى ، إذ كلما كانت آراء الكاتب مقنعة كان ذلك أفضل للأثر الفنى .

كما أوجه اللوم إلى مينا كوتسكى لأن الشخصية عند أرنولد ، أحد أبطال روايتها خ . ن ، قد ذابت فى المبدأ بصورة كلية .

وللأديب الإيطالى « ألبرتو مورافيا » رأى فى قضية التحيز جلاه لنا حين سئل عن موقفه من اتجاه الفن للسياسة بقوله « إننى لا أميل مطلقا لمدرسة الفن للفن ولا لمدرسة الفن للسياسة . . . إن رسالة الأديب هى أنه يجب أن يمثل الحياة بمساوئها وخيراتها وأن يحلل هذه الحياة نفسيا وفلسفيا واجتماعيا بدون أن يعطى هو حكمه عليها أو أن يحل مشاكلها . . . يجب أن يكون الأديب كالمتفرج . . . إننى أؤمن بالواقعية وأساسها أن يسجل الفنان ملاحظاته — كما تسجل السينما التقريرية الوثائق العلمية — ثم يضيف إليها إحساساته وخبرته كإنسان » ، ونحن لا نزيد شيئا على رأى الأديب الإيطالى العالمى إلا أن يكون الفنان إنسانا حرا شريفا حين يسجل حقائق الحياة !

وتأتى بعد هذا مشكلة الجمالية والتعبير .

وسارتر فى كتابه « ما هو الأدب » ينبذ الأدب الشعرى والفنى والميتافيزيقى ويدعو إلى نثر يهدف إلى عمل أخلاقى واجتماعى وسياسى بين البشر غايته بكل بساطة الاتصال بالآخرين .

وهو مع هذا الالتزام لا ينكر الجمالية والفن وإن كان يحلهما المحل الثانى ، « فإن اللذة الجمالية فى النثر ليست صافية إلا إذا جاءت — بالإضافة . . . ولنكتب أولا بنية أن نقول شيئا للأحياء ولا يضيرنا ألا يبقى لأحفادنا الذين لن يحسوا بقيمة الحوادث الراهنة إلا الاعجاب بأسلوبنا ، ولكن لا يحسن بنا أن نتوخى الأسلوب لذاته ، إن المسئولية والصدق تأتيان أولا ، والأسلوب والجمالية فى المحل الثانى » .

وأنا أوجه هذا الكلام للذين يحسبون الواقعية ابتذالا فى التعبير ،

وأحب أن ألفت النظر بصفة خاصة إلى قول سارتر : « ولا يضيرنا ألا يبقى لأحفادنا إلا الإعجاب بأسلوبنا » فهو إذن مؤمن بروعة أسلوبه وخلوده وإن كان قد وضعه فى المرتبة التالية للمسئولية والصدق .

وقصارى القول ان الواقعية فى الأدب العربى الحديث يتهددها عاملان خطران هما :

(١) ملتزمون غير أدباء .　　(٢) وأدباء غير ملتزمين .

فقد تطفل على مائدتها هذان الصنفان من الناس ، فأما أولهما فقد آمن إيمانا راسخا بالواقعية وظن أن حرارة هذا الإيمان تبيح له أن يدخل حرم الفن المقدس ، دون أن تكون له الكفاية الأدبية والأدوات الفنية اللازمة لإجادة التصوير والتعبير ، فكان نتاجه سببا فى هبوط المستوى الفنى للأدب الواقعى .

وأما ثانيهما فأدباء كانوا يعيشون فى أبراجهم العاجية أو قضوا حياتهم فى الترف والنعيم والمجون ، ولا يحسون بمبدأ الالتزام عقيدة تسرى فى دمائهم، ومع ذلك أحبوا أن يكون لهم نصيب فى هذا اللون الجديد ، فجاء أدبهم كألعاب البهلوان البارع ، ولكنه خال من الحرارة والصدق والإيمان !

يادعاة الأدب للحياة .. أنقذوا الأدب من هذه الطفيليات يستقم لكم بناء الأدب الجديد .. وبعد فما هو قصارى القول فى هذا الموضوع ؟

يجمل الرأى أن الأديب يكتب للفرد كما يكتب للجماعة ويكتب للأصدقاء كما يكتب للأعداء ، وأن الأديب الواقعى لا يكتب للعامة وحدها ولا للخاصة وحدها وإنما يكتب لهم جميعا وأن عباقرة الأدب كشكسبير وأبى العلاء المعرى يكتبون للناس جميعاً .

هذا هو رأى الناقد الادبى على أساس الواقع النفسى للأدباء لا على أساس الاتجاه الغائى . أما رأى الشخص الذى يعتنق مذهبا خاصا فى الحياة فيتبلور

فى هذا الإحساس المركز الذى صوره الشاعر العظيم بقوله : «إن لم أحترق أنا ، وإن لم تحترق أنت ، وإن لم نحترق كلنا ، فكيف يمكن لهذه الظلمات ، أن تصبح ضياء ؟» .

وهذا هو واجب الأديب العربى الحر فى العصر الحاضر ، بوصفه إنسانا - أولا - يشعر بآلام قومه وآمالهم ، وبوصفه فنانا - ثانيا - يستطيع أن يصهر فى بوتقته الفنية تلك الآلام وهذه الآمال ثم يصوغها قنابل شعرية ومدافع سريعة الطلقات ، إما بالإثارة المباشرة وتصوير الواقع الأليم كما فعل الشاعر كامل الشناوى فى قصيدته التى نظمها أثناء معركة القنال ودماء الفدائيين والمجاهدين تبلل ثرى الوادى الخصيب وقلوب الاحرار فى ظلمات السجون يسحقها الكبت والظلم والطغيان ، إذ يقول فيها :

يا أخى فى الظلم والسجن وفى القيد الحديد
يا أخى فى الضيم والصبر على عيش العبيد
يا أخى فى السخط والنقمة والوعى الجديد

أنت فى صمتك مرغم   أنت فى صبرك مكره
فتكلم وتألم   وتعلم كيف تكره

وإما بالتذكير بمجد الآباء كما يفعل كثير من الشعراء — وإما بالتحقير المثير الباعث للهمم والحافز لاسترداد الشعور بالعزة والكرامة كما فعل الشاعر الحجازى السيد إبراهيم هاشم الفلالى فى قصيدته ، ماذا أقول ، التى يقول فيها :

ماذا أقول وما استفاد   القوم من عظة وقاله
صهيون أرسى فى مرا   بعنا وحط بها رحاله
والغرب يركلنا فنلـ   ـثم من حقارتنا نعاله
أرسى مراسيه العدو   بأرضنا ونضا نصاله
فاللاجئون تضوروا   جوعا ولم يجدوا النخاله

أوما رأيت جموعهم ... وكأنهم نصب مهالة
تا الله إن الصمت أبلغ ... فى الشقاء من المقالة !

وكما فعل الحومانى فى قوله من قصيدته « ذو الفقـــار » فى ديوانه « أنت أنت » :

يا أبا القاسم استبد بنا الحز ... ن وأدمى جفوننا تسهيدا
كم مشينا على الوقيد حفاة ... نتبارى إلى السماء صعودا
ثم هانت نفوسنا فنسينا ... تحت وطء الهوان ذاك الوقيدا
وتوالت سود الخطوب علينا ... فصغرنا حتى صغرنا اليهودا

وإما بنداء أرواح الشهداء زملاءهم فى الكفاح من الأحياء كما فعل الشاعر معين بسيسو إذ يقول على لسان أحد شهداء فلسطين :

أنا إن سقطت فخذ مكانى يا رفيق فى الكفاح
واحمل سلاحى لا يرعك دمى يسيل من السلاح
وانظر إلى عينى أغمضتا على نور الصباح
وانظر إلى شفتى أطبقتا على هوج الرياح
أنا لم أمت .. أنا لم أزل أدعوك من خلف الجراح

وعلى هذا فالأديب العربى الحر — بوصفه إنسانا يدين بمبدأ خاص فى الحياة — لا بوصفه ناقدا أديبا — جدير به أن يدعو زملاءه الأدباء الواقعيين لأن يحملوا الرسالة ويؤدوا الأمانة وأن يذيبوا مهجهم على القرطاس ويصوروا إحساس الجماهير ويوقظوا شعورهم ليرفعوا صوت الشعب الذى هو صوت الله .

جدير به أن يؤنبهم ويتقدم إذا ما تقاعسوا عن النضال ، كما فعل سارتر إذ اعتبر فلوبير وغونكور مسئولين عن حركة القمع التى تبعتها حكومة الكومون Commune لأنهما لم يكتبا سطرا للحيلولة دونها .

جدير به بعد ذلك أن يضحى ويحترق وأن يهيب بإخوانه وزملائه أن

يضحوا ويحترقوا حتى تظل جذوة الكفاح متقدة أبدا مشتعلة دائما، فمشعل الحرية منذ كانت الحرية لا يضيئه إلا دم الشهداء وأقلام الأحرار . »

(٦)

وكتب بعنوان « خواطر عابرة » كذلك يقول عن الكتاب والشعراء :

قال لى صاحبي وهو حائر يصب جام غضبه على أدبائنا فى ختام الحديث بيني وبينه :

هؤلاء الكتاب والشعراء قد ركنوا للخفضّ واستكانوا للدعة وآثروا الخمول وامتطاهم الكسل ، أصبحوا لا يكتبون ، وإن كتبوا لا يجيدون ، فاتتهم مقومات الأدب الراقى والفن الجميل السامى ، وتعلقوا بالتافه من القول والسجع من الحديث والجدل البيزنطى العقيم . . . فيجامل بعضهم بعضا فقتلتهم المجاملة ، قتلت فيهم روح التدقيق والتمحيص والتجويد لما يحبرون من النثر أو ينظمون من الشعر ، والأدب عسر لا يسر ، وهو فى جوهره ثقافة ودّرس وفن وإيمان بفكرة من الأفكار أو مبدأ من المبادىء ، وهو قبل ذلك وبعد ذلك هبة أصيلة وروح واعية مستنيرة تدفع الحياة إلى الأمام دفعا . . . . والأديب كتلة ملتهبة من الحس والشعور ، قد هضمت ألوانا من الثقافات ، والشاعر الذى لا يذيب مهجته وروحه فى شعره ليس بشاعر ، والكاتب الذى لا يغمس قلمه فى قلبه ليس بكاتب .

الحماس ، الصدق ، الحرارة ، هذه أشياء افتقدناها فى أدبنا ، فأصبح أدبا فاترا لا حارا ولا باردا ، وشر ما تمنى به الشعوب أدب فاتر ، (مسيخ المذاق)، وأدباء لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

والأدب عرض الأديب وشرفه ، والأديب الذى لا يغار على أدبه غيرته على شرفه وعرضه لا يستحق أن يكون أديبا .

وما مثل الأدب السخيف إلا كمثل الشرف المثلوم ، وما مثل الشعر الهزيل إلا كمثل العرض الجريح .

أفيسمون بعد ذلك هذه السخافات أدبا وهذا اللغو نثرا وذلك الهذر شعرا ؟ .

إن هـذا أمر لا يطاق . . أن هو إلا إنتحار أدبي وهو شر ألوان الانتحار .

قلت لصاحبي وهو ينطلق كالسيل : هون عليك ، إن الأدب درجات والأدباء فى بلادنا ألوان « وكنت بسبيل أن أناقشه وأن أدفع عن الأدباء هذه التهمة الشنعاء ولكنه لم يصغ إلى بل حمل صحيفته وقال وهو يغادر المكان : إما أن يؤمنوا حقا برســالة الأدب ويحترموا صناعة القلم أو فليحطموا هذه الأقلام .

(٧)

وكتب بعنوان خواطر عابرة عن « انسانية الحيوان وحيوانية الإنسان » يقـــول :

صليت الجمعة ــ كعادتى فى هذه الأيام بمسجد حديقة الحيوان ثم الممت بجزيرة الشاى طالبا الجمام من أثقال العمل ، ومستروحا عذب النسمات فى هذا الصيف الحرور ... وكنت مع الناس ... ولم أكن معهم ؛ كنت معهم بجسدى ولكنى كنت بعيدا عنهم بروحى وفكرى ، فقد شطحت بى الخواطر بعيدا، بعيدا جدا كنت أفكر فى الانسان .. الانسان المثالى .. لاأدرى كم قضيت من وقت وأنا أفكر ، وأوازن بين مثالية الانسان فى الأوج وبين واقعيته فى الحضيض، حتى صحوت على ضحكات ساخرة عن يمينى ، ووقعت عينى على يدى وهى تشير اشارات غريبة دون وعى منى . فخجلت من نفسى وأدركت أنى قضيت فترة من الزمن آتى بحركات لا يأتيها الا من أصابه مس أو (لطف) . . فلملمت أطرافى وغادرت الجزيرة إلى بيتى هربا من ضحكات السخرية ونظرات الزارية والاستخفاف ! .

وفيما أنا التمس طريقى إلى باب الخروج إذا بى أرى لمة من الناس على اقفال القرود . فدفعنى الفضول فاذا المنظر المكرور : قرد يقوم بحركات بهلوانية عجيبة كانه بطل من أبطال الجمباز وآخر يتناول (اللوز الهندى) أو السودانى من الأطفال ويقشره ثم يأكل اللب ويقذف بالقشور فى وجه من

يعاكسه. وثالث يفلى زميله من القمل، ورابع يأكل (الفصفص) أو يقزقز اللب - كما يعبر المصريون - ببراعة مدهشة ... ولكن لفت نظرى قرد صغير يتناول من حارسه قطعا صغيرة من الخيار . . وكانت القطع مقشرة نظيفة. ومع ذلك فلا يكاد يتناول القطعة بيمينه حتى يمسحها بشماله كأنما يزل عنها القذى والقذر . وهكذا يفعل كلما ألقمه شيئا .. فعجب الواقفون وضجوا بالضحك وقال أحدهم يخاطبه شاتما : « يابن الايه ... » .

وسرحت أفكر : أية سخرية يسخر بها القرد من بنى آدم ؟ أتراه يعتقد أنه أنظف من الانسان ؟ ! أتراه — وهو حيوان أعجم — يشعر انه أرقى من هذا الحيوان الناطق المغرور ! ؟ أم تراه لا يطمئن اليه ولا يثق بمعاملته لأنه معتد أثيم اعتدى عليه وعلى حريته وصادرها فى هذا القفص ؟؟ أم تراه يلقى علينا درسا فى الصحة والنظافة والتثبت وأخذ الحيطة والحذر ؟؟ فما اكثر مايقذف الناس إلى أفواههم وبطونهم مايقدم اليهم من طعام وشراب دون أن يفحصوه ويختبروه وربما كان فيه من عناه الشاعر بقوله : ومن لم يمت بالسيف مات بغيره ! وما أكثر مايتلقون من علوم ومعارف منها السم فى الدسم ؟ وما أكثر ما ينخدعون بالأحلاف العسكرية والمعونة الاقتصادية ومشروعات النقطة الرابعة دون أن يمسحوها بأيديهم قبل أن يلقموها كما يفعل ذلك القرد الصغير .

لقد كان ذلك الجمع الحافل الذى شهد معى ذلك المنظر الفريد يضحك من القرد ، ولكن كنت اشعر أنه فى سريرته كان يضحك عليهم وعلى بنى جنسهم ويسخر منهم أكثر مما يضحكون ويسخرون :

وبعد أن كنت أوازن بين الإنسان المثالى وبين الإنسان الواقعى ، أصبحت أوازن بين الإنسان وبين الحيوان .. أيهما أرقى ؟ وتذكرت القط الذى لا يهدأ له بال حتى يحثو التراب على نجوه لئلا يؤذى المارة من بنى جنسه وغير بنى جنسه وقارنت بينه وبين الإنسان الذى يترك أذاه على قارعة الطريق يغشى

النفوس . ويؤذى الأنوف . وتتجس به أقدام السابلة وثيابهم ولم يصل تفكيره ، ولا إنسانيته أن يكون مثل ذلك القط المهين فى حيوانيته !

ومر بخاطرى إباء الدب وكفاحه وهو يبذل مايبذل من مقاومة ويعانى مايعانى من آلام التماسا للخلاص من شبكة الصياد حتى إذا أعيته الحيل تخلص من إحدى رجليه يدفعها ثمنا لحريته الغالية . فهو يضحى بجزء من جسده ويؤثر أن يقضى حياته ظالعا على أن يعيش سليما معافى بين الأقفاص وتذكرت الإنسان الذى يعيش تحت أقدام الاستعمار والطغيان ولا يضحى بشىء يشرى به حريته وحرية أبنائه . . . ذكرت الإنسان الذى أمسى عبد المال . عبد اللهوى عبدا للشيطان . عبدا للذل والهوان عبدا للعادات المرذولة والتقاليد الممقوتة ولاينفك يضيف إلى قيده واصفاده كل يوم ألوانا جديدة من القيود والأصفاد.

وتذكرت شريعة الغاب والاسد التى لاتفترس إلا إذا عضها الجوع ؟ أين منها الإنسان الذى يفتك باخيه الإنسان لا لشىء إلا لمجرد العدوان والطغيــان ! .

ورقصت أمام عينى صورة البلبل الصغير ذلك الطائر الحر الابى الذى لاينسل فى قفص حتى لايورث افراخه ذل القيد وعبودية السجن . وقلت فى نفسى : أين من إبائه ذلك الإنسان الذى يتخذ من الزواج معملا للتفريخ ويزج بابنائه المساكين فى اسواق العبيد : عبيد الأرض وعبيد الطغيان . وعبيد الاستعمار ! .

وفتحت باب شقتى وأنا مغيظ محنق . وقد أخذ منى الانفعال كل مأخذ ، ووجدتنى أقول بصوت عال « متى تكون أيها الإنسان مثل هذا الحيوان ؟ متى تكون أيها الإنسان مثل الحيوان ؟ ! .

ولم يكن بالبيت أحد ومكثت حتى حان وقت الغذاء فناديت الخادمة فلم تجب . واقتحمت المطبخ فلم تكن هناك فعجبت ولكنى اسرعت ففتحت الباب المفضى لسلم الخدم فى حذر ولشد ما كانت دهشتى حين سمعتها وهى

تقول لخادم الجيران : « مسكين سيدى ! اصابه لطف . . انه يكلم نفسه ! ويريد أن يكون الإنسان مثل الحيون ! مسكين سيدى الله يشفيه .

(٨)

ومن ألوان كتاباته ما كتبه بعنوان جديد هو « الزمكان » بين الفكر القديم والعلم الحديث ، قال :

اعتاد الناس أن يفكروا فى مفهوم الزمان على أساس الثوانى والدقائق التى تمر بهم ، فهو عندهم مجموعة اللحظات العابرة .

وقد حار الفلاسفة القدامى فى مشكلة الزمان ، وذهبوا فيها مذاهب، ولم يصلوا إلى نتيجة مقنعة ، أو حل شاف . .حتى جاء انشتاين اخيراً وقال : « ليس المشكلة فى « الزمان » وإنما المشكلة فى عقول الفلاسفة الذين تعودوا أن يعتبروا الزمان مجموعة اللحظات التى تمر بهم ، وصار هذا لديهم من البديهيات الملزمة ، فلم يستطيعوا أن يفهموا كيف بدأ الزمان وكيف ينتهى ؟

ولو دققنا النظر لألفينا مشكلة المكان تشبه الزمان . فهذا الفضاء الذى تسبح فيه الأجرام السماوية ، أين يبدأ وأين ينتهى ، وهل فى الكون حد ينتهى فيه الفضاء حيث لا فضاء بعده ؟

وقد اعتاد العقل البشرى أن يرى الفضاء محيطاً بكل شىء ، فظن أن الكون يجب أن يكون محاطا بفضاء ، والفضاء بفضاء آخر وهكذا .

يقول اينشتاين : إن الفضاء محدب وهو يلف على نفسه فيصير مثل الكرة وهنا تجابهنا مشكلة أخرى : فالفضاء يتكون من ثلاثة ابعاد لا رابع لها : هى الطول والعرض والارتفاع . فإلى أى جهة إذن ينحنى الفضاء أو يتحدب ؟

ويجيب اينشتاين : إن هذه المشكلة هى من صنع العقول القاصرة وناتجة من عاداتنا الفكرية ، فالكون — فى رأيه — يحتوى على أبعاد أربعة لا ثلاثة . والكون إذن ينحنى نحو البعد الرابع . والبعد الرابع هو الزمان .

وهكذا حل اينشتاين مشكلتى الزمان والمكان بضربة واحدة وأضحى

الزمان والمكان — فى نظره — شيئا واحداً . وبقى — على معاشر البشر ، أن يفهموا ويصدقوا هذه النتيجة التى وصل إليها اينشتاين بمعادلاته الرياضية التى قاس بها درجة تحدب الفضاء ، وإلا فإن عليهم أن يعدوا النجوم ، كما فعل ذلك الذى خرج على الناس ذات يوم زاعما أنه عد النجوم ثم ذكر رقما عظيما وصاح فى الملأ قائلا : من لم يصدق ما أقول فليعد النجوم بنفسه .

ومع ذلك فحين كسفت الشمس عام ١٩٢٢ كسوفا كليا ، وصدر الفلكيون النجوم فى استراليا حيث كان الكسوف هناك تاما واضحا ، أصابهم الدهش حين وجدوا النجوم بآلاتهم الدقيقة الواقعة وراء الشمس تظهر عندهم فى المرصد . ومعنى هذا أن الشعاع الصادر من النجوم لابد قد انحنى حول الشمس وجاء إليهم .

ولما قاسوا درجة انحناء الشعاع وجدوها مطابقة لدرجة انحناء الفضاء كما تنبأ به اينشتاين[1] .

فالأشعة — إذن — تتقوس أثناء مرورها فى الفضاء . وعلة ذلك أنها تمر فى فضاء مقوس . وهكذا جاء اينشتاين بالقنبلة التى نسفت نظرية «نيوتن» التى كانت تقول : إن شعاع الضوء يسير فى خط مستقيم .

وكلنا كان يعتقد أن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين كما علمتنا هندسة اقليدس فى المدارس الابتدائية . بيد أن اينشتاين قد حطم هذه البديهية الاقليدية ، فهو يرى أن الخط المنحنى هو أقصر الخطوط ، ذلك أن الفضاء محدب ومن الضرورى إذن أن يكون سير الإجرام فيه مقوسا ، وبهذا صار الخط المنحنى أقرب وأسهل من الخط المستقيم إذ يجارى طبيعة الفضاء .

وهذا هو السبب الذى جعل الأجرام السماوية كلها تتحرك فى أفلاك مقوسة وليس فى الكون كله جرم واحد يجرى فى خط مستقيم .

وهذا يناقض ما كان يعتقده نيوتن أن تقوس أفلاك السماء ناجم من

---

(1) Sulliuan an Güeeeson. Oul . line of modern Belief ool. 3. p 811-874.

تأثير فعل الجاذبية ، والأشياء حين تسقط على الأرض لا تخضع لجاذبية الأرض ، وإنما سقوطها بتأثير ضغط التحدب الفضائى .

وهكذا فتحت نظرية اينشتاين فى مفهوم الزمان والمكان ، أو مفهوم الزمكان كما يسميه ، بابا يصعب على العقول البشرية سده .

فالزمان هو بعد رابع فى الفضاء يشبه ابعاد الطول والعرض والارتفاع وليس مجموعة من الدقائق والثوانى

إنه خط ممتد بين أيدينا أو أعيننا كخط الطول مثلا ، ونحن نمر عليه خطوة خطوة ، وهو إذن لا يمر بنا كما تمر الدقائق والثوانى .

وما أشبه الإنسان فى علاقته بالزمان ، براكب الدراجة الذى ينظر إلى الأرض فيراها تتحرك تحته مسرعة كأنها تمر به والواقع أنه هو الذى يمر عليها وهى واقفة .

فالزمان بماضيه وحاضره ومستقبله ، خط ممتد فى الكون ، وهو واقف فى مكانه لا يأتى ولا يذهب .

مهما يكن من شىء فهذه الفرضية كانت فى الزمان الماضى غير معقولة وهى اليوم ممكنة ومعقولة فى ضوء الأبحاث الحديثة .. وعلينا أن نخلص عقولنا من الكثير من رواسب الماضى التى تجمدت فى ظلالها أفكارنا ، حتى تتجدد وتتطور ، ونشعر بوجودنا الحقيقى الذى لا يمكن أن يتحقق إلا وهو يحلق فى سماء الانطلاق الحر ، والحرية الفكرية .

ولقد ثبت أن الخط المنحنى أسهل على الطائرة فى قطع المسافات البعيدة من الخط المستقيم وذلك لانحناء سطح الأرض ، وهندسة اينشتاين تضيف إلى هندسة اقليدس بعدا رابعا هو بعد الزمان الذى ينحنى الفضاء نحوه ، وهى إذن تدخل فى حساب الفلكى انحناء الفضاء . ولرب معترض يقول : إذا صدقنا هذا وفسرنا تحدب أفلاك السماء بانحناء الفضاء المحيط بها فكيف

---

(١) Jeans, The Myszerions Uniuerse P. 141

بقيس تحدب فلك الالكترون السابح داخل الذرة مع العلم أن فضاء الذرة صغير للغاية ، ويجيب علماء الذرة على ذلك بقولهم : إن فضاء الذرة محدب رغم صغره الشديد . وتحدب فضاء الذرة ناشيء من تأثير الضغط المحيط به فى جوف المادة . والمادة فى عرفهم ليست (مادة) كما يفهم الناس منها عادة، وإنما هى انحناء شديد فى (الزمان) وكلما ازداد الفضاء قربا من مركز المادة ازداد تحدبه حتى إذا وصلنا إلى داخل الذرة وجدنا الفضاء فى نهاية تحدبه إذ هو هناك منحن انحناء شديدا جدا بحيث أصبح الالكترون مضطرا أن يدور فى أفلاك صغيرة داخل الذرة لكى يجارى انحناء الفضاء المحيط به .

وهناك رأى يقول : إن الاجرام المادية الموجودة فى الكون هى التى جعلت فضاء الكون محدبا . ولولاها لكان الفضاء ذا أبعاد ثلاثة فقط ممتدا فى الكون إلى مالا نهاية . فالبؤرة المادية الموجوده فى كل جرم سماوى هى التى أدت بالفضاء المحيط بها إلى أن يلتوى حولها قليلا أو كثيرا .

ترى أتستطيع أن تجد فى هذا تفسيرا لقول القدماء : كان الله ولاشىء معه . فنلاحظ أن الكون كان قبل خلق المادة فضاء ممتدا ، لا انحناء فيه ولا نهاية له ، فلما خلق الله المادة تحدب الفضاء من جراء ذلك ودخل فيه عنصر « الزمان » ومعنى هذا أن الزمان والمكان خلقا معا وهما إذن وجهان لحقيقة واحدة ..

والعقل البشرى قد اعتاد دائما أن يفصل المكان عن الزمان وأن يقيس كلا منها بمقاييس خاصة ، ولذا كان من الصعب عليه أن يستسيغ هذا أو يهضمه .

ومجمل القول اننا فى عصر الأقمار الصناعية التى تحطمت فيه الذرة ، كما تحطمت كثير من البدهيات المطلقة والمقاييس العامة التى استولت على عقول البشر أحقابا طويلة .. وعلينا لكى نحقق إنسانيتنا أن نفكر تفكيرا علميا ، وأن نطرح جانبا الأوهام والخرافات والمسلمات الجامدة التى زعزع أركانها العلم الحديث !

(٩)

وكتب عبد الجبار يعلق على كتاب « المرصاد » للفلالى ، قال :

آليت على نفسى منذ أصدر صاحب المرصاد مرصاده ، أن أناقشه الحساب عسيراً ، وأن أضع لمرصاده مرصاداً يسجل عليه وأن أقيم الموازين القسط له أو عليه .

كان ذلك غرضى منذ صدر مرصاده الأول ، واليوم (يخرج) علينا الأستاذ الفلالى بمرصاده الثانى ، ويتيح لى قراءته ، ومناقشته قبل نشره كأنما يريد أن يستثيرنى ، ويستفزنى ، ويدفعنى إلى الكتابة دفعاً .

وأول مايحفزك على نقد الفلالى أنه يضع أمامك مبدأ يسير عليه ويدعو الناس إلى اعتناقه ، وهو مبدأ عدم المجاملة فى النقد الأدبى ..

فهل لك أن تسير معى — أيها القارىء الكريم — فى مرصاد المرصاد ، لنرى صحة هذه القاعدة ومدى انطباقها على الأدباء المنقودين وعلى الناقد نفسه .

والفلالى يمزج القسوة بالظرف وروح الفكاهة ، إنه قاس ، ولكنه بعيد عن التبذل والشتم والسباب مما يحط برسالة النقد الحقيقية ، وهو لذلك يعفو عن شانئيه وشاتميه ، ويترفع عن أن يناقشهم الحساب وهو ظريف ، ولكن ظرفه يمتزج بلون من (التخابث) ، تخابث الرجل المكشوف الذى صفت نفسه وخلصت سريرته (إن صح هذا التعبير) ، استمع إليه إذ يقول « أخجلتم تواضعنا .. هيا إلى النقد أيها المعجبون أو أيها المحرشون » ، وإذ يقول : « الناس يقومون ويقعدون للمرصاد وما هو فى الواقع إلا خميرة عكننة كما يقولون » .

وإنها لخميرة نحن أحوج ما نكون اليها حتى لا يكون أدبنا فطيراً تنفر منه الطباع ، ولا تسيغه الأذواق .

وثمت أمر آخر أريد أن أشير إليه قبل أن أضع القلم من يدى ، وهو أنى تباطأت فى كتابة هذا النقد فكان الفلالى يلاحقنى ويحثنى على إنجازه ، وحينما انجزته أشفقت عليه مما عسى أن يكون قد قسوت فيه فأردت أن أطويه عنه ، ولكنه ألح على فى أن يقرأه وأن ينشره ، ولكم كانت دهشتى وأنا أنظر اليه بعد أن قرأ نقدى ، أن أجده كتمثال جامد لم يتغير ولم يتبدل ، بل قال فى لهجة الرجل الجاد : « سأنشر هذا النقد ذيلا لمرصادى فى كتاب واحد » .

نعم كان كتمثال جامد ، ولكنه تمثال للحرّية الفكرية والسماحة النفسية كما يجب أن تكون هذه السماحة وتلك الحرية .

ويقول عبد الجبار عن مقدمة شعراء الحجاز فى العصر الحديث :

لهذه المقدمة قصة عجيبة يعرفها أشخاص يعدون على أصابع اليد الواحدة وهذه القصة لم يحن الوقت لإذاعتها ونشرها ، وسياتى الوقت المناسب الذى تنشر فيه بكل ظروفها وملابساتها ومضحكاتها ومبكياتها !

ومن أعجب مافى هذه القصة أننى ثالث ثلاثة اتهموا بكتابتها . وهو شرف لاأدعيه ، وأنا أقول هذا لأبرر دفاعى عنها ضد الذين هاجموها من غير أن يكونوا على دراية بأصول النقد وتاريخه ؛ إذ قالوا عنها فيما قالوا إنها (إنشائية) ، يريدون أنها كلام منمق ولكنه فارغ غث .

والواقع الذى لاشك فيه أن القارىء الحصيف الدقيق النظر يشعر عند قراءتها أن كاتبها توخى الدقة فيما كتب ، وكان يعنى ما يقول بكل كلمة سطرها ، وليس العيب إذن فى المقدمة بل فى الذهن المعوج والفهم السقيم ،

اقرأ معى رأى الكاتب فى أهمية (الأسلوب) للشعر ، ثم احكم وحدك له أوعليه ، وخبرنى أهو كلام إنشائى منمق ، أم هو رأى قيم لكل كلمة فيه دلالتها ونحواها ، ومعناها الخاص ؟

« إن بواعث الشعر — فكرية كانت أو نفسية — هى ذات بواعث

الحياة وانفعالاتها ، ومعانيه وخيالاته وصوره هى التى تجول فى كل نفس وفكر ، غامضة مكبوحة ، أو واضحة طليقة ، وباهتة أو لامعة .

« والكلام هو وسيلة تصويرها والتعبير عنها ، أو هو مادة بنائها فلا جرم كانت ديباجة الشاعر وأسلوبه قوة وضعفاً ، وانطفاء ونصوعا ، وصحة واعتلالا ، هى الدلالة والفارق والمقياس وميزان الحكم على قدرة الصناعة ، وحذقها واكتمال أدواتها » .

وإذا دل هذا الكلام فى جملته على أهمية الأسلوب أو الألفاظ فى بلاغة الشعر ، فإن هذا الرأى قديم عرفه نقاد العرب منذ عصور ، فنى رأيهم أو رأى بعضهم أن المعانى يعرفها العربى والأعجمى والبدوى والحضرى وإنما مدار البلاغة على الألفاظ . . . »

ومالنا نذهب بعيدا فنظرة فى كتابة (فنون الأدب) ترى القارىء قيمة هذا الرأى لدى نقاد الأدب من الفرنجة .

وهكذا نجد أن هذا الرأى إما أن يكون قد انبثق فى نفس الكاتب ووافق به آراء بعض القدامى والمحدثين من النقاد ، وإما أن يكون قد انبعث من رواسبه العقلية التى تكونت له من مطالعاته الواسعة فى الأدب القديم أو الحديث !

وإنى لأستشف من تركيز الكاتب الحديث على الأسلوب والصياغة والصناعة ، أن قصة الأسلوب والديباجة — إشراقا وقوة ومتانة تركيب — هى ما يجب أن نحاسب عليه عليه شعراءنا أولا ، ثم بعد ذلك نحاسبهم على الخيال والعاطفة والمعانى وبقية العناصر المقومة للشعر .

ولهذه المقدمة دلالة خاصة على نفسية صاحبها ، فليس من السهل عليه أن ينزل منزلة المعلن ، أو قارع الجرس ، أو السمسار يروج السلعة بالباطل أو بما يدخل تحت الباطل ، فهذا مزاح ثقيل الوطأة على مزاجه وعقله ، وامتحان عنيف لطبيعته بما لاتواتيه عليه .

وطبيعة الكاتب الصراحة ، وقد حاول فى المقدمة أن يخرج على طبيعته فلا يحكم على الأشخاص بأسمائهم ، وقال : أما أنا فقد نصبت الميزان ، وأقمت المقاييس ، ومهدت الجادة ، ولم يعد للقارىء إلا أن يزن ويذرع ، ويحدد الفروق والمراتب ، فما يتسع طوقى لأكثر من هذا ولو اتسع لكنت خليقاً ألا أتجاوزه اتقاء لما تجر إليه الجرأة على حرمات الشعراء من نصب الدفاع وأوصاب الذياد فى هذا الزمن المدبر الذى تضخم فيه كل شىء حتى الشعر والشعراء » .

ويقول عبد الجبار عن العواد :

نحن مع الفلالى فى أننا كثيرا ما نقرأ للعواد قصائد لا نحس فيها الأسلوب المشرق الجذاب ، بل بالعكس نجدها محشوة بالألفاظ (اللاشعرية) ، وهذه السمة لم تخل منها حتى أسماء دواوين الشاعر التى يعتزم إصدارها مثل (الآراد) وهذه الكلمة فيها الغرابة كل الغرابة على القارىء الحديث . وأذكر أن طالبا أراد أن يقرأ هذا الاسم فالتبس عليه الأمر فقال : (الرادار) . . . ذلك أن هذه الكلمة الأفرنجية الأجنبية أسهل من هذه الكلمة العربية التى هى جمع (رأد) ، ولعل العواد يقصد بها مجموعة أشعاره التى قالها رأد الضحى من عمره . . وأنا أنصح للأستاذ العواد — إن قبل منى النصح — أن يريح القراء من هذه (التقعرات) ، وأن يستبدل بمثل هذه الأسماء أسماء أخرى لدواوينه تتسم بالسمة الشعرية التى ترضى الأدب والذوق والفن الرفيع العالى .

بينى وبين العـــواد

أتيح لى أن أقرأ بعض ماكتبه أدباء الحجاز عن كتابى الجديد ، « الشعر والتجديد » ، أو عن القسم الخاص بالشعر الحجازى منه على وجه التحديد ..
وقد أهملت الرد على ماكتبه الأدباء الناشئون إهمالا . لأن مثل هؤلاء لم يتعمقوا بعد فى فهم النقد والأدب وأصولهما ، ولم تنضج ملكاتهم الأدبية بعد ، ومن أمثلة ماكتبوه فى الرد على آرائى فى الشعر الحجازى أننى عبت الكلاسيكية فى شعر بعض الشعراء الحجازيين ، وأثنيت عليها فى شعر بعض الشعراء المصريين ، ولم يدركوا ، أوهم لايستطيعون أن يدركوا ، أن الكلاسيكية ذاتها ليست عيبا ، مادامت هذه الكلاسيكية إبداعا لشاعرية موهوبة ، ومن نظم شاعر ينهج منهج الشعر الاتباعى فى أصالة وطلاقة وإمتاع . أما الكلاسيكية أوالإتباعية فى شعر الشعراء الذين لم يوهبوا هذه الأصالة والموهبة القوية ، فإنها تقليد ، وكثيراً ما تخلو من الإبداع الفنى الذى يبحث عنه الناقد ، ويطمح فى بلوغه الشاعر .. إن هؤلاء الأدباء الناشئين فهموا أن الكلاسيكية فى ذاتها عيب ، وفاتهم أن روائع الشعر العربى الحديث هى من إنتاج مواهب كلاسيكية أصيلة، إنما العيب فى ضعف بعض الكلاسيكيين، وعدم استطاعتهم التحليق فى الأجواء التى حلق فيها أمثال البارودى وشوقى والزهاوى وحافظ ، وبشارة الخورى والشاعر القروى والأسمر وغنيم ومحمد عبد الغنى حسن وأمجد الطرابلسى وأنور العطار وسواهم . .

وفى الأسبوع الماضى قرأت كلمة للاديب الحجازى المعروف الأستاذ النساسى ، فبادرت بالكتابة إليه منوها بفضله وروحه ، قال الساسى : إن شاعرا حجازيا كتبت عنه فى كتابى « الشعر والتجديد » عن ديوان له مخطوط ، وله قصيدة قد انتحلها من شاعر آخر ، وقلت للساسى فى رسالتى : إن الشاعر قدم إلى ديوانه المخطوط لكتابة مقدمة له قبل طبعه ، وهذه المقدمة هى التى ذكرتها فى « الشعر والتجديد » ، فإن كان فى الديوان المخطوط قصيدة منتحلة ، فهذا مما يمكن الحديث عنه فى الطبعة الثانية للكتاب . .

وفى هذا الأسبوع حمل إلى البريد عددا من جريدة البلاد السعودية تاريخه ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٥٧ ، وفى الصفحة الأخيرة منه كلمة طويلة عنوانها « الشعراء المواطنون فى نظر مؤلف مصرى حديث » ، وهى حلقة أولى قد يتبعها حلقات أخرى ، وهذه الكلمة للشاعر الحجازى محمد حسن عواد . . وعواد لاأرى ضيرا فى أن أبادله النقد ، لأنه فى رأيى لا يمكن أن يتخلى عن الإنصاف ، ولا يمكن أيضا أن يكره النقد ، أو يضيق به ذرعا . .

وأول ملاحظة لى على مقالة العواد أنه كتبها متأثرا ، وفى جو من الغضب ، ولماذا يغضب العواد ؟ هل يريد أن نقول إنه زعيم الشعراء الحجازيين ثم نمدحه ونثنى عليه من أول الفصل المكتوب عنه فى الكتاب إلى آخره ، هل يريد أن نجعله شاعراً عبقريا عظيما دون أن نوجه نظره إلى بعض زلات له فى شعره ؟ ، هل يريد أن نكيل له الثناء جزافا ، ماأظن أن العواد يحب ذلك ، ولكن العواد كتب مقالته ليسب لا ليرد ، وقد يكون الأدباء الناشئون الذين كتبوا قبله مدفوعين بتوجيهه إلى الكتابة .. وهم يريدون أن يفهم الناس أن الشعر الحجازى الحديث مقدس ، مثل الأماكن المقدسة تماما ، وأن الشعراء الحجازيين المعاصرين معصومون من الخطأ ، من حيث يمكن أن يتسرب الخطأ لشعر شوقى والمتنبى وأبى تمام وامرىء القيس وأضرابهم . .

ومقالة الأستاذ الكبير العواد التى ينتقل فيها من الموضوعية إلى الذاتية ، ومن النقد إلى السباب ، تدل على تأثره الشديد مما كتبته عنه فى « الشعر والتجديد » ، فماذا أغضب العواد مما كتبت ؟ ، فى الصفحة ١٧٢ من كتابى إلى ١٧٩ تناولت شعر الأستاذ الكبير بالدراسة ، وقلت عنه ما خلاصته :

١ — انه شاعر من الرعيل الأول ، وانه الشاعر الابتداعى الأول . . . وهو من الشعراء الموهوبين المحسنين . . . ويتزعم المدرسة المتحررة الابتداعية . . . ويعد فى مقدمة شعراء الحجاز .

٢ — وقلت عنه كذلك : إن عيب العواد أنه لا يهذب شعره ، ويعتز

بكل ما يقوله ، قويا أو ضعيفا ، ولو كان للعواد غنائية الشعراء المبرزين فى الغنائية ، كناجى وعلى محمود طه ، لـكان شعره على ألسنة الجماهير عامة ، وقصيدته « نشيد العسكرى » ليس فيها مقومات النشيد من القوة والغنائية .

٣ — وقلت : للعواد حقا قصائد فى غاية الجودة والأصالة ومع ذلك فلا يسلم شعر العواد كله من النقد . . . فإذا نظرنا إلى قصيدته « يا ليل » وهى فى ديوانه « كيان جديد » نظرة النقد كانت من القصائد العادية التى لا يظهر فيها تفوق الشاعر الفنى ولا الفـكرى ، ونقدت ثلاثة أبيات منها . ونقدت قصيدته « العام الجديد » لمـا فيها من ضعف وابتذال وعامية .

٤ — ونقدت أبياته :

لم نحيا على البسيطة جبرا ونعيش السنين فيها حيارى ؟

أترى الفلسفات والدين والعلـ ـم أقامت للسالـكين المنارا ؟

هل أفاقت عقولنا من سبات هل شققنا من حـيرة أستارا ؟

لأن بذور الشك فى هذه الأبيات مما لا معنى له .

وأقول من جديد : كيف يشك إنسان فى أن الدين أقام للناس المنارات الرفيعة تضىء لهم السبيل ؟ وكيف يجمع شاعر بين الفلسفة والدين والعلم فى هذا المجال ؟

هذه خلاصات لمـا كتبته عن العواد ، والعواد حر فى أن يغضب أو لا يغضب ، وفى أن يسب أو لا يسب ، ولـكنى مع ذلك كله أقدره ، وأقدر مواهبه ، وإن كان هـذا التقدير لم ولن يمنعنى من إبداء رأى الناقد فى شعره وشاعريته إجمالا وتفصيلا كلما عن لى ذلك .

يبدأ العواد مقالته بلغة السخرية ، وفى عبقرية نادرة يقدمنى إلى قرائه ، وقراء العواد فى غنى عن تقديمه لى ، وأنا كذلك فى غنى عن هذه اليد الجليلة التى يريد العواد أن يسديها إلى ، إن القراء يقرءون لى مقالات ودراسات

ومؤلفات منذ ربع قرن ، فإذا احتاج أديب إلى أن يعرف الشاعر الكبير عواد قراءه به ، فإن الخفاجي لن يكون هذا الأديب . . لأنه بكفاحه وبجهاده الفكري والأدبي وبضخامة الرسالة التي حملها وأداها في غنى عن أن يقدمه مثل العواد للقراء . .

ويلح العواد — كما ألح الأدباء الناشئون من قبل — في مطلع مقالته على إثبات أني من رابطة الأدب الحديث ، وأني متحيز للشعراء الذين ينضوون تحت راية الرابطة ، متعصب على من سواهم ، ولكني أثنيت على شعراء حجازيين ، ونقدت آخرين ، فليكن هؤلاء الشعراء الذين أثنيت على شاعريتهم أعضاء في رابطة الأدب الحديث ، شاءوا ذلك أم كرهوا ، وشاء لهم الواقع ذلك أم كره ، وليكن الشعراء الذين ألممت ببعض هفوات لهم في شعرهم من غير أعضاء الرابطة ، والرابطة ألحت عليهم في الانتماء إلى عضويتها ، ولكنهم كرهوا ذلك وأبوه إباء شديدا ، وليكن في مقدمة هؤلاء شاعرنا الكبير العملاق العواد .

منطق ما كنت أتصور أن يلجأ إليه شاعر كبير مثل العواد ، وخاصة أنه المنطق الوحيد الذي رد علي به الأدباء الناشئون .

وما رأي القارىء في أن العامودي وعبد القدوس الأنصاري وحمزة شحاته وسواهم ليسوا أعضاء في رابطة الأدب الحديث ، ولم توجه إليهم دعوة من قبل للانضمام إلى عضويتها ، على الرغم من أن حمزة شحاته مقيم في القاهرة .

على أن شاعرنا الكبير العواد لم يسبق لرابطة الأدب الحديث شرف دعوته إلى الانضمام إليها ، ولم توجه إليه الرابطة دعوة للانضواء تحت لوائها ، ويسعدني ويسعد الرابطة أن نوجه مثل هذه الدعوة لو طلب العواد ذلك ، وهناك فرق بين من يزورون الرابطة للاطلاع على نشاطها الأدبي ، ومن يطلبون عضويتها أو يرشحون لها .

والأدباء الحجازيون ، وخاصة الرواد منهم ، مع تمنياتنا بأن يشاركوا

إخوانهم الأدباء العرب فى مجال النشاط الأدبى الخالص ، نعمل دائما على أن نغلق أبواب الرابطة دونهم لظروفهم الخاصة والعامة ، ولأننا نؤمن بأن منابر الأدب يجب أن تصبح منابر ديمقراطية حرة ، تقال فيها كلمة النقد النزيه دون أن يحسب فيها حساب العباقرة وغضبهم .

ويعود العواد إلى تقديمى للقراء بعد أن قدمنى إليهم فى أول المقالة ، فماذا قال ؟ :

قال : وقد قرأت له كتابيه « رائد الشعر الحديث » ، و « مذاهب الأدب » ، لأنه كتب عنى فيهما كثيرا ، مما أعاد نقله فى كتابه الجديد .

وأشكر للأستاذ العواد أنه قرأ لى ، وأرجو أن يتفضل على القراء بإثبات كلمة واحدة قلتها عنه فى كتاب « رائد الشعر » أو كتاب « مذاهب الأدب » ثم أعدت نقلها فى كتابى الجديد « الشعر والتجديد » . وأرجو أن يحقق العواد هذا الرجاء ، وأن لا يضن على وعلى القراء بتحقيقه .

ثم انتقل الشاعر الكبير العواد إلى زيادة تعريف القراء بى ، فقال : « وقرأت للمؤلف أى الخفاجى - جدالا مع كاتب مصرى حول كتاب عن الشاعر ابن المعتز ، يدعى كل من الكاتبين أنه هو الذى ألفه وأن صاحبه سرقه وانتحله لنفسه ، وقد رفع الكاتب المصرى قضية ضد الخفاجى يتهمه فيها بالسرقة والانتحال ، ونظرت القضية فى محاكم لبنان ، ولكن الخفاجى طلب سحبها إلى محاكم مصر . . . »

طريف جداً والله أن يكتب الشاعر الكبير العواد دون أن يعرف ماذا يكتب ، ودون أن يحقق فيما يكتب ، وأقول للعواد لأطمئنه إن كان يرى فيما قاله ضيرا على : إن المسألة لم تكن تدور حول كتاب تنازعت أنا وكاتب مصرى - أجله وأقدره - حوله وادعى كل منا أن الكتاب له . . لا . . إنك يا سيدى تكتب عن غير علم . إن المسألة كان يمكن أن ترجع إليها فى مجلة الأديب ، أو أن ترجع إليها فى كتابى « فصول فى النقد » .

إن لى كتابا عن ابن المعتز بعنوان « ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان » ، ولصديق المصرى الكبير كتاب آخر عن ابن المعتز بعنوان « ابن المعتز — حياته وشعره » ، وكتابى ألفته عام ١٩٤٥ ، ونوقشت فيه أمام لجنة من فحول العلماء للحصول على درجة دكتوراه عام ١٩٤٦ ، ونشر فى مصر فى نحو ٤٠٠ صفحة عام ١٩٤٩ ، ثم ظهر كتاب صديق المصرى الكبير فى بيروت عام ١٩٥١ ، ومنهجه وأفكاره ومراجعه هى منهج وأفكار ومراجع كتابى الذى طبع قبله بأكثر من عامين ، وليس فى الكتاب الجديد إشارة لكتابى من بعيد أو قريب .

هذا هو جوهر الموضوع ، وأحب يا سيدى العواد أن تبحث فى سجلات محاكم بيروت عن القضية التى أشرت إليها ، وأن تنشر سجلاتها إنْ أردت ، فليس الخفاجى ممن يخاف من شىء ، لأنه يعرف نفسه ، ولأن العالم العربى والإسلامى يعرفه جيدا ، ولأن جميع البيئات الأدبية فى العالم تعرفه وتدرس أدبه ، بل لقد وضع مستشرق كبير كتابا عنه ألقاه محاضرات فى بلاده ، ويعمل على طبعه فى القريب .

وثق ياأبا الشعراء فى الحجاز أنى أحب لك أن تغضب لتنشر صفحات الخفاجى ، وهى صفحات سيراها الناس ناصعة مشرقة بالمجد ، عكس ما رأيت .

إننى لا أريد أن أقول للعواد ولا لقراء العواد : إن الأصول الفنية التى تبرز فى شعره هى كلها محاكاة تقليدية للمهجريين ولشعراء مدرسة أبولو ، ولا أريد أن أقول : إن العواد فى بعض شعره يجانب العربية وأصولها كما قال مثلا فى بيته :

لا تخالى وما أظن تخالى زائفا ذلك الغرام وفرضا

وهو مطلع قصيدته « جنتان » من شعر ديوانه « نحو كيان جديد » حيث حذف النون تجاهلا بالعربية الفصيحة .

ولا أريد أن أقول إن العواد يؤمن فى بعض شعره ويدع ذلك فى بعضه الآخر ، ولا أريد أن أقول إنه يقلد بعض الشعراء المعاصرين فى بعض مقطوعاته وقصائده ، فلذلك موضعه فى كتاب أو دراسة جديدة .

ومن أمثلة رد الاستاذ الكبير العواد على أننى قلت فى « الشعر والتجديد » : إن الفلالى نقد قصيدتيه : « نجاة » ، « وأنا والليل » ، وأنحى عليهما بالنقد فى مرصاده ، فقال العواد بعد حذف سبابه : « ولم يستشهد الخفاجى بشىء من نقد الفلالى . وليت الخفاجى يعلم ؛ أو لعله يعلم فعلا ولكنه يتغابى ، أن غلاما كان ناشئا فى الأدب عند ما كتب الفلالى مرصاده اسمه « محمد سعيد باعشن » قد عصف بنقد الفلالى المهزوز ، وعصف بمرصاده كله » ... هذا هو الرد على فى لغة الشاعر الكبير العواد ، وأنا أعلم أن أديبا فى إمكانه أن يرد على الفلالى ولكن رده على الفلالى ليس حجة علىّ ، وأرجو أن لا يكون ردا على كتابى بالتبعية ، كما يرى ذلك منطق الشاعر الكبير .

وأبو الشعراء العواد إن كان يرضيه أن نبايعه بإمارة الشعر ، جمعنا له مواكب الشعراء لنفعل ذلك طائعين أو كارهين ، ونزعنا من نفوس النقاد جميعاً ما يمكن أن تحوكه ألسنتهم وقلوبهم وعقولهم من نقد العواد وشعره وشاعريته ، وكتبنا له صكوكا تحمل تصديق جميع الأدباء والشعراء والنقاد والكتاب بالإقرار له بإمارته على الشعر لا فى الحجاز وحده ولكن فى العالم العربى كافة ، ونطالب أمير الشعراء الشعراء أن يخفف قليلا من غلوائه ، فلا يتحدث عن نفسه بلغة التعظيم ، كما قال فى مقالته هذه ما نصه : « ولا تقف هفوات الأستاذ - أى الخفاجى - عند هذا الحد من التسرع ، فهو يزعم أن صديقه الفلالى نقد قصيدتنا : « نجاة » ، و « أنا والليل » الخ - نعم قالها أستاذنا العواد « قصيدتينا » ، ولماذا لا يقولها بنون التعظيم ، لا بنون الجمع حتى لا يتبادر أن شاعرا كان ينظم معه القصيدتين ، لماذا لا يقولها تعظيما لنفسه ، وهو جدير بأن يخلف شوقيا فى إمارة الشعر ؟ »

إن عهد العظمة الفردية ياسيدى قد انتهى ونحن يجب أن نستمد عظمتنا من أعمالنا لامن أقوالنا ، ثم إذاكان الفلالى صديقى كما يرى شاعرنا الكبير ، فأى ذنب على ياسيدى أمير الشعراء ، وما ذنب الفلالى كذلك حتى تحشره حشرا فى مقالك القيم ، فتنعته بأنه «كاتب بدائى متسامح فى قيم الفن والفكر مقلد متحجر ، لايعتمد على نفسه» ، وكنت أود لشاعرنا الكبير أن يقول ذلك والفلالى مقيم بين ظهرانيه يسمع ويقرأ ويجيب .

وأراد أستاذنا الكبير العواد أن يكون أستاذا فى كل شىء ، وأن يعلمنا العروض والشعر ، كما أراد أن يعلمنا النقد أيضا ، فأنكر على أننى أطلقت على أبيات العواد الموجودة فى صفحة ١٨٧ من ديوانه «نحو كيان جديد» اسم قصيدة ، وقال:إن هذاالأثر الفنى إنماهو مقطوعة لاقصيدة ، ثم أردف قائلا : «وهناك فرق بين القصيدة والمقطوعة» ، فرق فنى وفكرى ، ولكن المتسامح ينسى أو يتناسى وجود الفروق بين أثر فنى وآخرحتى فىالاسم» .. شكرا لك يا أستاذى العواد على هــــذا الدرس القيم ، شكرا لعبقريتك اللماحة ، ولإدراكك الفروق بين القصيدة والمقطوعة . إن هذا الأثر الفنى «ياليل»أحد عشر بيتا ، وعلماء الشعر يجعلون مادون السبعة قطعة أو مقطوعة والسبعة ومافوقها قصيدة ، فأيهما نصدق أيها القراء : علماء الشعر أم العواد؟ إننى ياسيدى الشاعرالكبير لاغضاضة على فى أن أقف منك موقف المتعلم إذا أردت ذلك ، فأرشدنا يرشدك الله ، أرشدنا : أنصدقك ونخالف إجماع علماء الشعر أم نصدق علماء الشعر ونكذبك ، ومعذرة ياأمير الشعراء إن كنت أخطىء فى أسلوب مخاطبتك ، فلا أقدم عبارات الخضوع والولاء لكل ما تبديه من رأى ولو كان خطأ عند الله والناس .

ثم ماذا ؟

ثم عاد الشاعر الكبير العواد إلى الرد على نقدى لبيته :

ياليل إنك رابض جثم   فوق الطبيعة ترقب القدرا

حيث قلت أنا فى الشعر والتجديد مانصه :

« جعل الليل رابضا جثما ، ونافى بذلك حركة الليل وسيره ، ولا يصح أن تقول : إن الشاعر يريد بذلك طول الليل على نحو مافعل الشعراء القدامى والمحدثون ، من امرىء القيس إلى من بعده من الشعراء ، لأنه جعل الليل يرقب القدر ، وأثبت له صفة الربض حقيقة لاتجوزا ، على أن المعنى هنا ليس على وصف الليل بالطول .. وقدجعل الشاعر الليل فوق الطبيعة ، ثم جعله يرقب القدر ، ولا ندرى سر وصفه الليل بأنه يرقب القدر .

ورد على العواد بما خلاصته : تسامح الناقد فى تصوره أن الليل يتحرك ويسير ، وهى غفلة لاتفتقر لكاتب عادى فضلا عن أستاذ يحمل شهادة العالمية من درجة دكتور . فالواقع الذى يقرره الحس ان الليل جامد لايتحرك وإنما الحركة والسير للارض والنجوم والليل ساكن رابض جاثم من أول لحظة فى مسائه إلى آخر لحظة فى سحره .

طريف حقا أن يتصور شاعر فى القرن العشرين الليل هذا التصور العجيب ، أن يتصور الليل وهو زمن الظلام ثابتا لايتحرك ، واقفا لاينقضى ، جاثما لاينكشف ، أو كأنما أراد أن يمجد الليل كما فعل زرادشت ففهمه هذا الفهم ، وعبر عنه فى مناسبة أخرى ، فقال كما فى الصفحة الثانية عشرة من ديوانه « نحو كيان جديد » :

يا ليل إنى قائل فاسمع
هذا زرادشت ومانى معى
فهل تعى ما قلت أولا تعى

لنكذب جميع الشعراء القدامى والمحدثين الذين وصفوا الليل بالسير والحركة ، ولنصدق شاعرنا الكبير العواد الذى وصفه بالاستقرار والجثوم .

ويسهب أستاذنا الكبير فى مواضع عديدة إسهابا شديدا ، فى مقالته ، دون ما غاية أو فائدة يدركها القارىء مما قال ، بل إنه يأخذ التصويبات التى ذكرتها فى كتابى فيجعلها حجة على .

إننى أقول لشاعرنا الكبير : إنك إذا أردت أن تكون شاعرا وناقدا معا ضاع منك الشعر والنقد جميعا ؛ وإذا أردت أن تنظم وتكون مع ذلك موجها للشعراء والنقاد تعلمهم طرق النقد وأصوله حينما يتناولون شعرك البليغ، فقد رجعت بالشعر والشعراء قرونا إلى الوراء ، وإن كنت تريد أن لا يتناول الناس شعرك إلا بالتعظيم والحمد والتمجيد ، فإننى يا أمير الشعراء ، أخالفك فى هذا مخالفة شديدة ، إننى مهما قدرتك ، فالحق أولى بالتقدير منك ، ولن تستطيع يا أمير الشعراء أن تدعنى أمر على هفواتك وتسامحك فى نظم الشعر مرور الممجدين المقدسين .

وبعد فإنى لا أجحد العواد ومكانته ، ولكننى أقول : إن الشاعرية تتفاوت بتفاوت أصالة الشعراء ومواهبهم وملكاتهم وفطرتهم الأدبية ، وإن الشاعر قد يجيد فى موضع ويسف فى موضع آخر ، ويجب أن نعرف لكل شاعر هذا وذاك ، أما أن يذهب أحد إلى أن الشعراء وفى مقدمتهم العواد معصومون من الخطأ فهذا وإن آمن به العواد ، فإننى فيه أول الشاكين .

وقبل أن أختم هذه الكلمة أحب أن يطمئن العواد إلى أننى لن أعود إلى مناقشة مرة أخرى على صفحات الصحف والمجلات الأدبية ، وسأنتظر حتى ينتهى مما يريد أن يكتبه لأناقشه آراءه فى كتاب مستقل إن شاء الله .

ولا يفوتنى أن أشير إلى «رمزية السباب» عند عواد ، هذه الرمزية اللطيفة المضحكة ، التى تتمثل فى عنوان مقالته « الشعراء المواطنون فى نظر مؤلف مصرى حديث » .

فإن كانت كلمة « مؤلف » اسم مفعول أفادت معنى ، وإن كانت اسم فاعل ـ وأظن هو ما يقصده أخى عواد ـ فإنى أشكره ، ولا ينسى العواد حينما يصفنى بالحداثة ، أنه لابد أن يذكر أننى خدمت أدب بلاده القديم والحديث على السواء أكثر مما خدمه هو عشرات المرات ، وأن عدد كتبى عن أدب بلاده وحده يفوق عدد سنوات عمره ، وأن العالم العربى والإسلامى يعرف

الخفاجي الذى يمشى فى العقد الخامس من عمره أكثر مما يعرف العواد بكثير.

إننى أشكر العواد لأنه ينشر صفحاتى على الناس .

وأحب أخيراً أن يثق شعراء الحجاز فى تقدير مصر وأدبائها لهم . . وحب مصر إياهم وعنايتها بأدبهم وشعرهم ودواوينهم غير خفى .

وشعراء الحجاز مع ذلك يجب أن لا يضعوا أنفسهم فوق طاقتهم الفكرية والأدبية ، ولا فوق المنزلة التى وضعهم الله فيها ، وأحب أن يعلموا ـ كما ذكرت ـ أنهم غير معصومين من الخطأ ، وليسوا كذلك بمنجاة من نقد النقاد .

ولا يزال الشعر الحجازى بعد فى أول الطريق ، وإذا فهم شعراء الحجاز أنهم وصلوا إلى القمة ، فقد دعوا أنفسهم إلى الكسل العقلى ، وإلى خمود القريحة ، وإلى إضعاف روح الشعر فى أنفسهم ، وأنا أعلم أن شعراء الحجاز بحمد الله ـ عدا العواد ـ لا يأبون النقد ، ولا يأبون دراسة شعرهم دراسة تعتمد على النزاهة والإنصاف فى الحكم الأدبى .

وبينهم كثيرون من أصدقائنا ، نعتز بهم ، ونحلهم منزلة طيبة من نفوسنا ، ونحب أن نقرأ لهم ، وأن يفهموا أن أدبهم موضع عناية الباحثين والدارسين .

وهذه الصلات الفكرية والأدبية بيننا وبين شعراء الحجاز هى التى دعتنا وتدعونا دائماً إلى عدم إغفال شعرهم فى مجال الدراسة الأدبية .

وشعراء مصر ، بل وأدباؤها الكبار ، ينقدون ويكتب عنهم كل يوم فصولا نقدية شديدة، فما رأيناهم غضبوا ، كما غضب العواد وإخوان آخرون له ، وليثق أخى الشاعر محمد حسن عواد بأننا نحابيه فيما نكتب عنه بعض المحاباة ، لا كلها كما يريد ؛ فلينم وليطمئن ، وليتوكل على الله ؟

شاعرية العواد فى رأى صاحب المرصاد[1]

أسلوب العواد فى شعره يتأرجح ، فتارة تقرأ له أسلوبا شعريا يهز النفس ويستولى على المشاعر ، وأحسن ما يتمثل ذلك الأسلوب الطلى الرائع فى قصيدته المعنونة بعنوان (جندى الديمقراطية) .

أما قصيدة « أنا والليل » فلا تلمس فيها أثر القلب الشاعر . وليس فيها أى أثر من آثار الانفعالات النفسية التى اتخذت من الشعر متنفسا لها .

وكل الذى نلمسه ذهن مكتظ بكتب وأسماء للفلاسفة والشعراء وأرباب النحل والمذاهب . وليت ذلك كان فى صياغة حسنة ، أو أسلوب قوى بارع . . اقرأ معى :

يا ليــــل إنى قائل فاسمع
هذا زرادشت ، ومانى . معى
فهل تعى ، ماقلت ، أولاتعى؟

قد شوها حسنك لى ياظلام فهل ترى يا ليل أنى لا أنام ؟
أو لا ترى ، لا ريب أنت الغرير .

ألا ترى — أن هـذه الاستفهامات كلها لا حاجة إليها ، لأن المعنى من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى مثل كل هذه الاستفسارات ، وما هو المعنى أليس هو أن زرادشت ومانى مع الأستاذ عواد ؟ وأنهما — يعنى زرادشت ومانى — قد شوها حسن الظلام .

ألا تعرف أيها القارىء أن مانى وزرادشت لا يريان فى الظلام حسنا ، فليسا هما فى حاجة لتشويهه ؟ ثم ألا ترى أن الشطر الاخير بمعناه وقافيته يشعرك بهوة هبط فيها نفس الشاعر فجاءت (كالمطب) ؟ . أترك ذلك لك ..

---

(١) ٥٩ — ٦٦ ج ٢ المرصاد للفلالى الطبعة الثانية — ١٩٥٦ .

فأصدر حكمك وأنت على بينة من أمرك ولا أفرض عليك حكمي . ولنمش في القصيدة الآن :

يا ليل ، هذا ماروى الأقدمون

ولا ندري ماالذي رواه الأقدمون ، لأن الأستاذ عواد لم يبين لنا رواياتهم اعتماداً على فطنة القارىء الفطن . أما القارىء البليد - مثلي - فليس هو في حساب الشاعر . وإذا أردت أن أنفي عن نفسي البلادة فأقول: ربما قصد العواد برواية الأقدمين قوله « قد شوها حسنك لي ياظلام » ، ولكن لا . لا أظن ، إلا أني ما زلت بليداً ، لأن العواد يقول بعد الشطرة الأولى من المقطع الثاني :

عن شرك الهائل ، والمحدثون

فهل تعي يا ليل ! ماينطوون ؟

لا . لا تعي أنت ، ولم تدر ما يخطر ، مافي أذهانهم ملهما

أنت لعمري كائن لايحير !

لم يبين العواد ماروواه الأقدمون والمحدثون ، لان الليل كائن لايحير ، وهو يوبخ الليل . . ونحمد الله على أن توبيخه انصب على الليل ، والليل لايبالي توبيخ الشعراء ، لانه كائن لايحير ، وبقي على القراء أن يسألوا العواد قائلين : نرجو أن يتكرم علينا بإيضاح شاف على السؤال الكافي . ماذا روى الاقدمون والمحدثون ؟ ؟ .

ذي قاعتي فيك . وذا مكتبي

قاعة الأستاذ العواد ومكتبه - في الليل . لقد اتخذ الشاعر من الليل ظرف مكان . عظيم ! ثم . ثم :

وخير ما سطر ذو مذهب

هيه ثم . . ثم

من كاتب أو شاعر مطرب

هيه ، وحده . . وحده ، ثم . ثم

أو فيلسوف محدث ، أو قديم   من ملتو فى الفكر، أو مستقيم
أو ناصح أمتـــه ، أو نذير

إنه عرض كامل لما فى مكتبة الأستاذ عواد التى - مكانها فى الليل مضافا إليها القاعة - ما علينا من هذا ، فلقد علمنا يا أستاذ عواد مافى مكتبتك من كتب ، بخ بخ . ما شاء الله . . ما شاء الله إنها مكتبة عامرة بأمهات كتب الأدب والفلسفة والشعر ، ومستقيمى الأفكار والملتوين فى تفكيرهم ، فإذا رآك الأستاذ عواد تعجب ، وتبخبخ لمكتبته القيمة ، وما احتشد فيها من فلاسفة وكتاب و .. الخ قال لك :

لكنهم عنى فى معزل   فأوح لى ياليل ! أو غن لى
أو نح عن قلبى نار السعير

وكيف يستقيم للأستاذ عواد هذا المنطق ؟ إنه يقول : إن الليل لا يعى ما رواه الأقدمون ، لأنه كائن لا يحير، فمن أين لهذا الكائن الذى لا يحير أن يوحى له ، أو ينحى عن قلبه نار السعير ؟

إنه طلب من الليل أن يغنى ، وهذا هو الشطط فى المطالب ، أو قل : هى اللخبطة من الطالب .

إن هذا يا أستاذ ليس من الشعر فى شىء ، ولا يمت إليه فى شىء ، أستغفر الله ! إنه يمت إليه بالوزن والقافية ، ثم يأتيك أيها القارىء . . فى بقية القصيدة ألفاظ : الغموض ، والفيوض، والمركز، والمنخفض ، والمستوفر ، ومستبين، واطلخم . . وتطالعك أبيات يستعيذ منها الشعر بالله العلى العظيم ، كقوله فى مخاطبة الليل :

وأنا الذى صورت حولك هذه الصور الكبار . .
ولم يذكر لنا منها ولا صورة ، لا كبيرة . . ولا صغيرة .
وخلقت أفكار التشاؤم فيك تلتذع الفؤاد

ولا نريد أن نقول للأستاذ عواد : إن الليل - الكائن الذى لا يحير -

ليس له فؤاد . . ولم يكن له ذهن يحمل أفكارا ، سواء كانت تلك الأفكار تشاؤما أم تفاؤلا ؟ لأنه أدرى بهذا منا ثم يقول :

وتطيل ليلك بالسهاد ، فلا (قرار) ولا (رقاد)

وهنا يجب أن نقول للأستاذ عواد (حيلك)، لقد توهمت يا أستاذ ، فالرقاد والسهاد أو (القرار) كما يقول : من شؤوننا نحن ، أما الليل ، فلا يدرى عنها شيئاً . وسؤال بسيط أوجهه للأستاذ . كيف يكون ليل الليل ؟

والليل فى عينيك أهول ماتصور شاعر

والنجم فى حلك الدجنة بالأشعة عاثر . . .

إن هذا ، وهذاك ، وهاتيك ، وتلكم من المعانى غير مستقيم . . والأبيات ، والشطرات ، والمختارات من شعرك .. فى هذا الكتاب يذهب بجمال الحياة لا بجمال الشعر فقط . إنك تخاطب الليل ، ثم تقول له . (والليل فى عينيك . .) وتقول له : (وتطيل ليلك) .. أنا لا أستطيع أن أتصور ليل . الليل . ولا أستطيع أن أتصور ليلا يتخذ ظرف مكان توضع فيه القاعة والمكتبة . . ولا أستطيع أن أتصور . . أن هذا الليل الذى هو ظرف مكان له فؤاد وله عينان .. ثم إذا تصورت كل هذا فى ليل العواد ! فلا أستطيع أن أتصور بعد ذلك أنه كائن لا يحير .

وقصيدته (فى مطلع العام الجديد) من هذا النمط أيضا، وهو نمط لا يرضى الشعر فى أسلوبه الرفيع ولا فى أسلوبه المتين وإن كان هذا الشعر يصيب الناس بالدهشة قبل عشرين سنة ، فهو مازال يصيبهم بالدهشة حتى الآن . مع الفارق بين الدهشتين . . .

نلمح شيئا من الانسياب والرقرقة فى نفس العواد إذا قرأنا قصيدته (ذكرى) على أنها غير سليمة من المآخذ فى بعض أبياتها كقوله :

وذكاء . . . . وماست بالمذهب

فلفظة المذهب فى آخر البيت هى التى أتت بكلمة (فضى) فى وسط البيت المقابلة . وقوله :

حيث لاأملك (من) تملك (من) نفسى ونفسك مهرب .

ولعل (من) الأولى (ما) ، فهو يريد أن يقول لا يملك ما يملكه حبيبه من نفسه . والمعنى أنه لو ملك من نفسه ما ملكه حبيبه منها بجانب امتلاك الحبيب لأمر نفسه لاستطاع أن يهرب من حبه . ولكنه لا يملك ذلك ، فما استقام له التركيب إلا كما قال . وذلك دليل عدم عناية الأستاذ عواد بالأسلوب الشعرى الذى تتفتح له النفوس .

وعلى كل فإننا لا نريد أن نوجه الأستاذ الكبير للشعر الصحيح ، ولكننا ندعه يوجه نفسه بنفسه . . فهو يقول :

لا ينير العيش إلا شاعر حى وشعر ساطع

فهو يرى فيما نقدناه من شعره شعرا ساطعا ؟ . . نحن يا أستاذ عواد معك فى نظرتك للشعر .. فإن لم يكن ساطعا — كما تقول — رددناه . ولا نتقبل منه إلا ما كان ساطعا وهاجا . لينير لنا طرائق العيش ..

الشيخ مصطفى عبد الرازق

(١)

من أعلام الفكر المصرى المعاصر ، ورائد من كبار الشيوخ ، وأحد شيوخ الأزهر المعدودين ، ترجم له محمود عباس العقاد فقال :

ولد المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق فى مطلع الثورة العرابية ، وكان مولده فى أبى جرج مقر الأسرة الرازقية ، فتعلم كجميع أبناء حسن باشا عبد الرازق فى ذلك الكتاب الخاص الذى أنشأه لتعليم أبنائه وأبناء أهل القرية ، وكان من شيوخ الفقيد وقتئذ الشيخ حسن الهنساوى ، فحفظ القرآن ، ولما أتم حفظ القرآن رحل إلى الأزهر الشريف ونال منه شهادة العالمية . وقد تفرد هو والشيخ عبد المجيد سليم فى ذلك المعهد فى الحصول عليها من الدرجة الأولى . ومن شيوخ الفقيد الذين تلقى عنهم العلم فى الأزهر : محمد عبده وعبد الكريم سلمان ومحمد حسنين ، وما إن ظفر الفقيد بإجازة العالمية وهو فى رونق الشباب حتى دعى إلى التدريس فى مدرسة القضاء الشرعى ، وذلك بأن ناظر المدرسة يومئذ المغفور له عاطف بركات رأى أن يبعث فى المدرسة نهضة جديدة باختيار طبقة من الشباب للتدريس فيها فكان الفقيد منهم .

وسافر مصطفى عبد الرازق بعد ذلك إلى أوربا وتردد بين مدينتى باريس وليون صارفاً جهده إلى التزود من العلوم والمعارف ، وعاد بعد سنة من إعلان الحرب الكبرى الماضية . وتقلب بمصر فى عدة مناصب ، فكان سكرتيرا للمعاهد الدينية ، فمفتشا فى المحاكم الشرعية ، فأستاذا فى الجامعة المصرية ، فوزيرا ، ثم شيخا للأزهر .

ولقد كان له مشاركات جمة فى الأدب والفلسفة تجلت فى الكتب التى ألفها وفى المقالات التى نشرها فى الجريدة والسفور والسياسة الأسبوعية بإمضاء مستعار كإمضاء « الفزارى » وباسمه الصريح حينا آخر ، وعنوانات تلك

المقالات معروفة مشهورة منها : « صفحات من سفر الحياة » و « مذكرات مقيم » و « مذكرات مسافر » . وفى مقال من هذه المقالات الوجدانية وصف رحمه الله موقف التوديع فقال : فى يونية سنة ١٩٠٩ سافرت إلى أوربا أول مرة ، وكنت يومئذ فتى لم يرما وراء القاهرة من جهة الشمال ، ولم يعرف البحر تجرى سفائنه فى موج كالجبال . لم أسكن فى غير دارنا . ولا عشت إلا بين أهلى ، ولا نطقت إلا لغتهم وكنت من السذاجة ورقة القلب وفرط الحياء على ما كان عليه ناشئة الأزهر فى ذلك الزمن ! كل هذه العوامل ملأتنى من السفر حين دنا موعده ، فاضطربت أعصابى وهاجت عواطفى ، ودخلت إلى والدتى أودعها ، وبى من الأثر ما لا طاقة لى بكتمانه ، وكنت أقدر أنها ستبكى وتعطينى فرصة للبكاء تريحنى ، ولكن الشيخة القوية توسمت حالتى فلقيتنى باسمة ، تخفى قوة الإرادة وتجاعيد الكبر ماقد يساورها من ألم ، قالت : لو كنت جازعة لفراق أحد من أولادى لجزعت يوم سفر أخيك البكر ، وهو طفل لا يستغنى بنفسه ! أما أنت فرجل نضجت مواهبه وكملت تربيته ، سافر على بركة الله وفى ذمته . « ثم ضمتنى إلى صدرها وقبلتنى . هنالك استعنت بكل ما أملك من عزم ، وكل ما فى قلبى من حب وإجلال لهذه الأم البارة على كتمان عواطفى المتأججة ، وقبلت يدها وانصرفت ساكنا مبتسما برغم ما أعانى من وجد واضطراب ، وكان ذلك أول ما علمنى كظم المواجد . والابتسام عند الشدائد ، وتوالت دروس بعد ذلك عودتنى أن أكتم العواطف وهى جائشة ، وأن أرزن للخطوب وهى طائشة . على أن من هذه الأشجان المكظومة ما تضيق بها ساحة الصدر أحيانا فتلتمس هدأة من هدآت الحياة وتنفجر انفجارا . . . » هذا كلام له أكثر من قيمة واحدة فليس قيمته أنه نموذج من أسلوب الفقيد الجليل وكفى ، ولا لأنه صورة من صور نفسه كتبها بقلمه . ولكنه مع هذا وذاك عظيم الدلالة على قوام الشخصية كلها لأن كظم المواجد — كما سماه ، رحمه الله — كان أقوى سمات تلك الشخصية وأوضح خصائصها ، وكان لا يسهو عنه لحظة إلا بدا منه الأسف لحينه ، وثاب إلى

سكينة بالغة كأنه يعتذر بها إلى غريمه ويستعيد بها رضاه عن نفسه . كان الفقيد يحضر لدى الآنسة « مى » — رحمها الله — مساء الثلاثاء ، وكنا هناك ذات مساء ، وفى الندى الشاعر الكبير خليل مطران وبعض الأدباء ، فدخل الشيخ مصطفى باسما يهم بالضحك ، وروى لنا أنه مر ببيار اللواء — وهو على مدى خطوات من منزل الآنسة — فاستوقفه المرحوم أمين واصف بك ، وقال له : ليتك كنت معنا فترى رئيسنا — أحمد شفيق باشا — فى الزى المصرى الجديد — وقد كان البحث عن زى يناسب المصرى شغلا شاغلا فى تلك الأيام لجماعة من المفكرين الذين أرادوا أن يحققوا استقلال مصر فى كل شىء ...

(٢)

ونبغ « مصطفى » فى الأدب والكتابة ، وهذه ألوان من أدبه : كتب بعنوان « الحادث الذى أثر فى حياتى » يقول :

كنت شيخا من شيوخ الأزهر أحمل شهادته وألقى الدروس فيه ، وألقى دروسا فى مدرسة القضاء الشرعى . ثم استقلت من مدرسة القضاء الشرعى وتركت الأزهر ، وذهبت إلى أوروبا أطلب العلم هناك . ثم اشتعلت الحرب العالمية الأولى ، فاضطررت إلى العودة إلى مصر قبل أن أنال الشهادة التى كنت منها قاب قوسين أو أدنى ، وعينت سكرتيرا لمجلس الأزهر الأعلى ، ثم نقلت مفتشا بالمحاكم الشرعية ، وانتهى بى الأمر إلى التدريس فى الجامعة المصرية ... كل ذلك مر بى فى الحياة مقترنا بحوادث قد تستطيع ذاكرتى أن تستعيدها ، ولكن الحياة عندى هى شىء أعمق من هذه الظواهر ، ومجرى الحياة الذى توجهنا فيه طبائعنا ووراثتنا وتفكيرنا أرسخ من أن يغيره حادث طارىء مهما كان كبيرا .

ولكننى وعدت القراء بأن أكتب ، فلأرجعن إلى عهد الشباب الأول فقد يكون فى أحداثه ما يصلح أن يكون حادثا أثر فى مجرى حياتى .

كنت طالبا أزهريا شديد الحياء ، منصرفا بكليتى إلى دراستى ، وتأثرت فى أول الأمر بأشد الأوساط الأزهرية رجعية وجمودا . ثم اتصلت بالشيخ محمد عبده فتأثرت بدروسه وآرائه ، واصطدمت فى نفسى تلك اليقظة الفكرية التى بثها هـذا الإمام فى عقول تلاميذه بما كنا نتلقى عن شيوخ لم ترضنا معارفهم ولا مذاهبهم ، ولـكن لهم فى نفوسنا على كل حال حبا وإجلالا ، كنت يومئذ شابا تتفتق عنه غلائل الطفولة ، ولم تـكن بنيتى قوية ، ولا أعصابى متينة ، فضعفت من أثر الجهد المضنى فى دراسة غير منتظمة ، وعرانى سأم من الدراسة فى الأزهر ، واشتد هذا السأم حتى صار ألما ملازما ، وكانت طبيعة الحياء تعوقنى فى ذلك الوقت عن أن أبث ما بى إلى أحد . ثم رأيت أن أكتب إلى الأستاذ الشيخ محمد عبده كتابا أضمنه ما تنطوى عليه نفسى من ألم ، وهتفت بالشيخ أن ينقذنى منه . وهذا هو نص الـكتاب :

« إنى نظرت فى أمرى بعد أن قضيت ما قضيت فى الجامع الأزهر وأضعت من صحتى وشبابى فى طلب العلم ، فـلم أجد ثمنا لمـا بذلت إلا حشدا من الصور والخيالات لا يضىء البصيرة ولا يبعث العزيمة ولا يعد للسعادة فى الحياة الدنيا ولا فى الآخرة .

ليت الحوادث باعتنى الذى أخذت مِنى بعلمى الذى أعطت وتجريبى

« طلبت إلى الـكمال والعلم النافع ، فما وجدت الدليل ، ولا اهتديت إلى السبيل . . وقد هدتنى إليك خاتمة المطاف ، وفاتحة الألطاف ، فجئتك أسألك أن تعلمنى مما علمك الله ، ولا تكلنى إلى رأيى ، « وهأنذا أبسط يد الرجاء إليك ، ولم أبسط لغيرك يدا ، وأرفع إليك أمنيتى فى الحياة . وقد وضعت أملى ببابك ، ومثلك من لا يخيب ببابه الآمل » ! كنت كـتبت خطابى إلى الإمام ، ولم أشعر به أحدا . وعلى أثره جاء الأستاذ إلى دارنا ، ودعانى إليه ، فـلم يزل يطيب نفسى بأنه هو مر بمثل هذه الحال فى أيام دراسته ، وأنه يرى فيها مخايل يمدحها ولا يذمها . ثم نصح لى بأن أستمر على دروس الأزهر حتى أنال

شهادته . ثم تولى الأستاذ هدايتى إلى مطالعات فى غير أوقات الدراسة ، وخصنى يومئذ من العطف والتشجيع بما بدل يأسى أملا ، وأحال سآمتى عزما ونشاطا ، وكثيرا ما جاشت بى النفس فى غمرات الحياة ، فكنت أستمد العزم والصبر من حديث الأستاذ الإمام فى ذلك المجلس . ومما كتبه إلى بعد ذلك فى خطاب : « لك عندى خالص الدعاء أن يمتعنى الله من نهايتك بما تفرسته فى بدايتك ، وأن يخلص للحق سرك ، ويقدرك على الهداية إليه ، وينشط نفسك لجمع قومك عليه ، والسلام » ! . .

(٣)

وكتب بعنوان « خطرات الشك فى صدور الشباب » يقول :

قضيت صدر النهار فى خمول من أثر البرد الذى نالنى وكدت آوى إلى مضجعى مريضاً ، ولكننى طاردت الضعف وتكلفت القوة واشتغلت ساعة مع زميل لى فرنسى ، ثم اشتغلت من بعده وحدى .

وزارنى بعد الظهر ثلاثة من أصدقائى المصريين فقطعنا زمناً فى الحديث والسمر ، وذهب عنى شىء من الفتور فنهضت للخروج معهم . على أن الطقس كان ذا رطوبة وإن لم يكن كثير البرودة . وانصرف اثنان منهم وبقى ثالثهم معى فقال : إنى سأحدثك بأمر عقيدتى لتعلم موطن القوة والضعف منها . أما الإيمان بالله فقد وصل عندى إلى حد الاذعان الذى لا تزلزله ريبة ، وأما الرسل فما أراهم إلا رجالا من صفوة أممهم وهبوا أنفساً كبيرة ، وعقولا راجحة ، فعملوا على إسعاد الناس وتقريبهم من الخير ، ووضعوا لذلك قوانين هدوا إليها ، كما يهتدى الحكماء إلى وضع قواعد لإصلاح المجتمع الإنسانى ، أو إلى كشف ما خفى عن غيرهم من أسرار الكون .

ولما رسخ فى يقينهم أن ما وصلت عقولهم الصافية إليه هو الحق ، قالوا إنه من الله وسموه وحيا ، وكأنما قولهم هذا من باب ثقة العالم بعلمه ، ولكنه لا يجعل آراءهم وما جاءوا به بنجوة من تمحيص العقول ، ولا يمنحهم من الثقة فوق ما يكون لإخوانهم الحكماء المصلحين فى كل زمان

سمعت قوله كله بإصغاء تام ولم أقطع عليه الطريق فى حديثه ولا أظهرت له إنكارا ، ولم يؤسنى عدوله عما أعتقده الحق من عدوله إليه ، ذلك بأنه يتكلم بروية ، ويعبر عما فى نفسه ، ويدلى بالحجة القائمة عنده ، ومن كان هكذا عظم الرجاء فى عرفانه للحق إذا سطع له برهانه .

أخذت أولا فى اختبار إيمانه بالله لأذهب به من طريق الترتيب الطبيعى فوجدته لايخالف فى شىء مما أثبتته الأديان لله وجعل أساساً للإيمان ، ثم انتقلت به إلى أمر الآخرة فقال إنه فى شك منها ولم يعطها حظها من النظر ، فقلت له : إن الإيمان بالحياة الثانية ينبغى أن يكون موضع بحثك قبل أن تصل إلى الرسالة ، وبسطت له ماتهدى إليه الفطرة ويدركه بادىء النظر من وجود دار جزاء ينال فيها المحسن ثواب إحسانه ، ويسأل فيها المسيء عن إساءته . ومن أيقن بأن الله حكيم لزمه بالبداهة أن يقر بأن الناس لم يخلقوا سدى ، أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون . عند ذلك قال : إنه لابد لى من فضل تفكير فى هذا ، وهبنى أذعنت له فماذا تقول فى المرسلين ؟ فقلت له ما عندى من أدلة الحاجة إلى الرسالة التى ينبغى أن تكون من عند الله ، لأن كثيرا من تعاليم الرسل لايستقل العقل البشرى بها . وقد جاء كل رسول ببينة تؤيد دعواه أنه مرسل من عند الله . وإليك معجزة محمد عليه الصلاة والسلام وهى القرآن الكريم ، فهل ترى أن بشراً يقدر على مثله ؟ ونازعنى فى ماسقته إليه من الأدلة ونازعته ، حتى سكت فسكت عنه ، وتركته إلى نفسه يعرض عليها أدلة المخالف ويراجع أدلتها هى . وأرجو أن أعود إليه مرة أخرى فيكون الحق قد مهد لنفسه سبيلا إلى قلبه . وإنى وإياه لطلاب هدى .

ولوددت أن يبادر شبابنا بطلب اليقين إذا تلجلج الشك فى صدورهم ، فإن ذلك أحرى بأن يقتلع الشبه قبل رسوخها . وفلان . . . أمثلهم فى هـذا

وإن كان يغلبه الشباب حينا على الغضب لرأيه إذا شاء مجادله أن يظهر بالغلبة عليه » .

هذه صورة من صور الحوار الذى كان يجرى أحياناً بين شبابنا طلاب العلم فى أوربا فى صدر هـذا القرن عند ما كانت نزعات الشك فى العقائد يومئذ تشتعل فى أوربا اشتعالا . وقد يكون فى نشر هذه الصورة عبرة لشباب اليوم ولسنا ندرى كيف يفعل شـــباب اليوم ونزعات الشك تتسرب إلى عقائدهم .

(٤)

وتولى الشيخ مصطفى منصب وزير لوزارة الأوقاف عدة مرات ، وفى أواخر عام ١٩٤٥ اختير شيخاً للأزهر ، وظل فى المشيخة حتى توفى إلى رحمة الله فى فبراير عام ١٩٤٧ م ، بعد أن ترك ذكراً مدوياً ، ومؤلفات قيمة عديدة ، وصدى فى شتى أنحاء العالم الإسلامى لا يزول . وفى حياته كان أمير الحج مرة ، وكم له من مواقف كريمة مشرفة لا تنسى . . رحمه الله .

بشـــير السعداوى

صفحة خالدة فى تاريخ ليبيا الحديث

فى مشرق عام ١٩٥٧ فى بيروت ، انتهت قصة كفاح .

ومات زعيم ارتبط تاريخه بتاريخ أمته ، وسكن إلى الأبد بطل ، لم يعرف الهدوء يوما واحدا من أيام حياته .

وشيع الأحرار جثمان وطنى بكى الناس موته فى كل مكان من أرض العروبة .

فى طرابلس وبرقة وفزان، حيث ذكريات جهاده حية ماثلة فى الأذهان .

وفى القاهرة ودمشق ومكة والرياض وبيروت حيث عاش على التضحية والنضال ، يكافح الاستعمار الجاثم على صدر وطنه الحبيب .

إنه زعيم ليبيا الحرة المناضلة ، ورئيس حزب المؤتمر الوطنى العام فى طرابلس .

بشير السعداوى ، الذى خط تاريخا خالدا ، وصفحات مجيدة ، مشرقة بعبقرية الكفاح ، وروعة النضال ، وكبرياء الحرية .

لم يحن (بشير) يوما هامته للاستعمار ، ولا أذل نفسه ساعة فى طلب منصب أو مال أو جاه ، وكان يمكن أن يكون ملكا متوجا ، أو حاكما مرهوب السلطان .

ساوموه على حرية بلاده فأبى .

وفاوضوه على أن يعطى ويأخذ :

يعطى للاستعمار ما يشتهى ، ويأخذ لنفسه من الجاه والنفوذ والمال ما يريد ، فرفض .

فى عام ١٩٤٩ كانت ليبيا نهبا لمطامع الاستعمار ، الجيش البريطانى يحكم برقة وطرابلس ، وفرنسا فى (فزان) . السنوسى على رأس حكومة فى برقة ، وجهاد حزب المؤتمر الوطنى العام فى طرابلس بزعامة (بشير السعداوى) لا يفتر ، ومن خلفه الأحرار من أبناء ليبيا الحرة المجيدة .

وفى خلال هذه الأحداث كانت مصر وكان الشعب الليبي وكانت الجامعة العربية ، يكافحون فى سبيل استقلال ليبيا ووحدتها بأقاليمها الثلاثة : وفى هذه الفترة كتبت بريطانيا للسعداوى ، تفاوضه على تأليف وزارة فى طرابلس على غرار حكومة برقة ، وعلى أن يكون ذلك بالاتفاق مع الانجليز ، فرفض ، رفض السعداوى تأليف وزارة تأتمر بأمر انجلترا ، أو أن يقوم بعمل يكون بمثابة اعتراف منه ومن حزبه بتقسيم البلاد .

وهكذا عاش السعداوى مثلا رائعا للعربى الحر ، والوطنى المخلص ، والزعيم البار بدينه وأمته وعروبته .

كان السعداوى وراء كل حدث كبير أو صغير فى تاريخ ليبيا الحديث .

كان من دعامات الكفاح الوطنى فى ليبيا فى عهد الاستعمار الفاشستى الفاشل ، منذ بدأ غزوه لليبيا فى التاسع والعشرين من سبتمبر عام ١٩١١ ، واتضحت نياته فى إبادة الشعب العربى فى ليبيا جملة ، لتصبح البلاد مزرعة للمهاجرين من الطليان .

ففى عام ١٩٢٠ عقد الأحرار من أبناء ليبيا مؤتمرا وطنيا فى مدينة (غريان) إحدى مدن إقليم طرابلس ، وقرروا فيه توحيد الكفاح بين برقة وطرابلس ، وتوحيد قيادة شعب ليبيا بمبايعة السيد إدريس السنوسى ، وقد ناب السعداوى عن المؤتمرين فى تقديم البيعة للسنوسى ، وخاف الأمير من بطش الطليان فهاجر إلى القاهرة عام ١٩٢٣ ، وبقى السعداوى فى ليبيا ينظم حركة المقاومة السرية حتى نفاه الطليان من البلاد إلى الشام عام ١٩٢٣ .

ولم تكد تطأ قدماه أرض الشام حتى بادر بمعاونة الأمير شكيب أرسلان

بتأليف « لجنة الدفاع عن طرابلس وبرقة » ، التى سميت باسم « جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى » ، وكان لها صوت مدو فى الدفاع عن حقوق الشعب وحريته .

وبعد قليل أصدرت الجمعية ممثلة فى شخص زعيمها السعداوى ميثاقا وطنيا ذاع فى العالمين : العربى والاسلامى ، إذ كان خير معبر عن الأمانى الوطنية فى ليبيا ، ويتلخص فيما يلى :

أولا : تأليف حكومة وطنية ذات سيادة قومية لطرابلس وبرقة ، يرأسها زعيم مسلم تختاره الأمة .

ثانياً : دعوة جمعية تأسيسية لوضع دستور للبلاد .

ثالثا : تنتخب الأمة مجلسا حائزا على الصلاحية التى يخولها إياه الدستور .

رابعا : اعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية فى دواوين الحكومة والتعليم .

خامسا : المحافظة على شعائر الدين الإسلامى وتقاليد القطر فى جميع أرجائه

سادسا : العناية بالأوقاف وإدارتها من قبل لجنة إسلامية .

سابعا : العفو العام عن جميع المشتغلين بالسياسة داخل ليبيا وخارجها .

ثامنا : تنظيم العلاقة بين الأمة الطرابلسية البرقاوية والدولة الإيطالية بمعاهدة يعقدها الطرفان ويصدق عليها المجلس النيابى .

وجاء فى نص البيان الذى أذاعه السعداوى رئيس اللجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية البرقاوية إلى مواطنيه بهذه المناسبة مايلى :

إن الواجب يقضى عليكم أن تعملوا لخير بلادكم ، وذلك بتنظيم صفوفكم ، وجمع كلمتكم ، وأن تؤلفوا فى كل قطر تسكنونه جمعية تلم شعثكم ، وتجمع شملكم ، وأن توطنوا أنفسكم على التضحية والقيام بالواجب الوطنى » .

واستمرت جمعية الدفاع فى نضالها ، ولا سيما بعد شنق إيطاليا للزعيم عمر المختار عام ١٩٣٢ .

وبعد حين قامت الحرب العالمية الثانية ، وظل (بشير) وفيا لمبادئه

وبلاده ، يكافح فى سبيل حريتها وتحريرها ، ويجمع كلمة الليبيين على الجهاد المقدس ضد البرابرة الغزاة .

ونهض (بشير) لجدد البيعة ـ ومعه أحرار ليبيا ومجاهدوها ـ للأمير إدريس السنوسى .

وهزمت إيطاليا فى الحرب العالمية الثانية ، واحتلت بريطانيا البلاد ، وفرضت عليها أداة عسكرية فى برقة وطرابلس ، واحتلت فرنسا (فزان) وحكمتها حكما عسكريا محضا ، وأخذت بريطانيا تضع العقبات فى وجه اتحاد أقسام ليبيا الثلاثة : طرابلس ـ برقة ـ فزان . وقاوم السعداوى أغراض الاستعمار ، وتمكن من جمع الأمانى الوطنية حول الأهداف الآتية :

أولا : الاستقلال التام .

ثانيا : وحدة البلاد بحدودها الطبيعة .

ثالثا : رغبة الشعب الليبي فى الانضمام إلى جامعة الدول العربية .

رابعا : استنكار التدخل الاستعمارى فى شئون ليبيا وسياستها .

وفى ١٨ سبتمبر عام ١٩٤٥ عقد مؤتمر وزراء خارجية الدول الكبرى فى لندن لوضع شروط الصلح مع إيطاليا ، فكان لابد لجامعة الدول العربية تؤيدها مصر شقيقة ليبيا الكبرى من أن تبسط الأمانى الوطنية لشعب ليبيا أمام هذا المؤتمر ، وأرسل الأمين العام للجامعة مذكرة إلى المؤتمر يطالب بإقامة حكومة موحدة تشمل أقاليم ليبيا الثلاثة : طرابلس وبرقة وفازان ، وتشترك فى جامعة الدول العربية مع الدول الأعضاء على قدم المساواة ، وتنال من دول الجامعة وخاصة مصر كل تأييد ومعاونة ، وقال الأمين العام : إنه ليس من مصلحة الامن العالمى فى هذه المنطقة أن يحمل أهلوها وجيرانهم على قبول تسوية للمسألة الليبية تخالف التاريخ والعرف والمصلحة الاقتصادية للبلاد ، والشعور القومى فيها ، وحتى إذا فرض أن البلاد تحتاج إلى معاونة

أجنبية ، ووصاية خارجية ، فإن أحق الناس بهذه الوصاية هى الدول العربية المشتركة فى ميثاق الأمم المتحدة .

وكانت السياسة الاستعمارية ترمي إلى استيلاء بريطانيا على برقة ، وإيطاليا على طرابلس ، وفرنسا على فزان . ولكن جهود مصر والجامعة العربية وزعماء ليبيا الأحرار ، وفى مقدمتهم السعداوى ، حالت دون ذلك .

وفى مارس عام ١٩٤٧ أنشأ السعداوى فى مصر ومعه بعض الأحرار من ليبيا بمعاضدة مصر والجامعة هيئة باسم « المجلس الوطنى لتحرير ليبيا » ، ودعيت باسم «هيئة تحرير ليبيا » وقد بارك إنشاءها الأمين العام للجامعة العربية وأذاع نبأ قيامها من الإذاعة المصرية ، وكون مجلسها فى ٨ مارس سنة ١٩٤٧ من سبعة أعضاء ، فى مقدمتهم السعداوى . وقد قامت للدفاع عن حقوق الوطن الليبي المقدسة وللتعبير عن مشيئته حيال مطامع الاستعمار السافرة فى ليبيا ، وقد بادرت الهيئة برفع مذكرة للدول المشتركة فى مؤتمر الصلح مع إيطاليا مطالبة بوحدة ليبيا واستقلالها ، وبحق الشعب فى اختيار نوع الحكومة التى يريدها .

وبمساعى مصر والجامعة العربية قرر مؤتمر الصلح مع ايطاليا إرسال لجنة تحقيق رباعية مثلت فيها انجلترا وأمريكا وروسيا وفرنسا ، على أن أن يكون للجامعة العربية الحق فى الاشتراك فى هذه التحقيقات ، وذلك لتعرف رغبات الأهالى فى جميع الأقاليم الليبية .

وبادر أعضاء هيئة تحرير ليبيا بالسفر من القاهرة إلى طرابلس ، وفى مقدمتهم السعداوى ، الذى أخذ يوالى الاتصال بالشعب الليبي ، ويقيم المؤتمرات الوطنية ، ويعمل على توحيد الصفوف وجمع الكلمة ، لتحقيق أمانى البلاد فى الاستقلال والوحدة .

وفى ٦ مارس ١٩٤٨ قدمت لجنة التحقيق ، وظلت تطوف بالبلاد إلى اليوم العشرين من مايو ، حيث أجرت تحقيقها فى كل من المناطق الثلاث :

طرابلس وبرقة وفزان ، وتعرفت رغبة الشعب فى الحرية والاستقلال والوحـــــدة .

وواصل السعداوى جهاده ، فألف حزب المؤتمر الوطنى العام ، ثم حصل على البيعة للأمير إدريس مرة أخرى ، ولكن البيعة كانت تلزم الأمير بالدفاع عن الاستقلال والوحدة ومقاومة مطامع المستعمرين ، فاعتذر الأمير عن قبولها ، وقال إنه يجب السعى أولا لاستقلال كل منطقة على حدة ، وأعلن حكومته فى برقة عام ١٩٤٩ ولما عزم الأمير إدريس على السفر إلى لندن إجابة لدعوة الحكومة الانجليزية ، دعاه السعداوى إلى السفر من بنيغازى إلى طرابلس برا ، وسافر السعدواى إلى طرابلس وأعد العدة لاستقبال الأمير فيها استقبالا شعبيا يعبر عن رغبة الشب الليبى فى مقاومة مطامع الاستعمار ، وأقام للأمير فى مساء يوم وصوله حفلة كبرى وجه الدعوة فيها للجميع ، ومنهم ممثلو فرنسا وأمريكا وانجلترا ، وجاء فى بطاقة الدعوة « لحضور الاحتفال بمناسبة وجود أمير ليبيا بطرابلس » .

واحتفى السعداوى بعد ذلك بمولد استقلال ليبيا ومبايعة الأمير محمد إدريس المهدى السنوسى ملكا على المملكة الليبية المتحدة بأقاليمها الثلاثة طرابلس وبرقة وفزان فى ٢٤ ديسمبر ١٩٥١ ، وقامت حكومة لتعمل على تسليم الملك الليبى البلاد .. وتطورت الأحداث فى تاريخ الوطن الليبى المعاصر ، فأخذت حكومة ليبيا تعتقل الزعماء ، وتتهم الأبرياء ، وتنفى من تشاء كما تشاء ، وتقدم إلى الإعدام الأحرار من أبناء ليبيا العزيزة .

وشاهد التاريخ الليبى المعاصر حدثا جليلا آخر :

فى صبيحة يوم الجمعة الثانى والعشرين من فبراير عام ١٩٥٢ ، وأمام منزل بشير السعداوى وقفت سيارات عسكرية مصفحة ، ونزل منها ضباط إنجليز يتبعهم ضباط من البوليس المحلى ، واقتحمت هذة القوة المدججة

بالسلاح منزل الشيخ الزعيم بشير السعداوى ، واعتقلته هو وشقيقه السيد نورى السعداوى ، وابن شقيقه زهير السعداوى ، وقادتهم إلى طائرة حربية ركبوها إلى القاهرة منفيين عن وطنهم ليبيا فى عهد حرية ليبيا واستقلالها المزعومين .

وقدم السيد بشير السعداوى إلى الجامعة العربية مذكرة باسم حزب المؤتمر الوطنى العام بطرابلس يطالبها باستمرار الكفاح من أجل قضية ليبيا حتى يمكن إنهاء الطغيان السائد بها ، وتصحيح الأوضاع القائمة فيها زورا وبهتانا ، وبالعمل على إتاحة الفرصة للمواطنين لممارسة كل حقوقهم المدنية والسياسية وإطلاق سراح المعتقلين .

ومن القاهرة سافر السعداوى إلى الرياض مستشارا فى الشئون العربية للملك سعود ، وبين الرياض والقاهرة ودمشق وبيروت تنقل السعداوى ، الذى ظل يحارب الاستعمار فى بلاده ، ويحارب المعاهدة البريطانية الليبية التى فرضها الاستعمار على بلاده عام ١٩٥٣ ، ويحارب سياسة الضعف والاستخذاء التى تسير عليها حكومة ليبيا ، ويحارب ربط بلاده بعجلة الاستعمار وأحلافه وسياسته ، حتى لفظ الرمق الاخير ، وهو يدعو لوطنه ، لليبيا ، ولشعب ليبيا :

بالحرية ـ والاستقلال ـ والمجد ـ والكرامة .

وبالحكم الوطنى الصحيح المعبر عن مشيئة الشعب وآماله فى الحياة .

الدكتور أحمد زكى أبو شادى

(١)

مات أبو شادى ، بعد أن ترك فى الحياة دوياً لايزول صداه ، وخلف للوطن مجدا لاتمحى آثاره ، وبعد أن حمل على كتفيه أعباء الكفاح من أجل مستقبل الفكر والثقافة والأدب خمسين عاما طوالا ، فما لان له عود ، ولا وهنت له قناة .



وأبو شادى الشاعر الثائر ، والكاتب الحر ، والناقد النابه ، والمفكر الرائد ، والطبيب المرموق . . طيب الله ثراه ، كان جيلا كاملا من العظمة والمجد والموهبة التى لا تنى تبتكر وتجدد ، وتنير للإنسانية طريقها بين الظلام والصخور والأشواك .

كان صورة زاهية مشرقة للعقل المصرى المتحرر المتوثب ، وقد لايكون فى تاريخنا الفكرى المعاصر من خلف ما خلف أبو شادى ، من آثار أدبية وفكرية عالية .

ولقد عاش طول حياته يناضل نضال الأبطال الأحرار ، من أجل مصر والعرب ، مصر التى أخلص حياته وفنه لها ، والعروبة التى دافع عن حقوقها وأمجادها ، أليس هو القائل :

إن الكنانة والعروبة ملتى دين يوحده الوفى العابد
فلموطنى روحى وكل جوارحى ولكم حنينى والشعور الماجد
يكفى لنا النسب العتيد بجمعا لجميعنا صيد رماه الصائد

وقصائده فى الدفاع عن حرية العالم العربى ، وفى تأييد حقوق شعوبه ، تسجل لنا أحاسيسه الوطنية الرفيعة . . وقد ظل فى مصر يندد بدكتاتورية

القصر والاحزاب ، ويحارب الطغيان والفساد ، وينادى بالقضاء على الإقطاع ، كما نادى بالجمهورية . وكان الشعب يردد أبياته من قصيدته « حداد القطن » :

يا شعب قم وانشد حقو ... قك فالخنوع هو الممات
ما دمت تقبل أن تكو ... ن من الضحايا كالعبيد
سيسومك القوام والأسـ ... ـياد ألوان القيود

ومنذ عام ١٩٢٦ وهو ينادى بإنشاء جامعة الإسكندرية وجامعات أخرى، وبآراء جديدة فى عالم النحالة والاقتصاد الزراعى ، كان لها أثرها فى حياتنا الاقتصادية .

ومع سيادة النزعة الوطنية والقومية فى تفكير أبى شادى وأدبه ، تبدو فيهما كذلك مظاهر النزعة العلمية ، وآثار من النزعة الإنسانية الرفيعة ، التى لونت حياته وأدبه وشعره بألوان مشرقة من الحب والإخاء الإنسانى ، وما أجمل ما يقول عن نفسه :

إن كان للوطن العزيز رعايتى ... فلدولة الإنسان عهد ولائى

لم يكن لأبى شادى هدف واحد بل أهداف ، ولم يحى فى الأغلال والقيود ، وإنما عاش طليقاً حراً ، يؤمن بحرية الوطن والعروبة ، وبحرية الفكر والنقد والأدب والفن ، ويكافح من أجل التحرر العقلى والثقافى ، ويذيع آراءه فى مجلاته وكتبه العلمية والأدبية التى تبلغ الثلاثين . وفى قصصه ومسرحياته الشعرية ودواوينه ، مما يبلغ الستة والثلاثين ؛ ودعواته للتجديد فى الأدب والشعر تراث خالد فى أدبنا الحديث .

وكان أبو شادى يرى الرجعية والجمود والتقليد ألد أعداء الحرية ، ومن ثم حاربها وأعلن الثورة عليها ، وكان يؤمن بالإنسانية فى الثقافة ، ومن ثم درس روائع الأدب العربى قديمه وحديثه ، وتناول أصول الأدب الإغريقى ، ومذاهب البلاغة عند الأوربيين ، واطلع على آثار العلوم والفكر فى كل لغة وثقافة ، وعاش يدعو فى الثقافة ، والسياسة ، والاجتماع ، والاقتصاد ، إلى التحرر والثورة على خصوم التقدم ، مردداً قوله :

وإنى — على ضعفى — لرائد بيئتى جريئاً أوافيها بحبى وإيثارى

ويدعو فى الأدب إلى الإخاء الإنسانى ، وإلى الإخلاص ، والديمقراطية ، والوحدة ، وخدمة الفكر ، والإيمان بالمثالية ، ويدعو فى الشعر إلى الأصالة ، والفطرة والموهبة ، وإلى الوحدة التعبيرية ، والتناول الفنى السليم للفكرة والمعانى والموضوع ، والسمو المستمد من فكرة التقدم والإنسانية ؛ محاربا القيود والصنعة ، والتكلف ، والابتذال :

لا خير فى الشعر تطريباً وتطرية ومحض زهو بألحان وألوان

وما الخلود لفن لا تسود به روح الجمال دنايا العالم الفانى

وقد عمل طول حياته على إنصاف الشعراء ، وخاصة المغمورين منهم ، ونوه بالأدب المصرى الحديث فى شتى البيئات الأدبية العالمية عامة ، وبيئات الاستشراق على وجه الخصوص ، وأنشأ مدرسة أبولو ومجلتها الشعرية الذائعة ، التى كانت درة فى تاريخنا الأدبى المعاصر .

وأبو شادى فوق ذلك كله شاعر بارز من بين الشعراء العرب المعاصرين ، ورائد المدرسة الحديثة فى الشعر ، هذه المدرسة التى حملت لواء الشعراء بعد شوقى ، وحافظ ، متابعة خطا المجددين فى الشعر ، العربى من أمثال : شكرى ، ومحرم ، ومطران ، وكانت تدعو إلى التجديد فى أوسع نطاق ، وإلى الأصالة فى أبعد حدودها ، وإلى تمثل روح الفن والموهبة فى إنتاج الشاعر .

ومن أعلام هذه المدرسة : أبو شادى ، والدكتور إبراهيم ناجى ، وأبو القاسم الشابى ، وحسن كامل الصيرفى ، ومختار الوكيل ، وصالح جودت ، ومفيد الشوباشى ، وسواهم .

ودواوين أبى شادى الثلاثة والعشرين ، وقصصه ومسرحياته الشعرية العشر ، درة متألقة فى جبين الشعر المعاصر ، ففيها روائع من القصيدة ، لم تجد بها قريحة شاعر .

هذا هو أبو شادى الذى عاش من أجل وطنه ، ومات شهيداً مهاجراً

غريبا فى أرض العالم الجديد ، حيث كان يكافح من أجل حرية الفكر ، وحرية بلاده التى أحبها من أعماق قلبه .

ومن العجيب أن يهاجر الشاعر إلى انجلترا فى الرابع عشر من أبريل عام ١٩١٢ فى طلب العلم ، ثم يهاجر إلى العالم الجديد فى الرابع عشر من أبريل عام ١٩٤٦ ، وفى الرابع عشر من أبريل عام ١٩٥٥ نشر نعيه فى مصر ، والعالم حيث كان قد مضى على وفاته يومان ، وحيث كان قد صلى عليه فى مسجد واشنطون ، ورقد رقدة الأبدية فى مثواه الأخير . وهو القائل حين هاجر من مصر إلى أرض العالم الجديد :

سألونى : لم ارتحلت ؟ كأنى ... لم أجبهم بسيرتى نصف قرن
شـــاديا بالطليق من شعرى البا ... كى ، أغنى لمجـــدهم ما أغنى
وحيـــاتى لعزهم فى كفاح ... ككفاح الشعاع فى يوم دجن
وتبلغت بالعذاب وبالبؤ ... س مرارا ، وكل حظى التجنى
وكأنى وحـدى المسىء بإحسا ... نى لعصرى ، أو أنه لم يسعنى
ما كفاهم أنى لهـم ذلك الرا ... ئد يشتق كالراح فى أسر دن
ما كفاهم هـــذا وهذا فنادوا ... بعقوقى وما رعوا حق سنى
ثم حالوا بين المثـــالية العلـ ... ـيا لفكرى وبـين شعبى وبينى
فترحلت حيث يحترم الأحـــ ... ـرار ، حيث الهواء طلق لذهنى
وأظـــل الوفى رغم اغترابى ... لبـلادى ، ما غيبت قط عنى

(٢)

وهذه ألوان عدة من أدب أبى شادى :

كتب بعنوان « التربية الإسلاميـــة » يقول :

ما هى عناصر التربية الإسلامية الصحيحة التى جاء القرآن القريم بيذورها وسيطرت على الفكر الإنسانى منذ ثلاثة عشر قرنا ؟ أهى شىء قوى حقا ذو طاقة فذة لا تنفد ؟ وهل صحيح أنها خذلت الناس إذ أخذت الحضارة

تتقدم أم أن الناس خذلوها ؟ يقول الأستاذ محمد محمد الدهان مبعوث الأزهر لرئاسة المعهد الإسلامى بزنجبار[1]:

« إن الإسلام الذى نعتز به وندعو الناس إلى تعاليمه السمحة ومبادئه العادلة ومدنيته الفاضلة قد وضع أسس السعادة للمجتمع الانسانى منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا . ولو أن الانسانية جعلتها دستورها وأقامت عليها حياتها لنعمت بالسعادة وظفرت بالهناءة » .

ثم نوه بثلاثة مبادىء رئيسية للتربية الإسلامية ، ألا وهى :

١ — « مبدأ الاستعانة بالله وحده ، لانه الخالق لهذا الكون على تلك الصورة الجميلة والوضع المحكم والنظام البديع ، وإذا كانت آياته ناطقة بوجوده ، وصنعته شاهدة بوحدانيته ، فوجب أن يعبد وحده وأن يخص بالاستعانة دون سواه » .

٢ — مبدأ المساواة بين الانسان وذلك لاتفاقهم جميعا فى عنصر الوجود واتحادهم فى مادة الحياة — الامر الذى يحتم عليهم أن يعيشوا إخوانا متحابين ، لا عتاة مستكبرين ، وبذلك يستتب الامن ويستقر السلام وتهدأ النفوس وتصفو القلوب وترفرف على العالم ألوية المودة والاخاء .

٣ — مبدأ المعرفة الصحيحة التى تهذب النفس وتقوم الطبع وتنمى العقل وتسمو بالانسان إلى المرتبة الجديرة به ، فيدرك أسرار الكون وما أودع الله فيه من جمال وبهجة ويسخر قوى الطبيعة إلى ما ينفع الناس ويعود عليهم بالخير » .

وبعد أن يستشهد بآيات قرآنية عامة مؤيدة لهذه الأسس يقول : « هذه هى أسس السعادة كما وصفها كتاب الله فى أولى آياته — عبادة لله وحده ، واستعانة به دون سواه ومساواة ومحبة وإخاء ومودة ، وعلم به يدرك المرء

(١) مجلة (صوت أندونيسيا) ، نوفمبر سنة ١٩٥٢ ، ص ٧ .

حكمة الوجود ويعلم أسرار الكائنات ، فيقوى يقينه ويزداد إيمانه وينشرح صدره . فهل للإنسانية وقد شقيت بما وضعت من نظم وما سنت من قوانين أن تفيء إلى الإسلام فتقيم حياتها على تلك المبادىء العالية والاصول الرحيمة العادلة ؟ وحينئذ يشعر أفرادها بالهناءة وتشيع بينهم المحبة ويظفرون برضا الله ورعايته ، ويكونون أهلا لنصره ورعايته » .

ونحن نقول تعليقاً على هذه الدعوة الجميلة أن الاستاذ الدهان أصاب فى ذكره المبادىء ولم يوفق فى شرحه لها . إن تلك المبادىء هى مبادىء إنسانية نادى بها الإسلام وتغلغلت فى صميم الحضارة الحديثة ، فالدعوة المبهمة إلى الرجوع إليها كما يقال معناها عدم فهم للحضارة الحديثة — تلك التى تتجلى أعظم التجلى فى بعض الدول الحديثة — لانها نابضة بروح الإسلام الصحيح ، بينما كثيرون من المسلمين ابتعدوا عنها أو اكتفوا بالقشور فساءت أحوالهم تبعاً لذلك .

فأما مبدأ الاستعانة بالله وحده فمعناه الإسلامى الاستعانة بأحكامه الهادئة وحدها ، فالسنن الإلهية هى مظاهر الخالق ورموزه سبحانه وتعالى . وعبادة الله هى استلهام المثاليات العليا التى وضعها للبشر كما ينم عنها قوانين الطبيعة الحكيمة ، وما أشكال العبادة بذات بال إذا تجردت عن الروح السامية الإلهية المهيمنة عليها . الاستعانة بالله إذن هى الاستعانة بسننه وانتفاع الامم بها ، وعبادته محاسبة الضمير ومناجاة تلك المثاليات العليا الشريفة .

إن المبادىء التى تقوم عليها التربية الإسلامية هى مبادىء إنسانية عالمية ، وقد عنيت بها فعلا الحضارة الحديثة فى مراحل تقدمها واستوعبتها الحضارة الامريكية خاصة ، ولم يغفل عنها إلا المسلمون وحدهم فى عهود تأخرهم ، فبدل مطالبة الأمم المتمدنة بالاخذ بتلك المبادىء — وهى آخذة بها فعلا — يجدر بالشعوب الإسلامية أن تحاسب نفسها وترجع إلى سيرتها الاولى وتطبق تلك المبادىء الشريفة فى حياتها بدل التشدق بها فحسب .

أليست هذه المبادىء هى التى قال عنها « نابليون بونابرت » : إنها مطمح أنظاره فى تأليف مجتمع عالمى جديد ؟

لقد صدقت المربية أسماء حسن فهمى — وهى أستاذة فى التربية من انجلترا — فى ملاحظتها(١) : « إذا اعتبرت الحضارة الإسلامية نقطة تطور هامة فى تاريخ البشرية لما ترتب عليها من تغييرات عقلية واجتماعية وسياسية باقية ، فكذلك ينبغى أن ينظر إلى التربية الإسلامية التى هى أساس تلك الحضارة والتى لها من الآثار والخصائص ما يميزها عن سائر أنواع التربية » . ومما ذكرته تنبيها وتنويها قولها : « والتربية الإسلامية جديرة بفائق العناية من جانب المشتغلين بالتربية جميعاً ، فهى فضلا عن آثارها الخالدة فى ميادين الاخلاق والدين والتقاليد والعلوم والفنون (وهى النواحى التى كشف عنها المؤرخون واجلوا خفاياها وكنوزها) ، قد خلفت لنا إلى جانب ذلك تراثا لم يحتل تماما بعدفى عالم النظريات والنظم والأساليب والتربوية مما لاتزال آثاره باقية بين ظهرانينا ، ومؤثرة فى تكويننا وتفكيرنا ، هذا فضلا عن أن التربية الإسلامية حلقة هامة فى نمو التربية العامة وتطورها ، فبعض طرائق التربية الإسلامية مثلا تنتقل إلى معاهد الغرب كوظيفة المعيد والرحلة والمناظرة وتؤثر فى نمو التربية الغربية إلى جانب تأثير علوم العرب وفنونهم . إذن فدراسة تطور التربية دراسة كاملة متصلة تستلزم العناية بتراث المسلمين فى التربية» . . والأهم من ذلك فى نظرنا ما انطوت عليه المبادىء والنظم والأساليب التربوية من مثل وغايات: كنزعتها المثالية التى تجلت فى تقديس العلم والسمو به إلى مرتبة العبادة ، والعناية البالغة بالدين والأخلاق وأمور الدنيا والآخرة معاً ، ومرونتها فى طرق التحصيل وعدم تقيدها بالنظم المركزية ، الجامدة ، وروح الديمقراطية والإخاء والمساواة التى قضت على الفروق بين الشعوب والأجناس والطبقات فى ميدان التعليم كما فى ميدان الدين ، فوفرت لجميع الأفراد الذين يقبلون على التعليم من تلقاء أنفسهم فرصاً متساوية فى التحصيل

(١) كتاب « مبادىء التربية الإسلامية » — سنة ١٩٤٧ .

بطريقة لم يألفها العالم القديم ، ولا يزال يقصر دونها جهود كثير من الشعوب الحديثة ، . هذه هى الديمقراطية الإسلامية الحقة التى سبقت الديمقراطية الغربية ثم استوعبتها الأخيرة وبلغت ذروتها من التألق وقد نمت وترعرعت إلى أبعد الغايات .

لم يقل أحد فى الأخوة القومية أفضل من هذا الحديث البسيط السمح الذى نادى به الإسلام : « ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى » . وقد بلغ تأثير هذا المبدأ غايته فى العصر العباسى حيث كثر التزاوج بين الأجناس وأهملت العصبية العربية وروعى مبدأ المساواة فى الحقوق السياسية والاجتماعية بين جميع المسلمين بصرف النظر عن الجنس والعنصر ، مما أدى إلى تماسك الإمبراطورية الإسلامية مدة قرن تقريبا سياسيا وعقليا ، واستمرار وحدتها الروحية والعقلية بضعة قرون بعد أن تفككت الدولة سياسيا .. . وساعدت تلك العوامل على الانتعاش الفكرى فغمرت العالم موجة من النشاط العقلى .. وكانت المملكة الإسلامية فى الواقع متحدة من الناحية العقلية على الرغم من تعدد ملوكها وحكوماتها .. . وقد استمر هذا النشاط العقلى فى البقاع الإسلامية حتى القرن الثانى عشر الميلادى على وجه التقريب » ، واتسم بطابع الابتكار بعد أن ترك دور النقل والاستيعاب الأول . وسيرة الفاطميين فى مصر والأندلسيين فى اسبانيا الإسلامية حافلة بالشواهد العديدة . ولم يفقد العالم الإسلامى وحدته الروحية والثقافية إلا بعد ظهور المغول المخربين والأتراك والتتار الرجعيين .

ومن كل هذا نرى كيف أن التربية الإسلامية منذ بدايتها كانت تحترم حرية التفكير وطابعها التنوير والإصلاح نقلا واستيعاباً وابتكاراً ، وهدفها كان دائما دعم الإخاء والمساواة والعدل ، فلما انقلبت الأوضاع إلى عكسها فى عصور الانحطاط لم يبق للتربية الإسلامية الصحيحة من أثر وأصيب الدين ذاته بضربات قاصمة ، وبات ما بنى على الفاسد فاسداً .

وصفوة القول ان التربية الإسلامية تربية ديمقراطية إنسانية واسعة الآفاق، وقد أضاعها المسلمون أنفسهم ، فإذا شاءوا أن يغنموا الخير من دينهم ودنياهم فما عليهم إلا الرجوع إليها ، وهذا ميسور إذا ما التفتوا إلى الغرب واقتبسوا جذوتها منه ، لأنه صانها لهم وللعالم بأسره فى مثل المدنية الحديثة الرفيعة [١] .

(٣)

وكتب أبو شادى بعنوان « الحرية للأدب » يقول :

تحدثت فى بعض محاضراتى عن أثر الحرية فى الفنون ، وإنه لحديث ذو سعة — فهو حديث الحياة الجديرة بهذه التسمية ، وإنه لحديث لاينتهى ؛ فالحرية هى الحياة والحياة هى الحرية .

لذلك لم نعجب حينما أراد مثل الدكتور محمد بديع شريف أن يعبر عن وطنيته وأن يزكى عن أدبه فى آن واحد فأتحف أبناء وطنه — إن لم نقل العالم العربى بأسره — بكتابه الحكيم (فى ظلال الحرية) الذى نشرته « دار الكتاب

(١) يجعل ابن سينا أساس التربية مراعاة ميول التلاميذ واستعدادهم ، حتى لايرهق الأطفال بأعمال يصعب عليهم أداؤه لأنها لاتجرى مع رغباتهم . وعلى ذلك فابن سينا يحترم الميول مهما كانت متواضعة . كذلك عالج هذا الفيلسوف مشاكل التأديب بطريقة يتجلى فيها الحزم الممزوج بالرفق ، فرأى أن يجنب الصبى معايب الأخلاق بالترهيب والترغيب ، والإيناس والإيحاش ، والإعراض والإقبال ، وبالحمد مرة وبالتوبيخ مرة أخرى ، ما كان كافيا ، فإن احتاج للاستعانة باليد لم يحجم عنها . وليكن أول الضرب قليلا موجعاً كما أشار به الحكماء من قبل ، بعد الإرهاب وبعد اعداد الشفعاء . وهكذا لايجعل ابن سينا القسوة والضرب أول وسيلة للتأديب ، بل هو لايلجأ إلى الضرب إلا إذا فشلت الوسائل الأخرى . ولقد حدد علماء المسلمين عدد الضربات التى توقع على الطفل بثلاث ، كما عينوا المواضع التى يحدث فيها الضرب حتى لايتعرض الطفل للأذى .

والغزالى الذى يعتبر حجة الإسلام ، والذى كان لآرائه أكبر الأثر فى تفكير المسلمين فى العصور التالية ، يتكلم عن الطفولة بعطف ورقة لاحد لهما . فهو يصف الطفل بأنه « أمانة عند والديه » .

العربى بمصر » وفيه يقول ممهدا : « فى أحضان الحرية يتفتح الرأى مثلما تتفتح الزهرة فى ضحوة الشمس بللها الندى وداعبها النسيم . وبين يديها تندفع المواهب من مكانها تخترع وتبتدع لتنشىء مقومات الأمة ، والحرية تبحث عن العدل ، فإن العدل لايبسط جناحيه إلا فى ظلالها ، وإذا نطق لسان العدل اعتدلت الموازين ، فلا ترجح كفة إلا إذا ثقل الراجح بعلمه وعقله وأدبه وخلقه وكمال إنتاجه . وهنا يفتح المحيط ذراعيه للموهوبين الذين يكونون الجيل ، فينبت فى هذا الجيل فرد يعرف معنى الجماعة ، وجماعة تعرف معنى الفرد ، وأحزاب تعرف معنى الأمة ، وأمة تعرف معنى الأحزاب ، ويصبح التنافس والتزاحم على الفضائل وبدائع التكوين ، وتتوامم أعمال المبدعين مثلما تتوامم نغمات الموسيقى فى القطعة الخالدة ، وهكذا يتسق نظام المجتمع . فما أسعد الأمم التى تظلها الحرية ويشيع فى أرجائها العدل . إذا اختفت الحرية مات العدل ، وإذا مات العدل اضطربت الموازين ، واختلت درجات المقاييس ، ونبتت الأوهام فى حقول الحقائق ، وصار الفدم يسمى عبقريا والجاهل عالما فيلسوفا ، والسارق حاذقاً ماهراً ، والثرثار خطيبا مفوها . ومعنى كل ذلك أن الحق يختنق ويتكلم الباطل ، وإذا تكلم الباطل خاف البرىء وأمن المسىء ، وإذا أمن المسيء توارى الاطمئنان ، وكنست مواهب الإبداع فى مكانس الخوف ، وتوارت فى ظلمة الذلة ، وصار صيداً مباحاً . ومتى توارى الإبداع والإنشاء فى أمة فأنذرها بالتحلل من كل قيد والتفسخ فى كل ناحية . إننا ننشد الحرية حتى لانكون صيدا مباحا ، ونؤمن بها كى نسمو عن عبادة الأصنام إلى عبادة الديان ، ونريدها لنبدع فى ظلالها ، فتعتدل أزمة الحكم وتتسق مدارس المجتمع فى أحضان الأحزاب ، وبين يدى الجامعات ، وينشأ الرجال المبدعون ، ويتوارى من الوجود أشباه الرجال ، وتتغلب على المحن ونجتث عوسج الآراء المتطرفة المتشابكة ، فنخرج بالأمة إلى ضاحية واضحة تتشعب فيها الحياة » .

ولكن ثمة رأياً آخر يسخر من خصوبة الإنتاج التى تتجلى فى تأليف

نوابغ من أمثال طه حسين وأحمد أمين ومحمود كامل وكرم ملحم ومحمد عبد المنعم خفاجي ومحمود تيمور ...[1]

إن الأمم الراقية لن تحترمنا لو أذللنا الفكر كيفما كان، وإنما تحترمنا لاحترامه، وأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض. وإذا كانت هذه الملاحظة الرجعية قد ظهرت فى صحيفة «مهجرية»، فليست من وحى العالم الجديد بأى حال، ولكنها من تأثير العقل الباطن المختزن تجاريب الماضى فى أقطار أخرى، وهى تجاريب تعسفية فى أجواء استعمارية.

ليس من الحتم أن يكون الإكثار قرين الاسفاف ولا الإقلال قرين الإجادة، ولا يوجد وسط راق فنى يمكن أن يبارك أية دعوة فيه ترمى إلى قصف ريشة بيكاسو مثلا، وقد شملت عبقريته الفنية آفاقاً واسعة.

وإن ننس لا ننسى اجتماعاً أدبيا فى نيويورك اشتدت فيه الحملة على شاعر مهجرى لمغالاته فى التحامل على سواه وعلى الأخص على المبدعين المنتجين بينما هو مزهو بإنتاجه غير الأصيل الذى أحسن مافيه سلاسته اللفظية وسهولته التى تجتذب الجماهير، وصاح ناعب بأن هذه الآثار أولى بها الا تكون! فأنكرنا الترويج لمثل هذا الحجر، وقلنا حينئذ إن الخير كل الخير فى إطلاق حرية الفكر والتأليف، وإن الشر كل الشر فى التحكم وفى تشجيع الرجعية وخنق الحرية. وضربنا المثل بتآليف جورجى زيدان فإن منها ماهو خلق كالمشهود فى رواياته التاريخية، ومنها ماهو نقل وشرح، ومع ذلك استفاد الأدب العربى من مجموع آثاره العديدة. وكذلك حال الشعراء والأدباء سواء فى البلاد العربية أو فى المهاجر، فبعض الدواوين وبعض المؤلفات الأدبية وبعض الدراسات ليست سوى شروح أو تكرار أو تحليل مسهب أو إجمال مركز لخواطر سابقة، ولكنها مع ذلك ذات قيمة فى التوكيد والتعليم

(١) راجع جريدة (السمير) النيويوركية بتاريخ ١٦ يوليو سنة ١٩٥٢، من مقال افتتاحى لإيليا أبو ماضى.

فقد يكون الأصل المشروح مركزا موجها إلى الخاصة فيأتى الأديب أو الشاعر السلس ويستوعب هذه المعانى ويغرق فى تحليلها فى لغة سهلة يفهمها الجمهور . فكيف تجحد خدمته حتى ولو كان منتحلا خواطر غيره ومعانيه دون الاعتراف بفضل من سبقه ؟ إنما العيب كل العيب فى ذلك الجحود وفى اغترار القراء والناقدين به ، لا فى التكرار الادبى الذى يتكفل الزمن بغربلته وتصفيته على مر الأيام .

إن الادب العربى فى حاجة ماسة إلى تشرب الحرية ، وهذه الحرية هى التى توحى بالتسامح والترحيب بجميع ألوان الإنتاج الادبى وغير الأدبى تاركة للزمن غربلتها ، والادب العربى فى حاجة إلى النقد المقارن بالآداب الفرنجية ، ثم إنه فى حاجة إلى النقد المقارن بالفنون من شرقية وغربية ، وبعد ذلك يرجى أن يتسع آفاقه وأن يفيض عليه الإلهام من جوانب شتى . وأما ذلك « الوأد » الذى ينادى به أديبنا المهجرى — ولعله آخر من يجوز له أن يفعل ذلك — فليس من وحى الأدب الحر بأى حال ، وإنما منبعه من نفسية الكاتب ومن ظلال الماضى المخيمة على عقله الباطن .

(٤)

ومن صور شعر أبى شادى قصيدته : « قالت الأحداث » وها هى ذى :

قالت الأحداث للشعب : « اتئد	أيها الشعب ، وحاذر ، وتبصر !
لا تحـاول طفرة ما تشتهى	قد يصير الخطر المشبوب أخطر !
أيهـا الأعزل مهلا ! إنمـا	جرؤ الشاكى سلاحا وتخطر
وهوى فى وهدة منبوذة	كل مغرور بلا بأس تجبر
تحمل الأدهار من أشلائهم	فوق ما تحمل من بؤس تكرر
من يعش فى الأمن يسلم عمره	وأخو الهيجاء إن يسلم تعثر ! »
فأجاب الشعب : « هيا واصنعى	كيفما شئت ، فإن الجبن منكر

لم يعش شعب بلا حرية ... أى معنى لحياة لم تحرر؟
اضحكى أو فاهزئى منى ، فما ... أحقر العيش على ذل موقر
طول عمرى فى مدى حريتى ... إن عدتنى لم يعد عمرى يذكر
لا تقولى لى: اتئد ، بل فاحذرى ... آبيا فى غضبة الحق تسعر
لا يبالى كل ما جئت به ... أيها الأحداث ، فالإيمان أقدر
دمه أليق فى تعبيره ... من حديث الأمن عن سخط تفجر
إن بأس الشعب فى وحدته ... لهو أقوى من أذى جيش مسخر
وارتضاء الذل فى تزويقه ... هو دون الذل ، بل أدنى وأقذر
يصرع الأحداث شعب واثق ... من نهاه ، وهواه قد تبلور
فإذا التاريخ فى قبضته ... كيفما شاء ، شموخا ما تدهور! »[1]

ومن شعره قصيدته « لا تنهروا روحى » :

لا تنهروا روحى لفرط ولوعها ... دمعى الذى تأبون بعض دموعها
ألقت بى الأحداث دون ربوعها ... وأظل أحيا فى صميم ربوعها
تذب الرؤى حولى بأنفاس الربى ... ونوافح الغدران حول ربيعها
وتهزنى الذكرى فأشرق بالأسى ... والذكريات وهوبها كنوعها
كم واهم أنى سلوت وما درى ... معنى السلو وحرقتى لجموعها
إنى الفتى الوافى بكى حصباءها ... كبكائه لسمائها وزروعها
دنيا الصباحة والجمال تلألأت ... بجنانها ، وتراقصت بولوعها
أجد الخضوع لها أحب عبادة ... شتان بين عبادتى وخضوعها
لو أستطيع طردت عن أزهارها ... غير الندى والشمس غب طلوعها
وحميتها من أغار تجنبا ... وجعلت أضلاعى أبر دروعها
وبعثتها من نومها ، وجعلتها ... فى عزمها كالشمس بعد هجوعها

---

(١) من ديوانه المخطوط « من أناشيد الحرية » .

وأثرتها لعظائم ومفاخر | سيان بين وضيعها ورفيعها
(مصر) الحبيبة جنة لا أشتهى | منها الخيار ، نخيرها بجميعها
أهوى لها الإعزاز كيف تمثلت | بحياتها وتصورت بصنيعها
إن كان عاقبنى الزمان بغربتى | فلقد أفاء على حلم بديعها
أو لم تنل عينى شعاع سنائها | فلقد جنت عينى طيوف نزوعها
وتركتنى فى حيرة لا تنتهى | والنفس حيرتها أشد صدوعها
ركعت بمحراب الجمال بوهمها | وتبتلت فى حبها وركوعها
وأذابت الأحلام فى ألحانها | والدمع والتقبيل يوم رجوعها !
لا تنهروا روحى لفرط ولوعها | دمعى الذى تأبون بعض دموعها !

(٥)

وليس بين الأدباء المصريين من زار قبر أبى شادى فى واشنطون إلا الأديب الكبير وديع فلسطين ، وقد قص علينا قصة وقفته على قبر أبى شادى ، فقال [1] :

« لقد أحب الطبيعة حتى فى موته ، فجاءته الحشرجة فى بستان ، ورقد فى بستان سندسى كثير الورود ، وأحب الإنسانية فى غير حدود ، فدفن فى مقبرة تضم أعلاما من عشاق الانسانية ومحبيها ، آمنوا بالإخاء البشرى حتى سموا به فوق الحزازات الجنسية والشيع المذهبية .

وأحب الحرية ، فجاء لحده على رمية حجر من تمثال مهيب منيف لبطل الحرية ابراهام لنكولن » .

وعندما زرت الولايات المتحدة فى صيف العام الفائت ، ذهبت إلى حيث يرقد أستاذنا ورائدنا المرحوم الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، وحنيت رأسى تجلة واحتراما للرجل الذى أحب الطبيعة وأحب الانسانية وأحب الحرية ،

---

(١) ألقيت هذه الكلمة فى احتفال رابطة الأدب الحديث فى القاهرة فى ذكرى مرور العام الأول على وفاة أبى شادى .

ووضعت على قبره الدارس باقة من زهر القرنفل أحب أنواع الورود اليه .
وكان ذلك فى اليوم الثامن من شهر سبتمبر ١٩٥٥ بعد خمسة أشهر من ختام حياة رجل عاش بالعرض والطول والعمق ، خلد بشعره وأدبه وعلمه ، وخلد بسيرته وأعماله وشمائله ، وترك فى نفوس تلاميذه واخوانه ومحبيه فراغا لا يملأ ، وخواء عز أن يشغل .

ووقفت على قبر أبى فى مقبرة يسمونها Non sectarian Cemetery تقع خارج وشنطن العاصمة عند حدود ولاية ماريلند أتأمل حياة هذا المناضل الأبى الذى خرج إلى الدنيا يتحدى : رأى الجهل فاشيا فتحداه بعلمه . رأى الناس طلاب منافع ، فكان إمامهم فى الايثار . رأى الشعر وقفا على نفر ، فأنشأ مدرسة ترعى الشعراء وتتعهدهم للمستقبل المرجو ، رأى السطحية تهدد الأصالة ، فحارب الغثاثة وكان عليها سيفا مسلطا بل سليطا . ورأى مبادىء الأخلاق تتردى ، فقام يدعو إلى الصلاح بقيثارته التى بها أنشد من الألحان أعذبها ومن المعانى أبلغها . ورأى الوطن ينحدر إلى حضيض ، فأعلن على الفساد حربا عوانا ، وجعل يرسل النذير تلو النذير لعل أولى الأمر يصيخون ، ولكن صوته المدوى أصاب آذانا بها صمم ، فما ارعوى أصحابها ، وانقلبوا يوم حصحص الحق وزهق الباطل .

ووقفت على قبر أبى شادى أردد شعره فى خاطرى . فقد اختلف الناس فى شعره ، ومتى كانوا على أمر يتفقون ؟ قال بعضهم أنه ليس بشاعر بل نظام . وقال بعضهم : ليته كان مقلا . وقال بعضهم : عقله غلاب على عاطفته ، وقد اعتاد أبو شادى سماع هذا اللغو فى حياته ، فلم يحفل به ، بل مضى يقدح زناد الشاعرية فيه ، ويملأ الدواوين من بحر إنتاجه وهو يردد فى أسى :

وطاردتنى[1] إلى منفاى جانية ‌ ‌ ‌ ‌ وعدت صفو آثارى كآثامى

ومن من الشعراء سلم من هجوم المهاجمين وتهجم المتهجمين ؟ بل من من دعاة الحق خلص من طعنات من الخلف واتهامات حتى بعد أن صار رميسا ؟

---

(١) يعنى طاردتنى بلادى .

فما أيسر النقد الهين ، وما أعسر المجاراة فى الابداع . وقد كان أبو شادى مبدعا خلاقا فكاد له من افتقروا إلى هبة الخلق ونعمة الابداع ، ومن قصرت باعاتهم وانقطعت أنفاسهم فلم يستطيعوا أن يطاولوه ، وعز عليهم أن يبلغوا منه مرتبة الطالب من الأستاذ الجهبذ .

وقفت على قبر أبى شادى أمجد الوفاء فى رجل لم يعرف إلا الوفاء فى تفان . فقد كان وفيا لرسالته فى الحياة يؤديها دون أن يحنث عهدا أو يميل مع هوى . وكان وفيا لوطنه ولغته وأهله وعشيرة الأدب التى ينتسب إليها من نواح شتى شاعراً وناثرا وناقدا وعالما وباحثا ومحققا ومترجما ومصنفا ومحاضرا ومذيعا . وكان وفيا قبل ذلك وبعده للمثل العليا التى فطر على تمجيدها وعاش يدعو إليها ويحياها ويهيم بها . فقد خلق للوفاء ، فكان أبر الناس بالناس ، وأحناهم على كل من يجعل الأدب صلة نسب .

وقفت على قبر أبى شادى أستعيد سيرة هذا الرجل الذى عاش لايهادن ، فقد أريد له أن يكون طبيبا يقتنى بعلمه الثراء العريض ، ولكنه أراد لنفسه أن يكون إنسانا يقتنى بحبه العالم كله . وحياة أبى شادى تتميز بالحب الكريم النبيل فى صور شتى تنعكس على أعماله وفعاله . فحبه للناس جعله يلم شعثهم فى روابط ومنتديات حيثما استقر به المقام . وحبه للجمال ألهمه روائع شعره وبدائع لوحاته ، وقد رأيت بعضها فى وشنطن فبهرنى تناسق ألوانه وتجانس صوره . وحبه للطبيعة ملك عليه جميع حواسه ، فاختار سكنى الضاحية لاسكنى المدينة . وآثر الدارة على العمارة الشاهقة من ناطحات السحاب . وحبه للمملكة الحيوانية استرعى عنايته بها ، فعكف على تربية النحل والطيور الداجنة ، وأحب القطط والكلاب الأنيسة ، وتغنى فى شعره بكل هذه . ولا أحسب كلمة أقرب إلى لسان أبى شادى من كلمة الحب ، فقد شاد للحب هيكلا فى فؤاده ، وعاش به وله عيش الناسك المتعبد .

وقفت على قبر أبى شادى ، ولم أعتد زيارة القبور . وكان فى وشنطن من المعالم التاريخية ومن دور الفن والترفيه ما يغرى بقضاء الوقت أكثر من إغراء قبر سكت صوت صاحبه . ولكننى حرصت على زيارة قبر أبى شادى متمثلا عين المبادىء التى ظل ينادى بها فى كل ما كتب من شعر أو نثر : وإذا كان مفكرو أمريكا قد عدوا أبا شادى كسبا لهم يفاخرون به ، افلا يحق لنا معشر المواطنين أن نكرمه فى موته بعد أن أشبعناه فى حياته طعنا وتجريحا ؟

والقبور لاتخرس ألسنة سكانها إذا كانوا من طراز أبى شادى . فسيردد الناس شعره جيلا بعد جيلا بعد جيل ، معظمين معه معانى الحرية والجمال والإباء والإيثار والشرف والكرامة والوطنية والحب والإنسانية البريئة من الشوائب » .

عباس محمود العقاد

(١)

شخصية من أنبغ الكتاب فى الشرق العربى ، وصاحب مدرسة فكرية يشايعها كثير من الأدباء العرب، وقمة سامقة تمثل اتجاها خاصا فى أدبنا المعاصر.

ونحن لا نعرف شيئا عن نشأة العقاد الأولى أكثر مما عرفنا هو به فى مقالة نشرت له بعنوان « أساتذتى » ، قال :

كان زعيم مصر الكبير سعد زغلول رحمه الله يعد من مزايا نظام التعليم فى الجامع الأزهر على عهده ، أنه كان نظاما يسمح للطالب أن يختار ويجلس فى الحلقة التى يروقه أن يجلس فيها .

وهى مزية لا شك فى نفعها للعلمين والمتعلمين ، لأنها تنوط مكانة الاستاذ بعمله واجتهاده ، ولا تقيد التلميذ بفرصة واحدة فى درس من دروسه .

وليس فى هذا النظام ضرر على الاطلاق مادام طلب العلم هو الغرض الخالص للأستاذ والتلاميذ .

مما أحمد الله عليه أن أساتذتى جميعاً قد اخترتهم بنفسى ، ولم يفرضهم على أحد يملك سلطة التعيين والفصل دون غيره ، لأنهم كانوا جميعاً مؤلفين مشهودا لهم برسوخ القدم فى صناعة التأليف ، أقرأ منهم من أشاء وأعرض عمن أشاء ، وأطلبهم حين أريد وحيث أريد .

ومع هذا كان لى أساتذة فى المرحلة الأولى من مراحل التعليم الدراسى أقدر منهم غير قليل ، ولكننى كنت فى استفادتى منهم على اختيار يرجع إلى ، ولا يرجع إلى البرنامج المقرر أو النظام المفروض .

استفدت فى مرحلة التعليم الابتدائى من استاذين اثنين على اختلاف بينهما فى طريقة الافادة ، فان أحدهما قد أفادنى وهو قاصد ، والآخر قد أفادنى على غير قصد منه ، فحمدت العاقبة فى الحالتين .

كان أحدهما مدرس اللغة العربية والتاريخ الشيخ محمد فخر الدين ، وكان « الانشاء » صيغا محفوظة فى ذلك الحين كخطب المنابر وكتب الدواوين ، ولكنه كان يبغض الصيغ المحفوظة ، وينحى بالسخرية والتقريع على التلميذ الذى يعتمد عليها ، ويمنح أحسن الدرجات لصاحب الموضوع المبتكر وأقل الدرجات لصاحب الموضوع المقتبس من نماذج الكتب ، وإن كان هذا أبلغ من ذاك وأفضل منه فى لفظه ومعناه .

وكان درسه فى التاريخ درسا فى الوطنية . فعرفنا تاريخ مصر ونحن أحوج ما نكون إلى شعور الغيرة على الوطن والاعتزاز بتاريخه ، لأن سلطان الاحتلال الاجنبي كان قد بلغ يؤمئذ غاية مداه .

أما الاستاذ الآخر فقد كان أستاذ حساب وهندسة ورياضة ، ولا داعى لذكر اسمه فى هذا المقام ، وكانت نصيحته لى : عليك باللغة الانجليزية .

وعجبت وعجب زملائى من هذه النصيحة . لأننى كنت من المتقدمين فى هذه المادة على الخصوص ، وكنت أقرأ فيها بعض الكتب الأدبية وأنا فى السنة الرابعة الابتدائية ، ولكن زملائى فسروا هذه النصيحة بسر الولاية فلعل الرجل يعلم من سر الامتحان فى تلك السنة مالا يعلمون .

فلما اجتمعنا بالمدرسة فى أول حصة للحساب ، قال الاستاذ الرياضى :

« تذكر نصيحة الشيخ يافلان ! »

قلت : « إن الشيخ لم يقل شيئا »

قال وهو يحوقل وزملائى يأخذهم الوجل ، ومنهم كثيرون بقيد الحياة :

« كيف لم يقل شيئا ؟ ألم ينصحك بالاجتهاد فى اللغة الانجليزية ؟ » .

قلت : « نعم فعل . . ولكنه سيظفر بالسمعة فى علم الغيب أيا كانت النتيجة . فان نجحت قيل إنها بركة نصحه ، وإن أخفقت قيل إنه قد عرف هـذا فحذرنى منه »

فما زاد الاستاذ على أن قال : « دع هذا الضلال هداك الله »

ولكن الدرس الأكبر — الدرس الذى أحسبه أكبر ما استفدته من جميع الدروس فى صباى — كان بصدد مسألة حسابية من تلك المسائل العقلية.

كنت شديد الولع بهذه المسائل لا أدع مسألة منها بغير حل مهما بلغ من اعضالها .

وكان الاستاذ يحفظ منها عددا كبيرا محلولا فى دفتره يعيده على التلاميذ كل سنة ، وقلما يزيد عليه شيئا من عنده .

وعرضت فى بعض الحصص مسألة ليست فى الدفتر . فعالجنا حلها فى الحصة على غير جدوى ، ووجب فى هذه الحالة أن يحلها الاستاذ لتلاميذه فلم يفعل ، وقال على سبيل التخلص : « انما عرضتها عليكم امتحانا لكم . . وللفرق بين مسائل الحساب ومسائل الجبر ، وهذه من مسائل الجبر لأنها تشتمل على مجهولين » .

لم أصدق صاحبنا ولم أكف عن المحاولة فى بيتى وقضيت ليلة ليلاء حتى الفجر وانا أقوم وأقعد عند اللوحة السوداء حتى امتلأت من الجانبين بالارقام . وجاء الفرج قبل مطلع النهار ، فإذا بالمسألة محلولة ، وإذ بالمراجعة تثبت لى صحة الحل ، فأحفظ سلسلة النتائج وأعيدها لأستطيع بيانها فى المدرسة دون ارتباك أو نسيان .

قلت : « لقد حللت المسألة » .

قال الاستاذ : « أية مسألة ؟ » :

قلت : « المسألة التى عجزنا عن حلها فى الحصة الماضية » .

قال : « أو صحيح ؟ تفضل أرنا همتك يا « شاطر ! » . . »

وحاول أن يقاطعنى مرة بعد مرة ، ولكن سلسلة النتائج كانت قد انطبعت فى ذهنى لشدة ما شغلتنى وطول ما راجعتها وكررت مراجعتها .

وانتظرت ما يقال .

فإذا بالأستاذ ينظر إلى شزراً وهو يقول : « لقد أضعت وقتك على غير طائل ، لأنها مسألة لن تعرض لكم في امتحان » .

وإذا بالزملاء يعقبون على نغمة الأستاذ قائلين : « ضيعت وقتنا . . ما الفائدة في كل هذا العناء ؟ » .

كانت هذه الصدمة خليقة أن تكسرني كسراً ، لو أن اجتهادي كان محل شك عندي أو عند الأستاذ أو عند الزملاء ، أما وهو حقيقة لا شك فيها ، فإن الصدمة لم تكسرني بل نفعتني أكبر نفع جددته في حياتي ، وصح فيها قول نيتشه : « كل مالم يقتلني يزيدني قوة » . . لأنني لم أحفل بعدها بانكار زميل ولا رئيس ، وعلمت أن الفضل قيمته فيه لا فيما يقال عنه ، أيا كان القائلون !

كان أساتذتي جميعا ممن اخترتهم بنفسي .

نعم ! . . ولكنني أحب أن أستثني أستاذا واحدا كان حضوري عليه من اختيار أبي لا من اختياري ، وذاك هو الشيخ أحمد الجداوي رحمه الله .

كان الشيخ أحمد من أبناء أسوان ، وحضر العلم في الأزهر ، وزامل الأستاذ الإمام « محمد عبده » على أيام السيد جمال الدين .

وتولى القضاء في قنا ثم تولى إدارة التعليم في السودان ، ثم نشبت الفتنة المهدية فهجا « محمد أحمد » بقصيدة نونية نشرتها الحكومة في جميع الأقطار السودانية ، ومنها على ما أذكر قوله :

يا ذا الذي حسب الضلال هداية ما أنت إلا مبتلى بجنون

فجعل المهدى جائزة لمن يأتيه برأس « الكويفر » الجداوي حيا أو ميتا ، وبادرت الحكومة بابعاده إلى أسوان عند استفحال الثورة مخافة عليه .

فأقام في بلده وفتح بيته الواسع لالقاء الدروس الأدبية والدينية ، وكان الرجل في علمه على النهج القديم ، ولكنه كان على دأب تلاميذ الأفغاني جميعا نهما بالمعرفة يطلب منها كل ما استطاع طلبه ، ولو لم يكن من سلكه ولا اتجاهه .

من ذاك أنه تعلم اللغة الإنجليزية فى شيخوخته على المرحوم نعوم شقير باشا ، وكان يومئذ شابا ناشئا يعمل فى قلم الترجمة بمعسكر الجيش ، وقد ذكره نعوم باشا فى كتابه عن السودان .

ومن ذاك أنه تعلم الشعوذة وألعاب السيميا وحيل الحواة حتى برع فيها .

ولم يكن أعجب من مفاجآته حين يتكلم إلى أحد الضباط الانجليز باللغة الانجليزية ، أو حين يجتمع الموظفون والأعيان لمشاهدة « حاو » ماهر يبهرهم بألعابه . وكان الحواة يكثرون يومئذ فى أسوان لازدحامها بالطارئين عليها . فيقف الأستاذ ويشمر عن أكمامه العريضة ، ويفحم الحاوى المسكين فى صميم فنه ، أو يضربه بعصاه !

كان هذا النابغة الالمعى أوسع من لقيت محفوظا فى الشعر والنثر .

كان يطارح وحده خمسة أو ستة من القضاة والمدرسين والأدباء .

والمطارحة هى أن تأتى ببيت من الشعر فيأتى مطارحك ببيت يبدأ بحرف القافية فى البيت الأول .

فإذا اجتمع خمسة أو ستة من الأدباء كان لكل منهم أن يقترح بيتا ، وكان الشيخ الجداوى هو الذى يرد عليهم جميعا . . فيسكتون فى النهاية وهو لا يسكت ولا ينضب معينه . وكان كثيرا ما يتعمد التعجيز فيذكر فى رده بيتين أو ثلاثة أبيات أو أربعة أبيات .

وكان يحفظ مقامات الحريرى والهمذانى ويلقيها أحيانا موقعة مفسرة ، فيأخذنى والدى معه إلى بيت الشيخ ، لأنه كان من أصدقائه ومحبيه ، أو يدعونى إلى حضور المجلس إذا زارنا الشيخ كما كان يفعل فى بعض الأحيان .

ومن خصائصه أنه كان على قدرة فائقة فى نظم الشعر المؤرخ ، أو الشعر الذى يجتمع من حروف كل شطرة فيه أو كل بيت فيه تاريخ سنته . وقد نظم فى استقبال الخديو عباس — عند مروره بأسوان فى طريقه إلى السودان — قصيدة كبيرة فى كل بيت منها تاريخان .

استفدت من هذا الاستاذ الجليل ولعى بقراءة الشعر لأشترك فى المطارحة ولا أقصر فيها .

وكنت فى أول حياتى الأدبية أعجب بالمقامات وبنظم التواريخ . وقد نظمت تواريخ عدة أذكر منها تاريخ إعلان الدستور العثمانى بالسنة الهجرية ، وهو « قد أنشأ الدستور عبد الحميد » .

ولكنى قد عصمنى الله بدرس أستاذ الرياضة . فلم ألق زمامى قط لمذهب واحد أو أستاذ واحد ، ولم ألبث أن تبينت مقام المقامات وحظ التواريخ من المقاصد الشعرية ، فان رجعت إلى السجع فى بعض ما أكتب فانما أرجع إليه فى معرض السخرية أو تعمد المحاكاة الهزلية ، أو أطرقه غير عامد حيث لاضرر فيه ولا مساس بالمعنى المقصود .

(٢)

والعقاد أديب متذوق ، وناقد ضخم ، وشاعر فى طليعة شعراء المدرسة الحديثة فى الشعر العربى الحديث ، وقد لقبه الدكتور طه حسين بأمير الشعراء منذ عشرين عاما فى حفل كبير .

وللعقاد مؤلفاته الإسلامية ، وآراؤه ، وكتبه ومقالاته ، التى تنم كلها عن فلسفة مثالية تستند إلى أمثل ما فى حاضرنا وماضينا من أصول ومبادىء وعقائد وتراث مجيد .

والعقاد عملاق كبير فى الأدب والثقافة ، وله خطره فى الفكر العربى المعاصر .

وقد هاجم مدرسة شوقى وحافظ وهى فى القمة فى « الديوان » الذى اشترك فيه معه المازنى .

والعقاد يرى أنه هو الذى بدأ المدرسة الحديثة فى الشعر ، من حيث يرى كثير من النقاد أن المدرسة الحديثة فى الشعر العربى المعاصر تبدأ بمطران ،

وفي مقدمة هؤلاء النقاد أبو شادي ومندور والصيرفي[١] ، ويذهب آخرون إلى أن رائد هذه المدرسة هو شكري[٢] ، وجعلت أنا رأس هذه المدرسة هو أبا شادي[٣] .

ومهما كان فلا ينكر أحد منزلة هؤلاء الشعراء العبقريين : مطران وأبي شادي والعقاد وشكري في حركة التجديد في الشعر المصري الحديث خاصة والعربي عامة ، وهذا ما حفز صديقنا الدكتور مختار الوكيل إلى إخراج كتابه « من رواد الأدب في مصر » عام ١٩٣٤ ، يتحدث فيه عن منزلة هؤلاء الشعراء الأربعة في الشعر المعاصر .

ولا ننسى فضل العقاد على الحركة الأدبية المعاصرة ، فهو قمة في الفكر المصري وفي الأدب العربي المعاصر ، وهو رائد مدرسة تعده إمامها ورائدها بل رائد الأدباء المعاصرين جميعا .

وللعقاد منزلته في مصر والعالم العربي والإسلامي ، وكتبه « العبقريات » كانت خير بعث لأمجاد العرب والإسلام التليدة الخالدة .

وقد كتبت عن العقاد في كتابي « صور من الأدب الحديث » ، وسجلت صورا من أدبه ومن رأيه في الأدب والشعر المعاصر .

وليست هذه دراسة للعقاد ، إنما هي كلمة عابرة كتبتها ، لأعود إليه في دراسة واسعة ، أجلو فيها جوانب أدبه وشخصيته وفلسفته .

(٢)

وكتب العقاد مرة بعنوان « البحث عن غد » يقول :

الغربيون اليوم معنيون بالبحث في مسائل الشرق الأوسط من جوانبه

---

(١) راجع رائد الشعر الحديث للخفاجي .

(٢) راجع كتاب « النزعات الجديدة في الأدب المصري » للأستاذ أنور الجندي .

(٣) رائد الشعر الحديث .

كافة . ومن هؤلاء الباحثين « روم لاندو » صاحب كتاب « الله مجدة مغامراتى » وكتاب « البحث عن غد » وموضوعه استطلاع أحوال الشرق من جانب الدين والنهضة النفسية ، وقد حضر هذا الكاتب إلى مصر ، وتحدث مع المراغى وقد زاره فى بيته بحلوان وسجل حواره معه ، قال هذا الباحث :

« سألنى : هل تبحث عن المسائل الدينية أو مسائل ما وراء الطبيعة ؟ ولما كان الفارق بين هذه وتلك ليس بالفارق العظيم فى نظرى اجبته بشىء من الروغان : كلاهما ، إلا أننى أشد عناية بما وراء الطبيعة .

فقال الشيخ العلامة : قليلة المحصول ، قليلة المحصول جدا .

وكانت لهذه الكلمة دلالتها ، لأنها تشير إلى طبيعة الإسلام العملية كما تمثلت فى أكبر رعاته بين المصريين .

ومع علمى بعض العلم بأساليب المناقشة الشرقية لاحظت على الأستاذ المراغى أنه يتنحى عن الجواب فى كثير من الأحيان ، وأن أسلوبه أسلوب رجال السياسة ، وناهيك بهم إذ يكونون شرقيين مع ذلك ، وعلى خبرة بالمواقف المعضلة ، وحرص من التورط فى التصريح ، فهو فى البيئة الغالبة على فقهاء الإسلام لامراء .

وعدت أقول : لقد سمعت أن الشبان عندكم يجنحون إلى نزعات « التفكير الحر » ويحاولون أن يزيدوا القرابة بين الدين والعلم . فهل صحيح ما سمعت ؟

فقال الشيخ : « لا أظن الشبان المصريين أقل تدينا اليوم من أمس ، إذ ليس فى القرآن ما يعارض الحقائق العلمية ، ولا تناقض بينهما فى شىء .

وأردت أن أخوض فيما هو أصرح وأجرأ مما تقدم فسألت :

ألا ترى أن العنصر الروحى — أو الغيبى المتصل بما وراء الطبيعة — هو أهم العناصر فى الديانات ؟

قال الشيخ فى سكينة ولطف : من ذا الذى يعلم كنه الله وكنه الروح ؟

إن بعض أساتذتنا يتحدثون عن المادة كأنها حقيقة ، وبعضهم يتحدثون عنها كأنهاوهم أو فرض مفروض ؛ وليس من يعلم الصواب علم اليقين ، فإن القرآن لا يفصل بين القولين ، ولكنه يحكم حكمه فى أمور شتى كأمور الزواج والمواريث والمعاملات .

فسألته : وماذا تقولون فى قبول العلماء لنظرية قدم المادة ؟

ولاريب أن الأستاذ المراغى لم يكن يتوقع قط أنى علمت شيئا عن هذه القضية ، إلا أنه لم يظهر الدهشة ، ولم يبدعليه إلا قليل من مفارقة السكينة التى لزمته حتى الساعة كأنها قناع لإخفاء ماوراءها من قلة الاكتراث . فقدانبعثت الحياة من خلالها ، وقال :

« إنك لم تقع على الخبر الصحيح فى هذه القضية ، فليس هناك إلا أن عالما كتب رسالته فى علم الأصول ليعبر فيها عن رأيه وما انتهى إليه اجتهاده » .

فبادرت قائلا : ألم يكن صاحب الفضيلة وأعوانه من العلماء مرجع الامتحان فى هذه القضية ؟

فابتسم الشيخ المراغى وهو يقول : « إن رأيا كهذا قد كان يحسب من الزندقة قبل خمسين سنة ، وما كان أحد ليجسر على تقديمه فى جامعة إسلامية . فما أعظم التغير فى أطوار الزمان ! نحن اليوم أدنى إلى الحرية والسماحة » .

واستطرد الكاتب إلى أسئلة وأجوبة من هذا القبيل ، انتهى منها إلى المذاهب الاجتماعية والشطط فى الدعوات الفكرية ، وسجل رأى الشيخ الأكبر فى أن الوقاية من جميع ذلك إنما هى الدين وتعليم الاسلام على أصوله .

أما حديث هذا الباحث الغربى مع أحمد لطفى السيد فقد مهد له بوصف الأستاذ وملابسه الافرنجية الأنيقة ومعيشته العصرية ، ثم استهله بهذا السؤال :

« ما هى أكبر رسالة ثقافية قامت مصر بأدائها فى رأيكم خلال القرون الأربعة التى خضعت فيها للحكومة التركية ؟ »

فأجاب وأصابعه النحيلة تعبث بحبات المسبحة العاجية : « إنما هى عمل الجامع الأزهر فى جميع الكتب الفقهية » .

فقلت : ألا ترون أن حصر رسالة ثقافية تؤديها الأمة فى عمل واحد لا يتجاوز جميع الموضوعات الفقهية خليق أن يشير إلى شىء من ضيق النطاق ؟

فرفع لطفى (باشا) حاجبيه هنيهة واضطرنى بذلك أن أعقب على ما أسلفت مستدركا :

« إن كثيراً من الغربيين يزعمون أن تفكير العرب تفكير « تجريدى »... فإذا كانت العبقرية القومية لا تخرج فى مدى القرون الأربعة ثمرات ثقافية غير الفقه والشريعة فهذا الزعم ليس بالمخالف كل المخالفة للانصاف فيما يلوح لأول نظرة » .

فسألنى : ماذا تعنى بالتفكير التجريدى ؟

قلت : إن التفكير الانجليزى مثلا واقعى مجار للحوادث ، لأنه يتناول كل حادثة كما تعرض فى حينها . وهو من ثم نقيض الفروض النظرية والمباحث الجدلية . أما تفكير العرب فهو رهن بالقواعد المرسومة والنظريات المعلومة ، ويلوح عليه أنه شبيه بهندسة البناء العربية ، لا يحتوى صورة من صورة الحياة الماثلة فى بنية الإنسان وملامح وجهه ، وكل ما فيه هندسة وتناسق خطوط ... »

قال لطفى السيد وهو يشفع كلامه بابتسامة معتذرة :

« آسف لأنى لا أستطيع مجاراتك فى حكمك . فالذى يبدو لى أن الفكر العربى أشد إيغالا فى الواقعيات من الفكر الأوربى . وهذه شريعتنا الدينية التى استشهدت بها على نزعته التجريدية تتناول شؤون الحياة اليومية ولا تقتصر

على مسائل اللاهوت والأخلاق كما هو الحال فى الشريعة المسيحية ، وهى تفيض بالوصايا فى أمور المعيشة والزواج والميراث وما شاكل ذلك . وأحسب أننا أقرب إلى معرفة الحقيقة حين ندرس « مخيلة » الأمة كما تتمثل فى دياناتها . فكيف ترى « المخيلة المسيحية » تتصور السماء والفردوس ؟ إن سماء المسيحيين هى نعيم غير ذى أشكال ، أو هى شىء لايسعك أن تراه ولا تقع عليه العيون ، بل شىء لايسعك أن تحيط به فى الخيال . أما المسلمون فكيف تراهم يتخيلون السماء ؟ إنها دار حقيقية فيها اللبن والعسل والعسجد ، وفيها الأزهار والأشجار والحور العين ، وهى كلها حقائق ومشاهدات ... أفليس هناك معنى ملحوظ لاتفاق المخيلة الدينية بين المسيحيين والمسلمين فى « ميدان سلبى » حين يتكلمون عن الجحيم ؟ ففى هذا الميدان ترسم المسيحية نفسها صورة مشهودة هى صورة النيران والنفط الغالى وعذاب الأجساد .

قال الكاتب : فأحجمت عن الجهر بملاحظة سنحت لى تلك اللحظة ، وفحواها أن المبالغة فى تمثيل الخيال تقترن عادة بالقصور فى ملكة البناء والانشاء الواقعية ، وآثرت أن أسأل :

ألا تزال الديانة قوة فعالة فى الحياة المصرية ؟

فأجابنى لطفى السيد : « فعالة على الأرجح فى عالم الاسلام أعظم من فعلها فى عالم المسيحية ، لأن شرائعنا كلها قائمة على القرآن ، ومن العسير فى البلاد الاسلامية أن تفصل بين الدين والحياة اليومية » .

قلت : على أننى قد أخبرت أن الشبان المصريين يهجرون عقائد آبائهم جنوحا منهم إلى البدع الغربية .

قال : أعجب لو صح ذلك . . . فلعلهم لايغشون المساجد ولا يشهدون صلوات الجمع ، ولكنهم على الجملة متدينون ، وربما كان منهم أناس من الدارسين للفلاسفة الغربيين قد ألحدوا فى الدين إلا أنهم شذوذ قليل .

فسألته : أيعنى المصريون عناية ماعما وراء الطبيعة أو بالأسرار الخفية والسبحات الصوفية ؟

قال : « ذلك نادر فى « فلسفتنا الحاضرة » . غير أن فلسفتنا وأدبنا لايزالان فى مفتتح الحياة ؛ وينبغى ألا تنسى أن أربعة قرون من الحكم التركى قد عطلت ثقافتنا وتركتنا نحاول من جديد .

فانتقلت إلى حديث الجامعة العربية وسألته : « وهل بعد انقضاء السيادة التركية أو السيادة الإنجليزية يهتم المصريون بالجامعة العربية ؟

فرد جازماً : أما سياسياً فلا[1] ، لأن الفوارق بين الشعوب العربية المختلفة جد كبيرة ، أما من الوجه الثقافية فهى ممكنة ، وهى على ازدياد فى جوانب الشرق الأدنى ، ولكنها ليست بالسياسية ، لأن الجامعة العربية من حيث هى نزعة سياسية اختراع نجم فى الصحافة الإنجليزية على ما أذكر ، ولا يحضرنى اسم صاحبه وإن كنت أرجح أنه مراسل للتيمس كان يراسلها من النمسا قبل أربعين سنة .

وتنقل الحديث فى بعض الموضوعات الشرقية ثم سأل الكاتب : ما ظنك فى حقيقة ما يقال من أن الوطنية المصرية توصد ما بين المصريين وسائر العالم ، وتجتهد فى إبدال كل مصرى بكل أجنبى أتؤمن بإمكان هـــذه العزلة ؟ .

قال : الحق أنى لا أومن بذلك ، ولعل محدثيك قد أخطأوا التقدير ، فان الوطنية عندنا لا تجور على الثقافة . ونحن إذا اكتفينا بمن هم عندنا من الأساتذة الأجانب فسبب ذلك قلة المال . إن الأستاذ الانجليزى يكلفنا من ثمانمائة إلى تسعمائة جنيه فى العام وليس ذلك بالميسور لنا إلا فيما ندر .

(٤)

ومن صور كتابته الإسلامية مقال طريف نشر بعنوان « عيد الفطر رمز التضحية والإنسانية الحرة » قال فيه :

---

(١) كان ذلك الرأى عام ١٩٣٣ ، لا الآن.

من حكمة الأديان أن الأعياد الدينية الكبرى تأتى بعد فترة يمتحن فيها الإنسان فى فضيلتين من ألزم الفضائل له فى حياته الخاصة وحياته العامة ، وهما التضحية وضبط النفس ، ولعلهما ترجعان فى مصدرهما إلى أصل واحد وهو حرية الإرادة أو حرية الاختيار .

فالأعياد كما نريدها هى مواسم أفراح ، وما من شىء يحق للإنسان أن يغتبط به وينطوى من أجله على الفرح ، كما يغتبط بارتفاعه عن المرتبة الآلية وارتقائه عن الغريزة الحيوانية وبلوغه مرتبة الكرامة التى لاتكون لغير الإنسان ، وهى كرامة الحرية والقدرة على مقاومة الطبيعة وتغليب العقيدة على شح الأنفس ، فهنالك يحق له أن يفرح فرح الإنسان لأنه وجد نفسه الحرة المريدة ، وهى أعز موجود ومفقود .

إن العيد بعد الصيام عيد له معناه ، ولم يكن بجرد تقليد من التقاليد التى تتكرر بغير معنى ، وربما كنا فى عصرنا الحديث كأحوج مايكون الإنسان إلى الفرح بهـذا المعنى الخالد ، فإنه عصر قد كثر فيه الانطلاق واستباحة الممنوعات حتى أوشك ضبط النفس أن يحسب من الرذائل المذمومة ، وحتى خيل إلى بعضهم أن مقياس « العصرية » هو مقياس التحلل من المحظورات والاجتراء على المنكرات ، وقد كانت لهذه الثورة الجامحة أعذارها يوم كان الحجر على الناس استبدادا مطبقا من فوقهم وظلما لهم بغير حكمة مفهومة ، أو يوم كان الإنسان يمتنع بحكم غيره ويتحلل بحكم غيره . أما أن ينطلق انطلاقه الجامع لأنه لايستطيع الامتناع ولا يقدر عليه فلن يكون فضيلة رجعية ، بل هو على حقيقته عجز ونكسة وانقلاب بالمثل الأعلى للإنسانية إلى عصور الهمجية ومن قبلها عصور الوحشية ، وما كانت الإباحة المطلقة بحاجة قط إلى تقدم وارتقاء ، وما كان التمرد المطلق عسيرا قط على الجماد فضلا عن الحيوان وفضلا عن الإنسان ، فإن الفوضى لاعسر فيها على أحد

كائنا ما كان، وإنما العسير هو أن نملك زمامنا ونحتفظ بإرادتنا، ونقرر للوجود الإنسانى صفة تعلو على صفة الآلة وصفة الحيوان.

سعيد من يتلقى التهنئة بعيد الفطر لأنه يتلقى التهنئة بضبط نفسه وتغليب إرادته، وأسعد ما يكون العالم الإنسانى كله إذا نجا بهذه الفضيلة العليا من الشقاء الذي جره إليه نقيضها، وهو العجز عن ضبط النفس والضلال عن معنى الحرية الصحيحة. وانها ليمكن أن تعنى كل شيء إلا الفوضى والتمرد والانطلاق بغير وازع من الإرادة ولا حسيب من الضمير.

ونحسب أن الالتفات إلى معنى الإرادة والتضحية وضبط النفس له أكثر من جانب واحد فى هذه المناسبة المحبوبة حيثما نتجه إلى العالم الإسلامى بالتهنئة، فليس للعالم الإسلامى مهمة فى مستقبله أهم من استكمال إرادته واستخدامها فى وجوهها، ولبس هنالك من لبس عليه بين أفضل الطريقين وأقوم الخطتين، فإنما هى خطة واحدة لاضلال عنها بين مئات الخطط وألوفها، إن كانت هناك مئات من الخطط أو ألوف، فحيث تكون التضحية ومكافحة الشهوات والأهواء فهناك النجاة.

وفى وسعنا أن نقول: إن نصيب العالم الإسلامى من الحرية يزداد ويتسع، وان حاجته إلى صدق الإرادة تزداد بهذه الزيادة وتتسع مع هذا الاتساع.

فى وسعنا أن نقول هذا وفى وسعنا أن نتفاءل به ونتطلع إلى ما هو خير منه وأقرب إلى الرجاء، بل علينا أن نتفاءل ونتطلع على الدوام إلى غد خير من اليوم وخير من أمس، وان نثق من أعياد المستقبل على طوال أيامه وأعوامه، ما دمنا على ثقة من القدرة على ضبط النفس ومضاء الارادة واحتمال الفداء.

ونحن ننظر إلى الغد البعيد، بل إلى الغد القريب متفائلين، ولا يعسر علينا أن نذكر السبب إذا سألنا عنه سائل مستريب، فهذه أمم الشرق أقرب إلى حريتها وكرامتها مما كانت قبل عشر سنين وقبل عشرين سنة، وحالتها اليوم

أدعى إلى التفاؤل من حالتها قبل سبعين سنة فى مطلع القرن الرابع عشر للهجرة المحمدية ، فلماذا لا تتخذ من ماضيها القريب سببا للرجاء فى مستقبلها القريب ؟ على أن الرجاء غنى عن الأسباب كلما سلمت طبيعة الحياة ، فماذا عند الطفل الوليد من أسباب الرجاء أو أسباب التفاؤل وهو عار ضئيل مفتقر إلى الكثير والقليل ؟ عنده طبيعة الحياة وحسبه ما عنده ، وعندنا ولا نغلو فى الادعاء قبس من هذه الطبيعة مرجو البقاء .

الشاعر محمـــود غنيم

تمهيد :

محمود غنيم شاعر مصر الكبير شاعر عربي موهوب ، عرف بالطلاقة الفنية ، والصدق فى التصوير والتعبير ، والجمال البيانى الأخاذ المشرق بالوضوح والإبداع والإلهام ؛ تناول فى شعره الكثير من شئون الحياة والاجتماع والسياسة والفن ، فى خيال خصب ، وموهبة عميقة الإدراك ، وأداء جميل ممتع ، وتوفيق بارع فى رسم الصور والمشاعر والألوان ، ونسج عذب حبيب إلى القلب والروح والأذن ، يشبه إلى حد بعيد نسج البحترى وعذوبته .

ولا نجد شاعراً معاصراً يوفق التوفيق كله فى رسم صورته وأدائها فى براعة وخفة روح ، ومصرية تعبير ، وعذوبة أسلوب كشاعرنا غنيم ، هذا الشاعر الذى يبلغ القمة فى روعة الأداء فى قصيدته « أنا وابناى » [١] ، وفى قصيدته « الريف » [٢] التى بلغ فيها الغاية فى تصوير الريف المصرى ، ورسم الحياة فيه وأخلاق ساكنيه رسماً واضحاً جيداً جميلا . وكذلك كان فى قصيدته « كأس تفيض » [٣] وفى سواها من عديد قصائده وآياته الجميلة المعبرة الناطقة .

وشعر غنيم يمتاز بموسيقاه ذات الرنين العذب الذى يصل الإذن فى سهولة ورفق ، ويفتح للمشاعر والعواطف والروح والقلب الأبواب لتذوق بلاغة الشاعر ، وتدرك إدراكه . وتجنى ما وعاه من ثمرات ناضجة الفهم

---

(١) ص ١١٨ صرخة فى واد .

(٢) ص ١١٤ المرجع .

(٣) ٢٤٤ المرجع .

للحياة ، أو حكمة صادقة التوجيه ، أو صور دقيقة التعبير عن مشاهد الطبيعة والوجود .

وغنيم مع ذلك يعد طاقة قوية ، ومنزلة رفيعة للكلاسيكية الجديدة ، بملامحها التعبيرية الواضحة ، وطاقتها الفنية التجديدية ، وشعره يأخذ من القديم والجديد صوره وألوانه وخصائصه وسماته .

ونكاد لا نجد شاعرا مصريا أصيلا من شعرائنا المعاصرين منح فى العالم العربى شهرة غنيم ، وذيوع صيته ، والشباب فى كل مكان يحفظون له ، وينشدون روائعه ، ويرددون آياته .

حياة الشاعر وشاعريته :

وقد كتب الأستاذ على مصطفى المصراتى فى صحيفة طرابلس الغرب أربع مقالات بعنوان « مع محمود غنيم » فى ٩ و ١٠ و ١٢ و ١٣ من سبتمبر ١٩٥٤ بمناسبة زيارة الشاعر الكبير لمدينة طرابلس لإشرافه على امتحانات الثقافة والتوجيهية ، ولأهمية هذه المقالات نذكر خلاصة لها تعرفنا بمنزلة الشاعر فى نفوس الأدباء العرب ، وخارج وطنه ، وبأطراف حياته ، وبنشأته وموهبته وشاعريته ، قال الكاتب :

« الشاعر الأديب محمود غنيم قد سبقه شعره وعرفنا به أدبه وأكرم بالشعر من معرف وأعظم بالأدب من صلة روحية ، وكم كان بودى أن تطول جلساتى معه والحديث إليه وعنه .

وفى مقهى « النزهة » فى طرف المدينة ، حيث يحلو لإخواننا المصريين أن يجلسوا عند المساء ، هرعت لملاقاة الشاعر ، ولقيته لأول مرة ملاقاة المجالسة والمحادثة ومصافحة الأيدى والوجوه ، وإن كنت قد سبق أن لقيته لقاء العواطف والقلوب والمشاعر على صفحات ديوانه وخلجاته التى يتحف بها قراء الأدب

العربى الحديث . . وهو رجل بشوش الوجه ، لين الجانب ، سريع الابتسام عربى الطباع ، سليم الفكرة ، قومى متصلب فى قوميته ، متدفق فى وطنيته، ولكنه أيضا هادىء وديع ، به رقة الشاعر ، ووداعة الفنان ، واتزان المربى ، وخلق المعلم ، وليس به ذهول ولا سرحان .. ولا جلجلة ولا عربدة، وجلسنا ساعة نتندر ونتفكه ، ونشرق فى الحديث ونغرب ويروى من جعبته طرائف الأدب وجميل التعليقات وروائع المحفوظات . . وكملت « الشيشة » وما كمل حديثه العذب وسمره الطريف ، وهو من هواة « الشيشة » . ومرت الجلسة الأولى وكأنه يعرفنى وأعرفه منذ عشرين عاما وهذا طبع المصرى الأصيل بل طبع العربى الكريم . . وتواعدنا فأخلفت الموعد ، ثم علمت أنه مزمع على الرحيل فأقسمت بشرف الشعر أن لا بد من السعى إليه قبل الرحيل ، فلا يليق أن يمر الشاعر محمود غنيم بطرابلس ولا نعرض له ولا نتعرض للحديث عنه وعن شعره ، إذن هو عقوق ولن أرضى أبدا أن أكون من العاقين .. وفى الفندق فى ركن هادىء ومقاعد وثيرة وبين أقداح القهوة أخذنا من الشاعر ساعة طيبة عرفنا فيها كثيرا من الجوانب التى لا نعرفها إلا بالحديث معه . وكم كان كريما عندما استأذن لحظة ثم عاد يحمل فى يده أعز شىء لديه وأغلى شىء عند الشعراء : ديوانه . . خلاصة شعره . . فى فترة هى زهرة العمر وعصارة الأحاسيس . . صرخة فى واد ، أو كما قال حسن القاياتى . . همس الفؤاد . . ومعه روايتان من نظمه « المروءة — المقنعة » و « غرام يزيد » ، ويأسف إذ لم يحمل إلى طرابلس غير هذه النسخة من الديوان ، ومحمود غنيم من أبناء المدرسة المحافظة التى تغار على القيم الشعرية والموازين اللغوية والمقاييس، غيرتها على القيم الأخلاقية ، وهى مدرسة محافظة على الطابع .. والطبع .. ولكن ليس معنى هذا جمود فى الأداء أو قلق فى التعبير أوحشو فى التصوير . أو ضعف فى الأسلوب .. بل هو من هذه المدرسة المتوسطة أو قل الحلقة

المفقودة بين تزمت القديم واستهتار الجديد . فهو من ناحية التعابير والأفكار جديد مجدد عصرى .. حديث .. ولكن لا يحطم، لا يهدم .. بل ينظم والميزان أمامه .. ويقول والمقياس في يده، ومن وراء المقياس والميزان شعور وإحساس فيه قوة وبلاغة ، وهذا يرجع إلى ثقافته فى المراحل الأولى : فهو ابن الأزهر وهو متدين محافظ، وعنده مع هذا حصيلة وافرة وذخيرة زاخرة من المحفوظات وسعة الاطلاع وعمق الدراسة فى مراجع الأدب العربى القديم وتتبع أصوله وامهاته وهضم كثير من رواياته . وله بعد هذا قريحة وقادة وذاكرة تزيدها الأيام صفاء ومرونة واتساعا رغم أنه بلغ فى نهاية عام ١٩٥٤ الرابعة والخمسين، وتراه وكأنه شاب فى الثلاثين .. نشاط وحيوية وابتسامة مشرقة ليس فيها كآبة ولا وراءها تزمت أو تشاوم .. وهو ريفى صميم من منوف من بلدة « مليج ».

وفى يوم ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠١ م . رأت عينا الشاعر أول خيط من نور الحياة ، هذه الحياة التى لا يزال يعب منها ، وتملأ جوانبه نورا . هو أزهرى ودرعمى أيضا . ولعل هذا يفسر لنا ضلاعته وعمق أسلوبه وصلابة دفاعه عن العمود الشعرى والأدب القديم وتفتيشه عن كنوز القصص العربى القديم وإخراجه لها فى إطار مسرحى جديد .. فهو بهذا جمع بين القديم والجديد . وأعطى عن الثقافة الأزهرية أحسن الأدلة وأصدق البراهين .. كان طالبا بمعهد طنطا أيام ان كان شيخ المعهد الأحمدى الشيخ الظواهرى ، وهو أيضا من الرعيل الذى استفاد من مدرسة القضاء الشرعى من سنة ١٩٢٠م . إلى ١٩٢٣م . وكم أخرجت هذه المدرسة من فطاحل الأدباء واللغويين والكتاب ؛ وفضل مدرسة القضاء الشرعى وأثرها لا يمكن نكرانه فى تطور الحياة الفكرية والأدبية فى مصر ، وقد أسسها المرحوم عاطف بركات وعطف عليها كثيراً ، وكم شجعه فى هذا سعد زغلول . . . وكان من زملاء الدراسة

مع محمود غنيم : الشاعر محمد الاسمر ، (وقد توفى إلى رحمة الله فى ٦ نوفمبر ١٩٥٦) . . وبعد إلغاء مدرسة القضاء الشرعى عاد محمود غنيم يكرع من مناهل الأزهر ، ثم التحق بدار العلوم حوالى سنة ١٩٢٥م ، أيام أن كان عميدها ، أحمد برادة ، وتخرج منها عام ١٩٢٩م . وعين مدرسا بالاسكندرية بمدارس المعلمين الابتدائية ثم مدرسة فؤاد الثانوية ومفتشاً للنشاط الأدبى بوزارة المعارف . . . ولم نعرض هذا كله لأجل أن تظن أن دراسة اللغة والأدب خلقت منه شاعراً .

إنما كانت هناك بذور نابتة وأصول ثابتة قد أخذت تتفتح منعهد صباه، عندما كان يجلس أمام والده الحاج محمد غنيم يقرأ قصص عنترة وما فيها من أشعار قد لاتكون من النسق العالى والشعر الرائع ، ولكن كان فى قراءة هذا الشعر وترديده ثم حفظه أكبر الأثر فى تذكية الشعور وتنمية المواهب وتحريك الأحاسيس، ويشجعه والده على الترديد والالقاء والحفظ..ثم عرف محمود غنيم شاعرا فملا عشق ديوانه ، وحفظ مطولاته ، وأغرم بحكمه ، ولازم ديوانه فى ليله ونهاره وحله وترحاله ، وهو أحمد المتنبى . . وناهيك به من شاعر فتح أذهان الشعراء . . ورائد مهد الطريق للسائرين . . وكم غاصت وغاصت أقدام فى الرمال قبل الوصول إلى ساحته .. وكم تعب المتطلعون إلى قمته .. ومهما قالوا وأكثروا .. فهو شاعر فحل .. وقمة عالية ؛ بل هو مدرسة فى كل عصر يتخرج منها تلاميذ . . ووجد محمود غنيم فى ديوان المتنبى إلهاما وحافزا جعله يحذو حذوه . . . ويحكى ويروى .. ويقيس وينسج أثوابا ، ويأخذ خيوطها من أصواف المتنبى وأوباره .. كان أولا يقلد ويحاكى، ولكنه كالمصور المبتدىء يبدأ فى التصوير والنحت بتقليد عظماء المصورين والنحاتين حتى تتمرن أصابعه وتشحذ ملكته ثم يقف وحده على رجليه . . ويقدم نتاجا جديدا خاصا به ليس به تقليد ولا محاكاة ولازيف وإن كان يظهر فيه بلاشك الأثر والتأثير .. وهكذا كان محمود غنيم فى بدء حياته الشعرية

يصنع مع ديوان المتنبي وإن كان لم ينشر شيئا عن تلك الفترة التى مرت به، وكأنها كلها إرهاصات ومقدمات لتفجر الشاعرية فى صدره . . ولمس محمود غنيم من نفسه شيئا يجلجل فى صدره ويدفعه إلى أن يخط شيئا ويسمع رفاقه شيئاً، وكان له مع هذا مطالعات وفى الكتب القديمة المراجع والمصادر التى هى وقود يلهب هذا الحافز .. ويذكر الشاعر محمود غنيم أول قصيدة نشرها وكان عمره ١٦عاما يوم أن مات المرحوم الوطنى محمد فريد سنة ١٩١٩م . وكانت هناك جريدة إقليمية هى « الممتاز » فى طنطا ، وكانت اسبوعية .

.. وذهب الشيخ الصغير فى جبته يتعثر .. وفى الفاظه يتردد ويتلعثم ، ودفع بالقصيدة لصاحب الجريدة ويده ترتعش وتهتز كما يهتز شعوره وتطلع صاحب الجريدة فى وجه الفتى بعـــد أن قرأها وقال ! .. ألك هذه القصيدة .. ؟ أهى من شعرك .. ؟ ومن أين أتيت بها .. ؟ ومد الشاعر الصغير يده واقسم .. والله العظيم .. والله العظيم .. والله العظيم .. انها قصيدتى ومن نظمى .. ولا تسأل عن القلق والأرق فى انتظار نشر القصيدة الأولى للشاعر المتعطش ومتى تخرج الجريدة حاملة النفثة الاولى مطبوعة .. انه كانتظار الفلاحين للحصاد .. وانتظار الاعرابى فى الصحراء المجدبة للامطار المروية .. وانتظار العاشق الولهان للقاء الحبيب المدلل .. وظهرت القصيدة الاولى للشاعر محمود غنيم فى جريدة «الممتاز» بطنطا ، واشترى الطالب الشاعر بكل ماكان فى جيبه وهو عشرون قرشا كاملة أعدادا من هذه الجريدة، وأخذ يوزعها على التلاميذ والأساتذة والزملاء والجيران وكل من يتذوق قراءة الشعر .. انها باكورة .. فرح بها فرح الأب بابنه البكر عندما يطل على الوجود بوجه باسم وطلعه مرحة .. وفرح بها فرح العروس ليلة زفافها وفرحة الشعوب بحريتها واستقلالها .. ونشوة الأدب فى رأس الفنان لاتوازيها نشوة القائد المنتصر يغزو الأمصار .. مع أن القصيدة كما أشرنا كانت مدامع ورثاء وأنات وبكاء إلا أنها شعور مذاب وكبد مهراق من أثر الفاجعة فى فقد « محمد فريد » خليفة « مصطفى كامل » وأحد رواد الحرية فى

الشرق المتوثب .. ولا توجد هذه القصيدة فى الديوان . . ولا نسمع هذه « الانة » فى « صرخة فى واد » ومنها :

قضى نحبه منها فريد وودعا　　فيامصر أجرى نيلك اليوم مدمعا

قضى وقضاء الله لاشك واقع　　وما المرء الا أن يعيش فيصرعا

أرى العيش مهماطال ظل سحابة　　اذا أومضت لابد أن تتقشعا

وتلمس فى هذا ظلالا من حكم الأقدمين والسير على نهج السابقين وهى أبيات اذا قيست بعمر الطالب وسنه السادسة عشرة تعد بشارة وإشارة إلى أفق واسع من الشعر .. وقد حققت الايام هذه الاشارة وتلك البشارة وقد سار فى هذا الطريق يتتبع المدرسة القديمة وينهل من مراجعها ويرد مواردها ، حتى عد رأسه قاموسا للشواهد والشوارد ومجمعا للادبيات واللقطات .. ومن عادته التى لم يتركها إلى اليوم ألا يغمض له جفن ويسلم رأسه للوسادة إلا وكتاب من كتب الادب العربى القديم بجانبه يؤانسة ويهامسه ، وهذه العادة كونت عند محمود غنيم حافظه غنية وذاكرة قوية ، وهو يتحف جلاسه وتلامذته بكثير من الروائع والبدائع ، حتى إنك لتتلمس الحكمة أحيانا فتجدها مبثوثة فى ثنايا قصائده ، وهو كما سبق ان أسلفنا من المغرمين بأحمد المتنبى .

يرى فيه أشياء أبدع وأحسن فيها ، ويرى أن أخلاق المتنبى الخاصة وطباعه النفسية المذمومة معروفة معروضة ، ولكن هذا فى نظر محمود غنيم لا يطغى على قوة الأسلوب ولا يذهب بروعة الخيال ولا يهدم من شاعرية المتنبى . وهو يعجب كل الاعجاب بشعره وتصويره كما يعجب الذواقة بصورة تمثال عار يبرز ما يجب ستره ويكشف ماينذى له الجبن ، ولكن هذا التمثال كتحفة فنية ، ولا يتنافى مع الاخلاق هذا التذوق الفنى ، والتمثال فى وضعه وشكله مخل بالآداب متناف مع التقاليد والقيم وكما قال شوقى :

وأنا لم نوف النقص حتى　　نطالب بالكمال الأولينا

ويذكر محمود غنيم « شوقى » وترتعش شفتاه عند ذكر اسمه ثم يسبح فى ذكرياته وتلاحقه أطياف هاتيك الأماسى العبقات بروائع الأشعار وحلو الأسمار ، فقد كان إعجابه بأحمد شوقى يضاهى حبه وإعجابه بأحمد المتنبى، ويرى أن « الاحمدين » هما عمود الشعر وهما منارة الشاطىء وما بعدهما قد يكون لمعات واشعاعات لاتصل إلى قوة المنارة ولا يمكن ان يتهدى على ضوئها مدلج وتائه .. واقتنى ديوان « شوقى » ولهج باسمه وتعصب له وكاد يعتكف على شعره اعتكافا . وكان من جراء هذا والدفاع عن شوقى وشعره أن خاصم كثيرا وشاتم كثيرا ، فقد كان محمود غنيم فى فترة من الفترات تلميذاً للأديب الكاتب عباس محمود العقاد يجلس معه كثيرا ويتردد على مجلسه فى إدارة جريدة « البلاغ . أيام المرحوم عبد القادر حمزة ، وكان محمود غنيم يتهرب من المدرسة وشؤونها ودروسها ويجد فى مجلس العقاد وأحاديث « العقاد » وتلك الندوة الادبية مراحا وراحة ، ويقبل على أحاديثها بنهم وشغف كما يتسرب طلاب اليوم إلى « السينما » ، وشتان بين الحالين ولكن هذا الشاعر الذى يحفظ لشوقى ويروى لشوقى ويدافع عنه أغضب العقاد .. .. وحدثت بين شاعرنا وبين أستاذه العقاد جفوة ثم نقمة .. ثم فتور .. ومن المعروف فى تطور المذاهب الأدبية فى عصرنا أن الأستاذ العقاد حاول مع زميله الأديب المرحوم إبراهيم عبد القادر المازنى أن يهد صرح شوقى ويزعزع من أركانه وهو والشاعر حافظ إبراهيم ، وما كان صدور « الديوان » إلا لهذا الغرض ، ولكن بقى الصرح عاليا والمعول لم يؤثر شيئا فى هذا الركن، إنما أدميت أصابع العقاد من حمل المعول وبقى شوقى قمة عالية وخلد شعره وإن كانت تلك الحركة وذلك الثالوث الأدبى .. شكرى ، والعقاد ، والمازنى ، قد أحدثت مقالاتهم ضجة أدبية هيأت عقولا وحركت أذهانا وخلقت بصفة خاصة للأستاذ العقاد أنصارا ومعجبين، وأيضا خلفت له خصومات وعداوات وكان من هؤلاء الذين

سخطوا على العقاد ونقموا عليه ودافعوا عن شوقى ومدرسته هذا الشاب الأديب محمود غنيم وهو من يوم تلك المعــــارك يرى أن العقاد ليس خليفة شوقى وكل من حاول هدم شوقى انما هو بعيد عن تذوق الشعر ، ويرى محمود غنيم أن شعر العقاد كثيره مطبوع بالطابع الفكرى العميق ويقول بالحرف الواحد : « نثر العقاد لا خصائص له ، وشعره لا يهز » .. ويرى أنك تقرأ أسلوب المازنى وطه حسين والزيات والحكيم وحتى حسين شفيق المصرى فمن غير أن تقرأ التوقيع وتلاحظ الامضاء يمكنك بسهولة أن تتعرف على الكاتب من أسلوبه فله طريقة معينة . أما العقاد فى نظر الشاعر فلا أسلوب له ولا طريقة خاصة عنده فى الكتابة ، وأما الشعر فلا يقوله بشاعرية . ومن طريف المصادفات أن يأتى يوم فيكون العقاد حكما عندما يعرض ديوان محمود غنيم على لجنة الأدب فى المجمع اللغوى ويهرش العقاد العملاق رأسه ويتذكر أشياء كثيرة وخصومة غنيم له وفى نفس يعقوب حاجة بل حاجات ؛ ولكن شعر محمود غنيم شعر رائع ومن النسق العالى الجديد وهو شعر سائر ذائع مقروء مهضوم ، والصور الجميلة لا يمكن نكرانها وإن كرهنا الأصابع التى تصنعها .. ورغم الخصومات واختلاف وجهة الآراء يكسب الديوان الجائزة الأولى فى أول مباراة شعرية يعقدها مجمع اللغة فى سنة ١٩٤٧ م . ولكنه لا يمر بلا لذعة « عقادية » فيضعه فى أصحاب الأسلوب لا الأفكار ويراه العقاد شعر أسلوب وثوب لا فكرة وجسد ، وهذا لا يخلو من التجنى ولكنه على كل حال تجنى الأدباء أحيانا يدسون الخصومة كخصومات السياسيين ويجازون عليها فى الوقت المناسب وإن كانت تلك الخصومات الأدبية والمعارك الفكرية أنبل وأطهر بكثير وكثير من خصومات السياسة والسياسيين . ومحمود غنيم يميل إلى التجديد مع المحافظة على سلامة اللغة والعمود القديم وهو ينفر كل النفور من هذا السخف والهراء الذى يهرف به دعاة التجديد من الرمزيين ... الذين يقولون مالا يدركون ، وينظمون ما لا يفهم ولا يقرأ ، وهم بلا شك « مخرفون » ؛ لهم أخيلة

مريضة، وكلمات هراء في هراء .. تذهب طي الهواء أمثال . . . « وارتمى الطاووس في حضني الأسد » « رأيت حبيبتي ففقأت عيني » « وســـادة من هواء » « أدخل الزروق في فؤادي » الخ ، غنيم عدو الرمزية السخيفة في التصوير والشعر ، ولهذا تجد في شعره تشبيهات عربية سليمة وأفكاراً ناضجة غير فجة ومعاني مفهومة سهلة تتعلق بالنفس ويمكن حفظها والاستشهاد بها .

ويرى محمود غنيم أن مقياس جودة الشعر ورداءته إنما هو في إمكان الحفظ والتعليق ثم اجتياز الحدود وكثرة الرواة له ؛ ويقسم لك أن أهل « الرمز » و « الغمز » لا تجد لهم بيتاً مرويا أو قصيدة محفوظة أو ديوانا يقبل عليه الناس ، فلمن يا ترى ينظم هؤلاء ويرمون إلينا بالأحجية والطلاسم .. ومقياس الجودة الرواية وكثرة الجولان والتداول .. وقديما قال جرير يتحدى الفرزدق الشاعر ويبين فضله عليه وكثرة رواته « أنا أسير منه بيتاً » .

وهو ذو ذوق سليم بالطبع له حساسية مرهفة واذن موسيقية بها يستطيع ضبط الأوزان . . والتمييز بين الألحان .. ويقول غنيم : « إني أحكم على الشاعر من أبيات » وهذا شيء لا يستبعد من شاعر مثله لم يفض إناؤه إلا بعد امتلاء ومارسمت ريشته صورا إلا بعد ما فاضت بها مشاعره وأحاسيسه .. فهو ممتلىء إلى حد التخمة .. ولكنها تخمة الإحساس الفني التي لا تضر بل في الإكثار منها نفع كثير .. وطبعا كان هذا كله بالفطرة والمران .. بالموهبة والاكتساب .. بالتطلع في كتابين .. كتاب الكون .. وكتاب الشعر .. وله مصدران : الشعور والشعر .. والإلهام وصدى الإلهام .. وكما يعجب في الشعر المعاصر بشوقي ومدرسته ويحترم علي محمود طه وأغانيه والشابي وترنماته وعزيز أباظة وأناته وتمثيلياته ورواياته التي خرج بها فجأة على المسرح الأدبي وكانت ناضجة غير فجة ، فهو أيضاً يعجب بذلك الشاعر الذي يرسل زفراته وبسماته من تحت ناطحات السحاب .. ذلك الملهم الذي نسج من لغة الضاد ثيابا زاهية في مدينة الصناعات وعالم الحركات والضجة ذلك الشاعر العربي القح الذي أرسل شعرا عربيا خالصا في بلاد العجمية والرطانة والتمتمات

واللكنة وفى بلاد المادة والسرعة . فى «نيويورك» ، ذلك المتجهد فى محراب الشعر ، يبعث للشرق من «خمائل» شعره ويسقيه من «جداول» فنه ويعطيه طاقات من أزاهير نفسه .. الشاعر إيليا أبو ماضى وأمثاله من أدباء «المهاجر» من سلالة قحطان .. ممن دافعوا عن لغة الضاد وخدموا الأدب العربى الحديث ونشروا الفكر المشرقى فى بلاد «العم سام» ، يراهم محمود غنيم مجددين بل غزاة مجاهدين فى دنيا الأدب والفكر ، وهذا التقدير من الشاعر محمود لشعراء المهجر وأدبائه لم يكن مقابل شىء فلا تظن أن هناك بين المهاجرين وغنيم مراسلات واتصالات ، فوربك ماعرفوه إلا بشعره وماقدرهم إلا عن طريق رسالتهم الفكرية وقصائدهم الشعرية وكان أول أديب مهجرى يدرس الشاعر غنيم ويحلل شعره ويطلق عليه «خليفة حافظ» هو الأستاذ «توفيق ضعون» من نزلاء البرازيل وقد نشرت هذه الدراسة سنة ١٩٤٠م. فى العدد الممتاز من مجلة العصبة التى كان يصدرها أدباء المهجر ببلاد البرازيل ، وقد كان بحثا وافياً فيه حرارة الإخلاص وصدق المنهج ودفاع الأديب عن أديب .. وقد كان لهـذا الدفاع ، ولتلك الدراسة الأدبية أثر ووقع فى الأوساط الأدبية فى مصر وبلاد المهجر ، بل عرفت محمود غنيم إلى كثير من الناس ، ومارأيك إذا قلت لك إنها كانت من الناحية الإدارية فاتحة خير على المدرس محمود غنيم الذى كان فى بلدة «كوم حمادة» من البحيرة ؛ وكم أعجب الأستاذ أحمد حسن الزيات بدراسة الكاتب السورى لشعر محمود غنيم فنقل البحث من مجلة العصبة إلى مجلة الرسالة فى العدد ٣٤٧ من تلك السنة أيضا ، وقد اعتز محمود غنيم بهذا فنظم أبياتا تحت عنوان «زامر الحى» ، وعندما طبع الديوان صدره بدراسة الأديب المهجرى . ومن هذه الأبيات :

هز شعرى قوما وراء الوادى   وبه ضاع نفخة فى رماد
علم الله . مالمثلى ذنب   إنما الذنب أن مصر بلادى
بلد قد سقيته الود جريا   لا ، وصدرى به إلى الماء صاد

أين حظ القريض بين أناس زعموا أنهم حماة الضاد
كيف تسرى الحياة فى جسم شعب روضه عاطل من الانشاد
خرست ألسن البلابل فيه وارتقى يومه على الأعواد

وظل محمود غنيم مدرسا مغمورا فى بلدة «كوم حمادة» بالبحيرة سنين طويلة ، وهو قلق ، برم ، شأن المعلمين ذى المواهب والملكات عندما يرمى بهم فى أطراف القرى والكفور كأنهم فى منفى وإبعاد ، ويشعر محمود غنيم فى تلك الفترة وكأنه بلبل غريد قد وضع بين فراريج ودواجن ، وظل يرسل إلى المجلات الأدبية أيام أن كانت هناك مجلات للأدب الرفيع والشعر السامى قبل أن تبتذل المجلات وتذهب بهجة الأدب وروعة الشعر من صحافة هذه الأيام .. ولعل كثيراً من أدبائنا المعاصرين طالعوا شعره على صفحات الرسالة ـ رحمها الله ـ فقد وجد من صديقه الزيات كل صدر رحب ومؤاخاة أدبية وكم للرسالة وصاحبها من فضل على النهضة الفكرية المعاصرة .. ونشر فى البلاغ الأسبوعى .. ومجلة دار العلوم .. ومجلة «ابولو» لأحمد زكى أبى شادى نزيل أمريكا الآن الذى له فضل على تاريخ الأدب والشعر الحديث بإخراجه مجلة «أبولو» .. ونشر أيضا فى الثقافة واللواء الجديد وفى جرائد الأهرام والدستور الخ .

وكون محمود غنيم ثروة شعرية وكسب قراء وأعجب به أدباء فى خارج مصر وهذه ظاهرة تفسر لنا المثل القائل : «لا كرامة لنبى فى قومه» .. وأراها مثل اللوحة الفنية والصورة الرائعة، كلما ابتعدت قليلا وضحت لك الظلال والرسوم وقوة التصوير أكثر وأوضح .. إنه مدرس مغمور فى قرية مغمورة ، واسمع له إحدى تصويرات نفسه وحاله :

لك الله لا تشكو ولا تتبرم فؤادك فياض وفكك ملجم
يفيض لسان المرء إن ضاق صدره ويطفح زيت الكيل والكيل مفعم
تعللت دهرا بالمنى فإذا بها قوارير من مس الصبا تتحطم

أقمت بمصر عاثر الحظ ساكنا كما سكنت أهرامها والمقطم

واسمع الشاعر المدرس يصف ما به ويصرخ متبرما كما يصرخ كل أديب وفنان عندما يوضع فى غير مكانه ويحشر مع زمرة لا تقدر مشاعره ولا تتذوق نتاج فكره فتظل بنات أفكاره كاليتامى حائرات بائرات :

وقفت مكانى لا أريم وأخمصى على الشوك من طول السرى تتورم
كأنى إطـــار دائر حول نفسه يطول به المسعى ولا يتقدم
يذوب شبابى بين جدران قرية يباب كأن الصمت فيها مخيم

انه شاعر فنان يريد آفاقا أوسع ورحابا أكبر .. أهكذا يطوح به فى تلك القرية ، إنه يصمت صمت الألم ويسكت سكوت الشجن. ان عنده ألحانا يغمغمها وأبياتا يرددها لنفسه :

أكاد من الصمت الذى هو شامل إذا حسب الأحياء لم أك منهمو
وعاشرت أهليها سنين واننى غريب بإحساسى وروحى عنهمو
يقولون : خضراء المرابع نضرة فقلت .. هبوها .. لست شاة تسوم

وما هى الحياة التى يريدها ويبحث عنها محمود غنيم ؟ كى ينطلق ثم يعب حتى يمتلىء وينتج ويرسل ؟؟

سئمت بها لونا من العيش واحدا فدارى بها دارى وصحبى همو همو
حياة كسطح الماء والماء راكد فلا أنا مسرور ولا متألم
وما أبتغى إلا حياة عميقة تسر فأرضى ، أو تسوء فأنقم
حياة كلج البحر والبحر زاخر تدوى بها الأنواء والرعد يهزم

وحياة المعلم فى كل بلد وجيل وخاصة فى القرى لا تتفق مع روح الدارس الأدبى والشاعر الملهم والفنان المتذوق ، وحياة المعلم ينفر منها الأديب الحر والشاعر الطليق ، وليس هذا بشىء جديد فطالما صور الأدباء حياة المعلم صورا ساخرة وتندروا به وبرموا بقيوده ، وناهيك بشيخ الأدباء أبى

عثمان الجاحظ وكتابه عن المعلمين، والنوادر التى قد يختلقها اختلاقا ولكنها على كل حال ترمز لما يعانيه « المعلم » فى كل جيل وزمان . . . وهذا محمود غنيم يتبرم من حياة المعلم فى « كوم حمادة » :

لعمرك انى قد برمت بفتية   أروح وأغدو كل يوم إليهمو
صغار نربيهم بمثل عقولهم   ونبنيهمو لكننا نتهدم
لأوشك أن ارتد طفلا لطول ما   أمثل دور الطفولة بين يديهمو

ومن صرخات الأديب الشاعر فى تلك الفترة ما نشره سنة ١٩٢٩ م ، فى « السياسة الأسبوعية » :

أفتلك عاقبتى وذاك مآلى؟   خطوا المضاجع وادفنوا آمالى
لا تخدعونى بالمنى وحديثها   قد كان ذلك فى الزمان الخالى
ولقد برمت بمصر حين وجدتها   قبر النبوغ ومسرح الجهال
بلد تسربل بالحرير جهوله   ومشى الأديب به بلا سربال
أبصرت باب الرزق فيه مفتحا   إلا على محكم الأقفال
إن شئت أن تحيا بمصر فلا تكن   حى الضمير . . تعش خلى البال
واركع هناك أمام كل رياسة   ولو انها خلعت على تمثال
واظفر بذى جاه تعش فى ظله   أو عش بلا جاه ولا أموال
خل النعيم لمعشر خفضوا له   هاماتهم ما للنعيم ومالى

ويصور محمود غنيم راتب الموظف الذى يقبضه أول الشهر فيجرى من بين أصابعه بل يطير ولا يكفى حاجة الأديب الشاعر ونشرت هذه الأبيات فى (الرسالة) سنة ١٩٣٥ :

ولى راتب كالماء تحويه راحتى   فيفلت من بين الأصابع هاربا
إذا استأذن الشهر التفت فلم أجد   إلى جانبي إلا غريما مطالبا
فأمسيت أرجو نعيه يوم وضعه   وليس الذى يمضى من العمر آئبا
لعمرك ما فوق المكاتب راحة   ولا تحتها كنز يدر المكاسبا

قضيت حياتى بين دارى ومكتبى فألفيت وجه العيش أصفر شاحبا
تشابهت الأيام عندى كأنما مضى العمر يوما واحدا متعاقبا
فقل لشباب النيل قالة ناصح تعاف له أخلاقه أن يواربا
إذا مصر لم ترفع قواعد مجدها بساعدها لم تقض منه المآربا
وإن تك فى كل المرافق عالة على غيرنا عشنا بمصر أجانبا
أما من سبيل للحياة وغيرنا يرى سبلا شتى لهـــا ومذاهبا

... وديوان محمود غنيم أطلق عليه « صرخة فى واد ».. وذلك لأنه كما سبق أن أشرنا يكره الألقاب الطنانة والعبارات السحرية والألفاظ المغرقة فى الخيال التى لاتحمل فى طياتها معنى ولا تؤدى لك فكرة تستساغ . وعنوان الديوان فيه سخرية تذكرنا بعناوين كتب الكاتب الساخر المرح إبراهيم عبد القادر المازنى أمثال : « قبض الريح » « حصاد الهشيم » «صندوق الدنيا » « ع الماشى » « فى الطريق » الخ . . وأين هذا من عناوين بعض المتقدمين من المتأخرين ممن يعنون بالفخامة والجسامة : « المحيط ، المستوعب ، النهاية ، خزانة العلوم ، الدر المنظوم ، اللآلىء ، مجمع البحرين.. الخ الخ .

و « صرخة فى واد » إشارة إلى الازدراء والسخرية وعدم المبالاة ، من ناحية.. وأيضا يشير من ناحية أخرى إلى أن أناشيده ونداءه والهاب مشاعر قومه ، كل هذا صرخة فى واد لم تجد أثرا وتأثيرا ، ولـكنه طبع الشعراء دائما تلازمهم الشكوى وتلاحقهم ظلال التبرم حتى فى أزهى العصور وأرقى البلدان .. ومحمود غنيم كسول مهمل فى ترتيب قصائد وتنظيمها وطبعها بعد نظمها وتجويدها ، ينظم القصيدة ، ثم يهملها إهمالا فلا يجمع هذه الاشتات فى ديوان ولا يضم تلك الزهرات فى طاقة .. ولقد كان جمع ديوان محمود غنيم مرجعه لفرصة من الفرص وفضله يعود إلى مناسبة من المناسبات الفكرية .. فقد أعلن « مجمع اللغة » بمصر عن مسابقة أدبية، فأخذ الشاعر يضم شعره ويلم شعثه ويبحث عن الجرائد والمجلات والمجموعات التى فيها عبيره وتعابيره .. فضم

بمجموعة أكثرها شذرات ذهب . . . واسلم الديوان لمن يكتبه على الآلة الكاتبة . . وقدمه إلى المجمع . . ودفع بهساخراً سخرية الأدباء متوكلا توكل المؤمنين ، وكان فى لجنة الأدب فطاحل من أهل اللغة والبيان، وغطاريف قل ان يسلم من لذعة اسانهم إنسان، فراعهم شروقه واشراقه ، وهتف حسن القاياتى .. همس الفؤاد لاصرخة فى واد .. وكتب أحمد أمين عن الديوان بحثا مفصلا مطولا مدعما مركزاً ، حبذا لو نشره محمود غنيم فى ديوانه كما صنع بمقالات الأديب السورى « توفيق ضعون » وكلمة دسوقى أباظة .. ونال الجائزة الأولى وتكفلت بطبعه « لجنة البيان العربى ؛ وحسنا فعلت فما يقضى على الإنتاج الفكرى شىء مثل كسل الشعراء الفحول وكم ضيع التثاؤب دراسات وتاهت فى خضم الزمان روائع وبدائع .. وتطالعك فى أول الديوان صورة لا تمثل الشاعر فى شىء كأنها صورة « مدرس إلزامى » أيام زمان .. طربوش قد غاص وشفتان مطبقتان ونظرة فيها جمود وليس فيها طلاقة الشعراء . ورباط عنق أحكم ربطه ...

ويقع الديوان فى ٣٠٦ من الصفحات وبه الاهداء إلى والده الذى علمه قراءة الشعر وروايته وإنشاده ثم تقديم للاديب المرحوم إبراهيم دسوقى أباظة وقد كان رجلا نبيلا فى أدبه أديبا فى خلقه لم تشوهه المراكز السياسية والملاطمات الحزبية فى مصر .

ثم تطالعك مقالة « توفيق ضعون » تحت عنوان «خليفة حافظ »، وجعل الشاعر ديوانه أبوابا حسب ذوقه ورأيه ، ويحوى الديوان ١٣٤ قطعة شعرية، وطبعا ليس الديوان كل شعره فهناك أشعار لم تنشر لما فيها من أفاكيه المجالس وسلاطة النقد اللاذع أو الأدب الذى يسمع ولا يكتب ويقال ولا ينشر ويدور على السنة الشعراء والأدباء . وقد دار مع أحمد أمين ذات مساء حديث حول هذه الأشعار وطلب من محمود غنيم نشر شىء من أفاكيه المجالس

والشعر اللاذع فقال الشاعر: «خذ، انشر شيئا منه فى مجلة «الثقافة»، فاشاح أحمد أمين بيده وقال فى عامية: «لا ياعم انشر فى المجلات الأخرى هذا النوع، حتى يتعوده الجمهور وبعدين تعال عندى»، وهذا معناه أن هناك أشياء كثيرة لم تنشر وأشياء نظمها بعد طبع الديوان وأشياء ضاعت.

وعدد أبواب الديوان تسع .. وهى «الحرب، الاجتماع، الوصف، فى المرأة، عبرات، تحيات، زفرات، دعابات، أشتات، ومن استعراضنا لأبواب الديوان نرى انه قد صور كثيرا من خلجات النفوس ولم يدع بابا من الأبواب التى طرقها الأقدمون إلا واجتاز عتبته ولا نوعا إلا نظم فيه وأنشد وغرد .. وأروع قصيدة فى «الاجتماع»: «وقفة على طلل» نشرت فى مجلة الرسالة سنة ١٩٣٥ بمناسبة ذكرى الهجرة وهى من الفلتات التى يعجز عن وصفها القلم بل الفلتات التى فيها حرارة تكاد تلهب الشعور وتصهر الحديد ومعان تهز النفس هزا وتحرك مكامن الشعور وتثير مدافن الذكريات وإن كنت لست أدرى لماذا وضعها فى «باب الاجتماع» وهى كلها ذكريات وعبرات، هلا وضعها فى «الزفرات». إن بها زفرات حارة هلا وضعها فيها. ولم حشرها مع (الاجتماع)؟ واذكر أنى تلوتها على مسامع والدى بعد نشرها بثلاث سنوات أو أربع وأنا طالب فى المرحلة الأولى وقد كانت تطرب لها المرحومة أختى، والقصيد سارية فى كل بلد عربى وإسلامى. وإذا قيل فى تلك البلدان .. محمود غنيم .. قالوا إيه .. صاحب .. «مالى وللنجم يرعانى وأرعاه»، واشتهر بها شهرة القدامى بالمعلقات وخاصة امرأ القيس بـ «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» .. وشهرة طه حسين بكتاب «الأيام» والعقاد بسلسلة «العبقريات»، وقصيدة «وقفة على طلل» تقع فى ٥٤ بيتا فيها .. آهات وذكريات وأمانى ولوعات .. ووجد وحرقة ... وبها تصوير دقيق لشعور المسلمين والعرب بعد أن درس مجدهم وضاع عزهم ... ولا يبعد تفجعها من حرقة أبى الحسن التهامى فى ولده ... ولا هى باقل روعة ولوعة من تفجع

الأندلسيات التى رثى بها الشعراء ضياع « الأندلس مثل قصيدة أبى البقاء صالح من شريف الرندى فى القرن الثامن الهجرى :

أصابها العين فى الإسلام فارتزأت   حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل « بلنسية» ماشأن «مرسية   وأين «شاطبة» أم أين «جيان»؟
وأين «قرطبة» دار العلوم؟ فكم   من عالم قد سما فيها له شأن الخ

وهى أروع بكثير لما فيها من تناسق وانسجام وفيها تفجع آمال وهزات قلوب ، وقد ذهب محمود غنيم إلى السودان فأكرمه أدباء السودان وفى حفل غنى مطرب سودانى على الطريقة السودانية قصيدة « مالى للنجم يرعانى وأرعاه » ، وقد انتهزت محطة طرابلس وجود الشاعر فسجلت له ثلاث مقطوعات شعرية منها هـذه التحفة الغالية . وأحتار كيف أقتضب منها ، وماذا أعطيك منها ؟ :

مـالى والنجم يرعانى وأرعاه   أمسى كلانا يعاف الغمض جفناه
لى فيك ياليل آهات أرددها   أواه لو أجدت المحزون أواه
لاتحسبنى محبا يشتكى وصبا   أهون بما فى سبيل الحب ألقاه
إنى تذكرت والذكرى مؤرقة   مجدا تليدا بأيدينا أضعنـاه
أنى اتجهت إلى الاسلام فى بلد   تجده كالطير مقصوصا جناحاه
ويح العروبة كان الكون مسرحها   فأصبحت تتوارى فى زواياه
كم صرفتنا يد كنـا نصرفها   وبات يملكنا شعب ملكناه
كم بالعراق وكم بالهند من شجن   شكا فرددت الاهرام شكواه
بنى العمومة إن القرح مسكمو   ومسنا .. نحن فى الآلام أشباه

ويلتفت الشاعر إلى ذلك الماضى المشرق يستوحيه ويأخذ قوة من معانيه ليعطى أبناء الحاضر أشعة يسيرون عليها وهديا يحرك هممهم ويبعث فيهم همة الأحرار :

سل الحضارة ماضيها وحاضرها   هل كان يتصل العهدان لولاه.

هى الحقيقة عين الله تكلؤها فكلما حاولوا تشويهها شاهوا
هل تطلبون من المختار معجزة بكفيه شعب من الاجداث أحياه
من وحد العرب حتى كان واترهم إذا رأى ولد الموتور آخاه
وكيف كانوا يدا فى الحرب واحدة من خانها باع دنياه بأخراه
وكيف ساس رعاة الابل مملكة ما ساسها قيصر من قبل أو شاه

ويمضى الشاعر فى صدق وروعة فى تصوير الذكريات والاشادة بتلك الصفحات العاطرات ، وفى عرض رائع يأخذ منك مجامع الحس والنفس . .

سل المعالى عنا إننا عـــرب شعارنا المجد يهوانا ونهواه
هى العروبة لفظ ان نطقت به فالشرق ، والضاد والاسلام ، معناه
استرشد الغرب بالماضى فأرشده ونحن كان لنا ماض نسيناه
إنا مشينا وراء الغرب نقبس من ضيائه فأصابتنا شـــظاياه

ويتحدث عن بحر الروم وعن قصور الحمراء وعن أمجاد دمشق وبغداد :

هذه معالم خرس كل واحدة منهن قامت خطيبا فاغرا فاه
الله يعلم ما قلبت سيرتهم يوما وأخطأ دمع العين مجراه
ما بال شمل شعوب الضاد منصدعا رباه أدرك شعوب الضاد ، رباه

وبعد هذه الوقفة المؤثرة والنظرات الدامعة يختتم دعاءه :

لاهم قد أصبحت أهواؤنا شيعا فامنن علينا براع أنت ترضاه
راع يعيد إلى الإسلام سيرته يرعى بنيه وعين الله ترعاه

إنها وربك خلجات وآهات صادرة من قلب عمر إيمانا بروحانية الاسلام . . .

صرخـــة فى واد

ويتحدث الأديب الحجازى الكبير محمد سعيد العامودى رئيس تحرير مجلة الحج عن ديوان « صرخة فى واد » لشاعرنا الكبير غنيم فى كلمة نشرها فى مجلة الحج[1]، وقال فيها

« الشاعر الذى أريد أن أتحدث عنه فى هذا المقال ؛ وأستعرض شيئاً من شعره فى القومية والسياسة والاجتماع ، هو شاعر مرموق ؛ من شعراء مصر حاملة لواء النهضة الفكرية فى عالم العروبة والإسلام .

محمود غنيم .. شاعر معاصر من شعراء مصر ؛ ومصر خليقة بكل إعجاب وإكبار ، بمن أنجبت ولا تزال تنجب منذ أوائل عصر النهضة الحديثة فى العالم العربى ؛ من قادة للفكر ، وأساطين فى العلم والفن ، ونوابغ فى الشعر والبيان وحقيقة ، قد يمكن أن يقال إن محمود غنيم ، ليس أشهر شعراء مصر اليوم ، وحقيقة ، قد لا يعده بعضهم فى الرعيل الأول .. وقد يقول فيه بعض نقاد المدرسة الشعرية الحديثة ، أشياء وأشياء ، ولكن الذى لا خلاف فيه هو أنه شاعر مصر الاجتماعى الأول ، فى هذا الأوان ، أو هو — بحق — خليفة شاعر النيل « حافظ إبراهيم » كما قال عنه ذلك كاتب عربى مهجرى معروف فى الأوساط الأدبية ، هو الأستاذ توفيق ضعون .

ولست أبعد ، إذا قلت : إن شهرة محمود غنيم كشاعر ؛ وعلى الخصوص فيما هو خارج حدود مصر من الأقطار العربية ؛ هذه الشهرة قد بذ غيرها .. ولعل مرد ذلك هو إلى انفراد الشاعر بمزيتين ، أولاهما : ميله الواضح إلى الوضوح ، مع قوة فى الأداء ؛ وارتفاع فى الأسلوب ، وحسن انتقاء للألفاظ .. إلى جانب صدق العاطفة والإحساس وعدم إهمال الفكرة أو الإغضاء عن وحدة الموضوع ..

---

(١) عدد ربيع الأول ١٣٦٨ هـ .

وطبيعى أن يتوامم مع هذا الميل إلى الوضوح ، ابتعاده عن الرمزية ... وما الرمزية إلا بدعة شعرية ، نشأت أول ما نشأت فى الغرب ، ووفدت إلى هذا الشرق العربى ، أول ما وفدت ؛ فى مطلع القرن العشرين ولكن أتيح لها أن تبقى فى ربوعه إلى اليوم ، وإن كانت هى فى وطنها الأوربى الفرنسى — كما يظهر — لم يبق لها الآن ، ما كان لها بالأمس من قيمة أو احتفال .

أما ثانية هاتين المزيتين للشاعر محمود غنيم ، فهى شعره الاجتماعى والقومى ، إذ الواقع أن هذا الشاعر يكاد ينفرد بين شعراء الجيل الجديد فى مصر ، بأنه أكثرهم اتجاها إلى مواضيع الاجتماع ، وإلى المواضيع القومية ؛ فإذا كان ما يحدثه شعر الشاعر من أثر قوى فى النفس ، دليلا على صدق الشاعر فى تعبيره الشعرى ، كان لنا أن نقول عن شعر محمود غنيم الاجتماعى والقومى : إنه شعر صادر عن إحساس عميق ، وعاطفة جياشة ، وإيمان بما يقول .. فلا تعمل ولا افتعال .

وديوان محمود غنيم « صرخة فى واد » — وهو الديوان الذى نال جائزة الشعر الأولى ، فى مسابقة مجمع القاهرة للغة العربية لعام ١٩٤٧ ، كما أنه الديوان الأول للشاعر — حافل بمجموعة من أجود الشعر .. وهذه المجموعة لا أظنها كل ما نظمه الشاعر ، وإنما يبدو أنها مختارات شعره من أول عهده بالشعر ؛ حتى عام ١٩٤٧ م .

ولعل طابع المحافظة .. — وهو ما يحاول شعراء المدرسة الحديثة فى مصر أن يلصقوه بالشاعر محمود غنيم — يبدو جلياً فى طريقة الشاعر فى تقسيمه لديوانه ، إلى أبواب تسعة .. فى « الحرب » و « الاجتماع » و « الوصف » و « المرأة » و « عبرات » و « تحيات » و « زفرات » و « دعابات » و « اشتات » .. وهذه الطريقة هى الموسومة بها مدرسة حافظ وشوقى فى مصر ، والرصافى والشبيبى فى العراق .

وليس الغرض هنا ، أن نتحدث حديثا شاملا عن هذا الديوان ، فقد يكون

لهذا الحديث مجاله الآخر . . وإنما نريد أن نلقى نظرة على شيء من شعره الاجتماعي وبخاصة ما كان منه فى الصميم . . من المواضيع الشرقية والإسلامية والعربية، وما يمس النضال بين الشرق والغرب ، والحرية والاستعمار، وما يتصل بالحرب والسلام ، واصفا فيه أهوال الحرب ، وآلام الإنسانية من فعلها الوحشى الرهيب ، وآمال الإنسانية فى السلام ، أو فى سراب السلام . . .
انظر إلى الشاعر ، كيف يخاطب « السلام » فى قصيدته « فجر السلام » وهى التى أنشأها عندما وضعت الحرب العالمية الأخيرة أوزارها ، فيقول :

أدرك بفجرك عالما ، مكروبا   عوذت فجرك أن يكون كذوبا !
يا أيها السلم المطل على الورى   طوبى لعهدك ، أن يحقق ، طوبى !
ما بال وجهك بعد طول حجابه   يحكى وجوه العاشقين شحوبا
رحماك طال الليل واتصل السرى   حتى تساقطت النفوس لغوبا
لفحت لظى الحرب الوجوه فطف بها   كالزهر نفحا والنسيم هبوبا
لم يبق فى مجرى الدماء بقية   شكت العروق ، من الدماء نضوبا
طحنت فريقيها الحروب بضرسها   لا غالبا رحمت ، ولا مغلوبا

وعلى هذا النسق يمضى الشاعر فى تصويره الدقيق لما جرته تلك الحرب من أهوال على العالم بأسره ، أفراداً وجماعات إلى أن يصل إلى . . . إلى يوم النصر ! فيتساءل فى مرارة عميقة ، وألم دفين ، عن أعراس هذا اليوم أين نقيمها ؟

أعراس يوم النصر أين نقيمها ؟   المدن صرن خرائبا ، ولهيبا
هيهات أن تنسى البلاد حدادها   أو تسترد جمالها المسلوبا !
تعدو الحضارة . . وهى داء فاتك   وتسير فى خطو الكسيح طبيبا

إلى أن يقول :

أمم بنت ركن الحضارة عاليا   ما بالها ، لم تأله تخريبا !
الأوصياء القيمون على الورى   تركوا الورى بدمائهم مخضوبا

فرض القوى على الضعيف رقابة — من ذا يكون على الرقيب رقيبا ؟
من للرعيل ومن لقادته ؟ لقد — ضل الجميع مسالكا ودروبا !
خلوا مقاليد الشعوب لأمة — عزلاء ، تقنع بالكفاف نصيبا
القوت عنوان الحياة فماله — أمسى يبيد ممالكا وشعوبا ؟؟

وهكذا يعجب الشاعر من أمم بنت ركن الحضارة عاليا ؛ ولكنها ماتنفك تعمل على تخريبه . . . ومن أوصياء جعلوا من أنفسهم تطوعا واحتسابا ؛ قيمين على الشعوب ؛ ناسين أنهم تركوا الشعوب مخضوبة بالدماء . ومن قوى فرض رقابته على ضعيف . . . ثم يسأل فى سخرية ممضة — وأكبر الظن أنه نسى فى هذه اللحظة الشعرية هيئة الأمم المتحدة — إنه يسأل ، ويسأل : من ذا يكون رقيبا على الرقيب ؟؟

وأنت لاترى الشاعر إلا ضارباً على هذا الوتر ؛ كلما عرض فى شعره لقضية الحرب والنصر والسلام ، فى قصيدته « لاح الهلال » يقول :

الغرب أولع بالدماء ؛ فما ترى — إلا قراعا فيه إثر قراع
يبتاع بالعمران نصراً زائفاً — خسرت لعمرك صفقة المبتاع
لاحربه ، أبقت ، ولا بسلامه — شفيت لناكبد من الأوجاع
ويح السلام جنى القوى ثماره — وكوى الضعيف بجمره اللذاع
ما بال من أبدى الشجاعة فى الوغى — خاض السلام .. فكان غير شجاع ؟

إلى أن يقول :

خطوا الوثائق ، فى المحيط ، فحينما — أمنوا العدو . . رموا بها فى القاع !!
مضت الحروب بقدسها . فإذا بها — فى السلم بضعة أسطر ورقاع . .
كتب الشقاء لأمة مهضومة — تجرى وراء سرابها الخداع

وفى قصيدته بعنوان « جنازة السلام » ينعى هـذا السلام . . وينعى معه أوربا ، ويتحرق أسفاً على :

طفـــل برىء ذاق من — يد أمه كأس الحمـام

وليست أم هذا الطفل البرىء ، إلا أوربا التى يقول عنها :

وضعته أوربا لنا يا ليت أوربا عقام !

ويستمر فى وصف هذا الطفل البرىء ، ويقول :

لهفى عليه ممزق الأو صال منتثر العظام !
عصفت به ريح الوغى عصفا وغطاه القتام

إلى أن يقول :

ليس السلام بسائد ما دام فى الدنيا حطام !
ما الناس إلا الناس فى عصر الضياء أو الظلام
سيان من سكن القصور الشم أو سكن الخيام
بسوى الدم المسفوح لا يروى لظامئهم أوام
وأحب ما وقعت عليه عيونهم جثث وهام
وهو ابن آدم ينتشى من خمرة الدم والمدام
الذئب كالإنسان لو يتعلم الذئب النظام ! !

أما قصيدة الشاعر « ثورة على الحضارة » فلعلها من أروع ما قيل فى موضوعها فكرة وأسلوبا ، فاسمع :

ذرعتم الجو أشبارا وأميالا وجبتم البحر أعماقا وأطوالا
فهل نقصتم هموم العيش خردلة ؟ أو زدتمو فى نعيم العيش مثقالا ؟

إلى أن يقول :

إنى أرى الناس ما زادوا رفاهية فى العيش ؟ زادوه تعقيدا وإشكالا
تجاوز العرف والعادات حدهما فأصبحا فى رقاب الناس أغلالا
يا طالما حدثتنى النفس قائلة أنحن أنعم أم أجدادنا بالا

ولك أن تتأمل بعد .. فى هذا التصوير الصادق لمعائب الحضارة . . .
هذا التصوير الذى يتسم بسمة الشاعر الأصيلة فى الميل إلى الوضوح . .
ولكنه الوضوح الذى يتسامق على أصحاب الرمزية ، وأنصار الغموض

على اعتبار أن الرمزية والغموض لديهم ، هما معيار التجديد ، ومقياس الفن ، وميسم الجدة . . وعلامة المستقبلية . . فأى تصوير بلغ ما بلغ ، يجعلك تتمثل أمامك ما تحسه فى نفسك وتطالعه صباح مساء ، من مثالب حضارة القرن العشرين المادية ، كالذى تراه فى هذه الأبيات :

تحضر الناس ، حتى ما لمكرمة ... قدس لديهم ، ولكن قدسوا المالا
فى كل مملكة حرب منظمة ... تضم جيشين : ملاكا ، وعمالا
يد السياسة . . بالأخلاق قد عبثت ... وقوض العلم صرح الدين ، فانهالا
البدو أكرم أخلاقا . . وأحسبهم ... لله أكثر تقديسا وإجلالا
قالوا : تألق نور العلم ، قلت لهم : ... بل ناره أصبحت تزداد إشعالا !

ثم يقول :

ابن الحضارة ، جسم دون عاطفة ... يكاد يحسبه رائيه تمثالا
رسالة الغرب ، لا كانت رسالته ، ... كم سامنا باسمها خسفا وإذلالا
تغزو الحضارة أقواما ، لتسعدهم ... والزنج أسعد من أربابها حالا

وقبل أن أختم هذا المقال ، لا بد لى من أن أشير إلى قصيدة « مجد الإسلام أو وقفة على طلل » التى يقول فى أولها :

ما لى وللنجم يرعانى وأرعاه ؟ ... أمسى كلانا يعاف الغمض جفناه
لى فيك ياليل آهات أرددها ... أواه ! لو أجدت المحزون ، أواه !
لا تحسبنى محبا يشتكى وصبا ... أهون بما فى سبيل الحب ألقاه . .
إنى تذكرت — والذكرى مؤرقة ... مجدا تليدا بأيدينا أضعناه ! !
أنى اتجهت إلى الإسلام فى بلد ... تجده كالطير ، مقصوصا جناحاه !
ويح العروبة كان الكون مسرحها ... فأصبحت تتوارى فى زواياه
كم صرفتنا يد كنا نصرفها ... وبات يملكنا شعب ملكناه
كم بالعراق ، وكم بالهند ذو شجن ... شكا ، فرددت الأهرام شكواه
بنى العمومة : إن القرح مسكمو ... ومسنا . . نحن فى الآلام أشباه

ولعل بيت القصيد الأول ، فى هذه القصيدة — وكل بيت من أبياتها بيت قصيد — هو قوله :

ما بال شمل شعوب الضاد منصدعا   رباه .. أدرك شعوب الضاد ، رباه !

رأى دسوقى أباظة فى الشاعر :

وفى المقدمة التى كتبها الأباظى الوزير لديوان « صرخة من واد » ، قال إبراهيم دسوقى أباظة : « غنيم شاعر مرموق المكانة ، يقف فى طليعة الرعيل الأول من شعرائنا المعاصرين، وليس فى بلاد العرب من لا يعترف له بذلك . وقد لمع نجم غنيم فى أفق الشعر الحديث أثناء احتدام المعركة بين مدرستى العقاد وشكرى من جهة وشوقى وحافظ من جهة أخرى ، أى بين مذهبى الفكرة والأسلوب » .

ثم نقد الأباظى رأى العقاد فى ديوان « صرخة من واد » الذى كان يجمله أن طابع الأسلوب والصياغة أبرز من طابع التجديد والابتكار فى الديوان . وخلص إلى أن غنيما نسيج وحده فى وضوح اللفظ المعبر عن المعنى الجميل ، وسلاسة العبارة ، مع إشراق الصورة ، واتساق الكلمة مع المعنى اتساقا لا يسمح بإحلال غيرها محلها .

غنيم وحافظ :

ويصف الشاعر أحمد عبد المجيد الغزالى شاعرنا الكبير ويوازن بينه وبين حافظ فيقول [1] :

وجه صامت ساكن ، وعينان تائهتان ، وأنف غير سوى ، وجبهة تترنح فى قمتها شعرات بيض ، متهالكة ، يجمع كل هذه رأس ليس متسقا على جسم الشاعر ، تطل من جانبيه أذنان غير متفتحتين ، أما ثياب الشاعر الفضفاضة ، التى يسبح فيها ، فهى لا تثير ، كما أنها لا تروع .

(١) مجلة الموظفين — سبتمبر ١٩٥٦ .

ذلكم الشاعر فى شكله ، تراه هكذا ، فلا يزيد فى تقديرك على أنه « عمدة » قرية أو « نجع » .. قذفت به إلى القاهرة ، أغراض او أمراض .

أما شاعرنا فى (مرضعه) .. فقد قيل عنه ذات يوم . إنه خليفة « حافظ » ، وأذكر أن الذى رشحه لهذه الخلافة ، أديب عربى من (البرازيل) أراد أن يكرم (غنيما) .. وعندى أن غنيما أرسخ قدما من حافظ ، وأرفع منه قدراً ، فالمواهب التى يتفاوت عندها أقدار الشعراء . وتتباين منازلهم ، يكبر حظ غنيم فيها ، ويقل نصيب حافظ .

والذين سمعوا حافظا ، وعاصروه ، من أهل النقد ، وإصدار الأحكام الأدبية ، يرون فى حافظ رأيا ، يضعه فى مكان لا يرتفع عن المكان الذى نريد أن نحل فيه غنيما . يقول العقاد فى كتابه « شعراء مصر » فى الفصل الذى تناول فيه حافظ إبراهيم :

« وكان وسطا بين شاعر المجلس ، وشاعر المطبعة ، ولعله استفاد من صفات المنادمة ، فوق ما استفاد من الشعر الصميم ، والمحقق على كل حال أن صوته فى الإلقاء ، ولباقته فى الإيماء ، كان لهما شأن فى جذب الاسماع إليه ، وإعجاب الناس به ، وليس ذلك بالشأن اليسير » .

ثم يقول العقاد . . . « وكنت أداعبه فأقول له : « إنك بأن تملأ قوالب الحاكى أحرى منك بطبع صفحات الدواوين . . فكان يقول له حافظ : وتكون أنت (عقادى) على تخت الغناء . .

وهذه الفكاهة التى يسوقها العقاد ، تحمل فى طياتها أبلغ الجد ، فحافظ شاعر وسط — عاش فى كيان — فكه عملاق ، ومتندر لا يشق له غبار ، وقصصه فى هذا المجال ، تزحم سمعة شاعر النيل من جميع أقطاره . .

والذى أريد أن أخلص إليه ، من عرض رأى العقاد فى حافظ ، هو أن العقاد كان أول المحكمين فى جائزة مجمع اللغة العربية ، التى كان أول من استحقها غنيم بديوانه « صرخة فى واد » ، ولو أن ديوان حافظ كان إلى

جانب ديوان غنيم ، لما تردد العقاد وهيئة التحكيم ، فى الحكم لغنيم ، ذلك لأن الفوز الذى انعقد لصاحب « صرخة فى واد » فى رأى المحلفين . . . كان نتيجة لتفوق صاحبه ، فى ابتداع الأساليب وإشراق العبارة ، وفحولة التراكيب ، ولا يختلف ناقدان ، فى أن غنيما يبذ حافظاً فى هذا المضمار ، وهو رأى العقاد أيضا .

هذا هو الرأى فى « غنيم » حين يقترن بحافظ ، أما غنيم حين تنفرد به شاعرا موظفاً ، ينتظر آخر الشهر « مرتبا » وآخر المدة المقررة « درجة » ، وفى نهاية كل سنتين « علاوة » .. قد تجد طريقها إليه ، أو لاتجد . فهو القائل فى مرتبة آخر الشهر :

ولى راتب كالماء تحويه راحتى ... فيفلت من بين الأصابع هاربا
إذا استأذن الشهر التفت فلم أجد ... إلى جانبي إلا غريما مطالبا

ثم يصف حياته بين حجرات الوظيفة ومكاتبها ، وضيقه بهذه الحياة الرتيبة فيقول :

لعمرك مافوق المكاتب راحة ... ولا تحتها كنز يدر المكاسبا
قضيت حياتى بين دارى ومكتبى ... فألفيت وجه العيش أصفر شاحبا
تشابهت الأيام عندى كأنما ... مضى العمر يوما واحدا متعاقبا
أما من سبيل للحياة ، وغيرنا ... يرى سبلا شتى لها ومذاهبا

وقد طوحت الأيام حينا من الدهر بغنيم فى (كوم حماده) فقال يصف وظيفته كمعلم :

لعمرك إنى قد برمت بفتية ... أروح وأغدو كل يوم إليهمو
صغار نربيهم بمثل عقولهم ... ونبنيهم لكننا نتهدم
لأوشك أن أرتد طفلا لطول ما ... أمثل دور الطفل بين يديهمو

ثم يصف الصمت الذى يلم أطراف القرية ، والسأم الذى ينتابه من طول عشرته لأهليها ، وبرمه بخضرتها التى يتحدثون عن نضرتها وجمالها :

أكاد من الصمت الذى هو شامل   إذا حسب الأحياء لم أك منهمو
وعاشرت أهليها سنين ، وإننى   غريب بإحساسى وروحى عنهمو
يقولون : خضراء المرابع نضرة   فقلت : هبوها .. لست شاة تسوم
حياة كسطح الماء ، والماء راكد   فــلا أنا مسرور ولا متألم

وهو ينوب عن إخوانه المعلمين فى تحية وزيرهم .. فيقول فى شكوى أحوالهــم :

خلق السهاد لجفنه   ولوجهه خلق الشحوب
هو فى الفصول ممثل   آنا ، وآونة خطيب
وإذا ادلهم الليل والتقـ   ـت المضاجع والجنوب
أمضى سواد الليل وهو   لكل شاردة طــــلوب
إن المعلم خبزه   بمداده القانى مشوب

واستقبل الشاعر منصبه عندما عين مفتشا للغة العربية ، استقبالا لائقا .. فقال تحت عنوان (منصب زائف) :

وما سرنى التفتيش حين وليته   ولا أنا إن ولى عليه بآسف
لقد خلته يغنى عيالى من الطوى   فكان كمضروب من النقد زائف
وزارة مهضومين ليس بقابض   فتى يرتقى فيها وليس بصارف

وللشاعر قصيدتان أخريان ، إحداهما عن « العلاوة » يقول فيها :

ياأخت «عرقوب» وعدت فأنجزى   يكفى جفاؤك من سنين طوال
هل أنت الا كالغوانى طالما   سقن الدلال على رقيق الحال

والقصيدة الثانية عن « الكادر » وفيها يقول :

ضغطوا (الكادر) الجديد إلى أن   لبسته أعناقنــا أطواقا
ويح مصر أرى الموظف فيها   حمل العبء وحـده فأطاقا
من ينجيه من بنين صغار   وبنات يسألنه الإنفاقا

هذه المختارات التى قدمتها بين يدى القارىء ، هى كل ما صادفنى فى ديوانه ، من أشعار تشير إلى « غنيم » الشاعر الموظف .

والذى أريد أن أتساءل عنه .. هو .. هل هذه الومضات الخاطفة ترسم صورة كاملة ؟ لشاعر موظف ؟ أعتقد أنها ليست بصورة كاملة الظلال ، ولا واضحة المعالم .

وقد لا يكون الشاعر مطالبا ، أن نلمح أثر عمله الذى يمارسه فى شعره ، لكننا إلى هذا قصدنا ، حين انعقدت النية على الكتابة عن هؤلاء الشعراء الموظفين ، ووضعنا نصب أعيننا ، أن نبرز أثر وظائفهم ، فيما يصدر عن مواهبهم من أشعار ، تتناول أعمالهم التى يؤدونها فى حياتهم فى الوظيفة ، كمضطرب لهم ، يروحون إليها فى مشرق كل صباح ، ويغدون منها ، بعد أن يذهب النهار إلا أقله .

وكان المأمول أن يثرى نصيب « غنيم » فى الحديث عن هذه الحياة وألوانها وأشجانها ، وما أكثرها !! غير أنه قل قلة ، تكاد لا تنهض بأن بأن تضيف غنيما إلى الشعراء الموظفين وإن ضمنته إلى غيرهم .

أين قصيدة غنيم الذى عرض فيها إلى مهنته ، وإلى تلاميذه ، من قصيدة شوقى الذى لم يحترف هذا العمل أبداً ، وهى قصيدة لا نظير لها فى منحاها ، تلك القصيدة التى يقول فى مستهلها :

ألا حبذا صحبة المكتب   وأحبب بأيامه أحبب

وفيها يقول :

ألا حبذا فتية يمرحون   عنان الحياة عليهم صبى

وفيها يقول :

وكم من منجب فى تلقى الدروس   تلقى الحياة فلم ينجب

وربما كان تحيف حق « غنيم » ، ونكران صنيعه ، فى ميدان التربية

والتعليم ، جعل عاطفته تتجافى عن حياته الوظيفية ، ولا تلامسها ، ولا تختلج بين دقائقها .. أو حقائقها .. ومن هنا تقلص ظل الشاعر فى هذا اللون من الحياة ، أما ألوان حياته الأخرى ، فقد تناولها الشاعر بقدر إحساسه بها ، وانفعاله بحوادثها .

والذى يعبر ديوان (غنيم) يواجه حقيقة لامراء فيها ، تلك هى أنه شاعر المجتمع الذى يعيش فيه ، يصور أفراحه وأتراحه ، ويرسم شئونه وشجونه ، فى إطارات موشاة من صفاء خياله ، وسماحة عبارته ، ورقة ديباجته ، ودقة سبكه ، كل ذلك فى انسياب واشراق ، يستشف القارىء فيهما صفحة الغدير المصقول .

وغنيم الشاعر الموظف فى مصر ، لايعيش لمصر وحدها ، وإنما يسبح فى أجواء المجتمعات العربية لشقيقات مصر ، ويحلق فى سماواتها فيعجب ويطرب ، ويخلف هناك أكرم الأصداء التى ترف فى هذه الآفاق العربية الصميمة ، بشعره العربى الصميم .

خليفة حافظ :

وذهب الأديب المهجرى صديق الأستاذ توفيق ضعون فى مقاله نشر فى مجلة العصبة الأندلسية عام ١٩٤٠ ، ثم فى مجلة الرسالة المصرية عدد ٣٤٧ ، إلى أن غنيما خليفة لحافظ إبراهيم شاعر النيل ، ونوه بقصيدته « كأس تفيض » التى وصف فيها حياته فى قرية مصرية نائية هى كوم حمادة إحدى قرى البحيرة ، وقال فيما قال : « أقدم لقراء العصبة محمود غنيم شاعرا مجيدا ، إذا لم يضارع حافظا فى أصيله فإنه يجاريه فى ضحاه ، وغنيم حافظى فى تأنقه وتدقيقه وبراعته فى تخير الألفاظ والبحور والقوافى .

ويصف شعره غنيم فيقول : « شعر تصويرى سداه الدقة ولحمته الأمانة فى الأداء ؛ ونزعة حرة وفكر طليق من سيطرة الأوهام ، وخيال واسع يتغلغل فى الأعماق ، ويكشف الخبايا ، ونفس طموح لا يكبح جماحها إلا الإباء المستحب .

المروءة المقنعة :

والمروءة المقنعة تمثيلية أخلاقية توضح لنا الخلق العربى فى هالة من الضياء والإشراق[1] . .

هى رواية شعرية اجتماعية ألفها الأستاذ محمود غنيم الشاعر المصرى المعروف وأحد أبناء العروبة الذين يعتزون بأمجاد قومهم وتراث أسلافهم . . تمثيلية ذات أربعة فصول . . قدمها على مسرح سينما الغزالة فى طرابلس مساء يوم الخميس ٢٥ مارس ١٩٥٤ جماعة التمثيل المسرحى لدار المعلمين واشترك فى تمثيلها الطلاب والأساتذة .

حدثت وقائع هذه القصة فى أرض الجزيرة بالعراق أيام خلافة سليمان ابن عبد الملك وتتلخص : فى أن غنيا من نبلاء (الرقة) يسمى خزيمة بن بشر افتقر بعد غنى حتى انفض أصحابه من حوله فلزم داره ، ووصل خبره إلى والى الجزيرة حينئذ (عكرمة الفياض) فذهب إليه ليلا متنكرا وأعطاه مالا كثيرا ورفض أن يعرفه بنفسه ، ثم تشاء المقادير أن يعزل الخليفة سليمان ابن عبد الملك عكرمة الفياض عن ولاية الجزيرة ويولى مكانه خزيمة بن بشر فيحاسب خزيمة عكرمة فيكتشف فى الخزانة عجزا كبيرا ، لا يستطيع عكرمة سداده ، فيزج به فى السجن غير عالم أنه صاحب الفضل عليه ، وان هذا العجز انما هو المال الذى وصله به ، ثم ينجلى الأمر صدفة بعد ذلك ، فيبادر خزيمة بإطلاق سراح عكرمة معتذرا ، ثم يذهب به إلى الخليفة ويقص عليه القصة ، فيعجب الخليفة بهذا الخلق الكريم والمروءة النادرة ويعيد عكرمة واليا معززا مكرما ، ويصور غنيم ذلك فى براعة وطلاقة نادرة .

---

(١) من كلمة للاستاذ عبد الهادى الفيتورى — راجع صحيفة طرابلس الغرب ٢٩ مارس ١٩٥٤ .

يومان للنعمان :

وهى رواية شعرية فى ثلاثة فصول ، نشرها شاعرنا الكبير غنيم فى أكتوبر ١٩٥٨ ، وتدور حوادثها حول الأقصوصة المروية عن النعمان بن المنذر ويوميه : يوم نعيمه ويوم بؤسه .

ويقول الشاعر : إن فى هذه الحادثة مادة راسخة تغذى من يريد الاشادة ببطولة العرب خاصة ، وبالفضائل الإنسانية العليا عامة ، وتقع هذه المسرحية الشهرية فى اثنتين وخمسين صفحة من القطع المتوسط .

ولغة الحوار فيها لغة عذبة مونقة ، والحوار نفسه يمثل فنانا كبيرا له ذكاؤه الخارق فى التقاط الصور والأحداث والمشاهد ، وفى تمثيل الأشخاص ، وإعطاء كل دوره الموائم له .

والرواية جديرة بأن تمثل وتقرأ معا . . وقد لا يفى الاقتباس منها برسم صورتها الفنية على حقيقتها ، فليطالعها القارىء ليقف على قيمتها الفنية

آراء للشاعر فى الحياة والمجتمع :

والشاعر ينصح الشباب ألا تستهويهم حضارة الغرب جملة وأن يتزودوا من العلم بأكبر قدر مستطاع ، وأن يستوعبوا تاريخ العرب المجيد ، وينقبوا عن تراث أجدادهم القدامى[1] .

وينصح المرأة بمكافحة الحجاب[1] لادعوة إلى الاستهتار ، ولكن حفظا لكرامة المرأة وحريتها ، واستجابة لديننا الكريم .

ألوان من شعر الشاعر :

تحية طرابلس :

نشرت هذه القصيدة فى صحيفة « طرابلس الغرب » عدد ٣٠ أغسطس

(١) صحيفة طرابلس الغرب عدد ٢ سبتمبر ١٩٥٤ .

عام ١٩٥٤ ، وقدمت الصحيفة لها بقولها : الأستاذ محمود غنيم شخصية لامعة ذات مركز مرموق ممتاز بين أعلام الأدب فى العالم العربى وشاعر له شهرته ومكانته ولعل قصيدته « مالى وللنجم يرعانى وأرعاه » أصبحت أعلق بأذهان الناطقين بالضاد من « قفانبك » التى ضرب بشهرتها المثل ، ومن محاسن الظروف أن تحظى طرابلس بزيارته ليشرف مع رفيقيه على امتحانات الثقافة والتوجيهية ، وقد تفضل فأرسل بهذه القصيدة العصماء التى ننشرها اليوم والتى ضمنها الانطباعات والمشاعر التى جاشت بنفسه والتى أوحت بها إليه زيارته لطرابلس الغرب :

قالوا : الجمال هنا والمجد فاقتبس ... فقلت : كل المعالى فى «طرابلس»

لمـا نزلت بها باتت تذكرنى ... أمجـاد مصر وبغداد واندلس

فحركت شجنى رغم السرور بها ... فاعجب لمبتهج فى ثوب مبتئس

يا أمة ورثت مجـد العروبة لو ... قست النجوم بها فى المجد لم تقس

لاضيف أكرم من ضيف يجاوركم ... بالدار والأهل والأحباب مؤتنس

ماذا لقينا لديكم من مؤانسة ... دلت على كرم فى النفس منغرس؟

فيكم من البدو أخلاق مبرأة ... من كل ماحوت الأمصار من دنس

هب النسيم على أحيائكم سحرا ... من جانب البحر رطبا عاطر النفس

ماست غصونكمو من تيهها بكمو ... بين الرياض ولولا التيه لم تمس

إن لم تكن جنة المأوى دياركمو ... فمـا دياركمو منها سوى قبس

أنتم بنو العرب الأمجاد زانكمو ... حسن المحيا وسحر المنطق السلس

المترعون كؤوسا غير آثمة ... من كل نبع من الصحراء منبجس

الثائرون على الطغيان من قدم ... بكل حر يبيع الروح بالبخس

أشبال «ليبيا» كأنى إذ نزلت بكم ... نزلت بالقبلتين والحجر والقدس

كأن عاهلكم فى عدله عمر ... وقاكم الله شر الحاكم الشرس

ساس «السنوسى» أطراف البلاد آبا ... فى رفقه وبغير الرفق لم يسس

يحمى البلاد من الباغى ويكلؤها بعين راع قليل النوم محترس
كم كربة بالحمى اشتدت ففرجها وكم على يده الداء العضال أسى
لله درك من وال ولايتـه كادت من الأمن تستغنى عن العسس
أبناء يعرب هبوا من سباتكمو دوى الأذان ورنت صيحة الجرس
خطوا على العلم والأخلاق دولتكم وشيدوها من التقوى على أسس
وحصنوا أرضكم من كل مغتصب بكل مدرع فى الحرب مترس
باتت تنازعنا أوطاننا أمم مدت إلينا قديما كف ملتمس
جاست خلال مغانينا ولو لمحت طيف الحديد وطيف النار لم تجس
باسم الحضارة والتعمير قد دخلوا وما هو غير سفـاك ومختلس
طال السكوت على شعب يضام بلا ذنب ، وحر رهين البحر محتبس
والله ما نسيت مصر جراحهمو وإن تـكن من جلاء الظلم فى عرس
أين الذين على حق الشعوب بكت عيونهم؟ هل أصيب القوم بالخرس؟
قالوا السلام وصالوا فى مخاتله صيال وحش حديد الناب مفترس
قل للألى بسلاح الذرة افتخروا العرب سادوا الورى بالسيف والفرس
الفاتحون بجند من مبادئهم والعاصفون بملك الروم والفرس
جابت مواخرهم ظهر العباب ولم تترك خيولهمو شبرا من اليبس
أبناء يعرب طال الليل فانتظروا شعـاع الفجر يجلى ظلمة الغلس
إن العروبة لا تفنى ولو فنيت شم الجبال فناء الأربع الدرس
محروسة بجنود الله ظـافرة اما كفى بجنود الله من حرس
بنى أمية قروا فى مضاجعكم فما نسيتم ولا المجد القديم نسى

جمال طرابلس :

هذى « طرابلس » أم هذه « نبلى » ؟ البر مبتسم والبحر فى جذل
والشمس ضاحكة ترخى أشعتها شعرا من التبر لـكن غير منجدل

هنا الحياة هنا سر الجمال هنا ... موج الخلود على شط من الأزل
مدينة أنت يا «اويا» فديتك أم ... هيفاء ترفل فى زاه من الحلل ؟
تصحو وترقد ملء العين آمنة ... فى يقظة الحارسين : البحر والجبل
حصنان هـذا يقيها كل لافحة ... هبت وذلك يحميها من البـلل
هب النسيم عليها عاطرا أرجا ... رخو العزيمة يشكو كثرة العلل
القيظ يخشى بفصل الصيف جانبها ... فان يزرها علته حمرة الخجل
والماء يطغى وتستشرى عجاجته ... حتى إذا جاءها يمشى على مهل
ما لاطم البحر شطا من شواطئها ... لـكنه أوسع الشطآن بالقبل
نهارها من وجوه الغيد منتزع ... والليل ما بعيون الغيد من كحل
كم فى حدائقها الفيحاء من فنن ... كذيل ثوب على الحسناء منسدل
وكم كـروم بها سوداء فاحمة ... سوادها من سواد الأعين النجل
ما أنسى لاأنس «اجاصا» نعمت به ... كالقلب فى شكله أحلى من العسل
اما بنوها فحدث عن سماحتهم ... هم فى السماحة صاروا مضرب المثل
بين المكان ومن حلوا به شبه ... خير البلاد أقلت خيرة الدول
سر فى طرابلس أنى شئت تعش بها ... على طريق من البلور منصقل
إن عاش فيها ذباب عاش مغتربا ... فما يطير بها إلا على وجل
قالوا حضارة «روما» قلت «قرطبة» ... للغرب اجمع كانت مفرق السبل
دين على الغرب للإسلام من قدم ... قد رد والدين ممدود إلى اجل

مصر مقبرة للغـزاة :

وقى الله البسيـطة من دمار ... وصان المشرقين من انفجار
وقى الله الحضارة من زوال ... وصان الآدميـة من بوار
وقى الله الرواسى شر حرب ... تحولها ركاما من غبـار
وقى الله الزواخر شر حرب ... تحولها سحـاباً من بخـار
تطلعت النجـوم بعين وهى ... إلى أخت وشيكة الانهيـار

تعالى الله كان العلم نورا ... فصار لظى شديدة الاستعار
وصار الناس فى الدنيا فراشا ... يحوم سربه حول الشرار
تناسى الناس « نيرونا » وروما ... بمن قذف الورى بشواظ نار
بمن أمسى يجدف وهو لاه ... بنهر من دم الأحرار جار
ويطرب للدماء إذا أريقت ... كما طرب الندامى بالعقار
لها بالنار (إيدن) فاستطارت ... فصفق للهيب المستطار
وكاد أوراها يمتد حتى ... يهدد قبة الفلك المدار
فلولا صيحة من غاب (مسكو) ... ولولا وقفة لبنى نزار
ولولا مصر — صان الله مصرا ... لزين رأس « إيدن » تاج غار
ودك الأرض اسرافيل دكا ... ومات الناس من غير احتضار
ألم تر مصر إذ غضبت وقامت ... تصد هجوم سيدة البحار؟
وجيش السين يزحف عن يمين ... وإسرائيل تحجل عن يسار
وقال القوم : يوم أو نهار ... فكان الدهر فى هذا النهار
وقالوا : نزهة فى البحر قلنا : ... نعم لكن تقود إلى القرار
فكم جسد غدا قوتا لحوت ... وكم رأس تدحرج فى مطار
وما أغنى عن الثالوت جيش ... كأن جنوده رمل الصحارى
ولا أغناه أسطول عريض ... يصاب البحر منه بالدوار
ولا أغناه سرب بعد سرب ... يصك أزيزه سمع الدرارى
ولا أغنت ذخائره فتيلا ... أكل يد تصول بذى الفقار؟
أتوا كالأسد إقداما وفروا ... ولا مثل النعامة فى الفرار
دم الذؤبان دنس أرض مصر ... وعطرها دم الأسد الضوارى
تلاقى الأحمران : دم خبيث ... وآخر نفحه نفح القهار
فذلك سال ممزوجا بمسك ... وهذا سال ممزوجا بقار
وذاك مداد أمجاد وهذا ... مداد صحيفتى : خزى وعار
لعمرك لم تعد مصر تباهى ... بطيب الأصل أو كرم النجار

سنكسو كل فرعون قديم بحاضرنا ثيابا من شنار
تحولت القصور إلى حصون فلا تبقوا بمصر على جدار
وأصبح كل من فيها جنودا فأفنوا كل حى فى الديار
لقد صار السلاح بمصر لهوا وتسلية لأطفال صغار
فلا يرمى بها كرة وليد ولكن لعبه رمى الجمار
وصار المدفع الرشاش أشهى إلى أيدى الحسان من السوار
وزان الخنجر الماضى بنانا يزين بالعقيق وبالنضار
فكم كف مخضبة كساها دم الأعداء صبغة الاحمرار
وكم قروية حملت سلاحا وما اعتادت سوى حمل الجرار
إذا ما السلم رف ندى وظلا فليس لنا سواه من شعار
فإن جارت علينا الشهب يوما فنحن الذائدون عن الذمار
أخا (التامين) فيم قدمت مصراً ؟ وما سر الخداع والائتمار ؟
وفيم ذهبت تستعدى عليها أتلك شهامة الدول الكبار ؟
أخفتم بأس مصر وقد رميتم (بنابليون) فى ذل الإسار ؟
أخفتم بأس مصر وقد كسرتم (لهتلر) جيشه أى انكسار ؟
كذبتم ماكسبتم أى حرب ولا أحرزتمو طيف انتصار
ولكن خلف غيركم استترتم وقاتلتم بجاه مستعار
كشفنا الدولة العظمى فبانت وبان الضعف من خلف الستار
هجمت كأن أهلك من قديم لهم عند الكنانة ألف ثار
فما لبثت حشودك أن تولت مشيعة بنظرة الاحتقار
فسبحان الذى أجلاك عنها وأنزلك الجزيرة فى صغار
ولم ترحل للاستجمام لكن هو المسوس يوضع فى حصار
أمن أجل القناة تثور طفلا ! حماك الله من طفل مثار

عجبنا كيف ثرت وأنت تنمى ... إلى قوم لهم صبر الحمار
ومالك والقناة تذود عنها ! ... متى ذاد الغراب عن الثمار ؟
علام يلوم (هتلر) لائموه ... وأنت أحق منه بالانتحار ؟
بسيدة البحار نزلت تهوى ... إلى أن أصبحت إحدى الجوارى
بلاد لا تغيب الشمس عنها ... تناثر عقدها أى انتثار
وما الدولات غير نجوم أفق ... تحلق ثم تأخذ فى انحدار
(رشيد) أسلمتك (لبورسعيد) ... فسرت من اندحار لاندحار
حلفت لتنقذن الشرق منكم ... بلاد أنقذته من التتار

تأميم القناة :

ربض الجيش على خط القناة ... وعلى شطآنها ألقى عصاه
أيها الجيش أعدها للحمى ... فلذة قد نزعوها من حشاه
هى قلب النيل إلا أنهم ... وضعوها بين أضلاع سواه
ساقت الموت إلى مصر وإن ... بعثت فى الشرق والغرب الحياة
هذه الحفرة من عمقها ؟ ... ذلك الجسر المعلى من بناه ؟
سائلوها ينبكم ساحلها ... من أبوه ؟ يعرف الطفل أباه
رب فلاح شكت فى كفه ... فأسه الخرساء إذ خارت قواه
لم يزل يحفرها حتى جرى ... ماؤها وهو مشوب بدماه

إنه الدولار ألهى غيرنا ... من عبيد المال واستجدى رضاه
أسعفى بالمال شعبا آبقا ... لفظته أرضه لفظ النواة
كيف يستجديك شعب ماؤه ... من لجين ومن التبر ثراه ؟
إن فى مصر قناة قد جرى ... ذائب الماس بها مجرى المياه

سائلى التاريخ عن سائلها وهو أرض كم جبى منه الجباة
سائلى عهد المماليك وما شاده فى مصر عن سر القناة
مرج البحرين فى مصر الذى شقت النيل وأجرته يداه
ملتقى البحرين نيل آخر فى الحمى أحلى من الشهد جناه
منجم لا ينضب الزيت به وغنى لا يبلغ الحصر مداه

أمة الدولار غلت يدها عن بنى مصر به شاهت وشاه
فادكرنا حين ضنت موردا قد تركناه مباحا للسقاة
شرب الكل به بل سبحوا فيه والمصرى ما بل صداه

حينما قال جمال : أممت رقص الوادى وغنت ضفتاه
وسرت فى كل عطف هزة وتمشت بسمة فوق الشفاه
وأظل النيل عيد شامل فيه حيا كل مصرى أخاه
ما بنى التأميم سدا عاليا بل بنى للنيل جاها أى جاه
هنأ الثورة من خاصمها وعلى قائدها أثنى عداه
وأقرت بسناها أعين تنكر الصبح إذا لاح سناه

لجمال كل يوم خبر من حديث المجد يرويه الرواه
يرهف الغرب له مسمعه سائلا : هل كذبته أذناه ؟
هل شجاهم أننا شعب صحا من كراه بعد أن طال كراه ؟
أيها الشرق أذعه نبأ يقرع الآذان فى الغرب صداه
أن مصرا حرة فى أرضها شعبها يبرم فيها ما يراه
لم تعد مصر طعاما سائغا لجياع الغرب من شاء طهاه

لم تعد تحكم مصرا أسرة ... تشترى العرش بإحناء الجباه
دولة حاكمها من أهلها ... شعبها الحر من الشعب اصطفاه
كادح ما أترفته نعمة ... عرك الدهر طويلا وبلاه
ما رأى فى مهده ملعقة ... من نضار خالص تملأ فاه
لا على سلطانه يخشى ولا ... يرهب الفقر إذا الفقر اعتراه
رب ميدان به هجر أو ... خندق فى ظلمة الليل احتواه
واجه الموت فلم يحفل ، ومن ... واجه الموت يواجه ما عداه
يحكم التدبير إحكام الذى ... يقرأ الغيب ويدرى ما طواه
ويسر الأمر إسرارا فلا ... يعرف الكهان سرا قد نواه
يؤثر البغتة فى تصريفه ... ومع البغتة توفيق الإله
هو والنصر حليفان فما ... سار إلا وهو يمشى فى خطاه
يطلق السهم فلا يدمى به ... جسدا لكنه يعيي لرفاة
وهو يدرى من سيردى سهمه ... ومتى يرمى وفى أى اتجاه
أيها الغرب اتئد إن هنا ... ضيغما قام يحامى عن شراه
لا يبالى حين يحمى حقه ... لو عدا الدهر عليه الرماه
يطلب الحق بجيش باسل ... يحسن الزحف على ظهر الفلاه
جنده فى البر حيتان وفى ... حالق الجو نسور وبزاة
لا يحق الحق إلا قوة ... تفعل القوة ما يعيي القضاة

صدى الجلاء :

سرى فى الكنانة مسرى النغم ... فأصغت له لبنات الهرم
وهز أبا الهول فى خدره ... فأرهف أذنيه ثم ابتسم
ودب إلى أعظم الشهداء ... فكادت تهش بوادى العدم
ورفت تسائل أرواحهم ... أحان الجلاء ؟ فقلنا : نعم
له الله من موثق مبرم ... على صفحات القلوب ارتسم

أعاد حقوق البلاد ورد ... لها من كرامتها ما انثلم
منى أرقت مصر سبعين عاما ... ومن رام درك المنى لم ينم
حصدنا سنابلها من حقول ... روين بدمع صبيب ودم
ورب شباب أغر الجبين ... كبدر السماء إذا البدر تم
مضى للكفاح كليل السلاح ... بغير عزيمته ما التأم
رأى الموت يفغر فاه له ... فلم يتقهقر ولكن هجم
فخر شهيد الحمى هاتفا ... لمصر بقلب جريح وفم
فهذا الذى خط صك الجلاء ... وبالدم فى ذيله قد ختم

مضى الاحتلال وما الاحتلال ... سوى وصمة العار بين الأمم
بقية إرث قرون خلت ... على الظلم قد طبعت والظلم
حملناه جرحا بكل فؤاد ... وهما على كل صدر جثم
وما كان فى العين إلا القذى ... وما كان فى الجسم إلا السقم
إذا ما استكانت له أمة ... فما أهلها بشر بل نعم
ومن قبل الظلم فهو الملوم ... وليس الملام على من ظلم
ولن يحمل القيد حر أبى ... ولن يلبس الطوق شعب أشم
له فى الكرامة ماض مجيد ... وسابقة فى العلا والكرم
وما مصر إلا مهاد العلوم ... ورمز الحضارة منذ القدم
ولو أقسمت أنها أم هذا الـ ... وجود لما حنثت فى القسم

دعونا نحس جمال البلاد ... وما استودعت من جزيل النعم
فبئس النعيم نعيم الجنان ... إذا ضمه وطن مهتضم
وهل للبلاد المباحة ماء ... به يرتوى أو هواء يشم
وما أقبح الأرض أرض الحمى ... إذا داسها غاصب بالقدم
وما أقبح الجو إن شم منه ... عدو البلاد رقيق النسم

ولن تسلم الأرض حتى تصير جحيما على الغاصبين اضطرم
ويحصبهم بحرها بالشواظ ويقذفهم جوها بالحمم

أساة البلاد قد استأصلوا بمبضعهم داءها فانحسم
فما عاد ينغر جرح البلاد ولا يشتكى جسمها من ألم
وليس لمستعمر معقل بمصر إذا عرش مصر انهدم
هم حطموا صنما قائما وثنوا بعباد هذا الصنم
هوى الملك الضخم عن عرشه فما ذلك الشحم إلا ورم
ولم يبق منه سوى ذكريات تلوح كطيف خيال ألم
لقد مكن الله للظالمين حينا من الدهر ثم انتقم
ألا إن للمستبدين يوما يعضون فيه بنان الندم
هو الجيش طهر أرض البلاد وجمع من شملها فانتظم
وصير أقواتها قسمة وما كان أعدله إذ قسم
فما عاد يشكو الفقير الطوى ولا عاد يشكو الغنى البشم

بنى مصر هذا زمان القوى فكونوا الليوث ومصر الأجم
إذا عاث فى أرضكم عائث فقولوا له تلك أرض الحرم
يقولون : عهد الضياء وكم من ظلام بعهد الضياء ادلهم
وأقسم لن يتساوى الأنام فما هم سوى سادة أو خدم
وما برح الناس شطرين شطر ذئاب جياع وشطر غنم
فلا تأمنوا جانب الأقوياء فكم وضعوا سمهم فى الدسم
وكم أخلف الأقوياء لنا من وعود وكم خفروا من ذمم؟
وكم أبهموا عند وضع النصوص فكان لصالحهم ما انبهم
كذلك شرح القوى إذا ما تقاضى . هو الخصم وهو الحكم
إذا شاء أعطى الحقوق احتسابا وإن شاء من كل حق حرم

وكم غفر الناس ذنب القوى ... وكم ألصقوا بالضعيف التهم

بنى مصر هذا زمان المجد ... فأين الجهود وأين الهمم؟
وأين الذى يقطع الأرض وثبا ... ولا يثنى عزمه إن عزم؟
ألا فارفعوا صوت مصر إلى أن ... يرن صداه بأذن الأصم
وخلوا السفوح لكل ضعيف ... وحطوا الرحال بأعلى القمم
ولا تقنعوا بالأمانى . يموت ... من الجوع من بالأمانى ائتدم
أقيموا الصناعات فى أرضكم ... وسووا الهضاب ورووا الأكم
أرى الأرض جاشت بسكانها ... فلا تقفوا خشية المزدحم
فإن الشجاع شجاع السلام ... إذا صادف العقبات اقتحم
وإن الحياة مجال كفاح ... فويل لمن فى المجال انهزم

بنى مصر سودوا كأسلافكم ... كفاكم فخارا ببالى الرمم
فليس الذى هد إرث الجدود ... كمن شاد ما أسسوا أو دعم
وبالوحدة اعتصموا والوئام ... فما خاب من بالوئام اعتصم
وخلوا الخصام على الترهات ... فما ساد شعب عليها اختصم
وما فكك الشعب مثل النزاع ... إذا هو بين بنيه احتدم
سحبنا ذيول الخلاف قديما ... فذلك سب وهذا شتم
فلم نكتسب من وراء الخلاف ... سوى أن عقد البلاد انفصم

بنى مصر هذى بروج السماء ... فأين خططتم مكان العلم؟
عيون الممالك قد أحدقت ... بكم والمؤرخ سل القلم

إلى الغزاة الهاربين :

يا أمة المنش يهنى جيشك الظفر أبطال « دنكرك » في مصر قد انتصروا
أبطال « دنكرك » خاضوا الحرب طاحنة في « كفر أحمد » لا جبن ولا خور
سلوا السلاح على من لا سلاح له وحاصروا بلدا لم يأوه بشر
ودمروه فخرت — وهي معولة — عروشه وتداعت خلفها الجدر
كادت تضج بأيديهم معاولهم وكاد يلعنهم إذ يسقط الحجر
فيم المدافع كالأبراج جاثية يطير كالبرق من أفواهها الشرر ؟
فيم القذائف فوق الحي هامية من حالق الجولا تبقى ولا تذر ؟
فيم الحديد وفيم النار حامية كأنما فتحت أبوابها سقر ؟
ما جرد الخصم غير الحق في يده والحق يمضي وينبو الصارم الذكر
لم تحجبوا الشمس بالأسراب طائرة لكن من الخزى وجه الشمس يستتر
ما كال الناس يوم النصر هامكمو بالغار لكنهم من نصركم سخروا
لهفي على بلد تاهت معالمه أطفاله كالدمى في البيد تنتشر
باتت حيارى بلا مأوى حرائره لا سقف إلا الرياح الهوج والمطر
من كل هيفاء كان الخدر يحجبها إن أسفر النجم في الظلماء والقمر
ربع تساوى بسطح الأرض شاهقه قد صوح النبت فيه واختفى الشجر
كأنما القوم لم يغشوا مغانيه يوما ولا حرثوا فيه ولا بذروا
كأنه ما رأى وجه النهار ولا أحيا لياليه أنس ولا سمر
ولا أوت دوره أهلا ولا عمرت يوما مساجده الآيات والسور
إن الألى في حروب « الريخ » ما كسبوا حربا بمصر استردوا بعض ما خسروا
شعب يسوق شعوب الأرض قاطبة إلى الوغى وهو خلف الباب ينتظر
تخفى عساكره في الحرب إن نشبت حتى إذا قسمت أسلابها ظهروا
أقسمت ما كسبوا في « كفر أحمد » من نصر ولا العزل من سكانه اندحروا

لكنهم حفروا قـــبرا لدولتهم ... فى مصر فليسكنوا القبر الذى حفروا
لم يهدموا قرية عزلاء بل هدموا ... ركن السلام بأيديهم وما شعروا
سل الحماة حمـاة الأمن هل سمعوا ... بمصر أو عندهم عن أهلها من خبر ؟
الأمن شاك جريح ســـائل دمه ... ومجلس الأمن لا سمع ولا بصر
يا قوم طال «بليك سكسس» نومكمو ... وبالكنانة نار الحرب تستعر
صونوا الحضارة من أيد تعيث بهـا ... وأدركوا الأمن إن الأمن يحتضر
لا تلزموا الصمت والذؤبان عابثة ... بالشاء فالصمت فيه يكمن الخطر
عاش ابن آدم عيش الغاب تحكمه ... شريعـة قاضياها الناب والظفر

وهذه القصيدة نظمت عام ١٩٥١ إبان احتدام الصراع فى القنال بين الشعب المصرى والمحتلين من جنود الامبراطورية البريطانية المتداعية .

الدكتور حلمى بهجت بدوى

(١)

ينطوى تاريخ مصر السياسى المعاصر على صفحة من أنصع الصفحات وأطهرها ، وأحفلها بالمجد والعزة والإباء والكفاح الوطنى ، صفحة سوف تبقى خالدة على مر العصور والأجيال ، ذكرى لابن بار من أبناء مصر المكافحة ، وعلم من أعلام الجهاد والقومى والدستورى والقانونى ، وعبقرى تحدى بروحه العظيمة وأعماله الجليلة كل خصوم الوطن ، والمنكرين على أبنائه القدرة على الصمود فى شتى المجالات الحيوية ، وأمام حرب الاستعمار وأعوان الاستعمار لفكرة التقدم والبناء فى شعبنا العريق فى الحضارة والتجديد والبناء .

ومن منا لا يذكر هذه القمة السامقة والطود الشامخ ، والكرامة المرفوعة ، والوجه المتألق المشرق المبتسم فى وجه الشدائد والخطوب ؟

من منا لا يذكر الدكتور حلمى بهجت بدوى أول رئيس مصرى لمجلس إدارة هيئة قناة السويس بعد تأميمها فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ؟ والرجل الذى كافح أضخم العقبات التى توضع أمام إنسان ليثبت أمام العالم أجمع ان مصر قادرة على الإشراف على الملاحة الدولية فى القنال إشرافا كاملا ، وعلى النهوض بأعبائها ومسئولياتها فى هذا الميدان ؟

الرجل الذى انتصر فى إدارة القناة ، وفى جعل القناة عقبة كأداء أمام دول العدوان الثلاثى الغادر فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، والذى قاد بلاده من نصر إلى نصر ، ومن ظفر إلى ظفر ، حتى سلمت مصر ، وسلمت القناة لمصر .

الرجل الذى مثل مصر فى هيئة الأمم المتحدة وهى تنظر فى قضية تأميم القناة ، فكان ومعه زملاؤه المصريون لسان صدق فى الدفاع عن حرية مصر ، والتمسك بجميع حقوقها ..

الشهيد الذى قضى حياته مكافحا فى معركة تعد أشرف معركة يخوض
شعب طموح متوثب إلى المجد والعزة والكرامة ضد الدول العظمى المت
عليه ، المتآمرة على حرياته وحقوقه الوطنية المشروعة .

له الله من قائد من قواد مصر الوطنيين الأحرار ، وثائر من ثوار
المناضلين، الذين كللت حياتهم وأعمالهم بالنصر والفخار ، ومصرى صميم
أبناء مصر الأبرار الذين ذادوا عن شرف الوطن ذياد الأبطال ، وكا
إلى آخر رمق فى حياتهم ، حتى سقطوا فى المعركة شهداء .

إن حلمى بهجت بدوى لايمكن أن تنساه مصر ، ولا أن يتجاهل جم
ونضاله شعب مصر ، إنه سوف يظل منارة رفيعة لطلاب المجد والعبق
والخلود ، وذكرى عطرة تعبق بشذى الجهاد فى سبيل حرية الوطن وتق
ونهضته .

(٢)

فى صباح الثلاثاء ٣ من شعبان ١٣٧٦ هـ — ٥ من مارس ١٩٥٧ فاض
روح الدكتور حلمى فجأة ، وهو فى طريقه بسيارته إلى مكتبه بمقر
إدارة قناة السويس بالقاهرة ، وتناقلت النبأ المحزن الإذاعة والصحف وشر
الأنباء ، فكان له صدى أليم فى مصر والعالم العربى ، وبيئات القانون
العالم كافة ، وشعرت مصر بخسارة فادحة ما كان لها أن تحلم بتعويضها فى عشر
السنين ، وهز المصاب نفوس أصدقاء الفقيد وعارفيه هزا عميقا ، وكا
جنازة الفقيد مظاهرة وطنية ضخمة ، وكان الشعب فى كل مكان يحيى الر
الذى شرف مصر ، وأعلى من كرامة مصر فى كل مجال ، وكانت الجما
والهيئات تتزاحم فى الموكب وهى تشيع جثمان البطل إلى مقره الأخ
والفرح أغلب ما يكون على أساريرها ، اعتزازا بانتصار مصر وبطلها الش
فى أضخم معركة لبلادنا مع الاستعمار ، وثقة بالعمل الكبير الذى قا
الدكتور حلمى بهجت بدوى طيب الله ثراه .

ومع أن أسرته الكبرى مصر ، كانت أشد شعورا بفداحة المصاب فيه من أسرته الصغيرة من أهله وأقربائه وأصدقائه ، إلا أن المصريين عامة كانوا يشيعون جثمان البطل ، والفرح مرتسم على أساريرهم ، الفرح بانتصار مصر ، وبالنتائج المثمرة لكفاح مصر فى الحقل الدولى العام .

وهكذا وارى الشعب جثمان بطل من أعز أبطاله ، ورجل من أصلب رجاله ، وعبقرى عاش عظيما ، ومات عظيما ، ودفنت معه العظمة الحقيقية فى رمس واحد .

إن الذكرى العاطرة لا يمكن أن تموت ، والعمل العظيم لايمكن أن ينسى ، وسوف تبقى حياة هذا الوطنى الجليل ذكرى طيبة للأجيال ، وسوف تخلد مصر أعماله الخالدة على مر الأيام والسنين .

لقد كان رمزا للنبوغ والوفاء وسمو النفس ، وكانت حياته مثلا للوطنية الصادقة ، وكان الرزء فيه كبيرا وفادحا ، فلقد كان كريما لاعلى أسرته وحدها ، ولكن على أمته التى بذل حياته فى سبيلها .

لقد بكى الوطن فيه القانونى الضليع ، والفقيه الحجة ، والاقتصادى الموهوب ، والسياسى النابه ، والإنسان الكامل ، والقاضى العادل ، والمصرى الذى كان جهاده فخرا لشباب الشرق العربى فى كل مكان ، والذى كانت وطنيته ونبوغه مما تدخرهُ مصر للنصر فى معركتها مع النفوذ الأجنبى .

(٣)

تخرج الدكتور حلمى بهجت بدوى من كلية الحقوق المصرية عام ١٩٢٥ ، وأوفدته الحكومة إلى باريس فى بعثة علمية ، حصل فيها على درجة الدكتوراه فى القانون المدنى ، وعين أستاذا للقانون بكلية الحقوق بعد عودته إلى وطنه مصر ، وتدرج فى المناصب القانونية ، وعمل مستشارا للحكومة فى العديد من المؤتمرات الدولية قبل الثورة وبعدها ، ثم عين وزيرا للتجارة فى عهد الثورة .

ومنذ عام ١٩٥٤ وهو يعمل ممثلا دائما لمصر فى مجلس إدارة شركة القناة المنحلة ، وكان له الفضل الأكبر فى الدفاع عن حق مصر فى استخدام جزء كبير من أموال تلك الشركة فى مصر ، وقبيل تأميمها رأس لجنة خاصة لوضع الخطة الكاملة لتسلم الشركة بعد انتهاء عقد امتيازها .

وعند مااختير رئيسا لمجلس إدارة هيئة قناة السويس بعد تأميمها فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ كان فى جنيف بوصفه أحد المحكمين الدوليين فى النزاع بين الحكومة السعودية ، وشركة أرامكو حول نقل البترول السعودى .

(٤)

توفى الدكتور حلمى بدوى عن ستة وخمسين عاما ، وابن لم يتجاوز الثامنة عشرة وابنتين .. وهو من أسرة عريقة فى تاريخ مصر الحديث ، عميدها هو المغفور له الحاج محمد بك بدوى رجل الاقتصاد والخير والإحسان فى عهد طلعت حرب وزملائه من أعلام الاقتصاد المصرى الحديث ، ومن أعلام هذه الأسرة : المفكر المصرى الكبير الدكتور عبد الحميد بدوى وزير المالية والخارجية الأسبق ونائب رئيس محكمة العدل الدولية حاليا ، ومفخرة مصر والشرق العربى فى القانون فى العصر الحديث .. وشقيقه مصطفى بهجت بدوى شاعر معروف

وأحكام الدكتور بهجت بدوى وآراؤه ومؤلفاته فى القضاء والقانون ، يجب أن يجمعها وينشرها تلاميذه ومريدوه وأصدقاؤه لتكون سجلا حافلا لعبقرية الدكتور وذهنه العميق الصافى .

ولا ننسى أن نشير إلى حفلة التأبين الكبرى التى أقيمت للدكتور حلمى بهجت بدوى فى ذكرى الأربعين ، واشتركت فيها مصر ، حكومة وشعباً ، وألقيت فيها دراسات عميقة عن الفقيد الشهيد ، يجب أن تطبع تخليداً لكفاحه ، فى الذكرى الأولى لوفاته . .   رحمه الله ؟

(٥)

شهيد القنـاة :

وهذه القصيدة يرثى بها الشاعر الكبير محمود غنيم شهيد القناة، وأول رئيس مصرى لشركة القناة، الدكتور حلمى بهجت بدوى، وقد توفى إلى رحمة الله فى مارس ١٩٥٧ :

أطـال الرقاد حليف السهر ... وألقى العصا بعد طول السفر
وكف عن النبض قلب كبير ... بأضلاعه ليلة ما استقر
تردد دقاته اسم الحمى ... كما ردد النغمات الوتر
ويخفق خفقا بحب السلام ... كما يخفق الطير فوق الشجر
عرته على غرة سكتة ... فلا قلب إلا عليه انفطر
قضى فجـأة ماشكا علة ... ولا عزمـه بفتور شعر
ولا عاده عائد فى الفراش ... وما ناله فى الفراش الضجر
ولا جرع المر مر الدواء ... ولا وخزت منكبيه الأبر
ولـكن شكت بعـده مصر داء ... عضالا وجرحا عميق الأثر
كـذلك كان لطيفـا به ... وكان عنيفا علينا القـدر
مضت بعدك الأربعون فأين ... جمال الأصيل وسحر السحر ؟
وحل الربيع وأنت بعيد ... فهل للربيع بهاء بهر
يذكرنا بك نفح الرياض ... ومر النسيم وضـوء القمر
كأنك صورت من كل هـذا ... أو انتزعت منك تلك الصور
لعمرك مانسيتك بـلاد ... وهبت لها النفس منذ الصغر
ترى مصر روحك فى كل نجم ... يغيب وفى كل نجم ظهر
إذا حدثت كنت أنت الحديث ... وإن سمرت كنت أنت السمر
وقد تفصح العبرات الغزار ... إذا أدرك الناطقين الحصر
وليت بمصر زمام القنـاة ... فما كنت فى العدل إلا عمر
وما كنت إلا كيوسف حين ... أصيبت بسبع عجاف أخر
وهل نسيت مصر يوم القناة ... وما يومها غير يوم أغر

دعاك جمال لإنقاذها فكنت لها المنقذ المنتظر
رويدك لم تلق مصر السلاح ولا انجاب عنها شباب الخطر
فقدناك فقد الغريب الدليل فقدناك فقد الفلاة المطر
ومن ذا يجيب القناة إذا ما أهابت بفارسها المدخـر
ليهنك أنك مامت إلا وغرس يمينك دانى الثمر
بفضلك صينت حقول البلاد ورد (القنال) إلى من حفر
أدرت الأمور بعزمة ليث ومقلة صقر شديد الحذر
إلى أن أقر لمصر العـدو وآمن كرها بها من كفر
عصفت (بايدن) عصف الرياح وقالوا : استقال ، فقلنا : انتحر
غنى الشرق أنت إذا الشرق يوما إلى الساعد الأجنبي افتقر
ومثلك يملأ كل فراغ ويقطع حجة (أيزنهور)
وليس الفراغ بشرق وغرب ولكنه فى رءوس البشر
لعمرى ما كنت إلا شهيدا على الخصم قبل الممات انتصر
قد اقترن اسمك باسم القناة وخلد ذكرك هذا الممر
وصور شخصك فوق الضفاف هنالك لا هيكلا من حجر
ولكنها صورة من شعاع وروح يراها الحجا لا البصر
إذا كان رمز الخنا (ديلسبس) فإنك رمز العلا والظفر
فيا آل حلمى وما آل حلمى سوى أسرة من كرام الأسر
عزاء فإن الكريم إذا ما أصيب بفقد عزيز صبر
مصاب كبير ولكن لكم قلوب تضارعه فى الكبر
كفى أنه مات عفا نزيها له سيرة كأريج الزهر
له سيرة يتحدى الورود شذاها وما الناس إلا سير
تشاطركم رزءه مصر طرآ بل النيل أجمعه بل مضر
مشى خلفه الشعب سيلا وسيل سواه على الوجنات انحدر

إلى ستره تشرئب العيون فيحجب دمع العيون النظر
وقد خيم الحزن فوق الجميع وأجج بين الضلوع الشرر
يسائل كل أخاه متى وكيف ؟ وعند القضاء الخبر
وكم سائر سارها خطوة فلما تخطى سواها عثر
فروا وعظكم أيها الواعظون فكم فى المنايا لنا من عبر
ألاعيب نحن بكف القضاء هو الصولجان ونحن الأكر

الدكتور محمد عبد الله دراز

(١)

فى مساء الأثنين ١٦ جمادى الثانية ١٣٧٧ هـ — ٦ يناير ١٩٥٨ توفى الدكتور محمد عبد الله دراز فى لاهور بباكستان وكان يمثل مصر هناك فى مؤتمر الثقافة الإسلامية .

ولم يكن أحد فى مصر يدرى وفاته ، فقد غادرها وهو ممتلىء صحة وشبابا وقوة وأملا ، وفوجئنا صباح الثلاثاء بالنبأ الأليم فى الصحف ، وكانت وكالات الأنباء قد أذاعته فى جميع أنحاء العالم .

كنا فى أعمال الامتحانات نصف السنوية ، وقرأ الأساتذة والطلبة النبأ ، فأصيبوا بذهول عميق ، هو نفس الذهول الذى أصاب الشعب المصرى النبيل فى كل مكان خارج الأزهر .

ومضى الثلاثاء والأربعاء يومين حزينين من الأيام العصيبة فى تاريخ الأزهر الحديث ، حتى كان صباح يوم الخميس ١٩ جمادى الآخرة — ٦ يناير ، وكان جثمان الفقيد الراحل الكريم قد وصل ليلا إلى مطار القاهرة الدولى فى طائرة خاصة ، ووقف الأزهر ووقف الشعب ووزراء الشعب خارج أبواب الأزهر يستقبلون الجثمان الطاهر ، وهو يدخل إلى الأزهر للصلاة عليه ، وطالما دخل الأزهر مضيئا متحفزا لأداء واجبه العلمى من التوجيه والتثقيف لأبنائه ، ولكنه اليوم يدخل محمولا على الأعناق ، تتطلع إليه العيون والقلوب كما كانت تتطلع إليه دائما فى حياته .

وأم الجموع الغفيرة فى الجامع شيخ الأزهر ، ووقف أساتذة الأزهر وأبناؤه يؤبنون أستاذهم ورائدهم ، فألقى الأستاذ محمد كامل حسن وكيل كلية اللغة العربية كلمة مؤثرة ، وألقى الدكتور عفيفى عبد الفتاح ، والأستاذ

محمد كامل الفقى كلمتين بالغتين ، وألقى شاعر الأزهر الأستاذ حسن جاد قصيدة رائعة عميقة تعد من روائع المراثى فى الشعر العربى الحديث .

وشيع الناس جثمان الراحل الكريم ، وعطلت الأعمال فى الأزهر ومعاهده ، حتى أعمال الامتحانات ، ووورى الفقيد العظيم فى رمسه بين العبرات والزفرات وأمجد الذكريات وأنصع الصفحات .

لم يكن الدكتور دراز عالما أزهريا عاديا، إنما كان رائد للفكر الأزهرى الدينى الحديث ، وكان شخصية إسلامية جليلة ، وكانت مكانته فى الأزهر الحديث تؤهله لزعامته الفكرية والدينية .

وكانت محاضراته فى كلية اللغة العربية وفى الأندية الدينية والعلمية والأدبية وفى الإذاعة ، ومقالاته فى الصحف ومؤلفاته ، كل ذلك كان له أثره فى محيطنا الفكرى والإسلامى . وقد ظهر له بعد وفاته كتاب « نظرات فى الإسلام » .

(٢)

ويقول الأستاذ عبد الرحيم فودة من مقالة له نشرت فى جريدة الشعب عن الفقيد الخالد اعتمادا على ما كتبه له الفقيد نفسه عن تاريخ حياته ، قبيل وفاته بشهور :

« اهتزت الأوساط العلمية والأدبية لنبأ وفاة المغفور له فضيلة الدكتور محمد عبد الله دراز فى مدينة لاهور بباكستان . وتجاوبت قلوب الأزهريين عامة برنة حزن عميق على فجيعتهم وفجيعة الأزهر . وفجيعة الإسلام بوفاة هذا العالم العامل الفاضل الذى كان ملء قلوبهم حبا وعقولهم علما .

ولم يكن أثر هذه الفاجعة فى الجامعة بأقل منه فى الأزهر ، فقد عرفته كلية الآداب وكلية دار العلوم أستاذا ممتازا يبهر تلاميذه بغزارة علمه ،

ويسحرهم بجمال أسلوبه . ويغمرهم بما من الله به عليه من أدب رفيع ، وأخلاق عالية ، ونصائح غالية .

بل أن جمهرة الذين استمعوا إليه محاضرا فى الاذاعة ، أو قرأوا له كاتبا فى الصحف . أو أنسوا به مؤلفا فيما ترك من كتب ورسائل ليشعرون مثل ما شعر أولئك وهؤلاء بمدى الخسارة الفادحة التى حلت بمصر والعالم الاسلامي فى وفاة هذا العالم الجليل . لقد كان رحمه الله مثلا صالحا عجيباً غريبا فى كل طور من أطوار حياته . .

حفظ القرآن فى قريته محلة دياى . . قبل أن يبلغ سنه عشر سنوات . . وانتقل إلى الاسكندرية فى أوائل سنة ١٩٠٥ حيث التحق بمعهدها الدينى، ثم حصل على الشهادة الثانوية سنة ١٩١٢ وكان أول الناجحين . وحصل على شهاده العالمية النظامية سنة ١٩١٦ وكان أول الناجحين فيها . ثم عين مدرسا بمعهد الاسكندرية عقب تخرجه وبدأ يشتغل بدراسة اللغة الفرنسية فى المدارس الليلية حتى كان أول الناجحين فى شهاة القسم العالى منها سنة ١٩١٩ .

ولم يكن إقباله على تعلم هذه اللغة حبا فى استكمال مظاهر الوجاهة بل ليستخدمها فيما يعود على قضية بلاده ودينه بالخير والنفع . فكان يطوف مع أفواج من الشباب الوطنى على السفارات الأجنبية سنة ١٩١٩ ويعرض قضية بلاده بهذه اللغة أمام الأجانب . وكان يدافع بها عن حقائق الاسلام فى جريدة « الطان » وغيرها . وفى سنة ١٩٢٨ وقع الاختيار عليه للتدريس بالقسم العربى بالأزهر بقسم التخصص سنة ١٩٢٩ ، ثم بالكليات الأزهرية سنة ١٩٣٠ ، ثم فى قسم التخصص بها .

وفى سنة ١٩٣٦ سافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج . ثم عاد ليجد الاختيار قد وقع عليه ليسافر إلى فرنسا فى بعثة أزهرية . فالتحق بكلية الآداب فى جامعة السربون وحصل على الليسانس سنة ١٩٤٠ ثم اشتغل بتحضير رسائل الدكتوراه ، فألف رسالتين باللغة الفرنسية عن القرآن وآدابه نال بهما دكتوراه الدولة برتبة الشرف العليا سنة ١٩٤٧ .

وعاد إلى مصر فى ١٥ مارس سنة ١٩٤٨ ، فندب لتدريس تاريخ الأديان بجامعة القاهرة . ثم لتدريس التفسير بكلية دار العلوم . وتدريس فلسفة الأخلاق فى كلية اللغة العربية . وفى سنة ١٩٤٩ حصل على عضوية جماعة كبار العلماء ،

وكان رحمه الله يقوم إلى جانب ذلك بما يسند إليه من أعمال فى اللجنة العليا لسياسة التعليم . وفى المجلس الأعلى للاذاعة . وفى اللجنة الاستشارية للثقافة بالأزهر . وفى المؤتمرات الدولية والعلمية ممثلا لمصر والأزهر . وكان آخر رحلة قام فيها بهذا الدور الخطير رحلته إلى باكستان لحضور المؤتمر الاسلامى هناك ، حيث وافاه أجله بين أعضاء المؤتمر من جميع أنحاء العالم الاسلامى . وحملت إلينا البرقيات نبأ وفاته هناك .

ولم يقف نشاط الفقيد عند هذه المهام الجسام بل تعدى ذلك إلى أعمال أمجد وأخلد ، فقد كان ينفق فراغه فى الدرس والبحث والتأليف باللغتين العربية والفرنسية ، وكان من ثمرات ذلك كتبه : النبأ العظيم وهو نظرات جديدة فى القرآن ، وكلمات فى مبادىء الفلسفة والأخلاق . . وله إلى ذلك فى المكتبة الفرنسية كتاب الأخلاق فى القرآن . وكتاب التعريف بالقرآن.. و من تآليفه القيمة باللغة العربية : كتاب الدين .

ومن بحوثه باللغتين معا مبادىء القانون الدولى العام فى الاسلام ، والربا فى نظر القانون الاسلامى ، والأزهر الجامعة القديمة الحديثة . . هذا إلى مقالاته الممتعة الغنية بالأفكار الثاقبة والثقافة الواسعة التى كان يمد بها المجلات العلمية والأدبية . ومحاضراته التى كان يطالع بها المسلمين من محطة الاذاعة فترطب القلوب الجافة . وتنير الطريق إلى الحق والخير .

(٣)

وقد رثاه شاعر الأزهر حسن جاد بمرثية من عيون الشعر العربى ، تصور كفاحه وجهاده وعبقريته تصويرا دقيقا عميقا ، وهذه هى تلك المرثية :

صدعت لأمر الله إذ كان داعيا   وكذبت فى منعاك من قام ناعيا

تعلة مصدوع تغشاه فاجىء ... يرد أساه ذاكر القوم ناسيا
إذا جن ليل الخطب أوطم هوله ... رأى حلما من كان بالعين رائيا
وما كان خطبا تألف الأذن وقعه ... ولكنه خطب يهز الرواسيا
ولم تفدح الجلى شجى نذيرها ... كما فدحته بالفجاءة عاليا
نروح على الدنيا ونغدو لموعد ... تساوى به من راح أو ظل باقيا
تشابه أهلوها دفينا ودافنا ... ومن كان مرثيا ومن كان رائيا
وكيف يرى حيا رهين بيومه ... إذا كان هذا اليوم لا شك آتيا
ومن وسد الأحباب فى الترب ميت ... وإن عاش دهرا بعدهم ولياليا
يقسم فيهم كل يوم فؤاده ... ويحسب فى الأحياء من كان فانيا
نحث الى الخطا والموت يحدو ركابنا ... ونبنى المنى قهرا لمن كان بانيا
ونوغل فى الدنيا احترابا وكلنا ... على مورد للموت يسق الصواديا
وبين حياة المرء والموت زفرة ... فعشها كريما شامخ الرأس عاليا
وكيف تسيغ الهون والعمر واحد ... إذا لم تكن يوما سوى الله راجيا
(فإن يك عبد الله خلى مكانه) ... فما كان خوارا ولا كان وانيا
سل الأزهر المعمور ما باله اغتدى ... من الهول مغشيا عليه وغاشيا
تلاطم فيه الدمع حتى كأنما ... مآذنه أيد تصد الأواذيا
تلقاه محمولا مسجى وكم غدا ... إلى ساحه بالأمس جذلان شاديا
مضى باسمه من راح يرفع راسه ... وينفح (باكستان) منه غواليا
وكنا نرجى فيه أوبة سالم ... على الطائر الميمون يقظان شاديا
أقلته فتخاء الجناحين بارح ... تئز أزيزا نائح الجرس باكيا
تسير الهوينى والملائك حولها ... تشيع مرضى الشمائل وافيا
كساها جلال العلم والموت هيبة ... فيالك من نعش طوى الجو ساريا
وكم هز أطباق الأثير بصوته ... فهذا الأثير اليوم يحدوه حانيا
وكم قد غزا الآفاق حيا بهديه ... وما زال بعد الموت للأفق غازيا
هو الأزهر المعمور نكس حظه ... وأنغر جرح فيه أعيا المداويا

يعجل بالسباق فيه مظفرا وبالبحر فياضا ، وبالنجم هاديا
وبالفذ لماحا ، وبالندب عزة وبالورد منضورا ، وبالغصن حاليا
لقد كنت تأسو يا محمد جرحه فأمسى وما يلقى لفقدك آسيا
وكنت أبي النفس حراً محافظا نبيل السجايا طاهر القلب صافيا
فأين أمان كن أحلام خاطر طموح المعالى لا يرى النجم نائيا
تعجلك المقدور عنها وغالها وأقسى المنايا ما يميت الأمانيا
في ذمة الرحمن ساع لربه ليلقاه مرضيا عليه وراضيا

(٤)

وللدكتور دراز كتاب « الدين » وهو بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، وقد نشره عام ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ ، وطبع فى المطبعة العالمية فى ١٧٦ صفحة ، وكتب فى صدر الكتاب يقول : إنه وكل إليه تدريس تاريخ الأديان لطلبة كلية الآداب بجامعة القاهرة فرع الاجتماع من قسم الدراسات الفلسفية ، فقدم بين يدى هذه الدراسة بحوثا عامة ، تستبين بها ماهية الدين ونشأته ، ووظيفته فى الحياة ، إلى أشباه ذلك من الأصول الكلية ، التى يجد فيها الطالب الجامعى مجالا لاجتهاد الرأى ، وتدريب ملكة الحكم .

وقد خص مقدمة الكتاب بعرض سريع لتاريخ علم الأديان ، وفى البحث الأول من الكتاب يحدد معنى الدين ، وفى البحث الثانى يتكلم على علاقة الدين بأنواع الثقافة والتهذيب ، وفى البحث الثالث يتحدث عن نزعة التدين ومدى أصالتها فى الفطرة الإنسانية ، ويتكلم على نشأة العقيدة الألهية فى البحث الرابع .

والكتاب جديد فى اللغة العربية فى موضوعه ومادته ومنهجه ، وهو صورة واضحة لثقافة الرجل وشخصيته .

وقد أخرج عام ١٩٥٧ قبل وفاته بشهور قلائل كتابه « النبأ العظيم » ، ويقع فى أكثر من خمسين ومائتى صفحة ، وهو دراسات جليلة عن القرآن الكريم ومعجزته الباقية الخالدة . .

روكس بن زائد العزيزي

(١)

أديب جليل ، وباحث ذائع الصيت ، ومؤلف مجيد ، وناقد ممتاز ، يعد في الطليعة من زعماء الفكر العربي المعاصر ، وكتاباته ودراساته تنم عن شخصية ممتازة ، وملكة موهوبة أصيلة .

كتبت عنه في كتابي قصص من التاريخ بمناسبة ظهور مجموعة أقاصيصه « وطنية الصحراء » ، وفي مناسبات عديدة ، وهنا أعرض صورة من صور شخصيته الأدبية والفكرية الرفيعة .

يقول روكس : « إنه في كل الانتفاضات التاريخية في العالم كان للأدباء والمفكرين الدور الأول في التوجيه ، أما عندنا فإن الفكر السياسي والأدبي لم يتخذا الطابع التوجيهي ، كما شاهدنا ذلك عند (نخت) في الفكر السياسي الألماني ، وعند سيس ومنتسكيو ، وروسو عند الفرنسيين ، وعند هوبز ولوك عند البريطانيين ، لكن التوجيه عندنا على ما أعتقد من الشعب نفسه ، فجاء الأدباء يسجلون ذلك في أدبهم ، فكان دور الأدب عندنا دور المؤرخ والمسجل ليس غير .

ويرى أن أنجع الوسائل لرفع مستوى الأدب وتشجيع الأدباء في الأردن حتى يتسنى لهذا الأدب وهؤلاء الأدباء خدمة القضية العربية هو أن يحاول الأدباء أنفسهم أن يرتفعوا بمستوى أدبهم عن التهريج واقتناص الشهرة على حساب الأدب ، فنحن نلاحظ أن كل من استطاع أن يراسل جريدة أو مجلة في بلادنا يحسب نفسه الأديب الفذ ، ويغمر السوق بكتب شهرية لا أثر فيها للدراسة ولا للعمق ، ولا للأصالة الفكرية ، . أما أن يصبح أدبنا عالميا خالدا فهذا يرجع أيضاً إلى عدم التعجل في نيل الشهرة إلى أن يتمكن الأديب من إنتاج الأدب العميق . صحيح أن الأدب عندنا في كساد ، لكن على رغم ذلك الكساد فإن الأدب الخصب سيصبح عالميا في أحد الأيام ،

ودليلنا على ذلك ما أصاب رباعيات الخيام من كساد فى زمنها ، وما تتمتع به من خلود اليوم .

ويرى أن جائزة نوبل فى الأدب ، ليس بين الأحياء العرب من يرشح لها ، لكن إذا ساغ له أن يرشح أحداً من الأموات فإنه يرشح جبران خليل جبران فى كتابه النبي على الرغم مما فى ذلك الكتاب من مآخذ .

ويقول روكس : إن الكتب التى أثرت فى توجيهه الأدبى هى :

(ا) الريحانيات لأمين الريحانى . (ب) الكتاب المقدس . (ج) القرآن الكريم . (د) جمهورية أفلاطون . (هـ) تأملات مرقس أو ريوس . (و) مقدمة ابن خلدون ، (ز) اللزوميات لأبى العلاء المعرى . (ح) ديوان أبى الطيب المتنبى .

أما الشخص الذى كان له فى حياته الأدبية أعظم أثر فهو الأستاذ أنستاس مارى الكرملى .

وعلى الرغم من أنه هاجم خليل مطران فى حياته أقسى مهاجمة حزت فى نفسه . إلا أنه سيكون شاعرنا الخالد . لما فى أشعاره من الأصالة والابتداع والعمق . وفى الأردن يرى أن شاعرها الخالد هو مصطفى وهبى التل على الرغم من إقليميته الضيقة .

ويقول روكس : إنه يعتقد أن الأديب الحق لا يكتب إلا ما يعتقده حقاً وصدقاً وهو بالتالى لا يخاف ولا يتذبذب ، والذى يقول الحق لا يراوغ ، ولا يمكن أن يندم على قولة الحق ، وما يعرف نفسه ندم على مقال كتبه وإن كان قد قسا فيما كتبه أحيانا .

ويقول : إنه إذا استحسن شيئاً شعر بغبطة ولذة كغبطة صاحبه ، وأحس بأن روحه تمتزج بروح كاتبه ، لأن الشهرة لاتهمه ، وإنما تهمه الحقيقة نفسها .

ويعتقد أن الأيام تسير لمصلحة القصة والرواية ، ولهزيمة الشعر إذا بقى إنتاجنا الشعرى على غرار ماتقدمه صحفنا فى صفحاتنا الأدبية ، لأن هذا يدل على أن الأمة مصابة بطاعون الشعر ، ويحمد الله أن أنقذ أبناءه الثلاثة من

وباء الشعر بعد أن عالجه بعضهم وهو فى الثانية عشرة من عمره . ولو وجدوا تشجيعا لغمروا السوق بدواوينهم .

(٢)

ولد روكس فى (مأدبا) من أعمال المملكة الأردنية الهاشمية وهى مدينة تبعد عن عمان نحو (٣٢) كيلو متراً إلى الجنوب بانحراف قليل إلى الغرب وكان مولده فى السابع عشر من شهر أغسطس سنة ١٩٠٣ ألف وتسعمائة وثلاث للميلاد .

٢ — وتعرف اسرته الخاصة باسم الزوايدة جمع زائد على طريقة الأردنيين فى الجمع لأن خمسة من أجداده عرفوا باسم (زائد) وعشيرته بعشيرة (العزيزات) : ويرى الأب انستاس مارى الكرملى ان هذه العشيرة أخذت اسمها هذا نسبة إلى العزى إلهة العشق عند العرب لأن اجداد العزيزى كانوا سدنة لها وكانوا يعبدونها وتروى تقاليد أسرته أن أجداده نزحوا من العراق إلى الاردن فى العصر الجاهلى .

وتلقى علومه الابتدائية فى مدرسة اللاتين فى مأدبا ، وقد كان مدير المدرسة خورى الطائفة ، وهو بولونى الجنسية اسمه (يوحنا بنفيل) وكان فظا إلى حد السادية . أخذه والده إلى المدرسة فهرب فى الحصة الأولى وهو يصرخ باللهجة الأردنية « ما ودى المدرسة من عين أصلها ! » لأنه رأى الكاهن - مدير المدرسة - يجلد الأطفال على أقفيتهم بوحشية غريبة ، غير أن الأطفال أعادوه إلى المدرسة مرغما .

وفى الحرب الكونية الأولى أغلقت المدارس الطائفية ، فأحضر له معلم خاص — خفية — يعلمه الانجليزية والفرنسية بعد رجوعه من المدرسة الحكومية التى كانت تعلم العلوم كلها باللغة التركية . ولما ألقت الحرب الكونية الأولى أوزارها دعى العزيزى لتعليم اللغة العربية ، ومبادىء الفرنسية والتاريخ فى مدرسة اللاتين فى مأدبا فى ١٨ أغسطس سنة ١٩١٨ ، وبقى مكبا على

الدرس والتحصيل إلى أن ندب لتعليم الأدب العربى فى كلية تراسانته فى القدس فى أكتوبر سنة ١٩٤٢ ، ثم طلب إليه أن يكون موجها أدبيا فى كلية أخرى فى القدس سنة ١٩٤٦ فقبل ذلك مع عمله فى كلية تراسانته .

ولما وقعت حوادث فلسطين المحزنة نهب منزله وخزانة كتبه وفى عدادها مؤلفاته المخطوطة ، فأعاد تأليفها إلا رسالة واحدة ، وسوم القبائل ، ودلالتها الدينية ، وهى رسالة لا سبيل إلى إعادة تأليفها بغير الرحلة بين القبائل .

وفى كانون الثانى (يناير) سنة ١٩٤٨ أسندت إليه رئاسة تحرير جريدة الجهاد ، لكنه ما عتم أن استقال على الرغم من تهديد المسئولين لأنه رأى مبدأه فى خطر .

ولما فتحت كلية تراسانتة أبوابها فى عمان سنة ١٩٤٨ ندب لتعليم الأدب العربى فيها . وقد لقى فى هذه الكلية مالا يستطيع وصفه من الإرهاق .

وفى سنة ١٩٥٥ دعى لتسلم إدارة الكلية الوطنية فى عمان لكنه عدل عن ذلك فى الخطة الأخيرة .

وانتخب عضوا فى رابطة الأدب الحديث فى القاهرة .

كما انتخب ممثلا لرابطة حقوق الإنسان الدولية الملحقة بهيئة الأمم المتحدة ليمثلها فى الأردن وذلك فى يونيو سنة ١٩٥٦ .

وقد استقال من كلية تراسانتة لأن القوم كانوا يمتهنون اللغة العربية بتقليل حصصها ، وتعيينها فى أوقات ملل الطلاب ، ولأن مديرها وهو بريطانى اسكتلندى لم يعن بالمدرسة ولاية نفسه .

وعلى أثر استقالته من تراسانتة عمل مفتشا للغة العربية فى كلية الروم الكاثوليك فى عمان .

(٣)

ومؤلفاته المطبوعة والمخطوطة عديدة ، ومن بين المطبوع منها :

١ — المنهل فى تاريخ الأدب العربى — ثلاثة أجزاء .

٢ ــ الزنابق ــ خمسة أجزاء .
٣ ــ سدنة التراث القومى .
٤ ــ وطنية الصحراء .
٥ ــ شاعر الإنسانية .
٦ ــ الخلاصة التاريخية ــ جزءان
٧ ــ فريسة أبى ماضى . وسواها .

وهو ينشر بحوثه ومقالاته من عام ١٩٢٣ فى صحف : الأحوال البيروتية ـ القدس ـ العصبة الأندلسية فى البرازيل ـ السائح فى نيويورك . العرفان فى صيدا ، الرسالة فى مصر . الاعتدال فى النجف . الهاتف فى بغداد ، الأديب فى بيروت ، الآداب فى بيروت ، المقتطف فى مصر ، الرائد فى عمان ، الرائد فى الكويت ، الأردن فى عمان ، فلسطين فى القدس ، الدفاع (فى يافا) ، الفكر فى تونس . القافلة فى القدس . وكان يوقع تواقيع مستعارة منها : فائز ، عربى ، عربى متألم ، أبو عادل ، إنسان ، شاعر معاصر .

(٤)

وقد كتب الأستاذ رضوان إبراهيم بمناسبة صدور مجموعة الزنابق « من تأليف العزيزى ، يقول :

« الأستاذ روكس بن زائد العزيزى معلم عربى قديم وأديب باحث ذواقة ، وقلما تجتمع فى عالمنا العربى هاتان الخاصيتان ، فمازال المعلم عندنا صاحب حرفة يزاولها من أجل العيش ، وهو فى هذه يحاول جهده ليبعد مشاعره وعواطفه ، وينزع حاسته الفنية ، ينحيها جانبا كى لا تعوق فيه آلية العمل الكادح المتواصل الذى يسعى به لاهثاً .

هذه السلسلة الموفقة التى يقتطفها الأستاذ روكس العزيزى من رياض الأدب بحسه الأدبى المصقول ليقدمها خفيفة هينة ميسرة إلى النشء العربى الذى يستقبل الحياة ويريد له الغيورون أن يستقبلها مسلحاً بالوعى الأدبى

المبكر ، هى سلسلة مفيدة مهمة ، وعن خبرة بقابليات النشء ، ودراسته دراسة نفسية عميقة .. ومن تجارب طويلة يمارسها فى حقول الصبية والشباب ، تخرج هذه السلسلة حاملة إلى النبت العربى غذاءه الروحى كالأنداء فى بواكير الربيع .

ومن جولات الأديب الباحث فى حقول الأدب العربى الحديث اقتطف لطلابه فى الصفوف المختلفة هذه الزهرات التى تبهج حياتهم وتعطر أجواءهم وتؤرج أحلامهم ، وتعمق مجرى الذوق الفنى فى حيواتهم الصغيرة المتفتحة وتخلق فيهم القابليات وتكتشف فى مجاهل أنفسهم هذه الدروب الغفل ، تصقلها وتعدها لاستقبال قوابل الأيام ، واحتمال تبعات الزمن .

ومختارات الزنابق استجابة لحاجات نفسية لمسها الأستاذ العزيزى وهو يتعهد تربة حقله تمهيداً لغراس مبارك الثمرات وقد توخى فيها دقة المقاييس لمراحل النمو ، وهدف بها إلى تأكيد جوانب شخصية الناشىء وعلاج النزعات الفردية والميول الشريرة المحزنة ، وبقدر ما هى خدمة للنشء فهى خدمة للأدب كذلك ، إذ تفتح عيون الجيل على رواد نهضته الأدبية فى وقت مبكر فقد اختار للكثيرين من أمثال شوقى وحافظ ومطران والهراوى ومحرم وأبى شادى والسحرتى وملك ناصف وأمينة نجيب والمنفلوطى والشابى وبدوى طوقان وجبران ونعيمة وشفيق المعلوف والرصافى والزهاوى والنجفى ودموس وعشرات غيرهم .

وفى هذا ما فيه من صداقة باكرة يعقدها هذا المضيف الكريم بين أصدقائه الصغار وأصدقائه الكبار الذين ستتردد أسماؤهم على سمع الناشىء كثيراً ، والذين سيصحبهم طويلا فى مستقبل حياته الدراسية والعملية .

وهو جهد كبير شاق لا يقدره قدره إلا من عانى التأليف . أو الاختيار للنشء فى ظل المبادىء التربوية ، فكم من آلاف الصحف قلبها ، وكم من مئات الكتب والمخطوطات نظر فيها فأطال النظر وعرضها على كثير من القيم

والموازين حتى خرج على أبنائه بهذه الخلاصات المنمقة المنسقة باقات باقات تتدرج مع السن وتتنوع مع الميول وتشبع كثيراً من الحاجات النفسية للطفل متمشية مع خطواته من السهل إلى الصعب ومن الهزل إلى الجد ومن البسيط إلى المركب . فهل نشكر هذا الجهد أو نطلب له التوفيق أو نستحثه على المزيد ؟ »

(٥)

وكتب لطفي العثمان ملخص فى صحيفة الجهاد الأردنية عن كتاب العزيزى فريسة أبي ماضي يقول :

سئل فنان : كيف تخرج هذه الألوان الساحرة فى لوحاتك ؟ فكان جوابه : انني أخلطها بدمي ! !

وهذا ما ينطبق على الأستاذ — روكس بن زائد العزيزى — فى مؤلفاته الأدبية حتى إن من اصطفاهم فى بعض تآليفه وأحبهم قد كانوا فى حياتهم قد مزجوا آراءهم بدمائهم . .

ومن هؤلاء : شاعر الإنسانية زكى أبو شادى ، ثم ابن البوادى على الرميثى — غبين أبي ماضى .. انه لكذلك ولا عجب فإن العزيزى والرميثى كلاهما قد غرسا فى أرض عربية واحدة تستأنس إليها وإلى نقاء عروبتها ، فالأول يرجع بنسبه إلى ألف سنة ويمت فى الأصل إلى عشيرة العزيزات التى كانت قد أحسنت لقاء جيش الإسلام فى مؤتة حتى إن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم كان قد ارتاح لصنيعهم ، فأمر أن لا يستوفى من العشيرة ولا من ذراريها جزية أو خراج ! . .

أما الرميثى — هذا البدوى الذى توفى منذ سبعين سنة - وقد ترافع عنه العزيزى ضد أبي ماضى — فإنه بدوى صافى الرأى كريم النفس ، وقد جاءت أبياته البدوية فى معاتبة ابن عمه على إنكاره وتنكره له كأنها - بل إنها - القلب النابض للقالب المصبوب والمعنون باسم الطين . وما كان ليخطر ببال المرحوم الرميثى حين اختلجت تلك الأحاسيس فى أقصى ذاته

وتبلورت بألفاظ ابن البوادى أن يأتى يوم وتعنون بالطين ، وتسبك فى غير مسابك الأخبية !!»

(٦)

وكتب الأستاذ عبد المسيح حداد عن كتاب العزيزى « شاعر الإنسانية » يقـــول :

يلوح لنا من مقدمة كتاب « شاعر الإنسانية — أحمد زكى أبو شادى » أن واضعه صديقنا العلامة الأستاذ روكس بن زايد العزيزى فى عمان العاصمة الأردنية كان مهتما باصدار مؤلفه عن فقيدنا الدكتور أبى شادى قبل أن وافاه نعى الفقيد ، فقد جاء فى مستهل كتابه اهداؤه إياه إلى روح الفقيد على الصورة التالية : « إلى ذكرى الصديق العظيم ، مثال الوفاء والجهاد والصدق الذى كنت أود أن يظهر هذا الكتاب وهو حى . إلى أبى شادى الخالد الذى أذهلنى نعيه عن نفسى . . . »

وجاء فى تصدير الكتاب بقلم الأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتى الكاتب المصرى ما يلى :

« ما أعظمها سعادة أن نلتقى فى هذا السفر القيم بأبى شادى الإنسان بعد فراق قريب فاجع أليم ، وأن يكون كاتبه الأديب الأردنى الأستاذ روكس ابن زائد العزيزى الذى امتاز بالرصانة والنصفة ونضج التفكير » .

وجاء فى « المامة » بقلم الشاعر القروى نابغة الشعراء العرب فى العالم الجديد بعد توغل فى واحات أبى شادى النفسية هذه الفذلكة الطريفة الفنية البليغة :

« . . ثم إن لأبى شـادى مالايقل عندى إن لم يزد أهمية على معارفه الواسعة وما هو أحب إلى من سائر فنونه الرفيعة وهو هذا القلب النقى الطيب وهــذه الروح الإنسانية التى تطالعك من سطوره فى رسائله

الخاصة والعامة وهذا المثل الصالح الذى يقدمه للشباب فى الاكباب على العمل المفيد وإفراغ الجهد فى كل ما هو عظيم راق وجليل باق ».

وجاء فى تمهيد الأستاذ العزيزى لكتابه عن أبى شادى – بعد إتيانه على الشروط التى يجب أن تتوفر فى كاتب السيرة أو الناقد الأدبى الذى يستل قلمه ليقوم بدراسة شخص ما – هذه الخلاصة :

« ولما كانت هذه العناصر متوفرة والحمد لله كان من حقنا أن نجرى قلمنا فى دراسة الدكتور أبى شادى لأنه يستحق الدراسة بالنظر لقيمته الذاتية الناتجة عن جهوده الجبارة فى سبيل العلم والأدب والحق والإنسانية . أما الأمانة فنحمد الله على أن خصومنا أقروا لنا بها وعرفنا أننا لا نحابى صديقا ولا نجامل محبا وقد خسرنا كثيرا من الأصدقاء الذين أرادونا على التعليق ، أما اننا نحب الدكتور ونعترف له بجهوده فذاك ما لا يستطيع أحد أن ينكره علينا . ومع كل حبنا للرجل واعترافنا بقيمته الأدبية فاننا على عادتنا لا نحاول أن نجد له فضيلة ليست عنده » .

وراح الأستاذ العزيزى يتنقل قلمه السيال فى كتابه من تاريخ لأبى شادى إلى علمه وأدبه وإلى فنه بل فنونه وإلى قلبه ووجدانه وإلى استجلاء كنز عواطفه وإنسانيته من عظاته التى سكبتها حكمته فى قوالب شعرية وجعل من كلامه ألسنة تنطق عن نفس خلقت متسامية لتؤدى رسالة السمو الخلقى إلى بنى عصره وإلى من بعدهم ، فقال عنه بمستهل نظره إلى مروءات الفقيد :

« .. قلت إن أبا شادى إنسان خير وإنسانيته هذه تملك عليه قلبه الكبير وتجعله مبرأ من عناصر الأنانية والغطرسة التى تلازم الكثير من الشعراء فتملؤهم غرورا » .

ولم يقف مؤلف الكتاب عند حد النظر فى نفسية أبى شادى — وليته وقف — بل اندفع بشعوره المتحمس لنقد خصوم الفقيد فأجاد من حيث

الدفاع ، ولكنه تغاضى عن الاذكار أن الفقيد نفسه كان أكبر من سامح خصوما وتغاضى عن سيئات وغفر لمسيئين .

ومن ذلك الاندفاع العزيزى ما جاء فى كتابه من المقايسة بين نفس أبى شادى بنت الحق ونفوس خصومه بنات الباطل الخاليات من الروح وجوهره فقد لجت به حماسته حتى ذكر ما يلى :

« . . . فكم من شاعر قعد به خبث قلبه وحطة نفسه ووصوليته ولصوصيته الأدبية عن السمو ، فإذا حاول أن يسمو بمعانيه لم تواته أخلاقه الضاوية الهزيلة وناء به نفاقه وخبثه فاضطر إلى السرقة ، أو إلى الإغراق فى المحاكاة والنقل كما صنع إيليا أبو ماضى مثلا فى علواء « الطلاسم » التى سرق زبدة معانيها من « ادجار الن بو » ومن روبرت جرين انجرصل . وكما صنع فى قصيدة « نخب الفارس » التى سرقها كلها عن انطونى ويز . وقد أثبت ذلك الأديب المهجرى الأستاذ جورج دبس حينما كان يحرر جريدة الاصلاح النيويوركية ، وهو اليوم يحرر مجلة (القافلة) التى تصدر بالانكليزية عن نيويورك . أما قصيدة « الطين » فقد سرقها من على الرميثى » .

وجاء فى شرح واضع الكتاب لهذا المنقول منه عن أبى ماضى ما يلى :

« نحن لا نظلم أبا ماضى إذا قلنا إنه مثل بارز للشاعر الذى تخلقه البيئة ، فهو فى أميركة شاعر أميركى كما كان فى مصر شاعرا مصريا . وميزته أن يستوعب ما يقرأ ويصوغه بعذوبة ، فطاقته الشعرية المبتكرة محدودة وشخصيته تكاد تكون معدومة فى شعره ، وان صور ما يدور حوله فى دنيا الفن فهو رجل يرضى الذوق العامى والثقافة الضحلة ، لا يستطيع أن يدانى الشاعر القروى أو أبا شادى فى حال من الأحوال . وزخارفه اللفظية تبدو هزيلة إذا رويت فى قراءة أشعاره » .

(٧)

وهذه ألوان من دراسات روكس وأدبه :

النقد المعاصر :

إن من المحزن ان كل من تصبو نفسه إلى الشهرة فى بلادنا يمارس النقد ، ومن المحزن ان بعض النقد فى ديارنا أصبح شتما وتهجما وانتقاصاً ، فعند قراءة الكثير من نقدنا يحس القارىء ان الناقد لايشعر بأقل مسؤولية أدبية ، فبعض الناقدين لاقيمـــة لكلامهم لأنه مجرد شهوة كلام ، أو هو نتيجة لمرض الكلام .

نحن نعتقد أن الناقد إن لم يستطع أن يكشف الآفاق التى يجهلها مبدع الأثر الأدبى نفسه فليس لكلامه قيمة ، ولا يختلف فى شىء عن الاحكام البدائية التى عودنا إياها النقد والناقدون فى أول مراحل النقد عندنا ، فأى فرق بين مقال يكتبه ناقد لا غرض له إلا الإعلان عن نفسه وبين تلك الأحكام العامة التى أثرت عن رواد النقد، فنحن نقرأ آراء الأصمعى فى بعض الشعراء الجاهليين والمخضرمين ، فلا نخرج منها بشىء ، يشفى الغليل .

ويرتقى النقد قليلا لكنه يظل فى مجموع أحكامه كما سبق عند الأصمعى ، فهذا الهمذانى فى مقامته القريضية لا يبعد كثيرا عن أحكام الأصمعى : قلنا : « ما تقول فى امرىء القيس ؟ »

قال : « هو أول من وقف بالديار وعرصاتها واغتدى والطير فى وكناتها ، ووصف الخيل بصفاتها ، ولم يقل الشعر كاسبا ، ولم يجد القول راغبا ، ففضل من تفتق للحيلة لسانه وانتجع للرغبة بنانه » .

قلنا : فما تقول فى النابغة ؟ قال : « يثلب إذا حنق ، ويمدح إذ رغب ، ويعتذر إذا رهب ، ولا يرمى إلا صائبا . »

قلنا : فما تقول فى زهير ؟ » قال : « يذيب الشعر والشعر يذيبه ، ويدعو

القول والسحر يجيبه » قلنا فما تقول فى طرفة؟ » قال : « هو ماء الأشعار وطينتها ، وكنز القوافى ومدينتها ، مات ولم تظهر أسرار دفائنه ، ولم تفتح أغلاق خزائنه ، قلنا : فما تقول فى جرير والفرزدق ، وأيهما أسبق ؟ » فقال : « جرير أرق شعراً وأغزر غزرا ، والفرزدق أمتن صخراً ، وأكثر فخراً ، وجرير أوجع هجوا ، وأشرف يوما ، والفرزدق أكثر روما ، وأكرم قوماً؛ وجرير إذا نسب أشجى ، وإذا ثلب أردى ، وإذا مدح أسنى؛ والفرزدق إذا افتخر أجزى ، وإذا احتقر أزرى ، وإذا وصف أوفى . » قلنا : « فما تقول فى المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم؟ قال : « المتقدمون أشرف لفظا وأكثر من المعانى حظا . والمتأخرون ألطف صنعاً وأرق نسجا . . . »[1]

فهذه الأحكام على اقتضابها أشرف قصداً وأنبل غاية من بعض نقدنا الارتجالى الذى لايخجل أصحابه أن ينقدوا آثاراً لم يطلعوا عليها ولايعرفون أسماءها فتأتى أحكامهم وهى أحكام ميتة ، غايتها طلب الشهرة والعداء الحاقد . حقا إن النقد عندنا بدأ وغايته تسجيل الملاحظات العابرة ، فلم يكن قادراً على إبداع نهضة ، أو توجيه ، ولما صار النقد عندنا فقهياً حصر همه فى الألفاظ ، وفى قواعد اللغة والعروض والبلاغة إلى أن احتدمت المعركة بين القديم والحديث فى عهد الانبعاث فكان للرابطة القلمية فى نيويورك التى أنشئت سنة ١٩٢٠ ، ولرابطة الأدب الجديد التى أنشأها أحمد زكى أبو شادى فى الأسكندرية سنة ١٩٢٨ وجمعية أبولو ومجلتها وقد أنشأهما أبو شادى سنة ١٩٣٢ والعصبة الأندلسية ومجلتها فى البرازيل سنة ١٩٣٣ ورابطة الأدباء التى أنشأها إبراهيم ناجى ، كان لهذه الروابط جميعا يد فى تجديد الأدب العربى وتوجيه النقد وجهة بناءية إصلاحية ، بعد أن كانت غايته النقد الهدم والتملق . وعلى الرغم من أن النقد يتحكم فى كل فن فإنه لم يبلغ بعد أن يكون علما

---

(١) مقامات بديع الزمان الهمذانى .

له قواعده وأصوله ؛ فإن للذوق الشخصى والتجربة الخاصة أعظم الأثر فيه ، فلا عجب إذا رأينا النقد فى ديارنا خاصة ، لاعجب إذا رأيناه عملا من أعمال الهوى المحض ، والعاطفة الهوجاء .

ونحن إذا قابلنا بين نشأة النقد عندنا نحن العرب وبين نشأته عند اليونان وجدنا تشابهاً كلياً بين النشأتين ، فقد كانت الأحكام عندهم عامة مقصورة على الشعراء أنفسهم ، فإذا رجعنا إلى الأمثلة التى ذكرناها فى أوائل حديثنا على النقد من احكام الأصمعى وأحكام بديع الزمان الهمذانى رأينا أنها لم تخرج عن أحكام القوم فى حال من الأحوال ؛ لكن على كل ما كان يسود نقدنا فى أول أمره من البداثية والفقهية فإن نقدهم كان أنزه من نقد الكثيرين منا ، فكان نقدهم بريئا من العصبية الدينية وهى أعمق عصبية فى ذلك العصر ، فقد قدموا الأخطل على جرير والفرزدق غير ناظرين إلى دينه ، ولا إلى الخمر التى تنفض بها لحيته ، الأمر الذى يدل على قيمة الأدب المحض عندهم .

وقد أخذ العرب فيما بعد لايفرقون بين النقد والنحو ، ثم أخذوا لايفرقون بين النقد والبلاغة ، إلى مطلع النهضة الحديثة كما ألمعنا إلى ذلك ، فتغيرت المفاهيم والمقاييس .

أجل لقد برع العرب قديما فى النقد الموازن فوازنوا بين أبى تمام والبحترى ، واستخدموا طريقة الموازنة حتى وهم يتكلمون على القرآن الحكيم نفسه .

ولكن لسوء الحظ كان النقد الموازن قد أصابه الجمود لا بل التحجر بعد المائة الرابعة من الهجرة ، وعقم عقما يشيع فى النفس الألم والحسرة ؛ ونصل إلى المائة السادسة بعد الهجرة فيعوزنا الناقد البصير الذى يتكلم عن وعى وفهم ، إلى أن نقع على ابن الأثير فى المائة السابعة بعد الهجرة ونسير بعد ذلك فإذا كل ناقد يسرق عن غيره كما يسرق بعض الشعراء من بعض .

والذى أعتقده أن مهمة الناقد المنصف شاقة ، كمهمة ذلك المخلوق الخيالى الذى جعله (ابسن) فى روايته (بيرجنت) يوم جعله يسير حاملا سلة وفى يده مجرفة يجترف بهـا البشر الذين يعتقد أن الآلهة أخطأت فى خلقهم ، ولو أردت أن أمثل على ذلك من أدبنا الحديث لمـا أعوزنا البرهان ، لان الادب والنقد أصبحا فى أغلب الاحيان مع الاسف الشديد وسيلة للشهرة أو للارتزاق الحقير .

(٨)

آراء له فى الأدب والحيـاة :

رأيه فى الأدب :

يقول روكس : إن رأيى فى الأدب معروف ، وهو أن الأدب الذى لا يصور نفوسنا ، وحياتنا ، ولا يسمو بحياتنا عن التزلف والتملق والرق الاجتماعى ، والوصولية الجنسية ، ليس من الادب فى شىء ، وبالتالى فإنى أرى أن الادب الذى لا تتسع آفاقه فينحو نحوا إنسانيا إنما هو إهدار للمواهب ، وتحطيم للشخصية الإنسانية ، فقد مضى الزمن الذى كنا ننظر فيه إلى الادب على إحساس أنه فسيفساء لفظية وزركشة كلامية ، وهدهدات للعواطف ، وتهربات من مواجهة الحياة .

وعلى هذا فالأديب الحق فى رأيى إنسان فيه نفحة من الرسالة القدسية وومضة من مثالية النبوة . فهو لا يقول إلا ما يعتقده حقا وصدقا ، لا يراوغ ولا يمارى ، فهو إذا لا يندم على ما يكتب أو ما يقول ، ولا يحسد محسنا على إحسانه ، لان روحه تعانق الجمال المطلق ، وهى تعشق الإجادة وتصافى صاحبها أينما كان .

أما رأيى فى اتجاه الأدب ، فإنى أراه سائرا لمصلحة القصة ، لا لأن الشعر شىء تافه ، لـكن لأن الشعر ليس فيه جيد ووسط وردىء ، فهو فى رأيى

إما جيد وإما ردىء ، فهو كالماء إما ماء صالح للشرب : وإما ماء لا يصلح للشرب .

رأيه فى النقد :

أرى أن النقد فن قوامه المواهب ، والذوق ، وأن الناقد العادم المواهب، الفاقد الذوق ، الذى لم تعقل نفسه هذه المزايا : الصدق — الإخلاص — الشجاعة الأدبية — الإنصاف — العلم — الثقافة الواسعة العميقة . لا يمكن أن يكون ناقدا موفقا ، وعلى الرغم من أننا رزقنا عددا غير قليل من الناقدين — لأن باب النقد عنـــدنا مفتوح على مصراعيه — فإنى لا أكاد أجد لذة إلا فى نقد نفر من نقادنا أمثال نعيم ومندور وطه حسين والخفاجى والسحرتى ، والدكتور أبى شادى ومارون عبود . وقد كان يستهوينى نقد الأب انستاس مارى الكرملى اللغوى لما فيه من العمق والتقصى. ومع هذا فإنى أرى أن النقد عندنا لما يصل إلى الدرجة التى يجب أن يصل إليها ، وليس للنقد أثر فى الأدب نفسه ولا فى الأدباء إلا أثر ضئيل . لأن الناس مازالوا يعتقدون أن النقد تشف وتجريح .

لا أنكر أنه لا بد من روح الزمالة فى النقد ليحس المنقود أن الغاية توجيهه ، لا تدميره ، لكن يظهر أن الطبيعة العربية المحاربة المتعالية ، لم تبلغ بعد حدا تقبل معه النقد ، فليس بعيدا أن تفقد صديقا حميما من أجل توجيه رقيق أو نقد صادق مخلص !

رأيه فى الثقافة :

أجل الثقافة التى هى الأخذ بالأحسن من كل شىء . لأنها مجموعة المعلومات المنظمة التى تصقل النفس وتهذب الحس ، وترفع الذوق ، وتوسع الآفاق النفسية ، وأعتقد أنها ما زالت هزيلة عندنا مع أنها ضرورية كضرورة العلم نفسه ، ولعل أشد الناس حاجة إلى الثقافة هم العلماء ، فالمثقف إنسان مهذب

مرن على نقيض ما نرى من أصحاب الاختصاص الذين يصرفون حياتهم باحثين منقبين فى دوائر اختصاصهم ، فكثيراً ما نرى أحدهم ضيق العطن النفسى ، حرج الصدر ، يصدر أحكامه وكأنها آيات منزلة لا تقبل الجدل ، مع أن الناس جادلوا وفلسفوا حتى فى آيات الله وفى كتبه المنزلة ، واعتقد أنه آن لمدارسنا أن تنظر إلى هذه الناحية وتعدل من نظمها بتنسيق برامجها المرهقة الضخمة التى تلتفت إلى تكديس المعلومات لا إلى هضمها ، فأصحاب الاختصاص عندنا لا يقنعون من الطالب الثانوى والجامعى أن يكون مهيئا للحياة بل يريده كل معلم أن يكون صاحب اختصاص فى اختصاصه هو ، فهكذا نحكم على أبنائنا بكراهية الكتاب فنحول بينهم وبين الثقافة الصحيحة التى هى فى رأيى زينة الحياة وجمالها !

رأيه فى الحياة :

أرى أن الحياة أعظم هبة من بها واهب عظيم ، وان واهبها هو صاحب الحق الأوحد فى استردادها إذا شاء ومتى شاء ، وأرى السعداء فى الحياة هم الذين يفرحون بها كيفما كانت ، غير باحثين عن سرها ، ولا عن غايتها — لأنى كلما بحثت هالنى ما فيها من أسرار ومتناقضات — وأرى أن السعداء هم أولئك الذين يصنعون الخير لأنه خير ويتجنبون الشر لأنه شر بصرف النظر عن المقايضة الإلهية ، فالذى ألاحظه أنى أحس بأن ملكوت الله فى قلبى يوم أحسن عملا أو أحسن إلى إنسان أو حيوان ، وأشعر بأنى فى الجحيم أو أن الجحيم فى قلبى يوم أحاول أن أسىء إلى أحد .

أرى أن الأبناء هم زينة الحياة ، لكنى أراهم قيودا محبوبة ، وعبوديات مألوفة ، فهم فى رخائنا مشادة ، وفى فاقتنا بلاء ! وأسعد أيام الأب يوم يكون فى غنى عنهم وقادراً على مساعدتهم وأتعس أيامه يوم يحتاج إليهم ، فهم كالسلاح أتعس ساعات حياتك هى الساعة التى تحتاج إلى استعمال سلاحك فيها ! .

ولعل خير ما فى الحياة الصديق المخلص ! لاعتقادى أن الصداقة حياة والعداوة موت !

وقد تعلمت من الحياة أن الزوجة الفضلى هبة من الله لاتوازيها هبة إلاهبة الحياة نفسها ، ولعل ذلك ناشىء عن أن كل ما وصلت إليه من نجاح كان سببه زوجة فاضلة أشعرتنى فى كل لحظة — من غير كلام — أنها تعيش من أجلى ، فكانت حياتها كالنغم الموسيقى فيها ما هو أعظم من العلم وأرق من الجمال ، وأثمن قيمة من المال ! .

ورأيى فى الحياة عدا ما خبرته بنفسى قد ورثته عن والدى ، فقد كان والدى متدينا لا يتعصب وكان يقول لى دائما : « إياك والتعصب يا ولدى فإنه يفسد ما بينك وبين الله ومابينك وبين الناس ! لا تصدق أن لله أقرباء وشعبا مختارا ! فلا تنكر إنسانا من أجل دينه فينكرك الله !

تعلمت منه الإباء والترفع والقناعة والوفاء وعرفان الجميل ، وتعلمت من أمى الهدوء النفسى والعمل الصامت ، وتعلمت من أبى الشجاعة الأدبية وأن أبدأ بالكرم فى منزلى قبل أن أطلب به الفخر والرياء والسمعة ، وتعلمت من أبى أن أهرب من العبوديات الصغيرة لئلا أقع فى العبوديات الكبرى .

وحكمتى فى الحياة هى هذه : « إذا حزت فرصة الحديث مع إنسان ذكى أو مطالعة كتاب نافع فقد حزت شيئا من مقومات حياتى ، وإذا فقدت صديقا بتفريط منى فقد خسرت جمال حياتى ، وإذا فقدت إيمانى فقد خسرت طمأنينتى الروحية وبهاء نفسى ! » .

ومن اعتقادى : أننى لا شىء بالنسبة إلى الكون ، لكن انسحابى من الكون سوف يحدث فيه بلبلة غير قليلة لاعتقادى أن النقطة الساقطة فى المحيط المنزوحة منه ليست شيئا بالنسبة إليه ، لكن سقوطها أو نزحها لابد أن يغير نظام المحيط كله ! ومن مبدئى الذى لا أحيد عنه : أحببت فشعرت بأن

الكون كله لى ، وأنى كل هذا الكون ، وأبغضت فأحسست بأن الكون كله ضدى ، وأن لا محل لى فى هذا الكون .

ومن آرائى فى الحياة : « أن النور سيتسرب من أدق المنافذ وأضيقها مهما حاول أنصار الظلام حجبه ! » .

رأيت الذين يخونون أوطانهم ينتهون نهاية المومسات ، واحدة تثرى ، فتنتحر من عذاب الضمير ، وألوف يفترسهن الجوع ، وشىء واحد يضمهن جميعا وهو الاحتقار !

البخل يكلفنا أكثر مما يكلفنا الكرم .

نحن نشعر بالحب لمن وهبنا ما نطلب ، لأننا عندما نعطى نهب جانبا من قلوبنا . فالحب إعطاء ، والبغض منع . فمع المنع نضرب نطاق قلبنا لئلا يتسرب منه بصيص من الحب . إذاً فالحب كرم والبغض بخل .

ليست الحياة ثقيلة كما تبدو ، إلا لأننا لم نبدأها من حيث يجب أن تبدأ وكما يجب أن تبدأ .

(٤)

وللعزيزى دراسة عن « الأردن فى التاريخ » ، ألقاها محاضرة فى الكلية الحربية بعمان ، ولأهميتها ، ولما تمدنا به من معلومات ، نشير إليها فى هذه الدراسة ، قال باحثنا الكبير العزيزى :

الأردن قديما : لقد ثبت أن الإنسان وجد فى هذه الديار من نحو (٥٠٠) ألف سنة ، كما ذكرت لنا الآثار التى استنطقها العلماء .

وقد ذهب بعض علماء الآثار إلى أن الإنسان الأول وجد فى هذه البقعة المباركة أو قريبا منها .

غابات الأردن : وكانت الغابات الكثيفة تغطى ما نراه فى الأردن من الصحارى اليوم . وكانت الأسود والنمور والدببة ، والخيول والأغنام والوعول والغزلان

تأوى إلى تلك الغابات وكانت الإبل تتدفق كالسيول فى سهول الأردن ، وكانت أسراب رائعة من الطيور تزين غابات الأردن .

المياه فى الأردن : كانت الشعبان والأودية التى تراها جافة اليوم مترعة بالمياه التى تنساب فيها أيام السنة كلها . وكانت ضفاف تلك الأودية والشعبان تزدان بأعشاب وأشجار وأزهار تكسب ديارنا أجمل المناظر وأروعها ، ولقد كان يخيل للناظر إليها أنه ينظر إلى أو قيانوس من السندس الساحر المزخرف .

الحيوانات الداجنة وأثرها : لكن لما أخذ الإنسان يدجن الحيوانات ، أخذت الرقعة الخضراء فى الأردن تنكمش قليلا قليلا من نحو (١٢) اثنى عشر ألف عام ، لأن الحيوانات كانت وما زالت نكبة على الغابات والأشجار . وكان من نتيجة تعرية الأرض من أشجارها أن تعرضت التربة إلى الجفاف والجدب ، وأخذت الأرض تتحول شيئا فشيئا إلى صحراء تثور فيها الرياح السافيات الهوج ، التى تطمر مجارى المياه ، وتغطى الينابيع والبحيرات ، إلى أن حولتها إلى أراض جرد ، لا تصلح إلا لتربية قطعان الإبل ، وتعرضت الجهات الشرقية من الأردن إلى رياح السموم ، فأخذت مياه الغيث التى تهطل فيها ، مياه الغيث نفسها ، أخذت تجف قبل أن تصل إلى جوف الأرض ، فساعد ذلك على أن تفيض الينابيع ، وظهرت فى القسم الشرقى من هذه الديار طبقة من الحجارة الصوانية التى ظن الكثيرون وهما منهم أنها مقذوفات بركانية .

الأردن منبت الحضارات : وعلى الرغم من هذه النكبات الطبيعية كلها ، التى تعرضت لها الديار الأردنية فانها ظلت منبتا لحضارات راقية .

فمن نحو (٤٥٠٠) أربعة آلاف وخمسمائة سنة ف . م . جاء من الشمال شعب أقام المساكن الأولى ، وعنى بالزراعة ، وأبقى فى التلاع الصالحة للزراعة ، والقريبة من الماء ، أنصابا عظيمة ، يذهب معظم الباحثين أنها قبور ، ولما جاء الذين خلفوا ذلك الشعب وشهدوا بناياتهم الجبارة عدوهم رعاة جبابرة فلقبوهم (ايميين) فى (مؤاب) و (زمزميين) فى أرض بنى عمون .

زحف الشماليين على الأردن : وقبل الميلاد بثلاثة آلاف عام زحف من بلاد (أمورو) أى — البقاع — (الأموريون) سكان المرتفعات فانتشروا فى

البلاد من جبل الشيخ إلى الموجب (وادى ارنون) فكانت الحقبة التاريخية الممتدة من القرن العشرين إلى القرن التاسع قبل الميلاد . عهد حضارة زاهرة بالزراعة وبمساكن تؤلف مدنا ، هى أشبه ما تكون بدويلات إقطاعية مستقلة ، وبحصون تمكننا أطلالها من تتبع آثار الطرق التى كانت تقطع أواسط البلاد من الشمال إلى الجنوب ، والتى حددها الرومانيون فى القرن الثانى للميلاد .

الهكسوس يجتاحون الأردن : إلا أن هذا الجلال والمجد الذى تمتعت به الأردن أصيب بنكبة عمياء سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد يوم اجتاح الهكسوس وغيرهم من الغزاة هذه الديار ، وتركوها فريسة لموجات البدو ، فاضطر أهل المدن إلى النزوح عن مدنهم . والتخلى عن حضارتهم ، وعادوا إلى البداوة معرضين عن إنشاء القرى الثابتة ، والحصون بها ، وإذا التاريخ نفسه يسكت عن الجزء الشرقى من الأردن حتى القرن الثالث عشر قبل الميلاد . حيث تظهر ممالك كبيرة قوية ، تدحر البدو إلى الصحراء ، وتعمل على إبراز حضارة جديدة ، وزراعة جديدة ، ومن تلك الممالك : الأموريون . الاروميون . العمونيون . والمؤابيون — الذين هم فى طليعة القبائل الارمية القادمة من شمالى بلاد ما بين النهرين إلى أرض كنعان ، والديار الاردنية .

ممالك انتشرت فى الأردن : وفى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، القرن الذى نتكلم عليه ، كانت تمتد جنوباً مملكة الأروميين ، وكانت مملكة منظمة محصنة بقلاع خالدة ، انتصرت على عاديات الزمن ، وكانت شمالا مملكة بنى عمون — حول ربة عمون — أى عمان الحالية التى كانت عاصمة لهم . وقد كان هؤلاء دائبين على توسيع نطاق مملكتهم على الرغم من أن هجمات مجاوريهم قد سلخت بعض أراضيهم . وقد كانت مملكة الأموريين تحاذى مملكة بنى عمون ، فانتزع ملك الأموريين (سيحون) و (ذيبان) و (حسبان) من المؤابيين ، واتخذ حسبان عاصمة له . وما يزال جبل (شيحان) يذكرنا باسم الملك سيحون الأمورى المنتصر .

أما المؤابيون — وقد كانوا هم وبنو عمون — من دم واحد ، فقد كانت عاصمتهم (قيرمارس) أى الكرك اليوم ، وكانت مملكتهم واقعة بين الممالك المار ذكرها : تحدها الصحراء شرقا ووادى الحسا جنوباً والبحر الميت والقسم

الأسفل من نهر الأردن غرباً في حين أن التخم الشمالي كان عرضة للتغير ، فوصل إلى (ناعور) قديما . على أن (سيحون) زحزح هذا الحد إلى أن تمكنت مملكة مؤاب من استرداد ما كانت تملكه شمالي وادي الموجب .

وأعتقد أننا ما زلنا نذكر أننا قلنا في أوائل محاضرتنا أن أرض مؤاب كانت قديماً لقوم عرفوا بالايميين ، ثم جاء الأموريون ، وغيرهم ، وأنهم نزلوا في البلاد وعبدوا (كموش) إله المؤابيين الوطني . ومن أهم ملوكهم (بالاق) بن (صفور) الذي نسبت إليه البلقاء .

ازدهار الحضارة في مؤاب : منذ هذا الفصل المجيد من تاريخ مؤاب ازدهرت الحضارة التي ما برح علماء الآثار يدرسون بقاياها في : رجم عيون موسى — قرية المخيط — رجم الهرى — أم العمد — التيم — جلول — اب — زباير القسطل — خربة الهرى — قلعة قصر الزعفران — قلعة خربة الدليلات الشرقية — ذيبان — وعروعير (عراعر اليوم)

ونحن لا نريد أن نتمهل طويلا في تقليب صفحات هذه الحضارة التي أفل نجمها في حدود القرن الثامن قبل الميلاد ، وطوتها ظلمة حالكة تشبه ظلمة القبر ، منتظرة أيام الانباط ، لتعود إليها الحياة ثانية .

لكننا نريد أن نقف وقفة متأملة أمام قرية كتب لها أن تنال عزاً ومجداً في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وأعني بهذه القرية : (مأدبا) التي احتفظت باسمها على مدى الاجيال ومعنى اسمها «مكان طيب» أو «ماء هادئ» وقد وجد عند تلها قبر يرجع في تاريخه إلى العصر الحديدي الأول ١٢٠٠ — ١١٦٠ قبل الميلاد وقد عرفت هذه القرية قبل القرن الثاني عشر ، واستولى عليها الأموريون من المؤابيين وأحرقوها ،

الأردن في عهد الانباط : جاء الانباط إلى الديار الاردنية فأثاروا فيها الحياة ، وتوالى على حكم الانباط ستة ملوك .

(عمان) : ويهمنا أن نعلم أن عمان وما يحوطها من الآثار تدل على أن الذين سكنوها قبل ازمنة التاريخ كانوا من البراعة في الريازة (فن المعمار) في الدرجة الممتازة ، لأنهم برعوا في التحصين براعة جعلت عدوهم المهاجم عرضة للتدمير .

غنى الأردن : وكانت الديار الأردنية من الغنى والثروة على قدر عظيم ، وقد كان الانباط يعبدون بعض الحجارة التى اشترطوا فيها أشكالا خاصة ، وألوانا خاصة وقد اهتموا بالزراعة اهتماماً عظيماً جداً وكان الانباط يعدون الترف جريمة وطنية تستحق العقوبة .

من نكبات الاردن : وقد نكبت الأردن بغزو الاشوريين لها ، فاستولوا عليها ، وفرضوا على أهلها الجزية ، ولم يحرر الارادنة من الاشوريين إلا الطاعون الذى فتك بالاشوريين فألهاهم عن هذه الديار .

اليهود يهاجمون الاردن : ولعل أشنع نكبة أصيبت بها الديار الأردنية ، هى الغزوة التى شنها اليهود على القسم الشمالى من هذه الديار لأن من عادة هؤلاء القوم أن لا يتقيدوا بآداب الحرب ، تلك الآداب التى لم تكن معروفة قبل أن يسنها العرب الإنسانية .

وكان من نتيجة غزو اليهود لهذه الديار اذ أخذ البدو يتسربون من الجهات الشرقية إلى الديار المأهولة ، وينهبون أهلها ، بحجة أنهم يريدون حمايتهم ولم يستفد أحد من غزوة اليهود هذه إلا الانباط الذين أزالوا مملكة مؤاب ومملكة عمون من الخريطة ، وألحقوهما بمملكتهم وحالفوا الفرس على الرومانيين ، ووصل نفوذ الانباط إلى شرقى الخط الحجازى الحديث ، وتوسعوا شمالا إلى ان وصلوا إلى دمشق فبصرى اسكى شام ، وجبل الدروز المسمى اليوم جبل العرب .

الأنباط يصطدمون بالرومان : وبينما كان الحارث ملك الأنباط فى إحدى غزواته التقى بجيش الرومانيين فغلبوه وتبعوا فلول جيشه إلى قلعة (ماخيروس) مكاور اليوم فهدموا تلك القلعة التى كان يتحصن بها اليهود ، وكانوا يتخذونها مركزا لإقلاق راحة الأنباط ، فدمر الرومانيون القلعة ، نخضدوا شوكة اليهود ، وشوكة الأنباط فى ضربة واحدة ، لكن الأنباط على الرغم من هزيمتهم شعروا بشىء من الارتياح على أثر تدمير الرومانيين لقلعة مكاور ، التى كانت شجا فى حلوقهم . وعائقا فى سبيل تجارتهم .

الأردن فى عهد الرومان : استولى الرومانيون على الديار الاردنية ، فأشاعوا فيها الأمن والطمأنينة فى أول الأمر ، لكنهم قسموها إلى دويلات فنحوا كل مدينة من هذه المدن استقلالا ذاتيا : بيسان — فيحل — جرش — أم قيس — عمان — درعا — بيت راس . وغيرها من المدن السورية — فقد منحوها استقلالا ذاتيا ، يبيح لكل منها أن تنشىء مجلسا وإدارة خاصة يجعلان لها الحق ، أن تسك النقود باسمها على أن تقبل إشراف الحاكم الرومانى — والى سورية — على إدارتها السياسية والقضائية وأن تدفع إتاوة سنوية للامبراطورية الرومانية وأن تناصر الامبراطورية عسكريا عندالحاجة . ثم فرض على هذه الدويلات أو المدن المتداولة أن ترسم صورة القيصر على نقودها .

استيلاء الرومان على دولة الأنباط : وقد ظلت دولة الأنباط غصة فى حلق رومية فصممت على أن تستولى عليها ، بعد الهزيمة التى منى بها جيش الحارث الثانى رابع ملوك الأنباط .

انقسام الأردن : وكانت الأردن مقسمة إلى ثلاثة أقسام يوم فكر الرومان فى تدمير دوله الأنباط : دولة الأنباط فى الجنوب — بيريا من الزرقاء إلى وادى الموجب — الاتحاد الفيدرالى وكان مؤلفا من : (ا) لواء عجلون (ب) شرقى البلقاء — وعمان .

وقد أنجبت الأردن فى تلك الأيام رجالا عظماء ما زال اسمهم يعطر التاريخ : فيلوديمس الأبيقورى الذى عاصر شيشرون الخطيب المشهور وناصاه ، فيبوس وهو من أعظم رجال الفن ، ثيودورس الخطيب المفوه ، ميلاجر شاعر الهجاء المقذع المخيف .

ولعل رومية علمت أنها باستيلائها على دولة الأنباط تكون قد فرغت من أمر الأردن كلها وصفت حسابها ، لأن مملكة الأنباط كانت واسعة الرقعة ، فقد كانت تمتد من وادى الموجب شمالا إلى مدائن صالح جنوبا ، وعلى الرغم من أنها كانت تخضع لشبه انتداب رومانى ، إلا أن رومية كانت مصممة على أن تسلبها ذاك الاستقلال الزائف نفسه .

ونحن لا ندرى إذا كان الرومان قد أثاروا الفتن فى البلاد لكى يمهدوا عذرا لغزوهم ، فقد انتشر فى البلاد قبل أن يهاجم الرومانيون دولة الأنباط ذعر مخيف فى الأردن كلها بسبب مهاجمة البدو لسكان المدن والقرى ، فكان سكان (خو) مضطرين على أن يعيشوا فى دهاليز تحت الأرض ، أو يدفعوا إتاوة باهظة ، لأحد مشايخ البدو الذى كان يسلط عليهم شيخا آخر يبتز ما يبقى عندهم بعد الإتاوة لكى يهاجم إخوان الشيخ المعتدى، للانتقام ، لا لإرجاع شىء المنهوب ماله المسكين، وهكذا كان سكان المدن والقرى فى نكبة عمياء فاذا سلموا من أخيهم ، لم يسلموا من عدو أخيهم !

رومية تدمر دولة الأنباط : وفى سنة ١٠٦ ب . م قضت جيوش رومية على مملكة الأنباط بعد أن حكمت هذه الدولة من ٦٥ ق . م إلى سنة ١٠٦ وخلع الرومانيون آخر ملوك الأنباط(١) دابل .

وأهمل الرومانيون بطرا عمدا ، وأحلوا بعرى اسكى‌شام محلها . وقد أنجبت بصرى اسكى‌شام هذه رجلا تبوأ عرش رومية واسمه « ماركوس جولياس فيلبوس » عرف فى التاريخ باسم فليب العربى الذى كان أول امبراطور رومانى مسيحى ، لأن المسيحية لم تكن قد انتشرت فى تلك الديار .

الأمن والرفاهية يعودان إلى الأردن : وعلى أثر استيلاء الرومانيين على دولة الأقباط سنة ١٠٦ وهزيمتهم للفرس (سنة ٢٩٠) تمتعت البلاد بأمن ورفاهية نحو مائة سنة نسى فيها الناس أنهم كانوا يعيشون فى دهاليز خوفا من المغيرين . وقسمت البلاد تقسيمات جديدة ، واسترضت رومية القبائل المتاخمة لحدود الأردن إلى وادى السرحان فكانت هذه القبائل حليفة لرومية . وأقام بنو قضاعة فى مراعى البلقاء ومؤاب الخصبة ، لكن موجة من القبائل — التى لم يتفق النسابون على نسبها بعد فمنهم من يردها إلى قحطان ومنهم من يردها إلى عدنان — تدعى الضجاعمة هاجمت القضاعيين واستولت على المراعى الخصبة ، وأجلتهم عنها .

الغساسنة يجلون الضجاعمة : بينما كان الضجاعمة ينعمون بمراعى البلقاء ومؤاب جاء الغساسنة بلاء مصمما على الضجاعمة فأجلوهم عن الديار التى غنموها ولم يطل

---

(١) وجود الأنباط فى الأردن كان فى القرن الرابع ق . م

بهم العهد ، حتى أضحوا أحلافا للرومانيين وقد أبقى الغساسنة من الآثار فى الأردن :
القسطل ـ المشتى ـ حمام الصرخ فى البلقاء ـ ازرح ـ الجرباء ـ ومعان القديمة .

وقد امتدت مملكة الغساسنة من شمالى سورية إلى الجوف ، وهناك من يرى أنها وصلت إلى تيماء .

وكان آخر ملوك الغساسنة جبلة بن الأيهم الذى أسلم ثم تنصر وهرب إلى القسطنطينية ، وقصته مشهورة ليس بنا من حاجة إلى إيرادها .

قيمة الأردن فى التاريخ : لقد أدركت الأمم القديمة كلها ما للاردن من قيمة حربية ، وتجارية ممتازة . فحاولت الاستيلاء عليها ، وكانت من الطرق التجارية الأردنية المهمة : الطريق التى تمر من (بطرا) متجهة شمالا إلى شرقى الشوبك والطفيلة مارة بالقرب من (ضانا) وبصرى ثم تتصل بفرع لجادة مؤابية قديمة قرب الكرك ، تقطع غور والمرزعة ـ واللسان إلى القدس ، أو أنها تقطع غور الصافى إلى الخليل أو بئر السبع .

وكان هناك طريق رئيسية تمر على أم الرصاص ومأدبا . وكان بين بطرا وتدمر طريق قوافل معبدة . تمر من معان والجفر وباير والأزرق .

وقد ابتنى الرومانيون القلاع الكثيرة فى هذه الديار دلالة على قيمتها الحربية عندهم .

اللغات التى تتكلمها الأرادنة : وقد تكلم سكان الديار الأردنية اللغة الآرمية ـ التى يسميها الناس وهما منهم السريانية ـ وهى اللغة التى استعملها السيد المسيح إذ بشر بديانته .

أما مدن الاتحاد الفيدرالى (الديكابوليس) فقد تكلم أهلها اليونانية فلما جاء الفتح العربى اندثرت هاتان اللغتان وحلت محلهما اللغة العربية ولم يبق من هاتين اللغتين سوى بعض ألفاظ نستعملها فى حياتنا اليومية ونحن نظن أنها عربية أصلا مثل كلمة : النقاريس للوشم ، والكلمة يونانية الأصل والنجار . أصلها نقارس ـ ومثل كلمة : معلانى ، وهى كلمة آرمية وأصلها معلاى منى . أى الرجل الذى يأمرنى ، وغيرها من الكلمات .

أديان شاعت فى الأردن قبل الإسلام : أما الديانات التى شاعت فى الأردن قبل الإسلام فهى : أصنام الأنباط فى الجنوب ، وقد ألمعنا إلى شىء منها ، ونحن نتكلم على الأنباط . أصنام اليونان فى الشمال - أما مقاطعة بيريا التى قلنا إنها كان تضم من الزرقاء إلى وادى الموجب فقد تسربت إليها الديانة اليهودية شيئاً من التسرب - أما النصرانية فقد كان انتشارها فى الأردن ضئيلا ، على الرغم من أن السيد المسيح نفسه قد زار أم قيس - على ما يرى بعض الباحثين - زارها مبشراً بدينه ، أما بطرس رأس حواريى المسيح فقد زار الأردن مبشرا ، قبل ارتحاله إلى رومية وصلبه هناك .

وفى سنة ٧٠ الميلاد هرب بعض النصارى من القدس إلى الأردن يوم ضرب عليها الحصار ، ولم تنتشر النصرانية فى الأردن إلا بعد ارتقاء فليب العربى عرش الإمبراطورية الرومانية ، إذ أخذت النصرانية لا تتعرض للاضطهاد لا هى ولا أشياعها ، وفى نحو سنة ٤٠٠ الميلاد عين اسقف بطرا ثم جعلت القدس مقرا للبطريرك ، وبعد ذلك وجدت النصرانية مكانا خصباً يدل على ذلك كثرة الآثار النصرانية المنتشرة فيها والذى لايكاد يشك فيه أن شمالى الأردن كان مكتظا بالعمران أكثر من قسمها الجنوبى .

الفتح العربى — الإسلام فى الأردن : كان عامل الروم على (عمان) المدعو (فروة بن عمرو الجذامى) قد أسلم وأرسل بهدية إلى النبى الكريم مع مسعود ابن سعد الجذامى ، وقوام الهدية : بغل أشهب ، وحمار ، وفرس ، وملابس كتانية ، وعباءة من الحرير .

فقبل النبى العربى الكريم الهدية ، وكافأ ناقلها مسعوداً باثنتى عشرة أوقية من الذهب وكتب إلى فروة كتابا يشكره فيه . فلما علم الرومان بذلك حاولوا أن يصرفوا عاملهم هذا عن إسلامه ، فلما لم يقبل سجنوه ثم صلبوه على ماء يقال له (عيفرى) بفلسطين سنة ٦ هـ الموافقة لسنة ٦٢٧ وسنة ٦٢٨ للميلاد وبلغ ذلك النبى فاستاء ، وأرسل سرية مؤلفة من خمسة عشر رجلا إلى الأردن لدعوة الناس إلى الدين الجديد ، وليعلموا أخبار الروم ، فأبادهم الروم فى موضع بين الكرك والطفيلة اسمه (طله) ، إلا واحداً نجا بنفسه . وفى هذه الأثناء كان شرحبيل بن

عمرو سيد مؤتة قد قتل رسول النبي إليه ، واسمه (الحارث بن عمير) وعمل شرحبيل ابن عمرو هذا مخالف لكل عرف وتقليد ، فتأثر النبي الكريم من هذا العمل ، وجاءت أخبار تشير إلى أن جيوش الروم وأحلاف الروم من العرب من بهراء ولخم وجذام وبلي والبلقاوية تتحرك ، فأرسل النبي حملة للانتقام ممن قتلوا رسوله ، ولاختبار قوة الأعداء .

واقعة مؤتة — انتخاب خالد بن الوليد : في السنة الثامنة للهجرة سنة ٦٢٩ م جمع النبي ثلاثة آلاف مقاتل في الجوف — قرب المدينة — ليسير إلى سورية بقيادة (زيد بن حارثة) فإن قتل فأمير الجيش (جعفر بن أبي طالب) فإن قتل فالأمير (عبد الله بن رواحة) فإن قتل فليختر القوم رجلا منهم ليكون أميراً عليهم وفيما هم يزحفون خطب فيهم عبد الله بن رواحة الخطاب التالي : والله إن التي تكرهون ، للتي خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ، ولا كثرة ، ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به . فانطلقوا ، فإنما هي إحدى الحسنيين ، إما ظهور ، وإما شهادة !

وقد قتل الذين عينهم النبي متتابعين ، فاختار القوم خالد بن الوليد ، فصمم على التراجع بجيشه بمساعدة عشيرة مسيحية تدعى العزيزات نسبة إلى العزى إلهة العشق عند العرب كانت تقيم في مؤتة خرج منها أخوان أحدهما يدعى عبد الرحمن والثاني يدعى صقرا قدما للجيش طعاما وشرابا وبذلا مافي وسعهما من مساعدة ، وأسلم صقر وبقي عبدالرحمن على النصرانية وقد سر النبي لهذا الصنيع وتقول التقاليد إن خالد بن الوليد جعل للعزيزات امتيازات أقرها النبي ، وقد ظلت مرعية إلى ثورة الكرك يوم أخمدت سنة ١٩١١ . وقد توافد أهل الاردن على النبي خاضعين فأمن النبي الكثيرين منهم .

الأردن في خلافة الصديق : وفي خلافة أبي بكر الصديق أرسل (عمرو بن العاص) لفلسطين - الاردن اليوم - وقبل أن يزحف الجيش رسم الخليفة له آداب الحرب ، فكان العرب أول من سن دستور الآداب للحرب : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخا كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا بقرة ، ولا بعيرا إلا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ،

فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه . وقد هزم جيش عمرو بن العاص جيش الروم ، وهو سائر عن طريق العقبة إلى فلسطين ، واستولى على الكرك صلحاً . وقد كان شرفا للأردن أن تقع على حدودها الشمالية واقعة اليرموك الحاسمة التى هزمت الروم من سورية .

الإسلام فى الأردن : وبعد أن أتم العرب فتح سورية قسموها إلى خمس مقاطعات إدارية ، دعيت أجنادا يهمنا منها : (١) جند فلسطين الذى كان يمتد من رفح إلى اللجون ، ومن يافا إلى عمان . (٢) جند الأردن ـ الذى كانت عاصمته طبرية ، ومن مدنه صور ، عكا ، بيسان ، أربد ، وذأرعات (درعا) ، وقد أبدى المسلمون تسامحا عظيما فى البلاد المفتوحة أطلق لسان كل منصف بالثناء على العرب فقال « غوستاف لوبون » : ما عرف العالم فاتحا أرحم من العرب . أما قضية عمر ابن الخطاب فى القدس ، وعدم رضاه بأن يصلى الظهر فى كنيسة القيامة خوفا من أن يتخذها المسلمون بعده مسجداً فمنتهى ما يصل إليه بعد النظر والتسامح واللطف .

الأردن ملاذ العروبة فى عام الرماد : وقد كانت الأردن ملاذا للعروبة فى عام الرماد ، فأرسلت المدد إلى الحجاز فى تلك السنة الغبراء عن طريق العقبة .

الأردن فى عهد بنى أمية : ولما انتقلت الخلافة إلى بنى أمية ، عرف القوم مزايا هذه الديار لهدوئها ، ولقربها من البادية ودمشق ، فاتخذها الخلفاء مسكنا ، يلجأون إليها مع رجال حاشيتهم لقضاء أيام فيها ، أو فصل من الفصول ، فشيدوا فيها الأبنية الفخمة ، على أنقاض القلاع الرومانية ، والقصور التى كانت قد دمرتها الزلازل سنة ٦٥٧ للميلاد .

فكان يزيد الأول ومروان الأول وعبد الملك بن مروان يتنقلون فى الأردن من مكان إلى مكان كالبدو . وكان عبد الملك بن مروان يشتو فى (الصنبرة) جنوبى طبرية ويصطاف فى بعلبك ويقضى الربيع والخريف فى دمشق .

أما ولداه الوليد وسليمان ، فقد قضيا معظم أيامهما فى البلقاء .

أبنية الأمويين : ونلاحظ أن أكثر أبنية الأمويين فى الأردن واقعة فى الجزء

الشرقي من الاردن ومنها : قصر الخزانة ـ أو الخزانق ـ قصر العمري ، وقد اكتشف فيه اسم رودريك آخر ملوك القوط الغربيين في أسبانية . وصورة كسرى يزدجرد الثالث ملك الفرس ، ونجاشي الحبشة ، وهذا القصر من مباني الوليد بن عبد الملك ـ حصن الموقر في البلقاء ، وهو على مسافة ساعتين على الراحلة من عمان ، وقد سكنه يزيد بن عبد الملك ـ قصر طوبه ـ قصر باير ـ وقصر المشتى الذي اختلف في أمره ، لكن المرجح أنه بناء أموي(١) ، وأنه من مباني يزيد الثاني بن الوليد ، وقد اقتطع الألمان وجه هـذا البناء الخارجي ، بسماح من السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٥ ، وهو اليوم في متحفة برلين وقد أنشأ الأمويون في الأردن ، في عمان نفسها ، معملا لضرب العملة ، فسكوا فيه النقود النحاسية فقط .

الأردن في عهد بني العباس : من الأردن ، أجل من هذا القطر الصغير ، انتشرت الدعوة التي دمرت دولة بني أمية ، فان (أبا هاشم بن علي بن أبي طالب) الذي كان يقيم ـ على المشهور ـ بين العقبة ومعان أخذ ينشر الدعوة من مقره في الحميمة ، لتدمير بني أمية . وكان دعاة هذه الحركة يتنقلون في البلاد تحت ستار التجارة ، إلى أن قضى الله للدعوة أن تنتصر ، فإذا انتصار العباسيين يصبح ضربة للديار الأردنية ، لأن قصور بني أمية هجرت ، وطريق الحاج التي كانت تخترق وسط الأردن تهمل ، لأن العباسيين شقوا طريقاً في البادية من العراق إلى الحجاز ، ورأوا أن يخالفوا سياسة بني أمية كلياً فاهملوا القومية العربية التي اعتز بها الأمويون ، وعظموا من شأنها ، لم يقبل المعتصم عرش الخلافة العباسية حتى ضرب العنصر العربي الضربة الصاعقة في سمعته ، وكرامته ، وهوت جباية الأردن وضرائبها إلى (٩٠) ألف دينار للاردن الشرقية و(٣١٠) ألف دينار وعشرة آلاف دينار و(٣٠٠) وثلثمائة ألف رطل من الزيت للأردن الغربية فلسطين كلها . وتحولت الأردن إلى مباءة للعصبية القيسية واليمنية فكانت تثور المعارك الدامية بين القيسية واليمنية لأتفه الأسباب ، ومن تلك الفتن فتنة العالوك التي قتل فيها خلق غير قليل من أجل بطيخة اقتطفها رجل من القيسية من مقثأة رجل يمني ، وقد تدخلت سلطات بني العباس تدخلا جديا لقمع الفتنة ، فلم يستطيعوا ذلك إلا بعد متاعب كثيرة .

---

(١) على أنقاض ما بناه الغساسنة وذكرناه سابقاً .

الأردن فى عهد الفاطميين : نشأت دولة الفاطميين على انقاض دولة الادارسة بعد أن قامت بدعوتها بصورة شديدة التكتم وظهر بين خلفائها أنبل القواد ، كأبى القاسم محمد نزار الملقب بالقائم بأمر الله وظهر فيهم الأديب والعالم مثل أبى تميم الملقب بالمعز لدين الله : وفى القرن العاشر للميلاد استولى الفاطميون على الأردن فعمتها الفتن ، وعندما أدرك الدولة الفاطمية الانحلال استولى السلاجقة على القدس فأشاعوا فى البلاد موجة من التعصب تنافى روح الإسلام السمح ، وروح العروبة النبيل ، فكان تعصب السلاجقة من جهة وتعصب الغرب من جهة ثانية سبباً لوقوع الحروب المعروفة فى التاريخ بالحروب الصليبية ، تلك الحروب التى حولت الأردن ميدانا صب فيها كل أنواع الويلات والنكبات ، وقد كان لهذه الحروب أسباب قريبة فى نفسية السلاجقة الذين سيطروا على الديار الإسلامية وصبغوا سماحة الإسلام ونبل العروبة بموجة من التعصب .

وكان لها فى نفسية الغرب أسباب بعيدة غايتها السيطرة على الشرق . فوقعت الحرب التى كانت وبالا على الشرق كله بما أشاعت فيه من فقر وعنفات طائفية ونفور ، وهى فى الوقت نفسه التى أضرت بسمعة الغرب ، لكنها أفادته بما نقلت إليه من علوم الشرق وحضارته .

زحف الصليبيين الأول : ولعل زحف الصليبيين الأول كان أنذل – على ما يروى المؤرخون – أنذل ماعرفت الإنسانية من سوء فى النظام ، وخلو من آداب الحرب ، فنهب الزاحفون النصارى الذين يخالفونهم فى النظريات اللاهوتية ونهبوا اليهود على أساس أنهم هم الذين صلبوا المسيح ، وهوجم المسلمون على أساس أنهم يسيئون إلى المسيحيين !

تأسيس الدولة اللاتينية : وفى سنة ١٠٩٩م استطاع الصليبيون أن يؤسسوا الدولة اللاتينية فى القدس ولقب (غود فرى) نفسه (أمير القدس) وحامى وبارون القبر المقدس .

ورفض أن يلقب ملكا ، لكنه لم يرفض أن يتوج بالذهب فى الموضع الذى توج فيه المسيح بإكليل من الشوك .

دخول الصيلبيين إلى شرقى الأردن : وكان أول دخول للصيلبيين فى شرقى الأردن نفسها يوم أغار (بولدوين)(١) على الأراضى التى وراء البحر الميت ، وظل مواصلا زحفه إلى أن وصل إلى وادى موسى ، وجبل هارون الذى كان مغطى بالثلج ، فمات من رجاله ثلاثون رجلا لشدة البرد ، فارتد إلى القدس بطريق (زغر) فى غور الصافى والخليل .

الصيلبيون يبنون القلاع فى الأردن : وقد فكر بولدوين فى أن يؤمن واردات الأراضى الواقعة بين حوران والأردن فبنى قلعة (حابس) الواقعة على الضفة الجنوبية من نهر اليرموك ، قريباً من محطة الشجرة المعروفة فكانت هذه القلعة أول الحصون التى ابتناها الصيلبيون فى الأردن فى أثناء تخاذل حكام العرب فى مصر والشام وفلسطين والجزيرة عن الاتحاد ، ولم يجد البلاد شيئا غير أن السلاجقة ردوا على الصيليبيين بتحصين جرش .

بلدوين الأول يحاول المحافظة على مملكة القدس : ولما أراد بولدوين الأول المحافظة على مملكة القدس اللاتينية ، صمم أن يستولى على جنوبى الأردن لأهمية هذه البقعة فى السيطرة على المواصلات بين مصر والحجاز وسورية ، فوضع يده على رفات مملكة الروم واستولى على وادى موسى ، فبنى قلعة (منتريال) الشوبك التى جعلت مركزاً له يمكنه من غزو القوافل التجارية التى كانت تتنقل بين القاهرة ودمشق ومكة المكرمة .

وأمر بترميم قلعة (الصويت) فى وادى موسى التى عرفها الصليبيون باسم (قال مواز) ورتب لها حامية ، وشق طريقاً بينها وبين الشوبك ، واستولى على العقبة وابتنى على جزيرة فرعون قلعة ثم أقام قلاعاً كثيرة منها : قلعة الطفيلة ـ وقلعة معان ، وكانوا يدعونها (إهمان) ـ وقلعة الوعيرالتى فى جبال الشرة ولعل أعظم قلاع الصليبيين شأناً هى قلعة مؤاب أو قلعة الكرك ، التى ابتناها (بوى) فى مكان منيع بحيث تفوقت بسبب عظمة موقعها على قلعة الربة المؤابية وقد انجز بناء قلعة الكرك سنة ١١٤٢ م فامست الكرك أعظم معاقل الصليبيين فى الجزء الشرقى من المملكة الأردنية الهاشمية ، وكانو يسمون القلعة حجر البادية

---

(١) بولدوين هو أخو غودفرى الذى خلف أخاه بعد موته سنة ١١٠٠

حكام العرب يتحدون : صمم السلاجقة على مهاجمة الصليبيين تساعدهم الجيوش المصرية ، فكان من نتيجة ذلك أن استرد الصيلبيون قلعة حابس التى سبق للسلاجقة ان استولوا عليها ، وزحف الصليبيون إلى جرش فدمروا قلعتها وهاجموا قلعة الوعير فى جبال الشراة التى كان العرب قد استولوا عليها واستردوها من العرب بعد أن هددوا بقطع أشجار الزيتون التى كانت تكسو وادى موسى .

وهكذا سيطر الصليبيون على جنوبى الأردن سيطرة تامة وعرف هذا القسم باسم امارة (منتريال) - الشوبك - وقد كانت هذه الامارة تضم « الشوبك » ، الكرك معان ، وادى موسى والسهول المجاورة وعين (فيليب دى ميلى) رئيس فرسان الهيكل أميراً عليها . وقد ضمت نابلس إلى هـــذه الامارة ، ولم تدخل فيها الخليل وما عتمت هذه الامارة ان اضحت أهم أقسام المملكة اللاتنية ، وكان لهذه الامارة اسطول فى ميناء العقبة ، وكانت واردات هذه الامارة تغطى نفقاتها ، وكان مصدر وارداتها مايلى : الضرائب التى تفرض على حاصلات البلاد من حبوب ، وبلح وخمور ، وقصب السكر . الرسوم التى كانت تجبى من القوارب التى كانت تمخر عباب البحر الميت . الضرائب التى كانت تستوفى من القوافل التى تتردد بين سورية ومصر والحجاز .

تغاضى الصليبيين عن شمالى الأردن : وقد تغاضى الصليبيون عن القسم الشمالى من الأردن ، الذى كان يدعى بلاد بنى عوف ، لأن الصليبيين اعتقدوا أن تدميرهم لقلعة جرش قد خضد شوكة البلاد ، ولأن أهل البلاد الشمالية أنفسهم كانوا من الحياد بحيث لم يعد يهمهم النزاع الذى يحتدم بين الجيوش المتحاربة .

صلاح الدين الأيوبى والأردن : وقد شهدت الأردن حربا ضارية يشنها البطل العظيم صلاح الدين الأيوبى(١) على إمارة (منتريال) اللاتينية انتقاما من أميرها المتعجرف الوقح (رينولد) الذى يسميه العرب ارناط ، ذلك الرجل الذى لم

---

(١) كان صلاح الدين من أعظم رجال الحرب نبلا وشمما ، وتقيداً بوعوده وبآداب الحرب إلى حد أنه أوقف حصار قلعة الكرك يوم علم أن همفرى الرابع يقيم حفلة عرسة بقلعة الكرك فى ذلك اليوم بالذات .

يعرف لآداب الحرب طعما ولاشكلا ، فقد ظهرت نفسه المفطورة على الإجرام يوم استولى على (قبرس) ونهبها ، وعذب رهبانها ، واستباح نساءها وذبح الأطفال وقد كان هذا الرجل لامثيل له فى نقض العهود ، فأغار على تيماء مفتاح المدينة وصميم الحجاز واعتدى على قافلة دمشقية ، وعاد وقد ملأ يديه بالغنائم ، يقود مئات الأسرى من الرجال والنساء ، وقد اضطرت أعمال ارناط هذا السلطان صلاح الدين أن يعالج ذلك المرض الخبيث بعلاج خبيث مثله فشن عليه حرب عصابات أتلفت مزارع الصليبيين ونخيلهم وكل ما هو محيط بقلعة (منتريال) الشوبك .

وقد كان ارناط هذا يعد العدة لغزو مكة المكرمة فبنى السفن فى عسقلان ، وحمل أجزاءها على الإبل إلى خليج العقبة .

ففى سنة ١١٨٦ مرت إحدى القوافل بالقرب من حصن الكرك مغترة بالهدنة المعقودة بين أرناط وصلاح الدين ، فهجم عليها أرناط ونهب مامعها وأسر رجالها ونساءها ، وكانت أخت السلطان صلاح الدين فى عداد الأسرى ، فامتلأ قلب السلطان غيظا وحنقا لوقاحة هذا النذل فصمم على تدمير إمارته وحلف ائن أظفره الله بأرناط ليقتلنه بيده ، واحتياطاً للأمر أنفذ صلاح الدين أحد أمراء جيشه المدعو أسامة إلى عجلون فبنى قلعة الربض لحماية طرق المواصلات بين الأردن وسورية ، وفى شهر تموز سنة ١١٨٧ التقت جيوش صلاح الدين بجيوش الصليبيين فهزم الصليبيون فى المعركة المعروفة بمعركة (حطين)(١) أشنع هزيمة وكان ارناط فى عداد الأسرى فقتله بسيفه وفاء بقسمه .

ثورة السليط وبناء قلعتها : وبعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبى ، كانت الأردن فى حكم الملك العادل ، وكان والى عجلون والبلقاء (أيبك بن عبد الله) أحد مماليك الملك العادل فنشبت فى عهده سنة ١٢١٤ ثورة عارمة فى مدينة السليط ، فجاء أيبك بن عبد الله إلى السليط وأخمد ثورتها ، وبنى قلعة تشرف على المدينة ترويعا لأهلها ، وهناك لابد لى من التنبيه على وهم خاص باسم هذه المدينة السليط ، وقد أشاعه السيد خير الدين الزركلى إذ حرف اسم السليط وجعلها الصلت مع أن اسم المدينة محرف عن كلمة لاتينية (Saltus) ومعناها الغابة .

---

(١) وقعت المعركة قرب حطين .

وقد نقلت عاصمة الأردن إلى السليط من حسبان التى كانت عاصمة البلقاء كلها إلى القرن الثالث عشر الميلاد .

وقد ظل الامن يسود الأردن فى عهد أيبك بن عبد الله إلى أن اتهم سنة ١٢٣٩ بأنه يشايع أحد أبناء الملك العادل على والده فنفى أيبك مغضوبا عليه .

الاردن يقع فى يد المغول : وقد حكم الايوبيون الديار الاردنية ردحا من الزمن إلى أن أجلاهم المغول عنها ، يوم زحفوا سنة ١٢٦٠ ودمروا قلعة السليط ، وقد ظل المغول فى الاردن إلى أن ضربهم أحد سلاطين مصر المماليك .

سيف الدين قوطز يدمر المغول : أجل عند عين جالوت بالقرب من بيسان التقى سيف الدين قوطز بالمغول فضربهم الضربة القاضية ، وأجلاهم عن قلعة الربض بعد أن هدم المغول حصونها .

الملك الظاهر بيبرس البندقدارى والأردن : وقد عاد قرم هذه القلعة الظاهر بيبرس البندقدارى الذى فارتقى بذكائه إلى أن أصبح قائدا لقواد جيوش سيف الدين قوطز ثم اغتال سيده وجلس على عرشه . وأصل الملك الظاهر هذا مملوك باعه أحد تجار الرقيق بثمن بخس للغاية لعاهة فى إحدى عينيه .

وقد أصلح قلعة السليط ، واستولى على الشوبك ، وقد أدرك أهمية الأردن للربط بين أجزاء مصر وسورية فابتنى جسرا على نهر الأردن تسهيلا لسير جيشه إلى عجلون وسورية ، وابتنى عدة محطات للحمام الزاجل ، لنقل الأخبار بالاشارات فى الأقسام الشمالية من الأردن ، ابتناها فى : الطيرة — اربد — وعجلون .

وكان ذلك العمل دقيقا إلى حد أن أى حدث كان يقع فى العراق ، كانت تصل أخباره إلى الملك الظاهر فى القاهرة بأقل من اثنى عشرة ساعة .

الأردن تفقد أهميتها فى عهد المماليك الشراكسة: وفى عهد المماليك الشراكسة فقدت الديار الأردنية أهميتها من حيث كونها حلقة اتصال بين سورية ومصر بعد خروج الصليبيين من فلسطين .

ولما أخذت دولة المماليك التى هى المسيطرة على الأردن آنذاك تتدهور أضحت البلاد الأردنية فريسة لغارات البدو ، حتى أغاروا على الكرك والقدس بين ١٥٠٢

و١٥٠٥ ونكلوا بأهاليهما ، إلى أن جاء الترك العثمانيون فاحتلوا الأردن ، ودمروا دولة المماليك التي دامت نحو ٢٥٧ سنة .

الأردن في حكم الترك العثمانيين : في سنة ١٥١٧ م في كانون الثاني وصل السلطان سليم المخيف ، أو سليم الشجاع كما يسميه مؤرخو الترك ، وصل إلى الشرق وقضى على دولة المماليك ، فأضحت الأردن داخلة في حكمه وتاريخ الأردن في هذه الحقبة غامض ، لأن الترك ساسوا البلاد أشنع سياسة ممكنة حتى بعد إعلان الدستور .

وكانت البلاد السورية ومنها الأردن الآن تتألف في عهد العثمانيين من أربع ولايات : ولاية أطنه ، وولاية حلب ، وولاية بيروت ، وولاية دمشق . وكان في هذه الولايات منطقتان شبه مستقلتين ، جبل لبنان ، متصرفية القدس الممتازة ، أما ولاية دمشق فكانت الأردن الحالية بحدودها السياسية وفي اتفاقية (سايكس بيكو) المعقودة في ١٦ أيار سنة ١٩١٦ قسمت سورية إلى أربعة أقسام ، وإلى منطقتي نفوذ : القسم الشمالي ، القسم الشرقي ، القسم الغربي ، والقسم الجنوبي ، فجعل القسم الشمالي والشرقي والغربي ـ أعني سورية ولبنان ـ منطقة نفوذ لفرنسا ، وجعل القسم الجنوبي أي فلسطين والأردن منطقة نفوذ للانكليز .

وقد كانت ضرائب الأردن في العهد التركي تجبى بطريقة فريدة في بابها ، لا يعرف لها مثيل إلا جباية الضرائب في زمن ولاة سورية أيام الرومانيين ، يوم كان هم الوالي تشحيذ الأهلين ليعيش حياة مترفة بعد عزله ، أو يقدم رشوة للمقربين من السلطان ليعاد انتخابه واليا .

ولكي تقفوا على نموذج من حكم الترك العثمانيين لهـــذه الديار أروي لكم حوادث يوم واحد وقفت عليها بنفسي أيام الحرب الكونية الاولى التي ابتدأت سنة ١٩١٤ وانتهت سنة ١٩١٨ ،والسنة التي وقعت فيها الحوادث ١٩١٦ ، في يوم السبت الساعة الخامسة صباحا حضر المختار وطلب من الرجل أن يرسل حماراً مع سوقيات الجيش ، لنقل مهمات الجيش ، فأرسل به مع رجل الساعة السابعة صباحا ـ المختار ينادي الجمل مع سوقيات الجمال فيرسله الرجل مع أحد الحراثين .

الساعة الثامنة حضرت اللجنة الموكلة بالبحث عن القمح وبقية الحبوب فادعت أن عند الرجل ألف صاع أي ستة آلاف كيلو من القمح فائضة عن حاجته ، هو

مكلف بإيصالها إلى مخازن الحكومة بسعر الكيلو خمسة غروش بنك نوت عثمانى على ماعلم مع أن الصاع الليفاوى كان يباع بنصف ليرة عثمانية ذهباً والليرة البنك نوت لا تساوى أكثر من عشرين غرشاً ذهباً .

الساعة التاسعة حضرت لجنة تبحث عن السمن للجيش فسلبت من هذا الرجل عينه كل ما عنده من السمن وهو أربع تنكات .

الساعة الحادية عشرة . حضر ثلاثة جنود وطلبوا من الرجل فرساً أصيلة عنده دفع له بها (٣٠٠) ليرة عثمانية ذهباً ولم يقبل أن يبيعها . فلما تأخر جلده الجنود إلى أن قطر الدم من جلده فأرسل من أحضر الفرس وأخذت منه ودفع له ثمنها عشرون ليرة عثمانية عشرة منها ذهباً وعشرة ورقاً . وقد عد الرجل ميمون الطالع لأن كل الذين أخذت خيلهم دفع لهم ثمنها ورقاً لكن محمد على بك أراد أن يكافىء الشيخ لما رأى من إساءة الجند له .

الساعة السادسة مساء أحضر المختار حصة الرجل من الحوايل وكانت الحصة هذه المرة أحد عشر جندياً يتزعمهم رجل اسمه (زاسن) وقد قالوا انهم ضيوف ، فكان ذلك لطفاً منهم فأعطاهم الرجل عليقاً لخيلهم وفراشاً وغطاء وطعاما .

هذه حوادث يوم واحد من أيام الترك العثمانيين واستغفر الله إذا كنت قد نسيت أشياء من حوادث ذلك اليوم .

أما الأمن فحدث عن اضطرابه ولا حرج فلقد كان الرجل لا يأمن على نفسه إذا خرج من منزله . وكثيراً ما كان يخرج الرجل لابسا ويعود إلى منزله عاريا وهو يبتعد عن البلد عشرين متراً .

هجوم إبراهيم باشا : دهمت الكرك غزوة من الوهابيين سنة ١٨٠٦ ، لكن الحملة فشلت ، لأن الغزاة طلبوا من الناس اموالا ، وفى سنة ١٨٣٢ هاجم الكرك إبراهيم باشا قاصدا فتحها ، لكن إبراهيم الضمور زعيم الكرك آنذاك صد الهاجمين بحماسة ، بعد أن قدم لذلك ضحية ابنه السيد وابنه عليا ، وقد أحرقهما إبرهيم باشا انتقاما من تعنت ابيهما ، وانتقاما من الكرك التى احتمى فيها الثائر (قاسم الأحمد) الذى هرب من نابلس إلى السلط ثم فر إلى قبائل غزة الذين سلموه إلى ابراهيم باشا . وقد اصطدم ابراهيم باشا ببنى صخر لحضر بنى صخر فى زيزاء ،

وانتصر عليهم ، فدمر القرية وسار الى السليط ، ودمر جانبا من قلعتها ، وبسبب انتشار الفوضى فى البلاد تدخلت الدول الأجنبية وأرغمت الجيش المصرى على التراجع عن زحفه فقسم ابراهيم باشا جيشه الى ثلاثة أقسام : القسم الاول سار إلى غزة عن طريق حسبان وذيبان ، والكرك وأعزريب ، والقسم الثانى سار إلى مصر رأسا عن طريق معان والعقبة .

والقسم الثالث سار بقيادة إبراهيم باشا نفسه نحو السليط قاصداً القدس ، لكن البدو ثاروا عليه ، فعطف على الكرك فتظاهر أهل الكرك أنهم يريدون مصالحته ، وأرسلوا معه رجلا من الحمارنة ، يلقبه الناس جلحد ، واسمه يوسف ابن سالم ، وبعضهم يظنه جلحد الذى من الحباشنة الذى لقب جلحد الحمارنة بلقبه لما بين الرجلين من التشابه فى الخداع ، فضلل جلحد هذا إبراهيم باشا وجيشه فهلك معظم الجيش بسبب انهيار الطريق تحت أرجل خيلهم وتدحرج صخور كان يدحرجها عليهم أهل الكرك ، فهلكوا قبل أن يصلوا إلى وادى عربة ، لأن جلحدا قادهم عن طريق (الفنية) بدلا من أن يقودهم عن طريق وادى الكرك وأصبح الناس يضربون المثل بهذا الدليل المشؤوم فيقولون لمن يريد أن يقودك الىالدمار ! « دلة جلحد » .

عربان السعيدى تتحكم فى البلاد : وهكذا عادت الديار الأردنية إلى الفوضى فحكمت عربان السعيدى فى القسم الشمالى من الأردن ، إلى أن جرد عليهم والى الشام حملة تأديبية أبادت المحاربين من عربان السعيدى إبادة تامة ، حتى قيل إن مياه وادى العرب اصطبغت بالدماء لكثرة من قتل من القوم ، ودفن القتلى جماعات بالقرب من مقتلهم فى المكان المسمى قلعة السعيدى ، وقد ذكر الشاعر البدوى قلعة السعيدى هذه بقوله :

ماضامنى إلا عز قصر السعيدى　　　الناس تفنى وهو عميره يزيدى

الترك العثمانيون يحاولون تثبيت هيبتهم : بعد تدمير عربان السعيدى ، فكر الترك العثمانيون بإنشاء حكومات فى البلاد ، فجعلت عجلون قائم مقامية ، تابعة لمتصرفية نابلس ، وعينت الحكومة لها قائم مقام سنة ١٨٥١ للميلاد ، وكانت قائم مقامية عجلون تمتد إلى نهر الزرقاء . أما الرمثا ، فكانت تابعة لحوران ، وكان الغور كله إلى شونة جسر المجامع تابعا لقائم مقامية طبرية .

وفى سنة ١٨٧٧ أثبت الترك العثمانيون شيئا من هيبة الحكم يوم تمكن متصرف حوران من سجن (فندى) الفايز وتمكن أن يشنق ابن فندى لأنه حاول إنقاذ أبيه وليس بنا من حاجة إلى القول بأن الترك العثمانيين كانوا يعتمدون على إثارة العصبية القبلية ، والنعرات الطائفية على أساس فرق تسد ، قسم الغزو البلاد ، وشاعت النظرات الطائفية الحاقدة بين الناس مما حال دون إيجاد وحدة وطنية فى البلاد ، وقتل روح الوعى القومى إلى حين ، لكن هذه الأحوال على سوئها ساعدت الترك العثمانيين أن يسيطروا على البلاد نوعا من السيطرة .

حكومة السلط تتمكن لأول مرة من جمع الضرائب : وقد استطاعت حكومة السلط سنة ١٨٨٢ م لأول مرة فى تاريخ السيطرة التركية على الأردن ، أن تجمع الضرائب من البدو المقيمين فى جنوبى الكرك .

وقد كانت قبائل الشمال أسلس قيادا للحكم من أهل البادية ، ومن قبائل الجنوب ، إلا أهل قرية الطيبة ، فإنهم ثاروا على حاكم (عكة) بينما كان يطوف فى الغور سنة ١٨٨٩ م ففر منهم ولجأ إلى طبرية ، وكتب تقريرا لوالى دمشق فأرسل الوالى قوة نظامية أدبتهم وأعادتهم إلى الطاعة .

خليل المجالية يتولى زعامة الكرك لأنه سلمها للعثمانيين : وفى سنة ١٨٩٢ سلم خليل المجالية الكرك للعثمانيين فعينت الحكومة للكرك متصرفا جعلته مربوطا بوالى دمشق ، وضمت إلى الكرك العقبة ، ومعان والطفيلة ، وتبوك ، وأنشىء فى تبوك محجر صحى .

البلقاء تابعة لنابلس : أما البلقاء فإنها كانت تابعة لنابلس ، وفى سنة ١٩٠٥ ألحقت البلقاء وعجلون بمتصرفية الكرك وفى هذه السنة نفسها حدثت ثورة الشوبك .

وسبب هذه الثورة أن حامية قلعة الشوبك أرادوا أن يسخروا نساء أهل الشوبك بنقل الماء من المنابع التى فى قعر الوادى للحامية . فثار أهل الشوبك ، وهجموا على الجند فى القلعة ، وطردوهم منها ، وتحصنوا فيها !

ثورة الكرك : وفى سنة ١٩١٠ ثارت الكرك على الحكومة العثمانية لأنها

سنت قانون الخدمة الاجبارية فى الجيش ، وقررت جمع السلاح من الأهلين ، وكان زعيم هذه الثورة (قدر) المجالية ، فلما علم سامى باشا بذلك أرسل نجدة لحكومة الكرك من جبل الدروز (جبل العرب اليوم) بقيادة (نورس بك) لأن سامى باشا كان مشغولا فى اخماد ثورة ملتهبة فى جبل الدروز ، وعلى الرغم من حداء القوم المتواصل :

يا سامى باشا من نطيع ، ولا تعد عيالينا .

فان نجدة (نورس بك) دخلت الكرك بلا مقاومة ذات قيمة ، فهرب قدر المجالية من الكرك ، لكنه عاد فسلم نفسه ، وبعد مدة دعى إلى دمشق ودس له السم فى فنجان من القهوة فلقى قدر حتفه .

حوادث مهمة للتاريخ : ولعل من الحوادث المهمة للتاريخ فى العهد العثمانى

١ - اكتشاف خريطة الفسيفاء الموجودة فى كنيسة الروم الأرثوذكس فى مأدبا ، وتحتوى على خريطة لفلسطين ، ومصر وسورية ، ولعلها من صنع القرن الخامس للميلاد .

٢ - مساحة أراضى الديار الأردنية والفلسطينية من قبل جمعية التنقيب الفلسطينية .

٣ - ولعل أهم الأحداث إنشاء الخط الحجازى ، فقد أمر السلطان عبد الحميد الثانى بإنشائه مؤملا أن تكون نفقاته فى حدود ثلاثة ملايين ونصف مليون ليرة عثمانية ذهبا ، لكن النفقات الحقيقية بلغت ثمانية ملايين ، ونصف مليون ليرة عثمانية ، استعملت فى جمعها كل أساليب الحيل ، من ضرائب ، وطوابع وتبرعات تطوعية وتبرعات إجبارية ، ووقف الأراضى ، إلى أن تمكن القوم من تسيير القطار من دمشق إلى المدينة المنورة ، لكن هذا الخط نسف مرارا فى أثناء الحرب الكونية الأولى فظل معطلا إلى أن قرر المغفور له جلالة الملك حسين بن على ترميم الخط ، فأنفق على ترميمه خمسة وثلاثين ألف جنيه مصرى ، فصار القطار يسير بين درعا والمدينة المنورة ، لكن الترميمات كانت بدائية مؤقتة ، لأن شتاء سنة ١٩٢٥ قد عطل قسما من هذا الخط . ونحن إذا أردنا أن نقول الحقيقة كاملة قلنا ان هذا الخط كان فى الحرب الكونية الاولى نكبة على احراج الاردن لان الترك العثمانيين أبادوا الأحراج للحصول على الفحم لتسيير القطار .

أثر الثورة العربية الكبرى فى الاردن : فى كانون الثانى سنة ١٩١٨ نقل فيصل الاول مركز قيادته إلى العقبة ، ومن العقبة سار إلى (الوهيدا) المجاورة لمعان ، وسير مفرزة فاحتلت (غابة الهيش) التى أباد الترك العثمانيون أشجارها كلها لتسيير القطار ، واحتلت هذه المفرزة الشوبك ، ثم أخذ رجال الملك فيصل يكافحون إلى أن تمكنوا من الاستيلاء على محطة (المدورة) وقلعتها ، وهدموا حوض المياه ، ودمروا المضخات ، ودمروا الآبار فانهارت بسبب ذلك معنويات الجيش التركى فى الحجاز .

وفى الحادى والعشرين من شهر أيلول سنة ١٩١٨ انهارت قوى الترك العثمانيين ، وفى الثالث والعشرين من الشهر نفسه سقطت السلط وفى الخامس والعشرين من الشهر عينه سقطت عمان ، وأسر نحو (٦٠٠) جندى تركى ، أخذ الجيش العربى على نفسه المحافظة على الاسرى المحجوزين فى القسطل ، وجيء بالاسرى إلى عمان ، وهكذا صفى حساب الترك العثمانيين فى الاردن كلها فى الثامن والعشرين من شهر أيلول سنة ١٩١٨ .

ضم الديار الاردنية إلى المملكة السورية : فى التاسع عشر من شهر كانون الاول سنة ١٩١٩ ألحقت الديار الاردنية بالمملكة السورية ، فغمرت البلاد موجة من الفوضى لانشغال الحكومة فى تنظيم أمورها الداخلية ، وفى شهر تموز من سنة ١٩٢٠ سقطت المملكة السورية ، ففصلت الاردن عن سورية وقسمت إلى أربع مقاطعات ، أو دويلات : منطقة معان التى كانت الفوضى تعمها بشكل مخيف محزن ، لانه لم يكن هنالك حكومة تسيطر على الحالة ، فكان القوى يبتلع الضعيف ، فكأنما قد تحول الناس سمكا لا أكثر ولا أقل - منطقة الكرك وقد أصبحت وكأنها إقطاع للمجالية - البلقاء وكان يحكمها المتصرف الذى عينته سورية وقد أنسيت اسمه مع الاسف الشديد - أما منطقة عجلون فكانت أعجب المناطق فى تصريف أمورها فقد أضحت هى نفسها أربع دويلات أو إمارات تذكرنا بالممالك اليونانية القديمة - دولة أربد - دولة سوف - دولة المزار - دولة الكورة

الأردن تحت الانتداب البريطانى : وفى العشرين من شهر آب سنة ١٩٢٠ دخلت الأردن فى الانتداب البريطانى نتيجة لزيارة (هربرت صمويل) الصهيونى مندوب فلسطين كما كانوا يدعونه للأردن .

الأردن إمارة : وصل الأمير عبد الله إلى معان فى الحادى والعشرين من شهر تشرين الثانى سنة ١٩٢٠ فوجه نداءه إلى السوريين على اعتبار أنه نائب عن المغفور له الملك فيصل ووصل سموه الأمير عبد الله صاحب الجلالة فيما بعد إلى عمان فى ٢ من اذار سنة ١٩٢١ ، واعترفت به الحكومة البريطانية أميراً على الديار الأردنية ، فوحدت البلاد واختير (رشيد بك طليع) رئيسا للحكومة وقد واجهت الحكومة فى عهدها اضطرابات وثورات عنيفة - فى الكورة - فى الكرك ، وفى سواها - فى البلقاء - فى وادى موسى ؛ وهجوم الوهابيين ، وكانت هذه كلها نذر شر على البلاد إلا أنها اجتازتها سالمة .

الاعتراف باستقلال شرقى الأردن : وفى سنة ١٩٢٢ أعترف بوجود حكومة مستقلة فى شرقى الأردن تحت الانتداب البريطانى . وفى شهر حزيران سنة ١٩٢٥ ضمت العقبة ومعان إلى الاردن . وفى سنة ١٩٢٧ لجأ ثوار الدروز إلى الأردن وفى هــذه السنة أصيبت الأردن بزلزال عنيف ، وتوالت على الديار الأردنية غزوات الجراد ثلاث سنين متوالية سنة ١٩٢٨ وسنة ١٩٢٩ (١) وسنة ١٩٣٠ فاستخدمت الحكومة المكافحة الجراد نحواً من (٧٠٫٠٠٠) سبعين ألف مكافح .

وقد توالت الحكومات فى الأردن ، ومن الجدير بالذكر أن عصبة الأمم أصدرت قراراً رسميا عدت فيه الاردن وطنا عربيا خالص العروبة مستثنى من وعد بلفور ، بناءا على أن الاردن مقضى بحقه فى الاستقلال منذ الحرب الكونية الاولى بموجب وعد مكمهون لجلالة المنقذ الاعظم الحسين بن على .

وفى سنة ١٩٢٨ أبرمت معاهدة بين الاردن وبريطانيا وصدقت المعاهدة نهائيا فى الحادى والثلاثين من شهر تشرين الثانى سنة ١٩٢٩ ونشرت فى الجريدة الرسمية عددها ال ٣٤٣ وقد عدلت المعاهدة تعديلين : الأول سنة ١٩٣٤ — والثانى سنة ١٩٤١ . وعقدت مع بريطانية معاهدة صداقة وتحالف على أساس الاستقلال التام سنة ١٩٤٦ ، وقد ألغى بموجبها معاهدة سنة ١٩٢٨ التى عدلت مرتين كما ذكرنا فويق هذا .

وفى الخامس والعشرين من شهر أيار سنة ١٩٤٦ أعلنت الاردن استقلالها ،

---

(١) وفى هذه السنة أنشىء مجلس تشريعى تقدم لانتخابه ٣٠ ٪ من الناخبين .

ويودع الملك عبد الله ملكا دستوريا وقد سبق ذلك قرار أصدره المجلس التشريعي بالاجماع معلنا استقلال البلاد استقلالا تاما ، وقد بلغت الدول ، وجامعة الدول العربية بذلك . وقد أنكرت روسيا على الاردن حقها فى الانضمام لمنظمة الامم المتحدة بعد تقدمها بطلب ذلك ،فى ٢٦ من حزيران سنة ١٩٤٦ على اعتبار أن استقلال الاردن ليس سليما من شوائب التدخل الاجنبي .

ولما كانت قضية فلسطين فى طورا لمناقشة قامت الاردن بواجبها فى مناسبات عديدة . وفى سنة ١٩٤٧ عقدت معاهدة صداقة بين الاردن وتركية على أثر زيارة المغفور له الملك عبد الله لتركية .

حكومات الاردن المتتالية : كانت أول حكومة ألفت فى الاردن حكومة (رشيد طليع) فى أوائل شهر نيسان سنة ١٩٢١ وقد سمى رئيس تلك الحكومة الكاتب الإدارى ، وهو يرأس مجلس المشاورين المؤلف من سبعة مشاورين ؛ ثم جاءت حكومة (مظهر أرسلان) الذى خلف رشيد طليع ، وعين فيما بعد مستشارا ملكيا ، وخلف مظهر أرسلان رضا الركابى سنة ١٩٢٢ ، وفى سنة ١٩٢٦ استقال الركابى باشا وخلفه حسن خالد باشا أبو الهدى ، وفى سنة ١٩٣١ استقالت وزارة حسن خالد أبو الهدى ، وبعد أن استقالت وزارة حسن خالد خلفه الشيخ عبدالله سراج ، وفى سنة ١٩٣٣ استقال الشيخ عبد الله سراج وخلفه السيد إبراهيم هاشم ، وفى سنة ١٩٣٥ جعل اسم المجلس التنفيذى مجلس الوزراء أسوة بالبلاد الدستورية . وعدل القانون الاساسى للأردن ، وأعلنت الوزارة الجديدة تمسكها بمبادىء الثورة العربية الكبرى ، لتصل بالامة إلى العزة والكرامة ، وأصبح سمو الامير هو القائد الاعلى للجيش الاردنى . وفى سنة ١٩٣٨ استقال السيد إبراهيم هاشم فخلفه فى الحكم توفيق أبو الهدى ، عملا بالتقاليد الدستورية بعد تعديل القانون الاساسى وصيرورة سمو الامير قائدا أعلى للجيش ، وكلف أبو الهدى بتأليف الوزارة مرة ثانية سنة ١٩٣٩ كما ألفها مرارا بتكليف من سمو الامير إلا أنه استقال سنة ١٩٤٤ فألفها السيد سمير الرفاعى ، وفى سنة ١٩٤٥ استقال سمير الرفاعى فألفها السيد إبراهيم هاشم ، وفى سنة ١٩٤٨ تولى الوزارة توفيق أبو الهدى .

وبعد هزيمة العرب المصنوعة فى فلسطين ضمت الاشلاء الباقية من هذا الوطن العزيز الذبيح إلى الاردن لقرارها المؤرخ ٢٤ نيسان سنة ١٩٥٠ .

وفى اليوم العشرين من شهر تموز سنة ١٩٥١ اغتيل الملك عبد الله وهو يريد تأدية صلاة الجمعة فى الحرم الشريف ، وقد كان رئيس الوزراء يوم ذاك السيد سمير الرفاعى .

وقد ارتقى العرش الملك طلال ثم تنازل عن عرشه لشبله الحسين ، وقد كان رئيس الوزراء عند ارتقاء جلالة الملك طلال توفيقا أبا الهدى . ثم خلفه السيد فوزى الملقى — ولما استقالت وزارة الملقى — ألف الوزارة السيد سعيد المفتى وعند استقالة السيد سعيد المفتى ألف الوزارة السيد سمير الرفاعى — ثم خلفه توفيق أبو الهدى — ثم خلفه دولة سعيد المفتى ، ولما رأى اصرار الأصابع الخفية على جر الأردن إلى ما لا خير لها فيه استقال — فخلفه السيد هزاع المجالى — ولما استقالت وزارته خلفه فى الحكم — السيد سمير الرفاعى — ولما استقال السيد سمير الرفاعى جاءت حكومة السيد ابراهيم هاشم الانتقالية ، وبعد أن جرت الانتخابات ألف الوزارة دولة السيد سليمان النابلسى .

وليس يخاف أن أهمية موقع الأردن من الناحية الحربية جعلت الحلفاء يشرهون إلى الاستيلاء عليها فقد عقدوا سنة ١٩١٩ فى الخامس عشر من شهر أيلول إتفاقا عسكريا ، ينفذون بموجبه معاهدة (سايكس بيك) على ما زعموا يخول الانكليز والفرنسيين احتلال الأجزاء المنسلخة عن تركية وقسموها إلى مناطق نفوذ كما أشرنا إلى ذلك سابقا ، وقد زعم الحلفاء أنهم انما ينفذون أحكام المادة الثانية والعشرين من حل عصبة الأمم التى وجدت بمقتضى معاهدة فرساى المعقودة فى ٢٨ حزيران سنة ١٩١٩ ، ولا يخفى علينا أن هذه المادة تمنح هذه الأجزاء المنسلخة من الدولة العثمانية استقلالا محدودا لكن الانكليز والفرنسيين غالطوا أنفسهم وغالطوا المواد القانونية لعصبة الأمم ، واتخذوا بوساطة ما كان يدعى المجلس الحربى الأعلى على أنفسهم أن يفرضوا أنفسهم دولا منتدبة على هذا الشرق البائس الذى نكب بهم ، فأذاقوه أفاويق الويل والنكال بطرق مبتدعة من الاذلال ، والفقر ، والتجويع ، وإشاعة النفسية الاقطاعية ، والروح الرجعية .

أحمـــد الشرباصي

(١)

الدين والحياة : نعم الدين والحياة ، ولكن ، ولكن ، لم نغاير بين الدين والحياة ؟ لا ، الدين هو الحياة ، والحياة هى الدين ، الدين هو الحياة الكريمة المهذبة ، المثلى الفاضلة ، هو العمل والكفاح من أجل فكرة التقدم والنهوض والقوة والأمل ، والحياة هى الدين ، وجودها فى الإيمان به ، وعزتها فى العمل بشريعته ، وكرامتها من كرامته ، فلا وجود لمجتمع صالح قوى قادر على أداء رسالته فى الحياة إلا إذا آمن هذا المجتمع ، وإلا إذا قوى إيمانه ، وإلا إذا اندفع بباعث هذا الإيمان إلى تحقيق شخصيته ، وبناء صرح عزته ونهضته وكرامته ، لاعزلة ولا فوارق بين الدين والحياة ، وبين الحياة والدين ؛ هذا مايجب أن نفهمه ، وما يجب أن يكون . ورجل الدين ليس آلة جامدة ، ولا عقلا مشلولا ، ولا فكرا رجعيا ، كلا . إنه تصميم على الكفاح من أجل سعادة الناس ، من أجل تقدم الإنسانية ، من أجل تحقيق الشخصية الإسلامية.

رجل الدين فى الطليعة دائما ، هذا مايجب أن يكون ، يجب أن يكون فى الصدر فى كل عمل دينى أو اجتماعى أو وطنى أو قومى أو إسلامى نبيل ؛ يجب أن يقود القافلة حتى لاتضل فى صحراء الحياة ، ، وأن يكون رائد الركب حتى لاتلتوى بهم المفازات والفلوات ، وأن يكون المعبر عن الحق والخير والطهر والأمانة والحرية ، فهو صوت الأمة الجرىء ، ولسانها المدوى ، وعقلها المفكر ، وصمام الأمن والأمان فيها ، ومشعل الثورات الإصلاحية والتقدمية فى محيط شعبه . رجل الدين بزيه وثقافته وبما يملك من أسباب الإبانة والفهم بحقائق الإسلام لابد أن يوضع فى الطليعة ، وأن ينال مركزه فى الحياة وأن نعلو بكرامته ومكانته إلى مافوق كل اعتبار ، إن محمد عبده الأزهرى الصميم ، أصبح بثقافته الأزهرية من « بناة القرن العشرين » ، ومن صانعى النهضة فى العالم الإسلامى .

ورحم الله المراغى ومصطفى عبد الرازق والشيخ محمود أبا العيون ، وسواهم ، ممن عززوا كرامة رجل الدين فى المجتمع ، وأدوا رسالتهم على أكمل الوجوه وأفضلها . وهكذا يجب أن يكون رجل الدين فى مجتمعنا ، فى المجتمع الذى يسير بقوة الكهرباء والذرة إلى أقصى أهدافه .

وإذا كان الدين هو العامل الأول فى حياة الشرق الإسلامى إلى اليوم ، فإن مجتمعنا الإسلامى فى مصر من نبع الأزهر ، من رواثه وإشراقه ، ومن ثقافته وأفكاره ، ومن قوميته ومحافظته ، ومن غيرته وحميته .

إن الأزهر هو الذى صنع هـذا المجتمع المصرى القوى خلال القرون والأجيال ، إنه معلم مصر ، ومغذى نهضتها ، ورافع رايتها فى العالم الإسلامى ، وهو بانى مجدها ، ومحقق كرامتها .

إن الأزهر هو صانع الشرقاوى ، وعمر مكرم ، والمهدى ، ومحمد عبده وسعد زغلول ، وطه حسين والزيات وزكى مبارك ، والبشرى ، هو شتى أمجادنا فى الثقافة والأدب واللغة وفى الدين والقومية ، وفى شتى نزعات الحياة الكريمـــة .

من نبع الأزهر ، من ثقافاته صنعت مصر ، ولابد أن تصنع مرة أخرى ، بعد أن آدها السير فى صحراء قاحلة ، لاظل فيها ولا ماء ، لأن طرقها لم ترتو بهذا النبع الكريم ، إنما ارتوت من معين ثقافات الغرب الاستعمارية ، فى عهد الملكية الفاسدة ، والرجعية السياسية المخذولة ، فلما استكملنا بناء النهضة والثورة فى بلادنا كان لابدلنا من أن نرجع كرة أخرى إلى الأزهر ، الازهر ، الذى طالما عشونا إلى نوره ومعرفته ، والذى استمدت منه مصر النور والمعرفة خلال الاجيال ، وطوال القرون .

إن الازهر هو دائما صرح الوطنية والكفاح فى مصر ، وشعلة النهضة والثورة ، وهو سر مافى وطننا بل مافى العالم العربى والإسلامى من حيوية

ونشاط وثقافة إسلامية أصيلة . والازهر لن يعقم أبدا ، لانه صانع الرجال ، وخالق الأبطال دائما . .

والازهر أقدم جامعة إسلاميه بل يكاد يكون أقدم جامعة علمية فى العالم كله ، فجامعة لندن مثلا لم تنشأ إلا عام ١٨٢٥ .

وإذا كانت اكسفورد قد أنشئت أول كلية لها عام ٧٥٤م فقد اقتصر النشاط العلمى فيها على تعليم اللاهوت والناموث ، بينما قام الازهر منذ إنشائه عام ١٠١١ بتعليم شتى ألوان الثقافات المختلفة ، وحينما لم تأخذ العلوم طريقها إلى اكسفورد إلا بعد عام ١٠٧١ ، كان الازهر يدرس الاقتصاد والطب والفلك والميقات والهيئة والفلسفة والتاريخ بعد إنشائه بقليل جدا بينما لم يدرس التاريخ فى اكسفورد إلا بعد عام ١٨٣٥ ، ولم يدرس الاقتصاد السياسى فيها إلا بعد عام ١٨٥٠ ولم تنشأ درجة علمية لهذه المادة إلا عام ١٩٠٥ .

إن جميع مناهج التربية الحديثة ، وتقاليد الجامعات العريقة فى الشرق والغرب ، ماهى إلا محاكاة لنظم الأزهر العريقة ، والأزهر فى حاضره يكاد يكون نظامه العلمى استجابة للوعى الباطنى فى التاريخ العريق ، وهو مايسميه علماء التربية المعاصرون « الباعث التاريخى التقليدى » .

وكان الأزهر بعد سقوط بغداد عام ٦٥٦ هـ ملاذا لعلماء الشرق الذين شردوا بايدى التتار ، كما كان ملاذا لعلماء الاندلس الذى هاجروا إلى الشرق بعد سقوط الأندلس ، حتى لقد أفاض من رعايته وثقافته على هؤلا وهؤلاء مالم تفضه إيطاليا على علماء اليونان إثر رحلتهم إليها بعد سقوط القسطنطينية فى منتصف القرن التاسع الهجرى .

وكان الأزهر كذلك ملاذا للغة والآدب والثقافة الإسلامية فى عصر الأتراك العثمانيين الذى انحطت فيه بفضلهم العلوم والأدب واللغة إلى حـــد كبير .

والأزهر الذى كان من أبطاله وأعلامه الدردير وعمر مكرم وعبد الله الشرقاوى والحفنى وابن النقيب والعروسى والطهطاوى وحسن العدوى والخلفاوى ومحمد عبده وحسونه النواوى ، وحسين والى، والمراغى، ومصطفى عبد الرازق ، وعبد المجيد سليم ، ومحمود أبو العيون ، والذى كان منه إبراهيم حمروش ومحمود شلتوت ومحمد عرفة ومحمد عبدالله درازو محمد الفحام وسواهم، لايمكن أن تذوى فيه الحركة العلمية أبدا .

إن الأزهر العريق الخالد ، هو المعهد العتيق ، الذى أنشأ الجيل الجديد المكافح من أبناء الأزهر الذين يحملون اليوم رسالته بقوة وعزم وتصميم .

وللأزهر مكانة فى العصر الحديث عند العلماء والباحثين فى الشرق والغرب ، يذكر توفيق الحكيم فى كتابه « فن الأدب »[1] قصة مع محام أمريكى كبير ، التقى به الحكيم فى قصر (شايو) بفرنسا حيث دار بينهما حوار طريف سجله الحكيم فى كتابه فقال :

قال ذلك المحامى الأمريكى : حقا إن الثقافة بالمعنى الذى يفهمه الأوربيون هنا شىء لم تعرفه أمريكا بعد .

الحكيم مواسيا مجاملا : ولم تعرفه مصر هى الأخرى بعد .

الأمريكى فى دهشة : مصر لم تعرفه ؟ لا لا ، إن مصر عريقة فى الثقافة ، لأنها بلد الأزهر ، إنى لن أنسى يوم احتفلنا فى أمريكا بعيد جامعتنا هار فارد وجاءت الوفود من ممثلى جامعات العالم تحضر الاحتفال . لقد كان ممثل جامعتكم الأزهرية يمشى فى المقدمة مختالا فخورا مباهيا بأنه يمثل أقدم جامعات الدنيا ، وقد كنا نحن الأمريكان ننظر إليه متضائلين منكمشين ، فأين جامعتنا « هار فارد » الصبية الحديثة السن ، من جامعة الأزهر الجليلة العريقة فى القدم .

---

(١) ص ١٣٦ فن الأدب لتوفيق الحكيم .

ويقول الحكيم إنه شعر آنذاك بشيء من الزهو فى أعماق نفسه ، ولكن لم يلبث أن تحسر وقال فى ضميره : ما أعظم التراث الذى نملكه ، وما أثمن الكنوز التى ننام عليها ! :

هذا هو الأزهر ، الذى من نبعه خرج الثائرون والرواد طول عصور التاريـــخ .

(٢)

وقد كتبت هذا كله تمهيدا لكلمة عابرة عن أحمد الشرباصى الأزهرى النابه ، والخطيب المفوه والكاتب المعروف ، والمؤلف البحاثة .

وقد رسم كتابنا المعاصرون صورا وصفية شائقة له ، لابأس بأن نورد للقارىء صورة من هذه الصور لطرافتها ، ولانها تمثل لنا بعض جوانب هذه الحياة الممتدة الواسعة الاطراف .

يقول الكاتب المعروف وديع فلسطين فى حديث له عن الشرباصى[1]:

« إننى أعنى الشرباصى الشيخ ، لاالشرباصى الوزير ؛ الشرباصى العالم الدينى الأريب الأديب الذى ملأ الدنيا بأدبه وعلمه ورأيه فصار بندا مرفوعا وغدا — وهو فى شرخ الشباب — أستاذا لأساتيذ ، وموجها ورائدا لكثيرين ممن يكبرونه سنا ولكنهم لايكبرونه علما .

عرفته منذ أكثر من عشر سنوات ، فعرفت فيه طالبا فى الأزهر مجدا ، عكوفا على كتابه وقرطاسه ، يأخذ العلوم مأخذ الهاوى المشغوف لامأخذ المضطر المسخر ، لايكف عن المطالعة ، ولا يقلع عن الكتابة ؛ يريد أن يكون فى الحياه شيئا مذكورا ، وقد استطاع فى فترة وجيزة أن يصبح علما تشير إليه الأباهم ، وعدته فى الحياة إيمان وطيد ، ودراية عميقة ، وإخلاص بين ، وخلق يتأبى على السفاسف وتمكن من علوم اللغة وعـــلوم الدين يهيء له أن يتصدى للعصى من الأمور

(١) من مقال للاستاذ وديع فلسطين — الانذار ٢٣ يناير ١٩٥٥ .

فيخرج بالرأى السديد والمنطق الفريد فيقنع العقل ويرضى القلب ويشبع الغلة ويكتسب هو احترام الناس وتوقيرهم وإجلالهم .

سمعته خطيبا فى مناسبات شتى ، وبينه وبين أعواد المنابر ألفة ومحالفة ، فكان يسحر السامعين ببيانه الرائع وسلسال فكره المنطقى ، وحجته القوية ، وأدائه فى اللغة التى تطاوعه . وعقله الخصيب الدائم التفتق ، وقدرته على إحكام ضبط كل كلمة تخرج من فيه فلا يتلعثم ولا يتعثر ولا ينطق إلا بحق ، فاذا كان الشرباصى على منصة للخطابة يتداولها الخطباء ، كان أقواهم خطابة ، وأبلغهم سحرا ، وأكثرهم تأثيرا ، وألمعهم جميعا حتى وإن لمعت أسماؤهم بفضل المنصب .

وقرأت مؤلفات الشرباصى ، ويكاد عددها يبلغ عدد سنى عمره ، فازددت بهذا الشيخ إعجابا وله تقديرا ، لأنه لا يجعل الدين تجارة ، بل يجعله منهاجا فى الحياة يقوم الخلق ويعصم من الحيف ويدفع الأذى . فكتبه الكثيرة (مذكرات واعظ أسير) و (محاضرات الثلاثاء) و (صلوات على الشاطىء) و (أيام فى الكويت) و (رحلة باكستان) و (عبيدة بن الجراح) و (القصاص فى الإسلام) ، ومقالاته التى أربت على بضعة آلاف التى تنشرها له مجلات هذا الشرق العربى ، ومحاضراته التى تتعدد فى الأسبوع الواحد بل فى اليوم الواحد ، جعلت هذه جميعا للاستاذ الشرباصى مقاما مقدورا فى الحياة ، وارتفع من جانب السلبية إلى جانب الإيجابية ، لأنه صار عنصرا فعالا موجها بعيد الأثر فى الحياة لأن فى يده قلما واعيا ، وفى قلبه إيمانا عميقا ؛ وفى لسانه سحراً من البيان ، وفى عقله آراء نيرة يطالع بها الناس كلما اجتمع بهم فى حلبة أو فى صحيفة أو بين دفتى كتاب .

وعرفت فى الشرباصى مزايا كثيرة هى ثمرة شخصيته الأصيلة ذات العراقة والاستقامة ، فعرفت فيه رجلا جريئا فى الحق لامجترئا عليه ، وقد دفع ثمن جرأته غاليا . وعرفت فيه روحا سمحا شفيفا ، وعرفت فيه نية طيبة صادقة خالصة وعرفت فيه بعدا عن الادعاء ونأيا عن الكبرياء . وهذه المزايا جميعا إن اجتمعت فى فرد ؛ جعلته أهلا للتقدير ؛ والحمد لله أن التقدير جاء للشرباصى يسعى من مصر ومن خارج مصر ؛ فدعى مرات إلى الكويت وإلى المملكة العربية السعودية وإلى الباكستان وإلى فلسطين ، وكان فى هذه الزورات العلمية جميعا رسولا للثقافة وللخلق وللأدب يتشرف به الأزهر ، ويتشرف به العلم .

(٣)

ويصور لنا حياة الشرباصي ما كتبه الأديب المصرى عبد الله الدشلوطى عضو البعثة المصرية التعليمية بالكويت عن طموح الشرباصي من حديث أذيع من الإذاعة الكويتية يوم الخميس ٢١ مايو ١٩٥٣ جاء فيه :

هو أحمد الشرباصي ابن الحاج شربينى جمعة الشرباصي . وقد ولد فى السابع عشر من شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ . وقد كان مسقط رأسه فى قرية من قرى مركز دكرنس ؛ فى مديرية الدقهلية بالوجه البحرى بمصر ، تلك القرية تسمى (البجلات) ، و (والبجلات) معناها الشجرات الصغيرة ، فقرية البجلات هى قرية معشبة تحيط بها الأشجار الزاهية الناضرة ، وتتخلل كل ناحية من نواحيها . فمساكن القرية كلها أشبه بقصر فى وسط حديقة غناء . ولعل هذا الجو هو الذى أفاد الأستاذ أحمد الشرباصي سماحة فى الخلق ، ولينا فى العريكة . ورقة فى الطباع .

أما أسرته فإذا نظرنا إليها نظرة عامة بين اسر المديرية نجدها متوسطة الحال . ولكننا إذا نظرنا إليها نظرة خاصة فى قريتها نجدها من الأسر الغنية العظيمة بالنسبة إلى مافى تلك القرية من أسر .

أما ثقافته فقد بدأت فى القرية كغيره من أبناء القرى حيث دخل مدرسة (البجلات) الإلزامية فمكث فيها خمس سنوات ، ولكن نفسه تاقت إلى حفظ القرآن . وحفظ القرآن عسير أو مستحيل فى تلك المدارس فصدف إلى كتاب القرية حيث جعل يجد فى حفظ القرآن إلى أن انتهى من حفظه وهو دون الثانية عشرة من عمره ، ثم نزح إلى دمياط حيث دخل معهدها الدينى وجعل يتفقه فى الدين ، ويتفهم أصول قواعد اللغة العربية ، ونال الشهادة الإبتدائية بعد أربع سنوات منذ دخوله المعهد ، وكان حينذاك أصغر طالب نال تلك الشهادة حيث كانت سنه لاتتجاوز السادسة عشرة . انتقل بعد ذلك إلى معهد الزقازيق الثانوى فنال منه الشهادة الثانوية بعد خمس سنوات ، وهنا كان قد فهم بعض جوانب الحياة حق الفهم وجعل ينظر إليها لا بعين الأزهرى الجامد الذى يقول : هذا ما وجدنا عليه أباءنا ، وإنما بعين الذى يريد أن يسير فيها بين اللامعين من بنيها ، الذين يفهمون دقائقها ، ويقفون على أسرارها ، ويعتقدون أن المجد للسباقين ، وأن البقاء للأصلح

وأن الدين ليس دين عقائد فحسب ، وإنما هو دين الحياة ، والسير فى مواكبها ، والويل لمن يتأخر عن الركب .

ماذا تظن بتلميذ تعلم فى مرحلتين من مراحل التعليم بالأزهر الفقه واللغة والتفسير والحديث والبلاغة وغير ذلك من العلوم التى تدور حول اللغة والدين إلا بعض الرياضة والتاريخ والجغرافيا وهذه مواد ليست من مواد الأزهر الأصيلة وإنما هى دخيلة عليه . أقول : ماذا تظن أن يتجه هذا التلميذ فيما يؤلف ؟ أظنك تؤمن معى كل الإيمان أنه لايتجه إلا إلى فصل من الفقه يوضحه ، أو آية من القرآن يفصل معانيها ، ويؤول ما تشابه منها ، أو ينحو نحو أولئك الذين يؤلفون فى قواعد اللغة ، لاشك أنك تظن ذلك ، ولكن التلميذ أحمد الشرباصى ، خرج على العرف ، وثار على التقاليد فألف (حركة الكشف) كتابه الأول ، فكانت نظراته إلى الحياة متقابلة مع نظرة أستاذه المرحوم الشيخ محمود أبى العيون الذى ألف أول فرقة كشفية ، وكان التلميذ أحمد الشرباصى ممن انتظموا فى سلكها ، وساعدوا على إنمائها .

ثم يأخذك العجب حينما تعلم أن أحمد الشرباصى يحاول أن يخلق الرياضة خلقا جديدا فى قريته (البجلات) فينشىء ناديا للرياضة هناك ، ويكون فريقا لكرة القدم تحت رياسته ، ويقوم برحلات كشفية ، وغير كشفية فى أنحاء القطر المصرى تنمى خياله ، وتفتق ذهنه ، كل ذلك ما كان يلهيه لحظة واحدة عن قراءة الكتب المختلفة ، قراءة الفاحص المستوعب ، ولغرامه الشديد بكل لون من ألوان المؤلفات كان يفضل شراء الكتب على الطعام والثياب .

ثم ينتقل الطالب أحمد الشرباصى إلى كلية اللغة العربية بالقاهرة ؛ فيظهر من النبوغ والذكاء ماجعله يتقدم على سائر أقرانه ، ويفوق على أترابه . فهو الأول فى كل عام ، ثم هو الأول فى الشهادة العالية وقد نال بذلك الجائزة المخصصة لمرتبة الامتياز الأولى ، ثم يدخل تخصص التدريس ليحصل منه — بعد سنتين — على شهادة العالمية ، مع إجازة التخصص للتدريس ، وكان ترتيبه الأول أيضا .

وبعد تخرجه عين أستاذا فى معهد الزقازيق الثانوى ، وبعد سنتين نقل إلى معهد القاهرة ، ثم أحس أولو الأمر أن له نشاطا معينا يبعث على الاضطراب فأبعدوه إلى معهد سوهاج حيث مكث شهرا أعيد بعده إلى القاهرة ليظل فيها حتى يقدم إلى الكويت فى بعثة هذا العام .

والشرباصى إذا به ينشر المقالات المختلفة فى الصحف والمجلات المختلفة ، مثل الأهرام ، والرسالة ، والإسلام ، والأزهر ، والشبان المسلمين ، والإخوان المسلمين ، والبعثة والرائد ، وغيرها من مجلات مصرية وعربية ، ونجده يلقى المحاضرات المختلفة فى الجمعيات الدينية والأدبية . ، ثم نجده يقوم برحلات خارجية إلى باكستان ، ولبنان ، وسوريا ، واليونان ، وتركيا ، والكويت ، وفى أغلب هذه البلاد لا يترك الداء الذى يلازمه دائما وهو المحاضرات ، فإنه كان يحل بالبلد نهارا ، وتسمع منه محاضرته الممتعة ليلا .

ولحضور بديهته ، واتقاد خاطره ، ومعالجته الأمور برفق وهوادة ، ولأثره الفعال فيما يلقيه من بليغ الأحاديث اختاره المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين ليكون ممثلا له فى مؤتمر الشعوب الإسلامية ، الذى عقد فى باكستان ، ثم اختاره المركز أيضا ليكون الرائد الدينى لجمعيات الشبان المسلمين .

وأحمد الشرباصى كان الأول فى التخصص ، وكان على وشك أن يرسل فى بعثة أزهرية ، إلى انجلترا ، ولكنه تنوسى لأنه كان يحارب عهد الفساد بقلمه كاتبا فى المجلات والصحف ، وبلسانه خطيبا مؤثرا فوق أعواد المنابر يهزها هزا عنيفا بصوته المجلجل المثير ، ووجد الطغاة أنه لم يكف عن رسالته فاعتقلوه سنة ١٩٤٩ حيث ألف فى معتقله ، كتابه « مذكرات واعظ أسير » وفيه تفصيل لما أصابه ، ثم ألف غير هذه المذكرات عدة كتب هى : حركة الكشف ـ محاولة بين صديقين ، سيرة السيدة زينب ، واجب الشباب العربى ، المحفوظات الأزهرية ، لمحات عن أبى بكر الصديق ، كلمة الإخلاص ، صفوة التصوف ـ فى رحاب الصوفية . محاضرات الثلاثاء ـ صلوات على الشاطىء ـ عائد من الباكستان ـ النيل فى ضوء القرآن . .

وهو يحب من الشعراء : المتنبى ، وأبا فراس ، وشوقى ، ومن الأدباء . مصطفى صادق الرافعى ، ومحمود تيمور ، وأحمد حسن الزيات .

وللشاعر المصرى محمود جبر ، شاعر الشبان المسلمين ، فى صديقه الشرباصى بعد خروجه من المعتقل من قصيدة عصماء :

بلغت بالعلم أوجا ليس يبلغه ... جهابذ العلم ، قلوا فيه أو كثروا
أراك نهرا جرى عذبا ، ومندفعا ... تروى الأولى وردوا ، أو من هم صدروا

ويقول تلميذه سعد الدين عمر محمد سعد ، من قصيدة طويلة :

لله أنت وقد سخرت بكيدهم   وأزحت عما كان شر نقاب
وأريتهم غضب الحليم بهمة   رسمت سطور المجد فى إسهاب
فاصبر على نوب الزمان بحكمة   واهنأ ، فللطاغين شر مآب

ويقول فيه الأستاذ أبو شوشه النحال من قصيدة رقيقة :

سارت لعودك فى البلاد نسائم   تشفى سقيما ، شاكيا وعليلا
حرستك عين الله من عين الذى   يرنو لمجدك ، حاسدا ، وعذولا

ومدح الشاعر محمد أحمد الخولى أستاذه الشرباصى بثلاث قرائد وجاء فى إحداهن :

فما أنت إلا كوكب يهتدى به   إذا ضل فى ليل الغواية جاهل
وما أنت إلا منهل العلم والنهى   وقد نضبت من مثل ذاك المناهل

وهناك قصائد لبعض الشعراء من تلاميذه وأصدقائه » .

(٤)

وقد كتبت عن الشرباصى فى مناسبات عديدة : ومن هذه المناسبات ظهور كتابه « مذكرات واعظ أسير » عام ١٩٥٢ ، حيث قلت :

صديقى أحمد الشرباصى صديق الصبا وزميل الشباب ، عرفته وأنا طالب فى معهد الزقازيق الدينى ، فعرفت فيه الخلق الطيب ، والأدب الجم ، والنهم العلمى الذى لا حد له ، والإقبال على القراءة إقبالا لا نظير له .

ثم زاملنى وزاملته فى كلية اللغة العربية ، فرأيت من فضله وأدبه ومخايل نبوغه الكثير ، أهدانى أول ما أهدانى كتابه « بين صديقين » فقدمته إلى القراء بكلمة نشرت فى صحيفة مسائية وظل بعد ذلك يهدى إلى كتبه ومؤلفاته ، كلما ظهر له مؤلف ، وظللت أنا أكتب عنها ، وأعرف بها القراء كلما سنحت لى فرصة ، وأنا دائب التقدير لهذا الاطلاع الشامل والانتاج الغزير .

ومنذ أسبوعين أهدانى صديقى الشرباصى كتابه « محاضرات الثلاثاء » فكتبت عنه كلمة لمجلة « المقتطف » .

وبعد ذلك بأسبوع أهدانى كتابه الجديد « مذكرات واعظ أسير » فعدت

إلى الكتابة عنه — وهكذا يأبى الشرباصى إلا أن يتعب أصدقاءه الذين يلاحقهم بانتاجه المتصل الذى لا يقف ولا يمهل ولا يبطىء أبدا .

وصديق الشرباصى خطيب ساحر، ومحاضر ممتع ، وكاتب موهوب ، وأديب جميل الأسلوب ، بليغ العبارة ، فياض المعانى . . وهذه المواهب الكثيرة يزينها خلقه ، وتعطرها شمائله ، وتسمو بها شخصيته الوديعة الهادئة المتزنة .

وللشرباصى خصوم وأصدقاء ، أما أصدقاؤه فهم مقدروا فضله وعلمه وأدبه وإنتاجه ، وأما خصومه فبعضهم من حاسديه وشانئيه الذين يطيل الشرباصى فى حسدهم ، لأنهم يقولون ولا يعملون ، ولا يسرهم أن يعمل الناس ، والبعض الآخر من الذين وهبوا الخمول ، إن كان الخمول يوهب ، فلم يسمع الناس بهم وعكفوا على أنفسهم ، وانطووا على تفاهاتهم ، فلم يسرهم أن يطير لأحد ذكر ، ولا أن يسير لعامل صيت ، وهؤلاء وأولئك لا يرضون عن الشرباصى ، وذلك من فضل الشرباصى الذى وهبه الله إياه .

وكتاب « مذكرات واعظ أسير » قصة حياة الشرباصى فى معتقل هاكستب ، وما سبق هذه الحياة من أحداث الارهاب والاعتقال الذى ساد مصر عام ١٩٤٩م ، والشرباصى يروى كل ذلك بأسلوب قصصى فريد ساحر . ويبدأ الشرباصى كتابه بتصديره بآيات من الذكر الحكيم ، ثم يلى ذلك إهداء فيه وفاء ، حيث يهدى المؤلف كتابه إلى ذكرى شهيد الوطن الإمام حسن البنا ، عليه رحمة الله ، ومع الإهداء صورة للشهيد الخالد . ثم يلى ذلك فاتحة المذكرات التى يبدأها المؤلف : « كيف أبدأ ؟ » ، فيأخذ فى تحسس الأسباب التى قد تكون هى السبب فى اعتقاله يوم الجمعة ١٥ أبريل ١٩٤٩ م ، ويصور حياته فى أيام الاعتقال حتى أفرج عنه يوم السبت ٣ سبتمبر ١٩٤٩ م . والكتاب حافل بشتى الإحساسات المرهفة ، والتجارب النفسية العميقة ، والتصورات الغالية البليغة ، والصور الساحرة الأخاذة ، وهو فريد فى نوعه ، وفى تصوير حياة الاعتقال وآلامه ، كما يشعر به الأديب اليقظ المرهف الإحساس ...

(٥)

والشرباصى مؤلف ممتاز ، وباحث جذاب الروح ، وكتبه التى أخرجها كان من حظها الشهرة والربوع والرواج .

كان الشرباصي يتوخى في مؤلفاته جمال الأسلوب ، وكنت أقول لو جمع الشرباصي إلى ذلك العناصر الضرورية للكتابة العلمية لكان رائعاً ، ولكن سرعان ما انطلق الشرباصي يؤلف على المنهج العلمي الحديث تآليف قيمة لها وزنها الأدبي والفكري .

ونحن في هذا المجال نسرد مؤلفات الشرباصي ، وهي : حركة الكشف - محاولة بين صديقين - نفحات من سيرة السيدة زينب - المخطوطات الأزهرية - لمحات عن أبي بكر - واجب الشباب العربي - النيل في ضوء القرآن الكريم - في رحاب الصوفية - تحقيق كلمة الإخلاص - صفوة التصوف - عائد من الباكستان - مذكرات واعظ أسير - محاضرات الثلاثاء - أيام الكويت - غربة الإسلام - أمين الأمة أبو عبيدة - من أجل فلسطين - القصاص في الإسلام - في عالم المكفوفين - مسرحية مولد الرسول - سيرة الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز (تمثيلية) .

وقد كتبت عام ١٩٤٠ كلمة عن كتاب بين صديقين جاء فيها :

.. يشق أدباء الشباب في الحياة الأدبية شقاء كبيراً ، ويجازون على جهادهم الأدبي أسوأ جزاء ، من عسف الحاقد ، ولذع الناقد ، واستهزاء شيوخ الأدب ورجالاته ، وسخرية صحف النقد ومجلاته . وفقـد روح الانصاف وحركة التشجيع ، بين الجمهور والخاصة .

.. وطالما وصد زعماء الحركة الأدبية الأبواب أمام أدباء الشباب ، وحالوا بينهم وبين أداء رسالتهم . وتنمية ملكتهم وتوطيد مكانتهم . وضنوا عليهم بكلمة عطف . أو إيماءة تشجيع . كأن أدباء الشباب سيقاسمونهم ألقابهم وثروتهم . وسيستبدون دونهم بالعبقرية والخلود .

في الغرب يجد الأديب الشاب من يوجهه في حياته الأدبية ، ويساعده في جهاده الأدبي ، ومن يقدمه إلى القراء ويضفي عليه ظلال الشهرة .

وفي مصر ما فيها مـا يثير الحسرات ، ويهيج العبرات فمتى تبدو على المجتمع المصري دلائل القوة والنهضة والرقي ؟!.

لم ييأس الشباب ، ولن ييأس فإنه لا ييأس من روح الله شاب طموح .

وما زال أدباء الشباب يشقون طريقهم المحفوفة بالأهوال والمآسي ، واثقين بأن أدب القوة والخلود سينال نصيبه من النصر المؤزر ، والفوز المبين .

وإن نعجب لبطولة الشباب فعجب هذا الأديب الشاب الذي ما زال يتهدى

فى بدء حياته الادبية ، ويسير على مشكاة من الامل والعزم فى مفاوز الحياة المظلمة الساخرة .

فذلك ثالث كتاب لهذا الاديب ، يخرجه وطيد الثقة بأدبه ونتاجه ، نبيل الدعوة إلى ما تجيش فى صدره من معان كريمة وروح مصلحة ثائرة .

ولروح الأديب « أحمد الشرباصي » شخصية قوية ، تظهر فى آثاره الأدبية ، ورسائله الاجتماعية ، فهى متحفزة للجهاد فى سبيل الإصلاح الاجتماعى والخلق والأدبى والدينى والسياسى ، متوثبة فى الدعوة إلى هذا الإصلاح ، قوية الثقة بفوز الشباب فى هذا المضمار الكريم .

ومن ثم مثل أدب « الشرباصى » أدب القوة والرجولة ، ففيه ثورة على أوضاع الحياة الاجتماعية والخلقية ، وفيه دعوة إلى أكرم الفضائل ، وأنبل المثل ، وفيه تعزيز الروح الدينية ، وإعزاز لشأن الدين ، وفيه ما فيه من ميزات لها مالها من آثار .

ويعبر عن روح هذا الأديب وأدبه كتابه الجديد « بين صديقين » أصدق تعبير ، ويصورها أتم تصوير .

فهو رسائل نبيلة بين صديقين كريمين ساغها الأديب بأسلوب قصصى ساحر أولى فيها الحياة الاجتماعية بالدرس والنقد ، ووصف أمراضها وعلاجها . وتحدث عن الدين والأدب والوطن والمرأة والشباب حديث الاجتماعى البارع ، والأديب المطبوع . ودعا فيها الشباب إلى العمل على النهوض بهذا الوطن العزيز من النواحى الادبية والخلقية والدينية والسياسية :

لم ينح الأديب فى كتابه نحو الخيال البعيد عن الحياة الواقعية ، كما ينحو كثير من الأدباء ، بل استجلى حقائق الاجتماع ومظاهره ، فكان أدبه ممثلا الاصلاح الاجتماعى الذى يجب أن يدعو له كل كاتب وشاعر يروم السيادة للاسلام ، والقوة للمجتمع ، والعزة للأمة .

وأسلوب الأديب أسلوب كاتب اجتماعى بليغ فيه حسن الأداء . وجمال اللفظ . وسحر العبارة . وسمو الفكرة .

وقد كانت كل هذه المظاهر الجميلة فى أديبنا الشاب حافزا لزملائه الأدباء على إقامة حفلة تكريم له . فكان ذلك مظهرا جميلا لإنصاف الشباب وتقديرهم .

أقول : إن الأديب الشرباصى كاتب اجتماعى . وأديب بليغ . وله روح ثائرة مستقلة ، تفنى فى الدعوة الى المثل الكريمة « والغايات الرقيعة »

(٦)

وتتسم حياة الشرباصى كلها بالطموح والأصل والكفاح ، وعندما نحاول تسجيل أطراف من حياة الشرباصى ، فذلك لأن فيها قدوة للشباب اليوم ، ولأنها ليست ملكا للشرباصى ولا تخصه وحده ، وقد يكون من العسير الإحاطة بجوانب حياة الشرباصى كلها ، ولكنى أسجل فى إيجاز ما أستطيع تسجيله منها .

هناك هناك بعيدا عن المدنيـــة المصنوعة ، والمظاهر الكاذبة ، والضجيج الذى لا ينتهى .

هناك فى قرية من قرى الريف الريف المصرى الوادع الجميل المتناثر على ضفاف الوادى .

فى (البجلات) من مركز دكرنس من مديرية الدقهلية ، ولد الطفل الصغير (أحمد الشربينى جمعة الشرباصى) من أبوين من كرام أسر الريف وأثريائها ، فى اليوم السابع عشر من نوفمبر عام ١٩١٨ .

وفرح الأب ، وفرحت الأم ، وفرحت الأسرة كلها بميلاد طفلها الوليد ، وسهرا على تربيته وتنشئته وإعداده ليكون شابا نافعا لأسرته ووطنه .

ومن الريف المصرى تنبثق القوى المحركة لمصر كلها ، وبسواعد شباب الريف ، تقوم الزراعة ، وتنهض الزراعة ، وينمو الاقتصاد ، وتتحرك أعمال الدولة إلى الأمام دائما .

ومن أعمال الريف فى مصر تولد المواهب ، وتنشأ العبقريات ، وتستمد مصر سلالات مشحوذة بالكفاية والنبوغ والطموح ، وكلما صدئت حياة المدن ، وقتلها الفراغ وعدمت الموهبة ، وافتقرت إلى الذكاء وأفسد العقول فيها ضجيج الآلة ، وسوء العيش ، وظلمة المال ، وطغيان الرأسمالية ، وديكتاتورية أصحاب العمل ، كلما تهلل وجهها باستقبال الوفود الساعية من أبناء الريف الزائغة أبصارهم حول أضواء المدينة ، والحائرة قلوبهم ونفوسهم فى توفير أسباب العيش لهم فيها ، إن الحياة فى المدينة تنتهى حتما إلى الفساد والترف وتقتل فيها المواهب ،

وتنعدم فيها القوى المفكرة المبتكرة ، وكلما شاخت المدينة واعترى حياتها الفكرية والحضارية الجدب والعوز والضعف ، كلما طرق أبوابها شباب الريف ، يأخذون دورها فى الكفاح فيها ، ونضال الحياة فى طرقاتها ، فيجددون ماذوى من شباب المدينة ، ويحيون الربيع فى أنفاسها وحياتها ، ويكافحون فى سبيل خلق العقل المصرى المكافح الصبور المتميز بالذكاء والأمل والطموح .

ترى لو لم يوجد الريف بجوار المدن . ولو لم تخلق القرية بجانب العاصمة والمديرية والمركز ، ماذا كان يعتور حياتنا من انحلال وفساد ؟

ما أصدق شوقى فيما يقول من قصيدته المأثورة فى الأزهر الشريف يخاطب بعض الملوك :

والله ما تدرى لعل كفيفهم   يوما يكون أبا العلاء المبصرا

لو تشتريه بنصف ملكك لم تجد   غبنا ، وجل المشترى والمشترى

وإذا كان حديث شوقى عن شباب الأزهر ، فانى أنقل البيتين هنا إلى الحديث عن شباب الريف ، لأن أكثر شباب الأزهر هم من أبناء القرية ، ولأن الحديث هنا عن القرية المصرية .

إن الريف فى مصر هو موطن النبوغ ، وملاذ المواهب ، وبيئة العبقرية ، وهو الذى يغذى الوطن كله بكبار زعمائه وأبطاله ؛ فمنه خرج محمد عبده والظواهرى والمراغى وإبراهيم حروش ومأمون الشناى وعبد المجيد سليم ، ومنه خرج سعد وطلعت حرب وجمال عبد الناصر وغيرهم من أبطال مصر وعلمائها .

وفى الريف يكدح الفلاح المصرى ليزرع الأرض ويعيش من ثمارها ، يحيط به الظلام والظلم والفقر ، مما يترك أثره على أبناء القرية ، أبناء الفلاح المصرى المكدود المسكين .

ولكن أبا (أحمد) كان من الملاك ، ملاك الأرض ، الذين يصيبهم الفقر والغنى ، ولكنهم على أية حال يعيشون عيشة كريمة عزيزة فيها ألوان النعمة والغبطة والسرور والقناعة أيضا .

ونما أحمد ونشأ ككل شباب القرية ، ثم وفد مع المحظوظين منهم إلى « كتاب

القرية الذي استحال إلى مدرسة إلزامية فيما بعد ، يتعلم الأطفال فيها مبادىء الكتابة والقراءة والحساب ويحفظون بعضا من القرآن الكريم .

وفى هذا الجو قضى أحمد خمس سنوات ثم حفظ القرآن الكريم ، وهو لما يبلغ الثانية عشرة من عمره ، وأهله حفظ القرآن الكريم لدخول الأزهر كعبة العلم والدين فى العالم الإسلامى .

إن الشباب فى القرية محروم من الرعاية والتوجيه ، ومن كل أسباب الحياة الكريمة ، ولكنه يستمتع بالحياة ويلهو بها ، فى غير حرج ولا إثم ، ويلعب فى حارات القرية الضيقة ، وبين الحقول الخضراء فى براءة ووداعة وطهر منبعث من الأعماق .

والشباب الذين يؤهلون للتعليم يذهب بعضهم إلى الأزهر ، وآخرون منهم إلى المدارس المدنية ، وكان حظ الشرباصى أن يعد لدخول الأزهر الشريف .

وفى عام ١٩٢٩ ذهب الشاب الصغير أحمد إلى دمياط الجميلة لتلقى العلم فى معهدها الدينى الابتدائى

ومعهد دمياط كان من أشهر المعاهد الدينية التابعة للأزهر الشريف ، وأبناؤه دائما فى طليعة الشباب الأزهرى نبوغا وذكاء وأدبا ، ومن معهد دمياط تخرج كثير من العلماء والأدباء والكتاب ، ومن بينهم محمد الأسمر رحمه الله ، وحسن جاد ، وطاهر أبو فاشا وسواهم

وفى المعهد الدينى تلقى الشرباصى ثقافات مختلفة من التفسير والحديث والفقه والنحو والصرف والحساب والتاريخ وسواها ، وأكمل الشرباصى عام ١٩٣٤ دراسته فى معهد دمياط واتجه بعد ذلك إلى معهد الزقازيق الدينى الثانوى يكمل دراسته الأزهرية فيه

وبين عامى ١٩٣٤ و ١٩٣٩ عاش الشرباصى فى مدينة الزقازيق ، يتعلم فى معهدها الدينى الثانوى ، ويتلقى ثقافات واسعة فى الفقه والتفسير والحديث والأدب والبلاغة والنحو والصرف والتاريخ والكيمياء والطبيعة والجغرافيا والنبات والحيوان والحساب والهندسة والجبر وسواها

وفى مدينة الزقازيق أسهم الشرباصى فى الثورة الأزهرية التى كانت تناوىء

عرش الملك فؤاد ، وتنادى بانفصال الازهر عن تبعيته لأهواء الملوك ، وتطالب باستقالة الشيخ محمد الاحمدى الظواهرى .

وأسهم كذلك فى الحركة الوطنية التى انبعثت من الشعب والشباب المصرى عام ١٩٣٠ منادية بتحطيم الاستعمار ، وجلائه عن مصر .

وظهرت مواهب الشاب أحمد الشرباصى المبكرة ، فألف عام ١٩٣٦ كتابه (محاولة) وفى عام ١٩٣٧ ألف كتابه (حركة الكشف)

وأخذ الشرباصى يكتب ويرسل إلى الصحف والمجلات بآرائه وكتاباته فتنشرها .

كل ذلك وهو المحبوب من أساتذته والمرموق من زملائه بنظرات التقدير والمودة والاجلال وكان شيخ المعهد فى الفترة حينذاك هو الشيخ محمود أبو العيون رحمه الله وكان يحب من هذا الشاب الموهوب جده وذكاءه وأدبه .

وفى عام ١٩٣٩ انتهى الشرباصى من دراسته فى معهد الزقازيق الدينى الثانوى بتفوق كبير والتحق بكلية اللغة العربية إحدى كليات الازهر الشريف

ووفد الشرباصى إلى القاهرة عام ١٩٣٩ حيث التحق بكلية اللغة العربية ، وحيث اتسع أمامه مجال التفكير والعمل والكتابة وحيث الصحف والمجلات مفتوحة الابواب

وفى العام نفسه أخرج الشاب أحمد الشرباصى كتابه الثالث « بين صديقين » الذى قدره الكتاب وكرمه من أجله الادباء

وقضى الشرباصى ستة أعوام طويلة فى التعليم الجامعى بالأزهر الشريف . ستة أعوام قضى منها أربعة فى دراسته فى الكلية ، وعامين فى دراسته فى تخصص التدريس ، وهو أحد أقسام الكلية .

وتخرج الشرباصى من كليته متفوقا على زملائه تفوقا كبيراً ملحوظا .

وعين الشرباصى اثر تخرجه عام ١٩٤٥ أستاذا بمعهد الزقازيق الدينى ، واضطلع بمهمته فى تثقيف الشباب ، وتعليمهم وتهذيبهم وتربيتهم ، وتنشئتهم نشأة دينية كريمة .

وفتح الشرباصى المجال الضيق أمام كثير من تلامذته من شباب الأزهر ، وأغدق عليهم عطفه وبره وحنانه .

ونقل الشرباصى إلى القاهرة واستقر مقامه بها .

وتولى الشرباصي الخطابة الدينية في كثير من الجمعيات والأندية والمساجد .

ثم استقر به المطاف إلى أن يصبح خطيب الجمعة في مسجد المنيرة المشهور ، فكان يفد إلى هذا المسجد الكثير من الشباب والعظماء والشعب لسماع الشرباصي يخطب فوق منبر هذا المسجد الشريف .

وفي عام ١٩٤٩ في عهد وزارة إبراهيم عبد الهادي (باشا) ، وأثناء محنة الإخوان المسلمين ، اعتقل الشرباصي وقضى في المعتقل عدة شهور أفرج عنه بعدها ، وصور لنا حياة الاعتقال في كتاب قيم ممتع هو (مذكرات واعظ أسير) فيه ذكريات شجية جديرة بالمطالعة .

والشرباصي مع ذلك كله عضو في كثير من الجمعيات الدينية والأدبية والاجتماعية ، ينظم ندوات في بعضها ، ويلقي محاضرات في بعضها الآخر ، ومنها العشيرة المحمدية والهداية الإسلامية ، والرابطة الإسلامية ، وجبهة علماء الأزهر ، وسواها .

وكرس الشرباصي جهوده كلها متطوعا في ميدان جمعية الشبان المسلمين فكان ولا يزال حتى اليوم الرائد الديني لها :

وصلة الشرباصي قديمة بالشبان المسلمين ترجع إلى عام ١٩٣٩ ولكن هذه الصلة لم تتوطد إلا بعد ذلك بزمن طويل ، وسنتحدث عن نشاطه فيها في فصل آخر .

نظم الشرباصي في الشبان المسلمين سلسلة محاضرات الثلاثاء ، وكان هو الذي يقوم بإلقائها .

وفي ٦ أكتوبر ١٩٥٢ ذهب الشرباصي بالطائرة إلى الكويت مبعوثا للأزهر حيث قضى في ربوعه هذه البلاد عاما دراسيا هو عام ١٩٥٣ ، أستاذا بالمدرسة المباركية الثانوية ، وعاد الشرباصي بعد هذه الرحلة بالطائرة إلى القاهرة وطنه الحبيب ، في ١٠ يونيو ١٩٥٣ ، وكان من ثمرة ذلك كتابه الضخم القيم « أيام الكويت » الذي يعد أعمق دراسة لحياة الكويت المعاصرة ، ولتاريخها القديم ،

وكان خير سفير لمصر في الكويت ، وأجل أستاذ زائر شهدته هذه البلاد ، وعاد إلى القاهرة يواصل جهاده وجهوده ، وما زال يواصلهما حتى اليوم .

أديب من فلســـطين

(١)

ونعنى به الأديب الفلسطينى «كامل السوافيرى» ، صاحب الأسلوب الممتع ، والآراء الناضجة ، والدراسات الخصبة ، والذى وقف نفسه على التعريف بالأدب الفلسطينى ، والتنويه بأعلامه ورواده ، والذى كافح من أجل قومه ووطنه وعروبته ، ومن أجل اللاجئين من أبناء بلاده «فلسطين» الشهيدة ، كفاح الأبطال .

ولد فى قرية السوافير من أعمال مدينة غزة حاضرة القسم الجنوبى من فلسطين فى السادس من نوفمبر سنة ١٩١٧ وإلى قريته ينتسب واسمه فى سجلات وزارة التربيــة والتعليم كامل صالح محمود ، والسوافير قرية يبلغ عــدد ســكانها ٣٠٠٠ نســمة ، وتقع فى منتصف الطريق الزراعى بين غزة ويافا ، وهو الطريق الذى تمر به السيارات بين المدينتين ، وتبعد عن البحر الأبيض بما يقرب من عشرة كيلو مترات ، وقد نهبتها إسرائيل ضمن القرى الفلسطينية التى استولت عليها ، وفى مدرسة السوافير الابتدائية تلقى دراسته الأولى ، وزوده والده — وهو أحد علماء الأزهر الشريف — بقسط من علوم اللغة العربية وحببها إليه منذ نعومة أظفاره ، وعندما أنهى المرحلة الابتدائية أرسله للأزهر الشريف مؤملا أن يكون عالماً مثله .

وقضى فى الأزهر فترة من الزمن أنهى خلالها تعليمه فى القسمين الابتدائى والثانوى ، وعاد إلى فلسطين سنة ١٩٣٣ ، فعمل مدرسا بإدارة المعارف فترة ، ثم اختاره المجلس الإسلامى ليكون واعظا عاما لقضاء الرملة فنهض بوظيفة الوعظ على خير وجه وسخر لسانه وقلمه لإشعال الروح الثورية فى البلاد ، والدعوة لمحاربة الاستعمار والصهيونية ، وبذل الأرواح والأموال دفاعا عن فلسطين وعندما قامت الثورة الفلسطينية الكبرى سنة ١٩٣٦ ، كان أحد الشباب

الذين أضرموا نارها وسعروا أوارها ، مما جعل حكومة الانتداب تقرر فصله من وظيفته واعتقاله وإبعاده عن فلسطين .

وفى سنة ١٩٣٩ وفد إلى أرض الكنانة مع أحرار بلاده الذين صبت عليهم بريطانيا جام غضبها وتلقته مصر العربية المضيافة بصدر رحب مع زملائه من الفلسطينيين المجاهدين الذين قدموا لوطنهم جهدا يسيرا من واجباته عليهم .

ونشبت الحرب العالمية الثانية ، وتلبد الجو السياسى بالسحب فقرر أن يتم دراسته التى كان يصبو إليها والتحق بكلية دار العلوم ليشبع فى نفسه الرغبة الطاغية للأدب العربى واللغة العربية ، وقضى بها أربعة أعوام حصل فى نهايتها على ليسانس فى الآداب سنة ١٩٤٥ ، ودخل بعد ذلك معهد التربية العالى للمعلمين ، وقضى به عامين نال فى نهايتهما إجازة التدريس سنة ١٩٤٩ ، وعينته وزارة التربية أستاذا للغة العربية فى مدارسها الثانوية بالقاهرة ولايزال يقوم بالتدريس .

(٢)

بدأ حياته الأدبية أثناء وظيفته فى فلسطين ، فكتب مقالات فى الأدب والاجتماع والدين نشرت فى صحف الجامعة العربية وفلسطين والدفاع . وأثناء دراسته فى دار العلوم أسهم فى الميدان الفكرى بقسط ضئيل فى صحف مصر كالأهرام والبلاغ .

ولكن نشاطه الأدبى ظهر بصورة واضحة سنة ١٩٤٨ ، إذ فجرت نكبة العرب القومية فى فلسطين ، فى نفسه ينابيع الأدب والفن ، عندما شاهد أبناء بلاده وفيهم قومه وعشيرته وأهله يرغمون على ترك أوطانهم وديارهم ، ويتشردون تحت كل كوكب ، ويهيمون على وجوههم فى أقطار الأرض ، يطاردهم الجوع ، ويلاحقهم البؤس ، ومنذ ذلك الحين أرسل صيحاته القوية فى دنيا العرب داعيا للوحدة والتضامن وجمع الكلمة ، وتوحيد الصفوف ، ونبذ الخلافات لتتجلى وحدة الأمة العربية فى جميع الميادين .

ولما كانت القوة المادية من ناحية تعوز الدول العربية ، والإيمان القومى يعوز بعض الحكام يومئذ ، فقد دعا فى مقالاته إلى القوة والتربية العسكرية والتسلح ، وإنشاء مصانع للذخيرة فى كل بلد عربى وتوحيد الجيوش العربية بعد توحيد الثقافة والاقتصاد والتشريع لتتمكن هذه الجيوش العربية الموحدة من الأخذ بالثأر ممن سلبوا منها قطعة عزيزة من الجسم العربى وغسل العار الذى لحقها بعد الهزيمة فى فلسطين والانتقام من إسرائيل وممن خلقوا إسرائيل وجعلوها شوكة فى جسم الامة العربية وصنيعة لهم ، وأداة يسخرونها لمصالحهم . وظهرت له فى هذا المجال عشرات المقالات التى نشرت فى مجلة الرسالة للأستاذ أحمد حسن الزيات والثقافة التى أصدرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر ، والكتاب التى أصدرتها دار المعارف ، والأديب والآداب اللبنانيتين ، والعرفان السورية وغيرها :

ومن المقالات التى نقدمها كامثلة :

(١) أدب الثورة والكفاح (٢) عبد القادر الحسينى (٣) اللاجئون (٤) القوة فى نظر الإسلام (٥) التاريخ العربى والدعوة إلى كتابته من جديد (٦) فلسطين فى هيئة الأمم المتحدة (٧) مصر والجامعة العربية (٨) كيف تسترد فلسطين (٩) الغرب والعلم (١٠) وعد بلفور .. وقد تناول فى مقالاته فنون الأدب فكتب المقالة والقصة والبحث ـ والنقد .

وقد وجه عناية خاصة بالنقد الأدبى القائم على أسس ومناهج ، فنقد كثيراً من الدواوين الشعرية والقصص والمسرحيات والكتب وكأمثلة نقدم الدواوين الشعرية التى نقدها :

(١) وحدى مع الأيام للشاعرة فدوى طوقان (٢) اللحن الباكى للشاعرة جليلة رضا (٣) عبير الأرض للشاعر فوزى العنتيل (٤) المشرد للشاعر أبى سلمى ومن المسرحيات التى نقدها : شعب الله المختار للأستاذ على أحمد باكثير .

ومن القصص الطويلة التى درسها دراسات نقدية الحب المحرم للسيدة وداد السكاكينى .

ومن الأقاصيص التى نقدها حصيد الرحى تأليف غائب طعمة قزمان.

ومن الكتب (١) أعلام الأدب فى عصر بنى أمية تأليف محمد عبد المنعم خفاجى .

(٢) نماذج فنية من الأدب والنقد للأستاذ أنور المعداوى .

(٢) مصادر الشعر الجاهلى للدكتور ناصر الدين الأسد... ولقد عرف بشعراء فلسطين وكتابها قبل النكبة وبعدها ، وأبرز خصائص الأدب الفلسطينى فى فنونه المختلفة ولم يترك علما من أعلام الفكر والبيان فى فلسطين، ولا شاعرا دون أن يفرد له بحثا . فتحدث عن النشاشيبى والسكاكينى وطوقان وعبد الرحيم محمود وغيرهم . ومن آرائه فى الأدب :

١ — « جدير بالكتاب أن يقودوا أممهم إلى ضعاف الحرية بعد أن تحطم أغلال الاستعباد بما ينفثونه من أدب واع يدفع للمجد ، ويدعو للذة ويحارب الاستعمار » .

٢ — نحن نحارب القيود التى تكبل الفن ، والاصفاد التى تقيد الأدباء ، ويبقى الأدب حرا طليقا من إسار الحكم ، وتحكم الأحزاب » .

٣ — لكل أديب حر رسالة ، ورسالة الاديب هى رسالة الحياة وللحياة قيودها الاجتماعية والخلقية ، ولا معنى للحرية التى تجعل الاديب ينساب مع خياله ولو كان طائرا « أومع عواطفه ولو كانت سقيمة أو مع نزواته ولوندت عن الخلق والفضيلة لان هذه الحرية فى نظرنا ليست إلا فوضى فنية نعيذ منها الأدب.

٤ — إنى أتهم الادباء الذين عاشوا فى أبراجهم العاجية منطوين على أنفسهم لا يحسون بإحساس الامة ، ولا يشاركون المجتمع آلامه وآماله بالتنكر لأمتهم ، والتجافى عن مجتمعهم إذ جعلوا أدبهم مرآة تنعكس على صفحتها حياتهم الخاصة ، الامر الذى دعا الامة إلى الانصراف عن ذلك الادب الذى لم تجد فيه شخصيتها .

٥ — نريد أن نقضى على أدب التدهور والانحلال الذى يخدر الشعب ويهدهد غرائزه ويصور له الحياة دعة وأمنا لا شقاء فيها ولا كفاح، ونحل محله أدب القوة والعزة الذى يمجد الوطن ويثور على الظلم ويدفع للتحرر ويحطم الاستعمار.

ومن آرائه فى النقد.

١ — الشعر فى نظرنا تعبير صادق عن خطرات النفس وخلجات القلب وهمسات الروح وتصوير بارع للانفعالات والعواطف والأحاسيس فى إطار من البيان المشرق، واللفظ الموحى، وكل من عبر عن نفسه وصور مشاعره فى هذه الحدود فهو شاعر، سواء أكان انفعاله مرتبطا بذاته أى داخليا، أو مرتبطا بموقف اجتماعى أو سياسى أو وطنى، أو خارجيا.

٢ — لا يعتمد الشعر على مضمونه وحده بل لا بد من رعاية الخصائص الجمالية التى لا يعتبر الأدب بدونها أدبا، وكثير من الشعر المعاصر كان هابطا من الناحية الفنية على الرغم من ارتباط مضمونه بمواقف بطولية ووطنية.

٣ — على الشاعر الحر أن يعيش لمصره وليستلهم الأحداث التى تمر بوطنه وأمته، ويبعث فيها روح الكفاح والنضال لتنطلق فى طريق الحرية.

(٣)

وللأستاذ السوافيرى كتب عديدة لا تزال مخطوطة، منها:

١ — موقف الشعر العربى الحديث من محنة فلسطين - رسالة ماجستير، وستناقش قريبا.

٢ — الشاعر الوفى (ابن حمديس الصقلى).

٣ — ألوان من النقد الأدبى، ومن بحوثه: دراسات عن الرمزية والسريالية، والكلاسيكية والرومانسية، ومذهب الفن للفن، ونقد للكثير من الدواوين والكتب والقصص والمسرحيات.

٤ ـ شعراء فلسطين : وممن تناولهم بالدراسة فى هـذا الـكتاب : إبراهيم طوقان ـ فدوى ـ إبراهيم الدباغ ـ أبو سلمى ـ عبد الرحيم محمود ـ يوسف الخطيب ـ هارون رشيد .

(٤)

وقد فاز عام ١٩٥٧ بجائزة صحفية من جريدة المساء ، وطلبت الجريدة منه أن يقدم نفسه للقراء فكتب إليهم يقول : بعنوان « الجائزة التى هبطت على من السماء » :

« لست من المتحمسين لعرض يومياتى لان اليوميات إن لم تستعمل العامية فلغتها قريبة من العامية وهـــذا فى نظرى ثوب مبتذل لا يجمل بالانسان أن يخرج به على الملأ

إن لغة الضاد هى الزى الرسمى اللائق الذى يتزيى به الشرق الاوسط كله ، وإن الـكلمة العامية وهى تنحشر بين سياق رصين لتبدو كاللطخة فى الثوب النظيف ولولا الجائزة الثانية التى نلتها فى استفتاء المساء لما انزلقت قدمى .

قد يكون لى عذرى فى مذهبى هذا . . لانى خريج الازهر ودارالعلوم ، ولانى مدرس لغة عربية ، ولانى قبل هذا كله مواطن عربى من فلسطين ، مارست العربية تلميذا ومدرسا فى مصر ؛ وواعظا فى بلادى قبل أن تمتد إليها أيدى ، الدنس من أبناء صهيون .

كان فى سوافير من أعمال غزة فى يوم ما أهلى وعشيرتى . . ولـكنهم تفرقوا « أيدى سبأ » . . كانت الضربة قاصمة فتناثرنا كالشرر فى كل اتجاه لا لنخبو ونضيع ، بل لنحمل روح المأساة العربية دامية أمام كل عين .

بالأمس كانت أرضنا تزرع للنفوس السلام . . واليوم تندس فى كل شبر منها الغام وألغام . بالأمس كان التشرد يحمله الافراد ومنذ أن خرجنا من أرضنا وللتشرد علم يرتفع بين الأعلام :

كنا هناك وراء غزة منذ آلاف السنين نرقب الشمس وهى تجفف محصولنا وتخدد ثمارنا . . واليوم لا ترقب ولا شمس ولا ثمار . . لأن بعضنا قد امتصته

قصة تشرده هو ولم تخلف فيه ما يطرحه هناك وراء غزة ، والبعض الآخر قد أحاطه بجاحه بسياج من الترف يردكل خواطره إليه .

وأنا أين أضع نفسى من هؤلاء . . كنت أفكر طيلة خمسة عشر عاما إلى أن زرت غزة سنة ١٩٥٤ ، وجاوز القطار العريش إلى رفح ، وامتلأت خياشيمى بنفحات أرضى . وصافحت آذانى لهجات قومى . .

الأطفال أصبحوا كبارا . . والشعر الفاحم أمسى رمادا . . رأيت قسمات فلسطين بعد خمسة عشر عاما . . رأيت أخاديد الأسى وحفر الألم تصرخ على كل وجه . . ورأيت من خلال حبة من الدمع أيامى فوق هذه الأرض ،

كان عملى التجول . . تجول للتجميع والتكتيل . أدور بين ١٥٠ بلدا ، وكان مقرى الرملة . . كنت واعظا آمر بالمعروف وانهى عن المنكر . . أمضى كالبستانى أهذب وأشذب ، إلى أن قامت الثورة سنة ١٩٣٦ . . فتغير كل شيء .

كانت الشرارة الأولى خطبة القاها عز الدين القسام ، اعتصم هو ومصلوه على أثرها بالجبال المجاورة لحيفا . نعم لقد اندلعت الشرارة الأولى من المسجد وتبعتها شرارات وشرارات من المساجد كلها وهكذا تحول وعظنا إلى شرارات ونيران وبنادق ورصاصات وقنابل تخفى وتوزع فى الطواف ، وطوابير وفصائل للشباب ومعسكرات . وكلمات ملتهبة وأسرار مطوية .

ظلت الثورة مندلعة ثلاث سنوات . ولم يطفئها إلا التدمير الكلى الذى ووجهنا به . . كانت القرية التى ترتفع فى سمائها أصداء الرصاص تمحى من الوجود .

كانت الدماء والدمار والخراب والظلمات . . هى معين حياتنا .

ثم تعقبت الحكومة الانجليزية الوعاظ . . فلم أر لى وجهة اتجه إليها سوى مصر . . مصر التى جئتها فى الثانية عشرة طالب علم حيث ضمنى رواق الشوام بالأزهر . . لست بالغريب عنها ، فهى وطنى صغيرا وكبيرا .

ومع عشرات من الإخوان المشردين عشنا بين مد وجزر من الآمال والآلام ، حتى ظهر الحاج أمين الحسينى واعترفت بنا الحكومة لاجئين سياسيين وصرفت لنا بعض المرتبات . . وطالت المدة وقامت الحرب الثانية ، فتجمدت قضية بلادنا وتحرجت أمورنا ، وعولت على أن اشق لى طريقا بين هذا الشظف الذى يطمسنا ويطمس فلسطين . . فتقدمت إلى دار العلوم .

وفى غرفة خشبية فوق سطح بيت فى قلب زقاق أعمى من أزقة السيدة زينب ، وضعت حياتى الخاصة . . وكان البرد المتجهم يشاركنى غرفتى شتاء ، والحر المتهالك يسكن معى صيفا .حتى تخرجت فى معهد التربية وعينت مدرسا ، فبدأت أعيش كما يعيش الناس ، بدأت أجنى ثمارا للضريبة الفادحة التى ظللت أدفعها من معدتى وأنفاس خواطرى . خمسة عشر عاما أو يزيد . .

ولكن خاطرا خافتا يتأ لب هناك بعيدا فى أحلامى يسر إلى بهذا السؤال : هل من حقى ان استجيب لهذا الاستقرار والرغد الذى أعيش فيه . . وهناك وراء غزة وحولها وفى الأردن وفى كل مكان . عيون كفتحات المغاور تتحرك فى بلاهة فوق أفواه نسيت ألوان الطعوم ؟ . أمن حقى وقد أصبحت مصريا أن أعيش كما يعيش كل مصرى . . وبلادى تئن وتتوجع تحت أقدام أبناء صهيون .

ووراء هذا الخاطر سافرت إلى غزة سنة ١٩٥٤ ، ومن عينى إحدى بنات عشيرتى هناك رأيته يطل على ، ويستحثنى ، حتى صحبتها معى زوجة تشاركنى حمل هذا الخاطر وتشاركنى ما فى حياتى من استقرار .

صحيح أنى أستطيع عمل الكثير داخل نطاق المدرسة . . أستطيع أن أغرس فى هذه الأرض البكر القابعة فى نفوس تلاميذى . . كل نبات طيب ، وأن أحمل كلماتى وموضوعاتى خير ما يحمل البشر ، وأن أحصد من كراساتهم أشهى الثمار . . ولكن تلال الكراسات التى تسمرنى كل ليل ، تطمر الينبوع الذى أستقى منه ، وتعكر المياه الضحلة المتبقية .

والآن أرانى أشاور عقلى فى اليوميات ، كما أشاوره أيضا فى هذه الجائزة التى هبطت على من « المساء » . . ولا أزال فى حيرة لاأقطع برأى ، حتى يرى العرب رأيهم فى فلسطين .

(٥)

ويقول السوافيرى من مقالة له بعنوان (أدب الثورة والكفاح) ، نشرتها له مجلة الرسالة : « إن الحرب بين العرب والاستعمار ليست وليدة اليوم . وليس الصراع بين الشرق والغرب ابن عامه هذا ، ولكنه صراع بدأ بعد الحرب العالمية الأولى منذ انتصر الحلفاء ، فقسموا الشرق العربى بينهم ، وجزأوه إلى دويلات

ضعيفة لاتستطيع النهوض حتى يتمكنوا بذلك من استعمارها أكبر مدة من الزمن . ولكن الصراع ليس صراعا سياسيا فحسب ، بل هو صراع دينى واجتماعى قبل أن يكون صراعا سياسيا ، إنه صراع المبادىء والأفكار ، وصراع النفوس والقلوب. ولا بد أن تتضافر الجهود وتتعاون القوى ليخرج الشرق من هذا الصراع مرفوع الرأس وضاح الجبين .

ولقد راعنى أن يكون الأدب بمنأى عن هذا الصراع الحاد الذى يندلع لهيبه يوما بعد يوم . وكم أسفت حين تطلعت فرأيت الفن لايسهم فى هذه المعركة بين الشرق الإسلامى والغرب ، أو بين المسلمين والمستعمرين ، وللأدب نفوذه وسلطانه ، وللفن عرشه وصولجانه ، وللأدباء فى الأمة المكانة السامية ، والمنزلة العالية ، هم النجوم التى ترشد السارين إذا اكفهر الجو وأظلم الأفق ، وهم المصابيح اللامعة التى تهدى الضالين إذا تشعبت السبل ، وتعددت المسالك .

إنى لاأريد أن أتهم الأدباء بأنهم تنكروا لأمتهم ، وتجافوا عن مجتمعهم ، حين عاشوا منطوين على أنفسهم ، فى أبراجهم العاجية ، لايحسون بإحساس أمتهم ، ولا يشاركون مجتمعهم آلامه وآماله ، فكان إنتاجهم فى الكثير الغالب مرآة انعكست عليها حياتهم الخاصة ، مما دعا الأمة والمجتمع إلى الإنصراف عن هذا الأدب ، الذى لم تجد فيه شخصيتها ، ولم يحس فيها المجتمع بوجوده .

وكان الأدباء مسئولين عن هذه الجناية ، لأنهم هم الذين أتاحوا للقراء الانصراف عن إنتاجهم إلى الأدب الرخيص الماجن الذى يغذى الجانب الهابط فى النفس .

وإلا فما بالنا لانقرأ — والمحن تتوالى على العروبة ، والضربات تتابع على أقطار الإسلام — إلا أدب الضعف والانحدار !! أدب التدهور والانحلال !! كأننا لسنا فى صراع مع استعمار !! .

ألم تكن مأساة فلسطين الدامية ، وتشريد مليون من أبنائها من إخواننا وأبناء عمومتنا وهيامهم على وجوههم فى المهامه والقفار ، يفتك بهم البرد والجوع .. كافية فى أن تهز منا القلوب ، وتشعل الأفئدة ، وتضرم الجوانح ؟

لقد نظرت إلى الأدب قبل المأساة وبعدها فلم أجد تغيراً واضحا إلا عند قلة من الأدباء يعدون على أصابع اليد الواحدة .

إن المعركة القائمة اليوم بين حق مصر وباطل بريطانيا ليست معركة مصر وحدها ،

وبريطانيا وحدها ، ولكنها معركة الشرق العربي بأسره ضد الدول المستعمرة التي تظاهر بريطانيا في باطلها . وتناصرها في عدوانها على الشعوب الضعيفة .

إنها المعركة التي تغذي القرائح عند أدباء العرب والإسلام ، فتدفعهم دفعا إلى المساهمة فيها .

قد يقال إن هذا أدب مناسبات في كارثة لا يلبث أن يزول . وإنه كغمامة صيف عما قليل تنكشف . ولكنه أدب خالد ، فأدب القوة والكفاح أدب خالد .. لأن الأمة الضعيفة لا وجود لها في عالم تسوده الذئاب والأسود .

إن كثيرا من الشعراء الأوربيين قد خلدوا بأشعارهم الوطنية التي أيقظت في نفوس أممهم روح التضحية ، وأوقدت في قلوبهم النخوة والحمية ، فهذا أرنت في ألمانيا في القرن التاسع عشر يقول لقومه بعد موقعة (يه نا) : « أعطوني وطنا حرا وأنا أرضى عندئذ أن أفقد كل شهرتي فيصبح اسمي منسيا لا يذكر في غير داري ودار جاري » .

« أعطوني بقعة من أرض جرمانية يستطيع فيها العندليب أن يغرد دون أن يرمى بسهم فرنسي . أعطوني كوخا حقيرا يستطيع أن يصيح ديكي فوق حاجزه دون أن يقع فريسة في يد فرنسي ، وأنا أصيح عندئذ مثل الديك ، وأغرد مثل العندليب بكل فرح وسرور ، ولو أفقد كل ما ملكته يداي فلم يبق لي شيء يستر جسمي غير قميص بال (١) » .

نريد أدبا بعد وثبة مصر الجبارة يختلف عنه قبلها ، نريد من أدباء وادي النيل وهم كثير والحمد لله ومن أدباء البلاد العربية أن يشنفوا آذاننا بالأغاني والأهازيج الحماسية الوطنية التي تبعث الثقة في النفوس وتملؤها قوة وبطولة :

نريد من الشعراء أن يطربونا بشعر القوة والعزة ، ومن كتابنا وناثرينا أن يدبجوا لنا المقالات الطويلة عن الإيمان القومي ، والوطنية الصادقة ، والاستشهاد في سبيل الوطن .. نريد من الأدباء والشعراء والمؤلفين وكتاب القصة والمسرحية أن يتخذوا من أقلامهم سيوفا تسل في وجه الظلم ، وحرابا تصوب إلى صدور الأعـــداء .

---

(١) من كتاب آراء وأحاديث في الوطنية والقومية للاستاذ ساطع الحصري ص ٧٥ .

.. نريد منهم أن يثيروا أحقادنا الدفينة لدى الدول الاستعمارية ، وأن يذكوا جذوة الوطنية فى نفوس هذا الجيل والأجيال القادمة ، ويشعلوها حربا مستعرة الأوار على الاستعمار الظالم فى كل مكان .

ولست أريد أن أمنعهم من الأدب الذاتى .. أدب العاطفة والوجدان ، ولكنى أرى أنه لابد لهم مع أدبهم فى الدمعة والابتسامة ، والهجر والوصل ، والفراق واللقاء .. من الأدب الذى يمجد الوطن ، ويؤجج الوطنية ، وينفخ فى الشباب روح الرجولة والقوة ، والعزة والكرامة ، والحرية والاستقلال ، ولا نريد أن يقف بهم الأمر عند أدب الوهم والخيال .. أدب المهمات والشطحات ، بل يضيفوا إليه أدب البطولة والمجد والرفعة والعلاء .

هذه صرختى أوجهها إلى الأدباء .. وأنا وطيد الأمل فى أنها ستجد منهم آذانا صاغية . وأختتم هذه الكلمة بأبيات للشاعر كمال عبد الحليم :

أخى ما الصبر ؟ إن الصبر كفران وخذلان
أخى ما نحن بالأحرار لكن نحن عبدان
لقد ضاقت بنا الأوطان ، ما للعبد أوطان
أخى ما السجن هل فى السجن آلام وحرمان
وهل يجدى مع الأحرار قضبان وسجان ؟
سوانا يرهب القضبان أو تثنيه جدران
إذا كنا شرارات فنحن اليوم بركان

(٦)

ويؤمن أديبنا بأن للقوة(١) فى نظر الإسلام الأهمية البالغة ، والمكانة السامية : ومن أجل هذا فرض الله على المسلمين الجهاد إعلاء لكلمته ، وتنفيذا لأحكامه وكتب عليهم القتال وهو كره لهم وأمرهم أن يكونوا أقوياء بإيمانهم وعقائدهم ، وأجسامهم وجوارحهم ، أشداء على الأعداء رحماء بينهم . غلاظا على الخصوم ، لينين مع إخوانهم .

---

(١) من مقال نشر له فى مجلة الرسالة بعنوان « القوة فى نظر الإسلام » .

ويقول: إن للقوة فى كل زمان مظهرا يتفق معه ، ويتلاءم مع تطوره ، فهى فى فجر الإسلام رمح وسنان . وأبطال وهبوا الشجاعة والبطولة يرخصون نفوسهم فى سبيل الله ، ويجاهدون لاعلاء كلمته ، ولكنها اليوم وفى القرن العشرين بندقية ومدفع ودبابات ومصفحات ، وطائرات وقاذفات ، وغواصات وكاسحات وفرق مدربة فى البر والبحر والهواء .

وقد طالب الإسلام أتباعه بأن يعتمدوا على أنفسهم بعد الله ، وبعد تنفيذ دستوره والعمل بأحكامه ، وألا يأمنوا أعداءهم بل يحذروهم : وحتم الإسلام على أتباعه أن يكونوا دائما على استعداد لمنازلة الأعداء وأن يعدوا لهم كل ما يستطيعون من وسائل القوة ليرهبوهم ، والاستطاعة أيضا تتطور بتطور الزمن وتسير مع روح العصر الذى يعيش فيه المسلمون اليوم .

دعا الإسلام المسلمين للقوة ، ونشأهم على العزة ، ووعدهم بأن يستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وحارب الضعف والوهن ، وقاوم الجمود الجسمى وحطم الإسار العقلى ليعلو سلطانه ، وتنتشر تعاليمه وليتم الله نوره ولو كره الكافرون . ويقول: إن الإسلام لم يدع المسلمين للقوة ليتخذوا منها ذريعة للبطش بالضعفاء ، أو مهاجمة الشيوخ والأطفال والنساء . أو الاعتداء على المسالمين والابرياء ، أو الإفساد فى الارض والتمرد على النظام ، بل ليفرضوا سلطان الحق على النفوس المتمردة ، والقلوب المتبلدة ، وقد علم الله — جل شأنه — أن فى عباده سباعا ضارية تلبس مسوح الرهبان ؛ ووحوشا مفترسة على شكل الانسان ، ولا سبيل إلى إذعانها للحق ، وردها للنظام إلا بلكمة فى الصدر ؛ أو ضربة فى الرأس ، أو طعنة بالسيف . وبعد فلا إخالنى بحاجة للقول بأن من أهم أسباب تأخر المسلمين اليوم ضعفهم . والضعيف دائما فريسة سهلة للقوى فى دنيا تسودها شريعة الغاب ، وعالم يدين بأن الحق والعدل والضمير من أساطير الاولين . وضعف المسلمين اليوم معنوى ومادى ، فالاول واضح فى انقسام الرؤساء واختلاف الاحزاب ، وتخاذل الحكام ، وتفرق الكلمة ، والثانى ظاهر فى احتياج الجيوش الاسلامية للذخيرة والعتاد ، وحاجة الاقطار الاسلامية والعربية لانشاء مصانع للأسلحة المختلفة . والاتحاد قوة ، وقد دعا الاسلام إليه : واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، والسلاح قوة وقد أمر الله به : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، وقد رأينا باطلا يعلو لانه مؤيد بالجيوش والاساطيل : وحقا ينهار لانه ليس وراءه جنود ولا

تأسباطيل على مرأى ومسمع من الصفوة المختارة من دول العالم المتمدن التي اجتمعت والتقت فيما يسمونه بمنظمة الامم المتحدة في النصف الثاني من القرن العشرين .

(٧)

وكتب عن « الشعر الفلسطيني المعاصر قبل المأساة » يقول :

رزحت فلسطين تحت الحكم التركي فترة امتدت إلى أن اندلعت نار الحرب العالمية الأولى سنه ١٩١٤ وأحست بريطانيا بضعف مركزها العسكري في الشرق فتلمست المعونة من العرب بعد أن تبادلت الرسائل بين ممثلها السير هنري مكمهون وممثلهم المغفور له الشريف حسين سنة ١٩١٥ ، وتعهدت بريطانيا في مكاتباتها للعرب بأن تحقق لهم وحدتهم وحريتهم ، ووعدتهم بتكوين الأمبراطورية العربية إذا ماقاتلوا الأتراك إلى جانبها ، وانتصرت في الحرب .

واطمأن العرب إلى عهود بريطانيا ووعودها فأعلنوا ثورتهم الكبرى وقاتل أبناؤهم في صفوف الحلفاء . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أحست الصهيونية العالمية عند نشوب الحرب بأن اللحظة المواتية لتحقيق اطماعها قد حانت لأن بريطانيا منهمكة في الحرب ، واقتصادها سيء وهي بحاجة ماسة إلى المال لذلك تواقد الزعماء الصهيونيون على لندن حاملين إلى حكامها رسائل العطف والتأييد من ساسة أمريكا وفرنسا وسرعان ما اقتنعت بريطانيا بوجهة نظر الصيونية التي تتفق كل الاتفاق مع أهدافها ومصالحها الاستعمارية ، وأصدرت في اليوم الثاني من نوفمبر سنة ١٩١٧ تصريح بلفور الذي يجعل فلسطين وطنا قوميا لليهود .

وفي سنة ١٩١٨ وضعت الحرب أوزارها بانتصار الحلفاء وهزيمة الأتراك ، أو بتعبير أدق بانتصار بريطانيا وفرنسا وتحطيم الأمبراطورية التركية . وانتظرت العرب أن تحقق بريطانياوعودها لهم نظير وقوفهم إلى جوارها في المعركة ، ومقابل دماء الآلاف من شبابهم ولكن بريطانيا للأسف بعد أن اسكرتها خمرة النصر تنكرت لمبادئها . ونكثت عهودها ، وتآمرت مع حليفتها فرنسا على تقسيم غنائم الأتراك بينهما ، على أن تأخذ هي فلسطين ، لتبر بوعد بلفور. والأردن والعراق ، وتعطى حليفتها سوريا ولبنان . وهكذا وجدت بريطانيا نفسها في مأزق حين وعدت العرب بالوحدة وقدموا ثمنا لها دماءهم ووعدت اليهود بالوطن القومي وقدموا الذهب ثمنا له . ومع أن المنطق والعدل يحتمان على بريطانيا أن تنجز وعودها للعرب فإنها تنكرت المنطق والعدل ، وبدأت المؤامرة الاستعمارية الصهيونية

على فلسطين تنسج خيوطها بدقة وأحكام . وفق سياسة مدروسة ومرسومة ومحددة .

ولقد ظل تصريح بلفور سرا لم يعلم به العرب إلا بعد ثلاث سنوات وفى سنة ١٩٢٢ وافقت عصبة الأمم على وضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى وأذاعت مواد الانتداب ونصوصه وإذ به يحمل لفلسطين أسوأ ، ما تحمله وثيقة سياسية لأمة . فقد استطاعت الصهيونية العالمية بنفوذها أن تدمج تصريح بلفور فى وثيقة الانتداب ادماجا يجعل منه مادة من الانتداب ولذلك تقول المادة الثانية من وثيقة الانتداب :« الدولة المنتدبة مسئولة عن وضع البلاد فى ظروف سياسية واقتصادية وإدارية تضمن إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين » .

ولم تكد تذاع مواد الانتداب ويعلم بها الشعب الفلسطينى حتى وحد أبناؤه صفوفهم ، وأعلنوا ثورتهم عليه ، ورفضهم له ، ومقاومتهم لوزير خارجية بريطانيا وحكومته التى منحت نفسها حق التصرف فى مصير شعب لاولاية لها عليه . وكانت وسائل المقاومه يومئذ لاتعدو تنظيم مظاهرة ، أو إرسال برقيات احتجاج ، أو إعلان إضراب وظلت هذه الوسائل من سنه ١٩٢٢ إلى سنه ١٩٢٨ وفى سنه ١٩٢٩ تحولت إلى ثورات مسلحة ضد المستعمرات الصهيونية هوجمت فيها المستعمرات وقتل منها الآف اليهود ، ولكن الجيش البريطانى المرابط فى فلسطين سخر كل فرقه العسكرية لحماية اليهود من بطش العرب والدفاع عن المستعمرات من رصاص المجاهدين العرب . وفى هذه السنة دوى صوت الشعر الفلسطينى فى أرجاء البلاد مسهما فى معركة الحرية بكل إمكانياته الفنية . فلم تكد حكومة الانتداب تخمد اضطرابات تلك السنة التى قتل فيها عدد كبير من اليهود وخصوصا فى مدينتى الخليل وصفد حتى ألقت القبض على بعض الشبان العرب واتهمتهم بقتل اليهود وقدمتهم للمحاكم العسكرية البريطانية التى أصدرت أحكام الإعدام على الشهداء الثلاثة حجازى وجمجوم والزير ونفذ فيهم الحسم صباح الثلاثاء ١٧ يونيه سنة ١٩٢٩ ، حتى أخذ الشعر يسجل هذه الحادثة على لسان شاعر فلسطين المرحوم إبراهيم طوقان فى قصيدته التى سماها الثلاثاء الحمراء . ويخلد البطولة التى استقبل بها الشهداء تنفيذ الأحكام عليهم ، ولقد جعل الشاعر قصيدته ثلاثة أقسام : تحدث فى القسم الأول عن اليوم الذى نفذ فيه حكم الإعدام فى

الشهداء واعتبره أشأم يوم فى تاريخ الإنسانية التى لم تر مثله فى الجور والظلم لا فى عهد محاكم التفتيش ولا فى عهد جمال (باشا)، وفى القسم الثانى جعل كل ساعة من ساعات الإعدام الثلاث تتحدث بفخار عن بطلها، وفى القسم الثالث والخاتمة هدد الشاعر الطغاة الظالمين ونكتفى بإيراد نموذج واحد من القسم الثالث :

أجسادهم فى تربة الأوطان أرواحهم فى جنة الرضوان
وهناك فيض العفو والغفران وهناك لاشكوى من الطغيان

لا ترج عفوا من سواه هو الإله
وهو الذى ملكت يداه كل جاه

جبروته فوق الذين يغرهم جبروتهم، فى برهم والأبحر

وقد اعتبرت الحكومة هذه القصيدة عاملا هاما فى إثارة الاضطرابات وتجددها بعد إخمادها لما كان لها من وقع فى نفوس الشعب ولقد ظل الشاعر فيما بعد يستوحى آلام بلاده، ويصد عنها الأخطار ويهاجم الاستعمار، ويفضح أساليبه، ويكشف المؤامرة الصهيونية. وتنحصر تلك الأخطار فى خطرين رئيسيين تتفرع عنهما مشاكل متعددة وهذان الخطران هما الانتداب والصهيونية، والانتداب يقاوم بالبذل والتضحية، وإرخاص الأرواح والدماء، وتمجيد البطولة والفداء، وتخليد الأبطال والشهداء، وفضح الأساليب الاستعمارية ومناهج الإبادة والإفناء. والصهيونية تقاوم بنشر الوعى الوطنى والقومى واليقظة والحذر، والمحافظة على الأراضى، ومقاومة الهجرة الدافقة، وهى أعظم الأخطار إذ أن حكومة الانتداب فتحت أبواب فلسطين للمهاجرين اليهود الذين دخلوها بأساليب مقنعة ومختلفة تارة تحمل اسم الهجرة المشروعة ـ التى سمحت بها الحكومة وتارة تحمل اسم الهجرة غير المشروعة التى لم تسمح بها الحكومة ـ وتارة تحمل اسم السياحة يقول الشاعر طوقان من قصيدة عنوانها الرقم (١٠٠٠).

أرى عددا فى الشؤم لا كثلاثة وعشر، ولكن فاقه فى المصائب
هو الألف لم تعرف فلسطين ضربة أشد وأنكى منه يوما لضارب
يهاجر ألف، ثم ألف مهربا ويدخل ألف سائحا غير آيب
وألف (جواز(١)) ثم ألف وسيلة لتسهيل مايلقونه من مصاعب

(١) جواز سفر.

وفى البحر آلاف كأن عبابه وأمواجه مشحونة بالمراكب

ويقول من قصيدة عنوانها (مناهج) :

لنا خصمان ، ذو حول وطول وآخر ذو احتيال واقتناص
تواصــوا بينهم فأتى وبالا وإذلالا لنا هــذا التواصى
مناهج للإبادة واضحات وبالحسنى تنفذ والرصاص

ولم يقف دور إثارة الوعى القومى عند حد الفلسطينيين وحدهم بل تجاوزهم إلى دنيا العرب . يقول الشاعر نفسه :

يارائدا كل أرض أهلها عرب يجتازها نضو تصعيد وتصويب
ومنشدا عندهم علما ومعرفة بحالهم بين إدلاج وتصويب
هل جئت منهم أناسا عيشهم رغد أم هل نزلت بقطر غير منكوب ؟
أم أى راع بلا ذئب يجاوره ؟ إن لم تجد راعيا شرا من الذيب

وتمضى المؤامرة الاستعماريه على فلسطين والعرب فى طريقها ، وتسخر بريطانيا كل إمكانياتها لإنشاء الوطن القومى ، فتعين انجليزيا لإدارة معارف البلاد ، وآخر للبوليس ، وثالثا للصحة ، وتضاعف من الضرائب لترغم العرب على بيع أراضيهم لليهود وبعد عجزهم عن الدفع ، ويحس الشعب العربى فى فلسطين أن لغة المظاهرات والاحتجاجات أصبحت لاتجدى . فيقرر أن يركب الأسنة والرماح ، وأن يخاطب الاستعمار بلغة الدماء ويقوم الشعب بثورته الكبرى الرائعه سنه ١٩٣٦ التى بهرت العالم بروعتها وتنظيمها ، ويفد إلى فلسطين مجاهدون من مصر وسوريا والعراق والأردن يحاربون الاستعمار . ويقف الشعب الفلسطينى فى هذه الثورة موقفا رائعا ، حيث يمجد البطولة والفداء ، ويخلد الأبطال والشهداء ، ويدعو لبذل المهج والأرواح

يقول الشاعر طوقان من قصيدة عنوانها (الفدائى) :

لاتسل عن سلامته روحه فوق راحته
بدلته همومــه كفنا من وسادته
يرقب الساعة التى بعدها هول ساعته
بين جنبيه خافق يتلظى بغايته
من رأى فحمة الدجى أضرمت من شرارته

ولقد عاصر إبراهيم طوقان عددا من الشعراء الذين تأثروا به نذكر منهم شقيقته الشاعرة فدوى وأبو سلمى وعبد الرحيم محمود وكمال ناصر ومحمود الحوت وغيرهم من الشعراء الذين لايزالون يطربون العرب بالأغانى الحماسية ، والقصائد الوطنية . ولقد أتيح لبعضهم أن يجمع شعره فى ديوان مطبوع ولم يتح ذلك للبعض الآخر فظلت قصائده متناثرة فى الصحف والمجلات بصورة تجعل مهمة الناقد عسيرة إذا سلط عليهم أضواء النقد ووضع فى ميزانه الطاقة الشعرية والموهبة الفنية لكل شاعر ، ولكن ذلك لن يمنعنا من تسجيل أبرز سمات الشعر الفلسطينى وخصائصه فى الفترة بين الانتداب وبين المأساة وعلى وجه التحديد من سنه ١٩٢٢ إلى سنه ١٩٤٧ وهى فترة تمتد حتى تصل إلى ربع قرن من الزمان .

والسمة الأولى للشعر فى هذه الفترة ظهور شخصية الشاعر وإحساسه بقيمته ، وتخليه عن السير فى ركاب غيره ، واتخاذه من خدمة وطنه غاية يسعى إليها يقول طوقان من قصيدة عنوانها (غايتى) :

إن شعرى لبــلادى   لا لحزب أو زعيم
لم أبعــه لشقيــق   أو صــديق لى حميم
غايتى خــدمة قومى   بشقــائى أو نعيمى

والسمة الثانية الاتجاه للشعب ، وتحيته ، وتخليد كفاحه ، وإمداده بطاقات قوية من القوة والمقاومة النضالية يقول الشاعر أبو سلمى :

أيها الثائرون فى جبل النـار   سلاما يا زينة الأجيــال
تحملون الأرواح فوق أكف   وتبيعونهـا ولكن غوالى
ورصاصاتكم تمر على الأيام   حمــرا مضيئة فى الليالى
تصرع الطائرات مثل طيور الجو   تهوى ما فوق تلك التلال
أيهـا الثائرون قولوا فإن   الكون يصغى إلى لهيب المقال

والسمة الثالثة : الثورة على الظلم الاجتماعى والدعوة إلى العدالة الاجتماعية تقول فدوى :

كم بائس كم جائع كم فقير   يكدح لا يجنى سوى بؤسه
ومترف يلهو بدنيا الفجور   قد حصر الحياة فى كأسه
أرحمة الله بعليــا سماه   تقول ان يكتظ جوف الثرى

ويحرم المعوز قوت الحياة في عيشة المضطرب الأعسر
وراءها صوت عميق مثير جلجل فيها مثل صوت القدر
لم تحبس السماء رزق الفقير لكنه في الأرض ظلم البشر

السمة الرابعة : روح التفاؤل والأمل ، ومحاربة اليأس على الرغم من السحب التي كانت تتكاشف في سماء فلسطين يقول إبراهيم طوقان :

حي الشباب وقل سلاما إنكم أمل الغد
صحت عزائمكم على دفع الأثيم المعتدى
والله مد لكم يدا تعلو على أقوى يد
وطني أزف لك الشباب كأنه الزهر الندى

وإلى جانب هذه الخصائص نورد ملاحظاتنا النقدية على الشعر الفلسطيني بوجه عام في نفس الفترة :

وأولى هذه الملاحظات أن الشعر الفلسطيني قد سلك الطريقة الاتباعية في الأداء والبناء الشكلي ، ولم يخرج الشعراء — ما عدا فدوى — عن وحدة الوزن والقافية في القصيدة وإن كان إبراهيم قد لجأ إلى تعددها في بعض قصائده الطوال التي لا تزيد على خمس من مجموع قصائد ديوانه التي بلغت ٨٠ قصيدة .

الثانية : وحدة المضمون فقد سار الشعر الفلسطيني عامة في اتجاه ثوري كفاحي استوحاه الشعراء من ثورات فلسطين الدامية وكفاحها المجيد ضد الانتداب والصهيونية ، ولم تقف رسالة الشعر عند اشعال الثورة ، وامدادها بالطاقات الثورية والكلمات النارية بل ضرب الشعراء للشعب الأمثلة الرائعة الحية بأنفسهم عندما قرروا أن يخوضوا المعركة المسلحة مع الشعب إلى جانب خوضهم معركة الفكر ، وعلى سبيل المثال نقدم شاعراً واحدا هو الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود الذي استقال من وظيفته سنة ١٩٣٦ ، وانضم إلى كتائب المجاهدين في جبال نابلس وطولكرم والذي انتهت حياته بسقوطه شهيدا في ميدان الشرف والبطولة سنة ١٩٤٨ ، وحمله رفاقه وهم يرددون أبياتا من قصيدته (الشهيد) التي يقول فيها :

سأحمل روحي على راحتي وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يغيظ العدى

ونفس الأبى لها غايتان ورود المنايا ونيل المنى

الثالثة : اتساع نظره الشعر وشمولها ، واستلهام الأمجاد العربية ، والمفاخر التاريخية ، والمآثر القومية ، بل استيحاء القومية العربية فى الوطن العربى الكبير يقول الشاعر أبو سلمى :

أخت صلاح الدين عشت حرة تأبى لك العلياء أن تهودى
دعى عصابة اللصوص جانبا واعتمدى على بنيك اعتمدى
معركة اليرموك هذا نقعها يروح فوق هامنا ويغتدى
يطل من بين العصور عاطرا فيه من الماضى عبير السؤدد
كل شعوب الارض فى جهادها تمشى على آثارنا وتقتدى

الملاحظة الرابعة : ظهور الملاحم الشعرية وتعددها ونعنى بها القصائد الوطنية الطويلة ذات القوافى المتنوعة وهى قصائد قوية تدعو الشعب للتضحية والاستهانة بالموت فى سبيل الدفاع عن البلاد وإنقاذها ، يقول الشاعر كمال ناصر من قصيدة طويلة عنوانها بلادى مخاطبا فيها الشعب :

فيا شعب إما أردت الحياة ورمت السمو ورمت الكمال
فذا ملعب الموت فاخطر به وشد إلى ساحتيه الرحال
فان يد الشعب إن أطلقت تعلق للمجرمين الحبال

هذه هى أبرز خصائص الشعر الفلسطينى الحديث وملاحظاتنا عليه منذ ابتليت فلسطين بالانتداب البريطانى سنة ١٩٢٢ إلى وقوع المأساة سنة ١٩٤٨ .

(٨)

ويقول بعنوان (الدولة والأدب) :

« الجدال حول الأدب القديم والحديث لا يستند إلى أسس فنية من ناحية ، ولأن الأدب ليس فيه قديم وحديث من ناحية أخرى . فما زلنا نطرب لشعر المتنبى والمعرى كما نطرب لشعر شوقى وحافظ وما زلنا نهتز لروائع شكسبير كما نهتز للبسمات برناردشو ، وإن نتعرض فى هذه الكلمة أيضا لمسئولية دعاة الأدب الماجن الذى يثير الغرائز ويحطم القيمة الإنسانية ، ويدعو إلى التدهور والانحلال وإن كنا نحملهم تبعة إفساد الجيل ، ونسجل عليهم خيانتهم لرسالة الأدب وسنقصر كلمتنا على مسئولية الدولة عن الأدب .

وقد يقول قائل : وما علاقة الدولة بالأدب : فنجيب بأن هناك صلة قوية بين الدولة والأدب ولذلك تقدم الدولة إعانات للفرق التمثيلية وللنهوض بالفن المسرحي ، وتستقدم الفرق التمثيلية من مختلف الممالك والأقطار ، وترصد الجوائز كل عام لأجود المؤلفات في العلوم والآداب .

ولذلك فانى أحمل وزراء معارف الدول العربية تبعة توقف هذه المجلات عن الصدور وهى تبعة جسيمة فى هذه الظروف القاسية التى تجتازها الأمة العربية، الظروف التى خلقت إسرائيل لتكون شوكة دامية فى جسم العروبة ، وجعلت منها سدا يفصل بين آسيا العربية وافريقية العربية وشردت شعبا كريما عن دياره ، وجعلته يهيم فى الأودية والرمال يبحث عن الغذاء والمأوى فيعزان عليه والظروف التى فرضت معاهدة ظالمة وقعها الاستعمار مع ليبيا العربية الناشئة جعلت منها قلعة عسكرية استعمارية فى المحيط العربى ، والظروف التى تجلت فيها وحشية فرنسا فى مراكش والجزائر .

أجل — إن وزراء التربية والتعليم مسئولون أدبيا عن انطفاء هذه الشموع ، وأفول تلك الكواكب ، وتساقط هذه الشهب، لأن كل وعى سياسى وليد وعى فكرى ، ولأن الأقلام الحرة النزيهة هى التى تعد الأمة للنهوض من الكبوة والتوثب للمجد ، وتحطيم كل قيد من قيود الذل والاستعباد ، فعلى صفحات هذه المجلات ردد الكتاب والشعراء أغانى المجد ، ورتلوا أناشيد الحرية ، وهتفوا فى النائمين لينفضوا عن عيونهم الكرى وينطلقوا من الاسار .

ولقد سفرت هذه المجلات بين أبناء العالم العربى قبل قيام الجامعة العربية بزمن طويل .

وإذا كانت مصر تتبوأ اليوم زعامة العرب فان مجلاتها الأدبية ، وعلى وجه التحديد فان الرسالة وزميلتها الثقافة هما المجلتان اللتان كان لهما أكبر الأثر فى تبوىء مصر هذه المكانة السامية .

ولولاهما ماعرف القراء العرب أقطاب الفكر فى مصر من أمثال طه حسين والعقاد والمازنى وأحمد أمين وتوفيق الحكيم والزيات والرافعى وغيرهم .

وكانت تلك المجلات مدارس أدبية تخرج فيها كتاب وأدباء لم تضمهم غرف الدراسة فى المدارس .

وليس من شك فى أن تلك المجلات كان لها فضل على اللغة العربية إذ نهضت بالبيان العربى نهضة عظيمة فتألقت على صفحاتها الاساليب المشرقة إلى جانب دفاعها عن العرب ، وتذكيرهم بمجدهم الغابر ، والدعوة إلى وحدتهم .

ما الذى يمنع أن يكون فى مكتبة كل مدرسة عدد واحد من كل مجلة أدبية ؟ ولماذا لاتفرض وزارة المعارف فى كل قطر على كل مدرسة أن تشترك فى المجلات الأدبية ؟ وكيف ترضى مصر وفيها الجامعات الثلاث والجامعة الازهرية ، والتى تضم الآلاف من المثقفين ، والتى يلوذ بها العرب فى أقطارهم كلما أعوزهم الاخصائيون فى جوانب الثقافة والمعرفة . أقول كيف ترضى مصر أن يقال عنها إنه ليس بها مجلة أدبية وإنه كان بها مجلتان فتوقفتا لأن القائمين عليهما لم يجدوا المال الذى يستطيعون به مواجهة إصدار هاتين المجلتين؟ ما الذى يحول دون منح صاحب المجلة مبلغا من المال يساعده على أداء رسالته الفنية مادامت تلك الرسالة تخدم الصالح العام ، وتوجه الشعب إلى الخير .

(٩)

ويصف مشاعره وقد زار منطقة بلاده فى غزة فيقول :

غمرتنى أمواج البشر حين أخذت مكانى فى القطار الذى غادر القاهرة إلى غزة صباح الخميس ٥ أغسطس سنة ١٩٥٤ لأنى سأعود للوطن الحبيب بعد أن غبت عنه خمسة عشر عاما توالت عليه خلالها الأحداث الهامة وألمت به الخطوب الفوادح .

سأعود إلى مراتع طفولتى وملاعب صباى يوم كنت كالطير أتنقل من فنن إلى فنن أسجع وأغرد ، والدنيا فى نظرى بسمة فى الوجه وضمة إلى الصدر ، وأمل فى الغـــــد

ولكم منيت نفسى باللحظات التى يكتمل فيها ناظرى بالبلد الذى حنا على طفلا ، وضمنى يافعا ، وغذانى شابا .

حقا لقد وجدت فى القاهرة أهلا وخلانا ، وفى رحاب دار العلوم عرفت نماذج حية للوفاء والإخاء من أبناء الكنانة وعلى ضفاف النيل ضمتنى مجالس وموائد الفن مع نخبة من الأدباء والمفكرين المصريين ، ولكن ذلك كله لم يخمد جذوة الشوق والحنين للوطن لقد جعل بصرى يسبق القطار منطلقا إلى الروابى

بعد أن طوى واحه محطات القنطرة ورمانة والعريش ، وعندما أشرف على رفح أبصرت كثبان الرمل التى تكسوها كروم العنب وتتدلى منها العناقيد كأنها عقود من اللؤلؤ ازدانت بها نحور الحسان ، وتظللها شجيرات التين وعندما سعدت عيناى بهذا المنظر كاد قلبي يقفز من موضعه فرحا وحاولت أن أغالب قطرات الدموع فلم أستطع لأنها دموع الفرح والسرور وتوقف القطار قليلا فى رفح ليستجم من رحلته الطويلة الشاقة ووجدتنى أهبط إلى الأرض ، وآخذ حفنة من الرمل أقبلها وأنا أردد قول الشاعر العربى القديم :

بنفسى تلك الأرض ماأطيب الربا   وما أحسن المصطاف والمتربعا

وعدت للقطار وقد استأنف سيره فى الطريق إلى غزة وعيناى تجولان بين الروابى الخضر ولكنهما تحولتا فجأة عن ذلك المنظر الطبيعى الجميل إلى منظر مؤلم، منظر أكواخ اللاجئين التى رصت إلى جوار بعضها وعلى أبوابها جلس اللاجئون الذين شردتهم النكبة وعصفت بهم ريح الاستعمار الانجلوأمريكى فمزقتهم شرممزق .

وفى هذه اللحظات نسيت نفسى ، واختلط الفرح بالحزن والسرور بالألم ولم أشعر بالمحطات التى وقف فيها القطار بعد رفح حتى وصلت غزة ووقف القطار وانتظرت أن يواصل سيره إلى المجدل وسدود كعهدى به قبل المأساة ولكن الأهل والعشيرة والرفاق الذين خفوا لاستقبالى أعادونى إلى دنيا الواقع ولفتوا نظرى إلى أن القطار ينتهى به المطاف عند غزة .

وأحاط بى الأعمام وأبناء الأعمام من كل جانب وسبحت فى بحر من السرور وهيهات لقلمى أن يصور فرحة اللقاء بعد طول الفراق ، وسعادة العودة بعد عذاب الغياب ، وحدقت طويلا فى الوجوه المستقبلة إنهم قومى وعشيرتى وأهلى - وحاولت أن أعرفها وجها وجها ولكن محاولاتى لم يكتب لها النجاح فلقد خدش ظفر الزمان الوجوه كما قال شوقى ، وعبثت يد الأيام بالسمات والملامح ، وأنى لى أن أعرف الأتراب واللدات وقد أصبح الأطفال رجالا ، وغدا الشباب كهولا ، وصار الكهول أشباحا محطمة ، ورددت قول الشاعر :

يا جنبى أين رفاق الصبا   نعدو كما كنا وراء القمر
ونحصد الليل بأحلامنا   ونزرع الأوهام فى المنحدر

أين مضوا فى أى درب ترى تفرقوا وانفض عقد السمر(١)

وعلى ربوة رملية فى معسكر النصيرات وفى فناء كوخ من الأكواخ التى يعيش فيها اللاجئون تحلق حولى أبناء الأهل والعشيرة ، هأنذا بين أهلى وعشيرتى ولكن لا فى السوافير قريتى . ومهد طفولتى، بل فى الأكواخ المتناثرة التى لا تقى القر ولا تمنع الحر.

لقد طاروا بشرا بلقائى بعد أن يئسوا منه ، وغمرهم السرور على الرغم من مظاهر الهم ، ولكنى كلما أمعنت النظر إليهم ألفيتهم يحدقون فى الأفق ، ويتطلعون إلى ما وراء الحدود . أنهم ينتظرون فجرهم طول الليل ، وحيرة النجم ، وهذا الفجر هو الأمل الذى يعيشون عليه وهو رجوعهم لديارهم ، وعودتهم إلى أوطانهم .

وكلما رأيت الأسى باديا على الوجوه ، والوجد والوجوم مخيما على المحافل، والصمت الرهيب يلفهم ببردته القاتمة أضأت لهم مصباح الأمل ، وشحذت من عزائمهم ، وبشرتهم بقرب العودة وأنشدت لهم قول الشاعر :

ويسألنى الرفاق ألا لقاء وهل من عودة بعد الغياب

أجل سنقبل الترب المندى وفوق شفاهنا حمر الرغاب

غدا سنعود والأجيال تصغى إلى وقع الخطى عند الإياب

أجل ستعود آلاف الضحايا ضحايا الظلم تفتح كل باب

(١٠)

وكان للسوافيرى ندوة أدبية حافلة ، وهو عضو فى رابطة الأدب الحديث ودعامة من دعاماتها القوية ، وله العديد من البحوث والدراسات والمحاضرات التى تلقى من فوق منبر الرابطة ، وله محاضراته فى جمعية الشبان المسلمين وكثير من النوادى الأدبية ، ويذيع فى البرنامج الثانى الثقافى ، وفى صوت العرب وركن فلسطين . واختير فى ديسمبر سنة ١٩٥٧ ممثلا رسميا لفلسطين فى مؤتمر الأدباء العرب الذى عقد فى القاهرة ، وينشر فى كثير من المجلات فى البلاد والإذاعات العربية وخاصة البلاد السعودية .

(١) الشعر للشاعر فوزى العنتيل .

أحمـــد السباعى

(١)

أحمد السباعى من المفكرين والرواد فى الحجاز ، ويعـــد أستاذاً لكثير من الأدباء فى هذه البلاد ؛ وكتابه « تاريخ مكة » الذى أرخ فيه للبلد الحرام من شتى نواحيها السياسية والعلمية والاجتماعية والعمرانية ، يعد مصدراً أصيلا من مصادر الدراسات التاريخية عن الحجاز ، وقد أصدرته مكتبة الثقافة بمكة ، وطبع بمطابع دار الكتاب العربى بالقاهرة عام ١٣٧٢ هجرية فى ٤٥٠ صفحة ، وقد صدره السباعى بكلمة جاء فيها : « راودتنى فكرة الكتابة عن تاريخ مكة فى سن مبكرة من حياتى ، وشاركنى فى هذا زميل كان « رحمه الله » من أنشط من عرفت من شبابنا ، هو المرحوم محمد سعيد عبد المقصود . . . كنت أعلم أن تاريخ مكة مغبون عند أكثر من أرخ من أسلافنا وليسوا ملومين على ما غبنوا ، فقد كانت النظرة إلى تاريخ هذه البلاد إسلامية بحتة ، عنى المؤرخون بهذه البلاد يوم كانت مهدا للعرب ، وعنوا بها عندما أنجبت سيد العرب ، كما عنوا بها فى الفترة التى تعاقب فيها خلفاء النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم ما لبثت أقلامهم أن عرجت بعروج الخلافة الإسلامية إلى الشام ، ثم إلى بغداد ، وتركت الحجاز دون أن تذكره إلا فى مناسبات اقتضاها السياق والاستطراد » .

وقد حافظ السباعى فى كتابه على روح الأمانة العلمية ، وأدى رسالته كمؤرخ منصف محايد ، يتثبت مما يكتب ، ويتحرى قبل أن يسجل .

إن السباعى صفحة مشرقة بيضاء فى تاريخ الحجاز العلمى ، وهى صفحة جديرة بأن يقرأها ويتأثرها ويحتذيها شباب الأدباء فى الحجاز وفى غير الحجاز أيضا .

(٢)

وقد ولد السباعى فى أواخر العهد العثمانى بمكة عام ١٣٢٣ وعندما نجح الحسين فى ثورته على الأتراك وشرع ينشىء أول مدرسة عربية على غرار المدارس العصرية فى مكة التحق بها فى الفصول الابتدائية ثم اختار له أبوه حفظ القرآن وتجويده فانتقل إلى فصل الحفاظ حتى إذا نجح فيه استأنف دراسته الثانوية فى المدرسة الراقية بمكة .

وقد وجد نفسه فى احد الأيام مضطرا للعمل فى سبيل الكسب ليقيم أود عائلته بعد أن توفى أبوه نخاض عباب الحياة عاملا فى الأعمال الحرة ، وبذلك انقطعت صلته بالعلم أو كادت لولا شغفه بالقراءة والاطلاع .

وعندما حاول أن يوفق بين حاجته إلى التكسب لتغطية نفقات عائلته وبين إرضاء شهوته فى القراءة والاطلاع استطاع أن يظفر بوظيفة أستاذ لتحفيظ القرآن فى المدرسة التى تعلم بها ، وبذلك أتيحت له الفرصة التى استفاد منها للاستمرار فى زيادة تحصيله العلمى وإشباع نهمه فى القراءة والدراسة .

وشاعت فى هذه الفترة فى شبابه بين عام ١٣٤٣ و عام ١٣٥٣ مؤلفات كتاب المهجر الأدبية فى مكة : من أمثال جبران خليل جبران وأمين الريحانى وإيليا أبو ماضى وجماعتهم من شباب الرابطة القلمية فى أمريكا فصادفت من نفسه هوى بالغ الشدة ، كما صادف ذلك من نفوس الشباب الناشىء فى مكة وجدة ، فانهال على دراستها كما انهالوا ، وراحوا يتوافرون على قراءتها فى نهم المتعطش .

لقد كان جل ما ألف جماعة الرابطة القلمية فى أمريكا من الرعيل الذى سميناه يهدف إلى التمرد على الأفكار البالية والعادات العتيقة والتحرر من جميع التقاليد التى ربطت بلاد الشرق بقيود ثقيلة فانطبع أكثر الشبان يومها فى الحجاز بتلك الروح وهزت مشاعرهم فى قسوة وعنف .

لعل أديبنا السباعى تأثر بهذه الهزة أكثر مما تأثر بها غيره من زملائه المعاصرين فانطبع على هذه الروح الجديدة ونشأ ثائراً على أوضاع الحياة والتقاليد واتسعت دراسته على أثر هذا فصادفته مؤلفات الرافعى والمنفلوطى وسلامة موسى وولى الدين يكن ، وكان الأخير من أدباء الثورة على الحكم العثمانى فتضافر هؤلاء على وقدة أحاسيسه التى كانت تتأجج فى حناياه وهيأت قلبه لكتابة الفصول الطوال التى عاش يكتبها ساخرا من أوضاع الحياة فى شتى ألوانها .

ونرى هذا واضحا فى آثاره التى نشرها فى صحف بلاده من نحو عشرين سنة إلى اليوم ، ومؤلفاته التى تعتبر فى الحجاز أوليات لم يسبقه إلى مثلها كثير من زملائه الشباب . . فقد أرخ لمكة فى كتاب ضخم درس فيه أهم النواحى السياسية والأدبية والعلمية والفنية فى سائر العصور ، فكان بذلك أول مؤلف عصرى درس تاريخ مكة فى شتى عصورها فى أسلوب مستحدث .

وكان أول من كتب القصة من أدباء الجيل فى الحجاز لأن قصته (فكرة) كانت أثرا لم يسبق إليه من أدباء الجيل فى مكة وقد أحدثت فى إبان صدورها ضجة بين الأدباء، وكتاب (فلسفة الجن)، وآخر بعنوان (أبو زامل) وكتاب (صفحة السوابق) و (مطوفون وحجاج) .

كما كان أول مؤلف أنشأ للمدارس فى بلاده كتبا دراسية بعد أن عاشت طويلا على ما يؤلفه المصريون والسوريون وقد تبعه فى ذلك غيره من المؤلفين .

ومن مؤلفاته تحت الطبع كتاب (دعونا نمش) وهو دعوة للتوثب وكتابه (يوميات مجنون) وفيه تزدحم آراؤه فى فلسفة الحياة على لسان مجنون.

والسباعى يميل إلى التجديد فى ألوان الأدب ويكره أن يقيد نفسه بمذهب فيه ، ويتعشق المنثور من الشعر ويؤيد مناصريه دون تحفظ .

عاش حياته الأولى مدرسا ثم انتقل إلى وزارة المالية فى الحجاز كمفتش

فيها ثم عين ممثلا لها قبل أن يحال إلى المعاش فى سنيه الأخيرة .

وأسس فى مكة دارا للطباعة وصحيفة باسم دار الندوة ، وكان قبل ذلك قد تولى إدارة وتحرير أقدم صحيفة أهلية فى مكة ، وهى صوت الحجاز .

(٣)

والسباعى الأسمر الوجه الذى يجتاز الرابعة والخمسين من عمره ، لا تمل حديثه ولا فكاهته ودعابته ولا مجلسه ، ولا يغيب عن ذهنك محضره عندما يتاح لك أن تتحدث إليه ولو مرة واحدة .

إنه مشرق الروح ، صافى الذهن ، حاد اللمحات ، سريع البادرة ، متصل الذكاء ، يتكلم فتشعر باحترامك الشديد لهـــذا المتكلم ، وحبك له ، وتقديرك إياه .

إنه لا يمل حديث الأدب والأدباء ، وفى ذهنه الكثير من الصور عن الحياة الفكرية والأدبية ، وعند ما يحدثك تشعر بميزان راجح ، ولسان عف ، وأسلوب غير عادى ، يدعك تحترم الرجل وتقدره وتعرف لـه شخصيته وكفاحه .

والسباعى مؤمن عميق الإيمان ، مؤمن بنفسه ، وبعروبته ، ومؤمن قبل ذلك بدينه ، يدافع عنه ، ويجعل له المثل الأعلى فى كل جانب من جوانب الحياة .

وكفاح السباعى العلمى والادبى سيخلد فى تاريخ الحجاز الحديث ليقرأه الجيل الحاضر ، بل الاجيال المقبلة ، بالفخر والإعجاب .

وأدب السباعى خير ممثل لبيئة الحجاز الاجتماعية والأدبية ، ففيه الكثير من سماتها وألوانها ، ويحمل فى ثناياه خصائص هذه البيئة فى وضوح . إنه أدب يستلهم روح الحجاز الأصيلة ، ويعبر عنها ، وينطق بأفكارها ، ويصور ما تجيش به صدور أهليه ومواطنيه فى بلاده .

فى سماته وألوانه روح البلاد المقدسة ، وعبق أريجها المعطر بالمجد والخلود .

(٤)

ويقول الفلالى فى الجزء الثالث من المرصاد ، عن السباعى :

للأستاذ أحمد سباعى أوليات قومية فى الحقل الأدبى وفى الحقل التربوى . ومن أولياته فى الحقل التربوى إخراجه سلم القراءة للمدارس الأولية والابتدائية . فلقد كانت مدارسنا قبل ذلك تعتمد على الكتب المدرسية الواردة إلينا من البلاد الشقيقة فينشأ الطفل وفى ذهنه صور لحقول النيل ، والأهرام ، وقلعة محمد على ؛ وليس فى ذهنه شىء من صور بلاده ومسقط رأسه . وكان ذلك نقصاً تداركه وفطن له السباعى قبل أن يفطن إليه غيره ، فسد الفراغ وتدارك النقص الذى كنا نحسه ونلمسه ، ثم تبعه المؤلفون الحجازيون وساروا على غراره فى هذا المسلك . أما أولياته فى الحقل الأدبى فمحاولته لفن القصة الكبيرة . فأخرج لنا (فكرة) وهى قصة أدبية فنية تصف مناظر بلادنا الطبيعية وتعالج أمراضنا الاجتماعية وقد وفق فيها توفيقاً لم يحرزه أحد غيره . ومن أولياته أيضاً إخراج مؤلفه الأخير « تاريخ مكة » فقد أرخ فيه مكة منذ أوجدها الله إلى العصر الذى نعيش فيه . بحسب ما تيسر له من معلومات واطلاع .

وبهذا المؤلف يخط السباعى سطر الخلود لنفسه . إذ أن كتابه يعتبر من أجمل المراجع ، ومن أوفى الكتب التى تتحدث عن مكة ، بأسلوب مشرق ، فهو يحدثك عن تاريخها وأمرائها وحالتها السياسية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية . . وهو فى كل ذلك يلاحظ ملاحظات صائبة وأخرى قريبة من الصواب . فى غير حشو ولا إسهاب . وإنما يتلمس مواقع العبرة والفائدة، فإذا قلت إنه من أجمل المراجع التاريخية . فما ذلك إلا أن القارىء يجد بجانب ما يجده من فائدة تاريخية ، متعة أدبية . فلا يشعر قارىء هذا التاريخ بملال ولا سأم حتى ينتهى من الكتاب على ضخامته . هذا حق يجب أن نعترف للسباعى به ونشكره عليه . ولا يعرف مبلغ الجهد الذى بذله السباعى فى إخراج هذا الكتاب بهذه الصورة الجميلة إلا من عانى متاعب البحث والاستقراء فى بطون الكتب ومجلدات التاريخ ، ليخرج للناس ما يفيدهم ويوفر عليهم كثيراً من عناء البحث والتنقيب . . » ، ومضى الفلالى بعد ذلك يذكر بعض مآخذ يسيرة على هذا الكتاب[1] .

---

(١) ص ٢٤ — ٢٩ ج ٣ المرصاد .

الشـــاعر المجهول

نعم هو الشاعر المجهول ، الذى قد لا تعرفه أنت ولا غيرك . وقد يعرفه القليل من الناس ، معرفة خفيفة لا ترشد إليه ، ولا تدل عليه .. هو الذى يقول من قصيدته « فى صحوة الفجر » :

ذكرى من النور ، أو نور من الذكرى — بدا سناه ، فشعت بينه البشرى
ذكرى الهوى ، والشباب الغض ، والأمل الذ — شوان ، والصبوات الحـلوة السكرى
ذكرى ليال طواها الصمت ، واختنقت — فى الغيب - والهفى - أنفاسها الحرى
عـدت عليها العوادى فى ملاعبها — لحولتها على رغم الصبا قـبرا
واحرقلباه ! من دنيا نشرت بها — ذكرى غرامى فلم تنشر له ذكرا
لم يبق لى عندها أو عند خافقها — ذكرى من النور أو نور من الذكرى

ذكرتها وضفاف الليل حالمـة — على الوجود ، فأجريت الدجى شعرا
قـد رق كالخمر حتى شف عن ألمى — وراق كالحب ، يهدى روحى الحيرى
وانساب كالنسمات الناعمـات إلى — ليلاى ، يستبق القلب الذى أسرى
ودب كالفجر فى أحشاء داجيـة — على سرير تحـدى الروضة البكرا
هفـا إليهـا لـترضى وهى غافيـة — فما ألانت له عطفا ولا خصرا
لم يبق فى صـدرها القاسى لعاشقها — ذكرى من النور ، أو نور من الذكرى

سل مقلة الليل فى وجه السماء ، وسل — فى حبنا وهوانا الروض والبحرا
وإن رأيت على صفحاته ثبجا — من الـدماء ، ولم تعلم لهـا سرا
فهى العصـــارة من جفنى فى وله — ومن عصارة جفنيها هى الأخرى
وعد إليها وذكرها هوى كفرت — به ، ولا تمح من صفحاتها الوزرا
وقل لذات الهوى والدل ، مهجته — لن تستريح على الدنيا ولن تبرا
ماذا جنيت فماتت بين أضلعها — ذكرى من النور ، أو نور من الذكرى

كفرت بالحب لما ذقت قسوته ... ونلت منه الأسى والظلم والغدرا
قد عشت نشوان أرعى فى خمائله ... عهدا . وأقبس من لألائه الطهرا
وهمت فى أفقه روحا مسبحة ... وكم تبتلت فى محرابه فجرا
واليوم يحترق القلب الجريح ، وتط ... ويه الحياة . كما يطوى الردى العمرا
هذى جنازته الحمراء سارية ... دم الشهادة يندى فوقها عطرا
فى ذمة الله والأيام شاهدة ... ذكرى من النور ، أو نور من الذكرى

ويقول من قصيدته : « فى موكب الربيع »

يا ربيع الشباب ، والقبلة النشـ ... ـوى « ووحى المنى ، وسر الحياة
يا قسيم السماء فى بهجة الكو ... ن تندت يداك بالخيرات
جئت يا موكب الربيع فجـدد ... ت شباب الزمان بعد فوات
جئت تسعى نخلتك الروح تسعى ... فوق أوصال أعظم هامدات .
قد تحديت فى الرسالة (عيسى) ... وتعجلت البعث إثر الممات .
ومشت كفك الرطيبة فى الأر ... ض لتحيي فى الأرض ميت النبات
أين موسى . . . وقد تلقفت الإفـ ... ك عصاه ، فى مذنبين عصاة
وعصاك ارتأت لظى الصخر إفكا ... فأحالته أعينا جاريات
ومزاميرك الشجية فى الرو ... ض تبث الهوى بشتى اللغات
أين ناى « القريض » أو معبد السا ... حر منها ورنة الكاسات
علمت « داود » الغناء فغنى ... للاوالى ألحانه الخالدات

ويقول فى عيد الأم من قصيدته : « أمى »

روحى وما ملكت يداى فداهما ... فالضوء فى جفنى فيض هداهما
وربيع أيامى ، وقد لمعت به ... أطياف أحلامى ، غراس رباهما
وفؤادى الخفاق بين جوانحى ... صاغاه حبا ضمه قلباهما

وكيانى المختال فى صبواته تحميه من غير الردى كفاهما
وشبابى الريان فاض تألقا بجاهما ، ودمى تدفق منهما
نفسان ؛ إن لاحا على لفح الهجير ر تراقصت فيه النسائم نعما
روحان من طهر ، إذا رضيا عليك لك ترى رضاء الله صنو رضاهما
لا تعص إن أمرا ، ولا تفعل إذا نهيا ، ولا تبهم إذا ما استفهما
وكن الوفى إذا خطت بهما السنون ن ، ولا تقل « أف ولا تنهرهما »
واخفض جناح الذل إجلالا ، وقل فى موكب الداعين « رب ارحمهما »

أمى ، وأمى نغمة طافت على النا اى الأصم فراح يشدو ملهما
هى زهرة الدنيا ، إذا رفت فقد عبق الزمان بعطرها وتنسما
هى نفحة حامت على الروح الشرو د فأبصرت نهج الهداية قيما
هى بسمة تختال فى وجهى الحز ين ، تكفكف العبرات إن دمعى همى
هى مشرق النور الوضىء إذا الزما ن بدا عبوس الوجه أحمق مظلما
هى جدولى الرقراق يبرد غلتى ويبل أحشائى إذا التهب الظما
هى كعبة ، وقفت على أعتابها الا عباد فى صمت سجودا قوما
يتقربون إلى حماها .. خشعا .. وبركنها الأرواح طافت حوما
الدين قدسها .. وكرم شأنها ورعا أمومتها الحنون ، وعظما
جعل الجنان مواطىء الأقدام إذ تخطو ، فنعم من اقتنى وترسما

ناديت ، فانطلق اللسان العبقرى يردد اللحن الجميل منغما
وبكيت ، فامتلأت جفونك لا تبا لى ، أمطرت دمعا صبيبا أم دما ؟
وظمئت ، فانفجر الحنان بصدرك الـ حانى ، يفيض مكارما وتكرما
وغضبت ، فالتفت يداك تعيدنى ورأيت بينهما الحماية والحمى
وعبست ، فانعطفت أناملك الرقا ق على فمى ، وتحركت ، فتبسما
وسهرت ، فازدحمت لياليك الطوا ل مؤرقات ، وارتددن على عمى

ومرضت ، فاحترقت بصدرك مهجة ... حيرى تذوب توجعا وتألما
وفزعت ، فالتهبت بقلبك صيحة ... ناح الوجود لها ، وشرع مأتما
من ذا له قلب كقلبك خير ... حمل المكاره راضيا مستسلما ؟
هو رحمة الله الرحيم تنزلت ... فى الارض ، فارتضت الامومة مغنما

وقد أزيدك به تعريفا ، ولكنه كالتعريف السابق ، فأرشدك إلى قصيدته « هذا هو العلم » التى نظمها فى عيد العلم ، وقال فيها :

أصوغ من دره آيى وألحانى ... وأنشق العطر من ريحانه الدانى
وأقطف الروض من أفياء جنته ... ويرهف النغم السحرى آذانى
وأقبس النور من لمحات وجنته ... فإذ بى اكتحلت بالضوء أجفانى
وأنشد الحب فى طيات مهجته ... فيلهب الظمأ المسعور وجدانى
وأنهل الخير من آلاء راحته ... وألمح الطهر فى إشعاعه الحانى
وأرقب المثل العليا بسامره ... فتسكن الروح هذا السامر الفانى
وأطلب الفضل من كفى سحائبه ... فإذ بفيض من الخيرات هتان
وأبصر المجد معقودا بغرته ... ويأمل الخير فيه كل إنسان
وأعرف الرشد من شتى جوانبه ... فيخطر الهدى فى سرى وإعلانى
وإن بدا العى فاضت من مصادره ... أنهاره الغزر ، لا تعيا بشطآن
وإن طوى الشك دنيا الناس ، واه ... ترقت آراؤها بين تأييد وبطلان
فلا أرى غيره يطوى الشكوك ، ويه ... لى جانب الحق برهانا ببرهان
يسمو بصاحبه دينا ، ويسعده ... دنيا ، ويحفظه من كل شيطان
عقيدتى ويقينى فى صحائفه ... كم من عقائد يبنيها وأديان
هذا هو العلم ، لولا فيضه اضطربت ... عقيدتى بين إشراك وإيمان
ضوء العيون ، وميزان العقول ، ومر ... قاة المعالى ، ورى الظامىء العانى
سر الحياة ، وبانى ركن نهضتها ... أنعم ببنيانه الراسى ، وبالبانى
أبو الحضارات مذ دبت على قدم ... ونخرها منذ أجيال وأزمان

هو الذى ألهم الإنسان فكرته فافتن فيها بتنميق وإتقان
ووجه القلب شطر الحق ، منتقصا منـه عبادة أصنام وأوثان
وأخرج النفس من أكفان ظلمتها إلى وجود سنى الأفق نورانى
وحرر العقل من سجن يضيق به إلى نعيم رحيب الساح فينان
وأوضح السبل المثلى ، وحددها فلا تمر بحيرى أو بحيران
وأنجب الحق فارتاعت لمولده شراذم من بقايا الباطل الفانى
وشيد الملك فاشتدت قوائمه وكم طوى الجهل تيجانا بتيجان
هذا هو العلم ، سن العدل فى أمم فالقائد الجهم والجندى سيان
يا موكب العيد ، هل فى العيد من أمل يطوى صحائف آلامى وأحزانى
العـلم أشرق نورا ، وانثنى لهبا فذاب فى وهجه صبرى وسلوانى
قد كان قبل « جنى » نسعى لنقطفه فبات وهو « جنايات » بطوفان
أشار فاهتزت الدنيا مطأطئة جبينها وهى فى صمت وإذعان
وسخر الكون مطوياً بإمرته وخالق المعجزات البكر فى آن
قد غاص فى الماء يذكى نار غضبته ويبدل البحر أرواحا بحيتان
وراح يركب ظهر الأرض متكئا على جماجم أشياخ وشبان
وبات يثخنها طعنا ومهلكة حتى اشتكت أمرها للعالم الثانى
وهاج يسبح فوق السحب طائرة تلقى منايا وموتى دون أكفان
وأذهل العالم المكروب وانطلقت أقماره ، لم تجز إلا بسلطان
قد شيعوها « بلايكا » كى تخبرهم بما وعى الأفق فى صمت وكتمان
جرت عليها سيوف العلم دامية ومزقتها ، فزكوها بإنسان
لم يبق ركن على الدنيا يلوذ به طيف السلام ، وقلب طيب حان
ولم يعد موضع للأمن يسكنه قوم من الإنس ، أو شعب من الجان
هـذا هو العلم ، قد ذلت لإمرته قوى الطبيعة وانقادت بخذلان
يا لهف نفسى عليه ، إذ تسخره قوى الجانين فى حرب وعدوان
هـذا عتابى « لعيد العلم » أسكبه يا عيد مهلا ! فما ترضيك أشجانى

يا فتية العلم ، حيوا العلم واستبقوا ... إلى المعارف ، واسقوا كل ظمآن
وعلموا العالم العربيد أنكم ... أصحاب مجد وآثار وعرفان
وسخروا العلم فى الخيرات ، وامتثلوا ... به الهداية فى تقوى وإيمان
وشيدوا صرحه بالسلم ، واحتفلوا ... بعيده يوم يطوى كل خسران

وله كذلك من قصيدة أخرى عنوانها « يا خير ذكرى » ، وقد نظمها فى ذكرى المولد النبوى الكريم ، وجاء فيها :

عودى إلينا بأسرار الهدى عودى ... وأيقظى الكون من أحلامه السود
وطهرى الأرض من ظلم يمزقها ... ومن ظلام يعميها ، وتسهيد
وجددى ثوبها البالى بما نسجت ... يداك للحق من ذكرى وتخليد
وحطمى فوقها أصنام سادتها ... فليس فيهم سوى غمر وعربيد
وبددى ما عليها من أذى وأسى ... وأفعمى أفقها بالخير والجود
وأشرقى فوق دنيا الناس ، وأتلقى ... كالبدر فى الأفق ، أو كالعقد فى الجيد
لأنت ذكرى وليد ليس يشبهه ... ما ترزق الناس من شتى المواليد
هذا وليد الهدى ، قد لاح مفرقه ... وكان مولده عيدا على عيد
لم تشهد الأرض مولودا يفاخره ... ولو رأت كل يوم ألف مولود
ذكرى من المجد أعيى مدحها قلمى ... ولن يوفيها فى المدح مجهودى
وكيف يرقى إلى أمجادها قلمى ... وكيف يسمو لها أسمى أناشيدى
لا ألحق الشمس فى داراتها أبدا ... ولا يفى « خير خلق الله » تغريدى
لم يكفنى الشعر مهما عز قافية ... وليس يسعفنى نايى ، ولا عودى
فالشعر فى مدح « طه » لا يكافئه ... ولو يردد فى أنغام داوود
ولست أملك غير النفس أبذلها ... فداء « طه » على حب وتمجيد
أجود بالنفس نشوانا ومبتهجا ... « والجود بالنفس أقصى غاية الجود »
« يا خير ذكرى » رأتها الأرض من قدم ... فاضت عليها بإشراق وتجديد

بدا جبينك في الدنيا فنضرها ... وأخصب الجدب في الأمصار والبيد

وشع ضوؤك لماعا على يبس ... من الزروع ، فأجرى الماء في العود

قد لاقت « النار » عبادا لها تبعا ... هاموا بها ، بين تقديس وتمجيد

عبادها مثلها ، يا سوء ما عبدوا ... أتعس بعابد نيران ومعبود

وبات « إيوان كسرى » ليله هلعا ... يبكي لما كان من فن وتشييد

أحجاره الصم قد عافت أماكنها ... تأبى الحياة على حبس وتقييد

لا « النار » تبقى « ولا الايوان » يسندها ... كلاهما بين مفقود وموءود

وهكذا الحق ، إن لاحت بشائره ... فكل شيء سواه غير موجود

يا سيد الخلق ، والذكرى تؤرقني ... رضاك غاية ما أرجو ، ومقصودي

أتيت ، والأرض حيرى في ضلالتها ... ودولة الشرك في عز وتعضيد

والكفر أغرق دنياها ، وأخرسها ... والناس ما بين سفاك ورعديد

الشيخ والطفل هاما في ضلالهما ... وأشركا بين إكراه وتقليد

والخمر والحرب والآثام قد جمعت ... بين العجائز في الأسواق والغيد

دنيا من الظلم والطغيان قد عبثت ... بها الطغاة ، وأسياف الصناديد

فجئت يا منقذ الدنيا ومرشدها ... تهدي إلى الخير في صدق وتوحيد

رأتك مكة فاهتزت جوانبها ... وردد الأفق ألوان الأغاريد

أنعم بجبهة « طه » يوم طلعته ... سالت ضياء ، وحلت كل معقود

« يا خير ذكرى » ، وهذي « مصر » قد ... لعبت بها الغوايات من باغ وعربيد

« الفاسق الغر » قد أشقى سعادتها ... ولم يكن ظلمه فيها بمحدود

قد غره الملك في زهو وفي طرب ... فراح يبطش في جرم وتهديد

وراح يفعل ما ترضاه شهوته ... من المآثم في ليلاته السود

باتت على الجمر مصر وهي صامتة ... تشكو إلى الله ظلم القادة الصيد

طفل تكحل عينيه مطامعه ... بلا رقيب ، ويأتي كل منشود

يعيش في عهده الباغي يزلزها ... فكان عهدا بغيضا غير محمود

وتلك ذكرى رسول الله تبصره ... ينأى عن النيل في ذل وتشريد

يا سيد الخلق والآمال باسمة بتنا على الحق فى رشد وتسديد
ذكراك قد جمعت تلك القلوب على حب مكين ، وإخلاص وتأييد
تشرد الملك الطاغى بهمتهم ووحدوا صفهم فى بهجة العيد
كل يفدى أخاه فى هدى وسنا فبارك الله منهم كل مجهود

وبمناسبة الاعتداء الغادر فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، يقول من قصيدته «من وحى المعركة» :

حيوا مراكبها وقد فاضت هوى وتلألأت نورا ، وعزت مشهدا
واستلهموها المجد والأمل الحبيـ ـب ، وقبلوا منها المراشف واليدا
واحموا حماها بالنفوس وإن غلت وابنوا لها الركن الأشم مشيدا
وضعوا على وجناتها القبلات فى لهف يبيت به المحب مسهدا
وامضوا إلى أمجادها الغراء ، وا تهلوا بكعبتها ، وخروا سجدا
هى «بور سعيد» نغمة علوية ملئت مقاطعها الجميلة سؤددا
صاغ الزمان جلاله منها ، وردد دها ، فكانت خير لحن رددا

نزل البغاة على «القناة» وإذ بها تجرى دما حرا ، وطهرا أمجدا
لم يعبأوا بشريعة أو صيحة للحق غناها الزمان وأنشدا
سفكوا الدماء الزاكيات غواليا نهبوا الكنيسة ، واستباحوا المسجدا
كم من يتيم بات يبكى حظه ويئن مما كان يوم تشردا
كم من رضيع ضج منه مهده ، لما رأى أبويه حين استشهدا
كم من عروس لم ترف بخدها قبلات فارسها الذى ذاق الردى
كم من فتى سوى الشباب قوامه تركوه فى جنبات مصر ممددا
كم من عجوز خر تحت رصاصهم فشكا إلى الله القوى وأشهدا
ياويلهم مما جنوا فى حربهم تعسوا بما عملوا ، وخاب من اعتدى

جاؤا إليها فى ضلال ماكر دنس، وقد لبسوا القناع الأسودا
لهفى عليها ، حين فاجأ فجرها ليل تمرغ فى الرمال وعربدا
ومضى يحث خطاه فى غبش الخفا فيش اللئام ، وباللئام استنجدا
ومضى « ابن جربوع» على آماله الا حيرى ، وأرغى بالنحيب وأزبدا
وإذا « بايدن » ثم « دلس » شلتا فطواهما الحق العزيز وأبعدا
وهوت « بموليه » خلاعته وعا د إلى مباءته الخليعة أنكدا
مسحت دموع الخزى وجنته فسا ل « الروج » فوق خدوده وتمددا
وجرى على شفتيه أحمر فاغتدى قردا ثقيل الخطو أقرع أرمدا

نزلوا بمصر ، وفى العرين أسوده تحمى حمى مصر إذا عاد عدا
حقدوا على مصر المجيدة مجدها الـ غالى ، وحق لمثلهم أن يحقدا
منوا نفوسهم المريضة ، والأما نى المريضة رددت رجع الصدى
فأذاقهم فتياتنا وشبابنا طعن الصدور مصوبا ومسددا
وطووا على أسيافهم آمالهم فمضوا بخيبتهم حيارى سهدا
واستنزفوا دمهم حلالا طيبا . . ورموا جماجمهم وقد ضاعت سدى
قالوا لهم : مصر أعز معاقلا وأشم هامات ، وأعلى فرقدا
عاشت بحاضرها العظيم ، ولم تعد مصر تبالى اليوم أو تخشى الغدا
طوت العهود السالفات، وقد غدت قبرا لمن رام الأذى وتمردا

رصد البغاة لغزوها أحلامهم وإذا بحلمهم الهزيل تبددا
الصبح فاجأه ، فجر ذيوله حيران ، أتهم فى الضلال وأنجدا
هبطوا من الجو الفسيح وإذ به لهب تلظى ، أشعلته يد الفدا
وأتوا بأسطول كسيح شق عر ض البحر فاستخذى وبات مقيدا
ياويلهم كانوا قديما سادة واليوم بات حماهم نهب الردى

كانوا الحماة الحاكمين ، وأصبحوا عارا على دنيا الشعوب مؤبدا
واليوم أمسوا خاسرين أذلة ومضى بمجدهم الزمان وبددا
ياموت لاتترك ذليلا بعد ما قد كان فى دنيا المطامع سيدا

ياشعب مصر ، وفى جبينك غرة أعمت جفون من استبد وهددا
علمتهم أن الحيـاة كرامـة ما عـاش من يحيا بها مستعبدا
لقد انتصرت على عدوك شاهرا فى وجهه سيف العدالة والهدى
فارتد مذعورا ، وفديت الكنا نه ، ما أعز المفتدى والمفتدى

ويقول من قصيدة له فى يوم الجزائر :

خلعت فرنسا ثوبهـا ومضت بفتنتها تقامر
هتك الزمـان حجابهـا فبدت مهتكة السرائر
نسيت صباها يوم ذل لهتلر ، وغدت تسامر
واليوم تسرع خطوها فإذا بهـذا الخطو عاثر
قامت تهـدد وهى لم تلد الأباة ولا القياصر
أين القوى كانت لتحـ ميها ، وقـد أسرت بغابر ؟
تعـدو على شعب الجزا ئر ، ماجنى شعب الجزائر ؟
صبت عليه عـذابهـا ومضت تشق به المرائر
ظنت بأن حـديدها يقضى على العزم المثابر
شعب الجزائر لا يمو ت ، ولا تزعزعه الأعاصر
لا يهزم الإسلام من سيف يضل بكف كافر

ونظم قصيدة أخرى بعنوان « وجه جميل » جاء فيها :

يقضى على ويحكم يا ليته لا يظلم

وجه حلت شقوتى فيه ، وفيها أنعم

يأيها الوجه الجميـــل ، رنت إليك الأنجم

عيناك سحر قاتـــل شفتاك وحى ملهم

خداك قـــد سقيا الورو د ، وثار تحتهما الدم

الله أكبر قبلتى فمك الجميـــل الناعم

شفتى تصلى عنده خمسا ، وبعد تسلم

لاموا على صبابتى وهـــل الصبابة تحرم ؟

ياويلهم فى جرمهم حكموا بمـــا لم يعلموا

هذا هو الشاعر المجهول ، محمد أبو النصر غانم ، أحد أساتذة اللغة العربية بإحدى المدارس الثانوية بالقاهرة (مدرسة النيل) ، وهو شاعر ينم عليه شعره ، ويترجم حاضره عن مستقبله .

وفى قرية هادئة وادعة من قرى مركز شربين دقهلية ، وفى اليوم العشرين من يوليو عام ١٩٢٣ ولد (أبو النصر غانم) ، وفى سن الثامنة تقريبا أرسله والده إلى كتاب قريته (كفر ميت أبى غالب) وقضى بالكتاب سنة كاملة لم يعرف فيها حرفا واحدا لقلة العناية بالتعليم فى هذا الكتاب الوحيد .

وأخذه والده بحفظ القرآن الكريم حتى أتم حفظه ولم يبلغ العاشرة بعد من عمره . ثم أرسله إلى شيخ كبير من علماء الازهر القدامى بقرية (ميت أبو غالب) المجاورة لقريته — وكان هذا الشيخ من كبار الاولياء ، يتمتع بمكانة فى القلوب ، ونفوذ واسع المدى ، لتزوده بالتقوى ، وتفانيه فى العبادة وحبه الخير لكل من عرفه ومن لم يعرفه ،حتى ألحق بالأزهر كثيرا من أبناء البلاد المجاورة ، ذلك هو الشيخ « مصطفى أبو بسيونى » رحمه الله رحمة واسعة .

(وفرح أبو النصر) لأنه سيذهب يوميا (لميت أبى غالب) فيستريح من الضرب ، وظل أسبوعا واحدا يقرأ القرآن فى منزل الشيخ الكبير وأعجب

الشيخ بحفظه وتجويده فأشار على أبيه بأن يلحقه بمعهد دمياط الديني ولم تدم مخالفة والده كثيراً فقد تعود ألا يعصي للشيخ أمراً ..

والتحق بالمعهد في عام ١٩٣٧ ونال الشهادة الابتدائية عام ١٩٤١ ، وانتقل إلى معهد طنطا ليتمم به دراسته الثانوية التي حصل عليها في عام ١٩٤٦ ، والتحق بعدها بكلية اللغة العربية من كليات الازهر الشريف وتخرج فيها عام ١٩٥٠ ودخل معهد التربية العالي للمعلمين بالقاهرة وتخرج فيه عام ١٩٥١ يحمل آخر مؤهل دراسي له (دبلوم معهد التربية العالي) .

وما إن تخرج حتى عين عقب تخرجه مدرسا للغة العربية بمدرسة الملك الصالح الابتدائية بالمنصورة في أوائل نوفمبر عام ١٩٥١ وفي نفس اليوم من عام ١٩٥٢ رقي إلى المدارس الثانوية ، وانتقل إلى مدرسة دكرنس الثانوية للبنات ، وكان مثالا المدرس الكفء الجد ، مما كان سببا في انتدابه عضوا بالبعثة التعليمية المصرية لليمن في أول نوفمبر عام ١٩٥٤ ، وبقي بها عامين دراسيين كان فيها من خير أبناء مصر في الخارج : خلق طيب ، وسمعة نظيفة ، ودقة في العمل ، جعلته مثالا للمدرس المصري الذي يمثل مصر خارج بلاده ..

ثم عاد من البعثة إلى مدرسته التي أعيد منها « مدرسة دكرنس الثانوية للبنات » في نوفمبر سنة ١٩٥٦ . ولم تطل إقامته بها فقد نقل إلى مدرسة شربين الثانوية للبنين في ديسمبر عام ١٩٥٦ .. وبقي بها فملأها نشاطا دائبا ، ونهضة عامة ، وحركة دائمة ، إلى أن نقل منها إلى مدرسته الحالية « النيل الثانوية للبنين بشبرا » في أكتوبر سنة ١٩٥٧ .

وكان في جميع هذه المراحل موضع ثقة رؤسائه وتقديرهم ، وموضع إجلال زملائه وحبهم ، ووفاء تلاميذه وتعلقهم به .

هذا هو الشاعر المجهول ، الذي لم يعد شعره اليوم مجهولا ، والذي سوف يضعه شعره في منزلته الخليق بها ..

أحمـــد عارف الزين

(١)

شيخ جليل وقور ، وإمام من أئمة الفكر الإسلامى فى العصر الحديث ، ومجاهد أبلى بلاء حسنا فى خدمة الإسلام والعروبة ، وصحفى قديم أصدر جريدة العرفان منذ أمد طويل ، وقد احتفل العالم الإسلامى والعربى باليوبيل الذهبى لهذه المجلة العتيدة فى ربيع الأول عام ١٣٧١ هـ — ١٩٥١ ، وصدر فى هذا التاريخ عدد ممتاز من العرفان يسجل صورا كريمة من جهاد صاحب العرفان ومجلة العرفان ، وآراء أئمة الفكر الإسلامى والعربى فى صفحات صاحب العرفان البيض ، وأياديه الجليلة ، على الشرق العربى وعلى المسلمين والثقافة الإسلامية .

يقول صاحب العرفان فى صدر هذا العدد من أعداد العرفان الذى صدر بمناسبة اليوبيل الذهبى ، يصور كفاحه ونضاله وجهاده .

« ابتدأنا فى الكتابة منذ ٥٥ سنة وأول كتابتنا كانت فى ثمرات الفنون والاتحاد العثمانى ثم فى جريدة حديقة الأخبار إذ كنت وكيلها ومراسلها فى صيداء ، وكل كتابتنا أوجلها كانت فى محاربة الزعماء المستبدين ، ونقد الموظفين الخائنين المرتشين ، ونصرة القائمين بنشر الحرية والدستور .. هذه حالنا على عهد العثمانيين حيث سجنا سنة ١٩١٢ م شهراً ونصف شهر ثم أخذنا مع من أخذ سنة ١٩١٥ م بعد أن روع أهل بيتنا فى المرة الأولى والثانية إذ أحاط الدرك بدارنا وأخذونا أخذ عزيز مقتدر وعطلت جريدتنا ومجلتنا ، وهكذا كان حالنا فى عهد الفرنسيين ، فقد منينا بالتعطيل وحرق العرفان وشدة مراقبتها وبالتشريد والسجن ، إلى ما لا نهاية له .

(٢)

« والشيخ عارف الزين علم من أعلام العروبة الميامين ، وبطل من رجالها الأفذاذ المجاهدين ، الذين جاهدوا جهاد الأبطال الصناديد . لقد كان هذا الشيخ الجليل العارف دائماً يأبى الذل والعبودية ، ويناضل فى سبيل الحق والحرية ؛ وقد كان قذى فى أعين الأعداء والمستعمرين المستبدين ، ولم يكن يخشى سطوهم أو بطشهم ، بل ظل يهاجمهم ويشن عليهم الحملات الشديدة بكل ثبات وإخلاص لأنه قد كان حقا أبى لا يلين .

الشيخ عارف الزين هو صاحب ومؤسس مجلة « العرفان » الغراء ، ولكن لم يكن همه الأوحد الصحافة والجهاد بها فحسب ، بل إنه جاهد أعواما طوالا وهو صامد يجالد بكل قوته ومعنوياته ، واقفاً فى وجه الأعداء الأجانب وقفة الأسد المفترس دون أية خشية أو جزع ، طالباً فقط تحرير بلاده ووطنه من يد الاستعمار والاستغلال . ولم يطل العهد حتى نال الوطن استقلاله ، وأزاح عنه كابوس الظلم والجور .

إن هذا البطل الذى جاهد وناضل كان فعلا ابن الشعب ويمثل الشعب فى صميمه أينما حل وحيثما رحل ، حين كان الزعماء يفترشون الحرير . . . فحق أن يكرم هذا الشيخ الجليل الذى بذل شبابه وكهولته فى جهاد مستمر ومقاومة شديدة ضد المستعمر الغاشم ، دون أن يطلب من الشعب أن يكافئه حق المكافأة بما هو أهله عما بذل من جهود وعناء ، وقاسى الأمرين من العقاب والهوان ، وذاق الحبس والتشريد وأشد أنواع العذاب لأجل مبدئه القويم وعقيدته الراسخة التى لا تتزعزع ولا تتبدل ولا تأبه للظلم والطغيان والتحدى[1] .

وليست[2] « العرفان » مجلة أدب وعلم ودين فقط ، بل كانت صحيفة مشرقة من صحف الجهاد فى سبيل الاستقلال والوحدة والقومية العربية ، وكان

---

(١) ص ١٣٥ العرفان عدد ربيع الأول ١٣٧١ هـ من كلمة فتحى يعرب .

(٢) الاثنين ١٥ محرم ١٣٧١ ، ١٥ ت ١ ١٩٥١ ، السنة الثانية والعشرون جريدة القبس الدمشقية.

صاحبها ـ وما برح ـ ذلك الرجل المناضل الذى لم يتعب من الجهاد ؛ فقد شرع قلمه منذ زمن طويل ، وأنفق ثروته وأملاكه لمحاربة الانتداب الفرنسى والتجزئة ، ولم يترك ساحة من ساحات العمل ، أو سجناً من سجون الوطنيين والمجاهدين، إلا وأثبت فيها وجوده بقوة ورجولة وإخلاص منقطع النظير .

لقد عاش هذا الجيل والجيل الذى تقدمه ، على سماع نخبة من العلماء والأدباء والوطنيين المناضلين يخطبون من فوق منبر «العرفان» فيهزون النفوس والقلوب ، ويثيرون الشعوب العربية والإسلامية لتهب فى سبيل ربها وحقها ووطنها . وكان الشيخ عارف الزين صاحب الصوت الأعلى والقلم الأقوى والذمة الطيبة والخلق الرضى المتواضع ، والكرم الطبيعى غير المصطنع . إنه مجموعة ممتازة من تقوى ووفاء وإخلاص ؛ عاش هذا العمر كله ، فلم يعلق بوطنيته غبار .

(٣)

أصدر هذه المجلة « مجلة العرفان » الغراء المشهورة فى عهد الحكومة العثمانية فى ورق أصفر متوسط وبحجم صغير فى أجزاء صغيرة . ثم أخذت المجلة تزداد توسعاً وأبحاثا وعلما وأدبا وغيرها من القصائد الشعرية والقصص النقية ، حتى أخذت فى الانتشار فى سائر الأقطار .

وفى سنتها الثالثة صدرت فى ورق أبيض سميك وقصائد لامعة وأبحاث راقية ومقالات نفيسة لمختلف الكتاب والشعراء فى البلاد العربية والمدن الشرقية والغربية .

وقد حرر فيها العلامة شيخ البحرين الحلى والعلامة الشبيبى والأستاذ الشرقى والشاعر الفقيد الرصافى وزميله الزهاوى وغيرهم من أقطاب سوريا ولبنان وإيران ومصر وبلاد المهجر .

صدرت[1] (العرفان) سنة ١٣٢٧ للهجرة ، وكان يعد لها موادها فى موطنه صيداء ويطبعها فى بيروت متحملا أثقال الإنفاق على طبعها ومشاق الذهاب

---

(١) ص ٣٥ مجلة العرفان عدد ربيع الأول عام ١٣٧١ هـ من كلمة الشيخ سليمان الظاهر

والإياب والتصحيح والتوزيع ، وكأن لله بهذا العامل النشيط عناية خاصة ومشيئة فى شد أزره بما هو ميسر له من هذا العمل المجدى ، فمهد له أسباب التوفيق بتأسيس مطبعة العرفان وضحى فى هذه السبيل بمرفق لا يستهان به من مرافق الحياة . وفى سنة ١٣٣٠ﻫ عزز المجلة بإصدار جريدة جبل عامل الأسبوعية الجامعة يؤازرها رهط من كبار كتاب العربية بعاملة والعراق ولبنان وسورية وفريق من نوابغ شعراء عاملة والعراق فجارت كبريات الجرائد الصادرة فى ذلك العهد وقبله فى الموضوعات المختلفة السياسية والاجتماعية والأدبية وفاقتها فى الناحية الأدبية ولم تحجم عن نقد السياسة العثمانية بمنتهى الصراحة . ولما كانت كلمات الدستور العثمانى الذى قلب أوضاع الحكم السابق (الحرية الإخاء المساواة) خلواً من معانيها الصحيحة التى بنيت على أساسها دساتير الأمم الديمقراطية الحرة وقد برزت نيات القابضين على زمام الحكم العثمانى وهم الاتحاديون بأجلى مظاهرها وهى تهدف إلى الاستئثار به والحط من كرامة الشعوب غير الطورانية وإلى سياسة ذوبان العناصر غير التركية فى بوتقتها تنكرت لكل مفكر يخالف مبادئها ولكل صحيفة عربية أو غير عربية تناهض سياستها فكان للعارف الأبى الحر من نقمة الاتحاديين ومن لف لفهم الشىء الكثير سواء أكان فى مجازاته بالغرامات المالية أم فى السجن أم فى تعطيل جريدته مما اضطره إلى توقيفها بعد بلوغ سنها العام ومجموعتها إلى ما كانت تعرض إليه من أبحاث شتى مختلفة النواحى أشبه بكتاب أزلى يجدر به أن يكون صفحة لامعة من تاريخ الآداب العربية . وكانت جريدته الحرة وهى معمرة عام ومجلته التى نفخ فيها حرفه روح الحياة ، إلى جهاده الوطنى فى العهد العثمانى واتخاذ المجاهدين منزله الرحب ومطبعته ندوة للسياسة العربية وخاصة أول نشوب الحرب العامة . وقد سنحت الفرصة لتقرير مصاير الشعوب العثمانية . وقد غامرت الدولة العثمانية بخوض ميادينها ، كانت هذه الأمور إلى ما يضارعها من أخطر ما واجهه العارف وإخوانه من جور محكمة عالية العرفية ، وسيف جمال السفاح ، ولم يكن عهد الاحتلال له ولعرفانه أحسن حالا بل لاقى منه أضعاف ما لاقاه

فى العهد العثمانى الاتحادى . ولم يفت ذلك كله فى عضده ، ولا فل من غرب حده ، فمضى فى جهاده الصحفى والوطنى ماضى العزيمة مؤديا رسالته أسمى أداء ، مستخفا بكل مااعترض سبيله من العثرات فأخرج لندوات العلم والأدب أسفارا من عرفانه هى فى الواقع موسوعة علمية أدبية اجتماعية تاريخية وطنية مسايرة نهضة نصف قرن فى هذه النواحى مسايرة جليلة جلية لاأمت فيها ولاعوج معدودة من المراجع الكبرى كما كانت صلة الوصل بين أدباء الأقطار العربية وغير العربية وعلمائهم الأعلام ومدرسة سيارة تخرج بها كثير من النشء العربى العاملى وغير العاملى ولم تسد باب النشر فى وجوه المتمرنين بل سايرت مواهبهم إلى أن بلغوا أشدهم فى المنظوم والمنثور وأما ماأسدته إلى صيداء وإلى تاريخ جبل عامل السياسى والأدبى المنسى وجله مأخوذ من قصاصات أوراق باليةومن مظان مختلفة وما أدته إلى حياته الاجتماعية والوطنية وماخدمت به اللغة العربية وآدابها وما كان لها من أثر فى النهضة العاملية وفى إحكام الصلة بين المقيم والراحل وما إلى ذلك من جليل الفوائد فحسب القارىء أن يتصفح مجلداتها وفيه الغنية عن الإطناب وعن التعريف بهذه اليد البيضاء للعارف العامل.

هبط[1] صاحب العرفان صيداء ، وكان لى حظ التعرف به ، وأظنه كان حوالى سنة ١٩٠٦ وكنت حينئذ طالبا فى مدرسة الفنون الأميركية ، وقد تمكنت أواصر الصداقة بيننا بالإضافة إلى أواصر القرابة حين بدأت أدرسه اللغة الانكليزية ـ وناهيك بانكليزيتى فى ذلك العهد ـ وأولى انطباعاتى عنه أنه كان نظيفا ومرتبا جداً فى بيته ، اتبع الطريقة العصرية فى حياته الشخصية وفى تربية أولاده ، وطعامه وشرابه ، وكان يستمد معلوماته من المجلات العربية المصرية وخاصة المقتطف حتى إنه كان يسرف أحيانا فى تطبيق النظريات العصرية . وأبرز ماأعجبنى من أخلاقه اجتهاده الشديد فقد عكف على دراسة

---

(١) ص ٦١ العرفان عدد ربيع الأول ١٣٧١ هـ من كلمة الدكتور شريف عسيران

اللغة الفرنسية والانكليزية بالإضافة إلى مطالعاته الواسعة في الصحف العربية المختلفة . ولما أنشأ العرفان أصبحت مطبعته سوق عكاظ الأدباء والعلماء والكتاب من الأقطار العربية المختلفة ، وكانت داره منزلا لأهل العلم والفضل من علماء جبل عامل ، وغيرهم من الشخصيات العربية البارزة ، ولا أنسى المجالس الأدبية التي كنت ألتقي فيها بخيرة رجال العلم والأدب في ندوة صاحب العرفان، والتي كانت عاملا فعالا في ميلي الأدبي . ومن الأشخاص البارزين الذين كانوا أعضاءاً دائمين في ندوة العرفان : العلامتان الشهيران الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر اللذان كانا كوكبين ساطعين في عالم الكتابة والشعر في جبل عامل، وكان لهما الفضل العظيم في تعريف هذه البقعة المنسية إلى العالم العربي ، والدفاع عنها في مناسبات شتى، وتعرضا لأنواع الاضطهاد لتمسكهما بعروبتهما وقوميتهما ومن الأشخاص البارزين الذين رافقوا العرفان في أول نشأته المرحوم الشيخ محمد علي حشيشو الذي كاد يجاري المرحوم الشيخ مصطفى المنفلوطي في أسلوبه الكتابي ، وكان يرجى له مستقبل زاهر في عالم الأدب، ولكن المنية اخترمته في ريعان شبابه .

كان هؤلاء من أعز أنصار العرفان في عهد شبابه يغذيه بأقلامه وآرائه ويناصره مناصرة الصديق الحميم لصديقه وكانت مجلة العرفان ميدانا تتبارى فيه أقلام مشاهير العلماء والأدباء والشعراء في العالم العربي ، ولا أتطرق إلى ذكر أسماء الأموات والأحياء منهم خشية اللوم من نسيان قسم منهم .

كانت العرفان تترجم مقالات قيمة عن أرقى المجلات الفرنسية والانكليزية وغيرها من اللغات الأجنبية حتى أصبحت مطمح الأنظار بأبحاثها ولغتها وطبعها الأنيق ، ولو استمرت على خطتها الأولى لكانت أشهر المجلات في عالم الصحافة العربية ، وأوسعها انتشارا .

وللعرفان فضل عظيم في تقوية الروابط الأدبية بين الأقطار العربية وإذكاء

روح القومية ، والدفاع الباسل عن حقوق العرب ، وقاسى صاحبها الخسائر المادية ، والاضطهاد والسجن فى سبيل مبادئه العربية الحرة وقد باع أملاكه للاستمرار على إصدار العرفان ، وقد أخرجت مطبعة العرفان أنفس الكتب العربية ، خطية وغير خطية ، وأبرزت كوكبة من الشعراء العراقيين والعامليين الذين كانوا مجهولين بسبب بعد المواصلات وقلة الصحف وعدم وجود التطورات العصرية .

وللمجاهد العظيم « العارف » الشيخ أحمد مقالات نفيسة ومواضيع راقية وأبحاث مفيدة إن دلت على شىء فإنما تدل على معرفة وعلم غزير .

هذا بالإضافة إلى خدماته بطبع الكتب النفيسة للعلماء فى الإسلام : كالهدى إلى دين المصطفى والتفسير وغيرها للشيخ الجواد ، وكتب أخرى فى السياسة لكاتب العراق الأستاذ الحسنى ، بالإضافة إلى مصنفات الشيخ أحمد ومطبوعاته .

(٤)

وقد[1] ولد الشيخ عارف الزين سنة ١٣٠١ هجرية فى قرية شحور (الجنوب) ونشأ فيها وفى صيدا وقد بدأ دراسته فى مدرسة النبطية التى كان يديرها المرحوم العلامة السيد حسن يوسف فدرس فيها التركية والفارسية إلى جانب العربية .

وفى سنة ١٩٠٩ أنشأ مجلة « العرفان » فى صيدا ، يوم كانت المجلات العربية شبه مجهولة فى الامبراطورية العثمانية وكان يطبعها أولا فى بيروت ، ثم اشترى سنة ١٩١٢ مطبعة ، وأخذ يطبع المجلة فى صيدا .

وفى السنة نفسها أصدر فى صيدا جريدة أسبوعية أسماها « جبل عامل » نادى فيها بالأمانى القومية العربية فغضب الأتراك عليه وعطلوا الجريدة

---

١) الأحد ١٤ تشرين الأول ١٩٥١ ، ١٢ محرم ١٣٧١ ، العدد ١٦٦٨ السنة ٦ ، من جريدة الحياة

وحكموا عليه بالسجن شهرا ونصف شهر وقد سجن فى « الشكنة العسكرية » فى بيروت وهى اليوم السراى الكبير . ولم يجرؤ أحد على زيارته فى سجنه غير المرحومين أحمد مختار بيهم ورياض الصلح .

بعد ذلك اشترك الشيخ عارف فى الحركات العربية على اختلافها ، وظل ينادى بالاستقلال حتى وقعت الحرب ثم دخل الفرنسيون البلاد ، فكان فى طليعة الشخصيات التى أراد الفرنسيون اكتسابها ، فحاولوا إغراءه بالمال والوظائف ولكنه رفض التعاون معهم وظل ينادى بالاستقلال ويهاجم الانتداب بعنف ، فى الوقت الذى وجد الانتداب فى الجنوب ألف عون وعون ، وما عقد منذ الانتداب مؤتمر وطنى فى أى قطر عربى إلا وكان فى طليعة المشتركين فيه .

هكذا بقى الشيخ عارف مع نفر قليل جداً من إخوانه الكرام يمثلون كرامة العقيدة الصامدة أمام القوة والسلطان ، ويوحون إلى الجيل الطالع فى الجنوب أن فى الدنيا فضائل أسمى من مغريات المال ونفوذ الحكام ! فى هذه الأثناء كانت « مجلة العرفان » توالى الصدور ، بالقدر الذى تسمح به السلطة المنتدبة التى ساءها أن يتمرد نبيل على إرادتها ، فانصبت عليه بانتقامها وناله من ذلك نصيب وافر من الاضطهاد والسجن والحرمان . وما تبدلت عقيدته وخطته أثناء الحرب الأخيرة ، بل صمد فى السلب والإيجاب أمام الاحتلال الجديد ، حتى كانت حركة تشرين ، وكان الاستقلال .

ولم يكن حظ الشيخ عارف الزين شخصيا فى هذا العهد أفضل منه فى العهود السابقة ولكنه قنع من الدنيا بتحقيق أمانيه الوطنية معتمدا على نفسه فى شق طريق حياته إلى النهاية .

وأسرة الزين لها أن تفتخر بعالمها الجليل صاحب العرفان ، وإن كانت قد حفلت صفحات تاريخها بالعديد من الأعلام الموهوبين .

وقد[1] اشتهرت أسرة الزين الكريمة بانتسابها إلى الخزرج من الأنصار

---

(١) ص ١٧ العرفان عدد ربيع الأول ١٣٧١ هـ من كلمة عيسى اسكندر المعلوف .

واشتهر منهم الشاعر الحاج سليمان الزين الذى ولد له الحاج على الزين فى قضاء صور وهو شاعر مشهور ووالدالشيخ عارف الزين العلامة منشىء مجلة العرفان الغراء المشهورة بخدمتها للأدب واللغة والوطن وكنت صديقا لهذه الأسرة الكريمة .

وللشيخ صاحب العرفان اليد الطولى فى نهضة صيدا العلمية . فأسس فيها مجلة العرفان ومطبعتها ومكتبتها وجمع أسماء مطبوعاتها والكتب التى تباع فيها فى رسالة طبعت فى ٩٦ صفحة ذكر منها هذه النفائس : « مجمع البيان فى تفسير القرآن » للشيخ الطبرسى من جهابذة علماء القرن السادس للهجرة طبعته العرفان . و « الوساطة بين المتنبى وخصومه » لمؤلفها القاضى الجرجانى المتوفى سنة (٣٦٦ هـ ٩٧٦ م) عثر الزين منها على نسختين مصرية وعراقية ، و « قاموس القضاء العثمانى » لمؤلفه الأستاذ سليمان أفندى مصوبع المحامى ، و « سحر بابل ديوان السيد جعفر الحلى النجفى » بقصائد وتراجم ، و « كشف الستار عما لحقوق الدول من الأسرار » بقلم صبحى بك أباظة ، و « العراقيات » وهى مختارات عشرة من مشاهير شعراء العراق طبع بنفقة جامعيه المشايخ رضا وظاهر وزين ، و « الشيعة وفنون الإسلام » للسيد حسن الصدر ، و « الهدى إلى دين المصطفى » لحضرة الميرزا كاتب الهدى النجفى فى سامرا العراقية ، و « الفصول المهمة فى تأليف الأمة » للسيد عبد الحسين بن شرف الدين الموسوى العاملى . إلى مئات من المطبوعات والمؤلفات المفيدة المتقنة ، التى فى مقدمتها تاريخ صيدا ، وهو من تأليفه ، ويقع فى ١٧٦ صفحة .

(٥)

وفى عام ١٣٧١ هـ — ١٩٥١ بمناسبة مرور خمسين عاما على صدور العرفان أقيمت حفلة كبرى أدبية حضرها وشملها بعنايته رئيس الجمهورية اللبنانية والوزراء والنواب وأهل الأدب والفضل ورجال الصحافة والشعراء وذلك بعد ظهر الأحد الموافق ١٤ ت ١ فى قاعة سينما ريفولى الجديدة فى صيدا . وكانت لجنة الاحتفال من صفوة العلماء ، وقد افتتحت الحفلة بالنشيد الوطنى

اللبنانى ، ثم تبارى الخطباء فى وصف مآثر صاحب العرفان وجهاده . ثم ألقى الخطباء كلماتهم عن شخصية الزين وجهاده وجليل أياديه على العروبة والإسلام .

(٦)

ويقول الأستاذ روكسى العزيزى فى صاحب العرفان :

« رجل جامع لخصال الخير ، ذو عفة فى خلائقه ، واستقامة فى طرائقه ، قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب ، إن اوتمن على الأسرار قام بها ، يسكته الحلم ، وينطقه العلم ، له صولة الأمراء ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء » .

أجل هذا هو الشيخ أحمد عارف الزين ، ابن العروبة البار ، وابن الشرق المهيض الجناح ، الذى يدافع عن الحق بقلمه العضب ، ولسانه الموفق ، إلى قول الصواب والحق . فأيام كانت كلمة الحق تقود صاحبها إلى أعواد المشنقة أو إلى غياهب السجن كان الشيخ أحمد عارف الزين يقول كلمته غير حاسب لقيود السجن حسابا ، ولا راهب أعواد المشانق ! فهو من فئة عز نظيرها إلا فى السلف الصالح ، بجسمه الخفيف ظله يكاد ينوء بمطالب روحه الكبيرة والشيخ غريب فى صبره وجلده على تحمل المكاره فى سبيل العقيدة والمبدأ .

أجل صفات خارقة تمتاز بها النفوس الكبيرة والشخصيات الجبارة ، تلك الشخصيات وتلك النفوس التى كان يبحث عنها ديجينسيوس الفيلسوف اليونانى حاملا سراجه فى وضح النهار ! فنحن إذا رافقنا هذا المجاهد الخالد الشيخ أحمد عارف الزين وجدنا حياته سلسلة من صبر الأبطال ، واحتمال الفلاسفة الأفذاذ ، فلقد كافح وناضل مدة خمسين عاما والناس يغطون فى سبات الخمول ، ليس له من مشجع سوى قوة إيمانه ، وصلابة إرادته ، وهذا الخلق المصفى يهزأ بالمصاعب والعقبات ، فلقد رأى جبالا من الجمود ، وآكاما من الجحود ، ونكران الجميل ، فسلط على هذه جميعها قوة إيمانه يؤازره قلم فذ فى جرأته الأدبية .

ويقول بولس سلامه فى تكريم صاحب العرفان بمناسبة اليوبيل الذهبى لمجلته :

« كنت صبيا ساعة جيء بى إلى صيدا تلميذاً لمدرسة الفرير ، وكان ذلك اليوم أول عهدى بمدينة ، ولا تزال صيداء تستبق حواضر الدنيا جميعا إلى ذهنى كلما ذكرت المدينة ، فكأن خاطرى فلذة منها على رأى الواقعيين وكأنها جزء من نفسى فى مذهب المثاليين . وسحر ذلك العالم الجديد وليد قرية لا تجاوز الستين بيتا عدا . وراعنى أكثر ما راعنى بحر تضل فيه العين ، وكان أكبر ما شهدت قبله صهريج القرية ، ومآذن بيض تذكر باللا نهاية ويسبح فيها الله بكرة وعشيا ، وكان أرفع ما رأيت قبلها عمود البيت ، ومطبعة العرفان ، ولم أكن قد شهدت قبلها فى عالم الآلة سوى آلة الخياطة لدى جارتنا العجوز الشامية . ولو درى صاحب العرفان يومئذ أن ذلك الولد يستطلع من وراء الزجاج آلات المعرفة ولا يجرؤ على الدخول لما ضن عليه بابتسامة مشجعة ، ولكان أطلعه على سر تجسد الروح فى الحديد وانطباعها على الورق فكراً يقرأ ، بعد أن علم الله بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم . ولكن خوف الصبى ومهابة الشيخ الذى استعجل الرصانة فاختصر الشباب ونذر نفسه للعلم فتوج بتاج العرب إذ تعمم ، كل ذلك قصر فضول التلميذ الذى أدرك ولو من وراء حجاب ان خلف الواجهة الزجاجية فى ساحة السراى حديدا نابضا يركز المعرفة ويبثها فى كل قطر كوثراً رائقاً وسلسالا شراباً تخف إليه الأفئدة قبل الحناجر ، وإن ذلك الشيخ الفتى الجليل هو ألف الحركة وباؤها . ولو انكشف له الغيب يومئذ لعلم أن صاحب العمامة التى صدته عن الدخول سيغدو صديقه المتفضل ، وأن تلك الهالة البيضاء إطار ينصهر فيه الأنس الوادع والأريحية الوثابة والهمة التى تذيب الحديد ولا تذوب . ويقيناً أن الشيخ أخلق حروف المطبعة وأبلاها ثم جددها وأعادها ، ذلك أنها ناءت بما حملها فصب عليها مما يضطرم فى صدره مارجاً يسمونه فى عرف القومية جهاداً ، وسيرها فى حركة دورية كحركة الكواكب أو دورة الدم فى الجسد فى ما يدعونه

اللغويون أدبا ، فإذا ما وهنت واشتكت نصباً أهاب بها صاحبها... وبمثل هذه الحيوية الدافقة مضى صاحب العرفان في عرفانه تدفعه قوة الإيمان وشجاعة الربان الذي يسير الزورق بالمجذاف إذا بلى الشراع وكل الهواء وسجى الماء ، ولكن هذا الجفاف نفسه زاد في همة الشيخ فمشى على العقبات كلما تلاشت واحدة أوجد أختها لتكون لهمته مسرحاً جديداً . وكذلك يفعل البطل فإذا خمدت الحرب خشي على ساعده أن يضمر وعلى سيفه أن يصدأ فلا يزال يشحذ غراره . وبديهي ألا يضرب به الخلاء لأن الساعد الذي مرن على بتر الجلاميد يؤلمه الفراغ ويستطيب الصدمات فكأنها خلقت برهاناً على صلابة عزمه .

والصراع آية العامليين ، بل تذكرة هويتهم بدءاً من الحارث الذي يروي تلاله الجرداء من عرقه ليقوى على تفتيت صخورها واستخراج الحياة من جلاميدها ، حتى العالم الذي ينطوي على نفسه فيستنبط منها كل ممكن ويبعثه من القوة إلى الفعل فإذا استجابت الممكنات وأسلست قيادها تجاوزها إلى المستحيلات أو كاد . ويفتح الأديب العاملي بصره على الصعيد الظامىء فيضطرب صدره من ألم الحرمان ، ويكون الوجع طريقه إلى المعرفة ، ويخصب الشعر حيث لا تنبت الأرض إلا شوكا وقتاداً . ويخضوضر الفكر حيث يخيم الفكر أو يطنب الشقاء ، فعلى صخور اليونان أمرعت الفلسفة ، وعلى رمال الحجاز أزهر نهج البلاغة ثم استحال في العراق فاكهة وأبا وحدائق غلبا وجنات ألفافاً .

من هذه الأمة خرج عارف الزين المجاهد النافس بكرامة بلاده عن الهوان إذ أنطقه الحق يوم خرس الأكثرون إلا عن الزلفى ، فقال للعميد قولا لا تفوقه إلا جرأة الفرزدق في حضرة الخليفة الأموي . ولتلك شيمة القائد الباسل لا يبرح الساحة بل تظل يده على اللواء حتى لا تبقى له يدان . ولو تفردت برأيي في الشيخ لا تهمني من يرى في الصداقة للاتهام سبيلا ، ولكن الإجماع

حجة أسندت إلى حديث لا ينقطع . ولو لم يكن للشيخ — على كثرة مناقبه — إلا فضيلة الثبات لأوضحت سبب إعجاب العرب بعرفانه ، وإنما الثبات أفضل درس يتلقاه النشء الطالع الذى يشده الترف إلى التلجلج والخور . أو لم تر أن الكتاب آثر الصابرين حتى على الموفين بالعهد .

(٧)

ومن قصيدة الشاعر موسى الزين شرارة فى اليوبيل :

جئنا نؤدى ولكن بعض ماوجبا … من ذايفى العلم تكريما أو الأدبا ؟
حنانك الله كم يشقى بموطننا … أخو اليراع وكم يلقى به النوبا
وكم تمر ليال وهو ساهرها … يراقب النجم فيها هل أو غربا
وإن نجد أو نغالى فى حفاوته … نهدى له الشعر أو نهدى له الخطبا
أينصف العلم اطراء وينصفه … أنا نقيم إلى أبنائه النصبا ؟ !
وعزة العلم لو تهدى لصاحبه ا … لسماء والأرض والأفلاك والشهبا
لما وفيت ولا أنصفت مهجته … تلك التى بدماها خضب الكتبا
كذاك أقسم لولا أنفس شغفت … بالشعر ما كان فى الدنيا ولا طلبا
ما للأنام وفن كله ألم . … جر البلاء على أهليه والنوبا
أجارك الله من داء الأديب ولا … رأيت قلبك ثديا يرضع القصبا
ماذا إذن يا ترى أهدى « لعارفنا » … والشعر لم يبق لى مالا ولا نشبا
صحبته وأنا المثرى فغادرنى … ولست أملك إلا الاسم واللقبا
قد كنت أغبط أهل الشعر معتقداً … أن لا حياة لمن لم يدرك الأدبا
حتى إذا صرت منهم وابتليت به … رحمت كل فتى بالشعر قد نكبا
خلقت حراً ومن شرعى ومعتقدى … أن لا أمجد أصناما ولا خشبا
الحق أنشد أنى كان مسكنه … سيان عندى قصرا حل او طنبا
إنى أمجد عرفانا أماط لنا … عن الحقيقة خمر الوهم والحجبا
وعالما عاملا من ذوب مهجته … وروحه قد نهلنا عزة وإبا

لولاه فى عامل ماقال قافية ولا اعتلى منبراً مثلى ولا كتبا
خمسون عاما بميدان الجهاد قضى لو كان صارم عمرو منتضى لنبا
مرت سجونا وحرمانا فقابلها بصبر حر لغير الحق ماغضبا
لم يثن من عزمه سجن ومعتقل ولا ارتضى بالهوان المال والرتبا
تلقاه فى النكبات السود مبتسما كأنه من جميل مصبر مانكبا

وقال الأستاذ عدنان مردم بك من قصيدته :

وقفت شبا يراعك والشبابا على الأوطان لله احتسابا
ولم تقبض يدا عن نصر حق إذ ناداك داع أو أهابا
نصرت عقيدة بيراع صدق ورحت تذود عن وطن ذئابا
نطقت بمحكم ولرب قول يجر الويل أو يهدى الصوابا
بيانك كان فى الأسماع خمرا وكان اللفظ من سحر حبابا
شببت على الصراحة فى زمان غدا صدق المقال به سرابا
هتكت قناع كل دعى مجد روى بطلا ولم ينطق صوابا

وحياه الشاعر العراقى السيد محمود الحبوبى باسم شعراء العراق بقصيدة منها

« لبنان » حن إليك قلب شيق فأتاك وهو عواطف تتدفق
لم ينس إذ يلقاه ثغر باسم فى كل ناحية ، ووجه مشرق
يتنشق الأخلاق عطرا نافحا فيظن عطر الخلد مايتنشق
وتفيض من هنا ومن هنا له كأس بألوان المسرة تدهق
ويزيده شوقا إلى أحبابه ماشع نجم ، أو تبسم زنبق
« لبنان » ماأنا حين يعبر خاطر بى فى رباك سوى فؤاد يخفق
يهفو لأندية تضم نوابغاً هم نحو آفاق العلا بك حلقوا
يتفجرون مواهبا أدبية فيروق إنشاد ويسحر منطق
ويعيش منهم فيك ألف «فرزدق» إن عاش فى دنيا « هشام» فرزدق
فازدد سمواً بالألى انجبتهم ياأيها السامى الأشم الابلق

إن يسبقوا ليجل فضل بين فذوو الفضيلة للفضيلة أسبق
أو يحفلوا بجهاد « أحمد » إنهم أدرى بصدق المخلصين وأحذق
ماهذه الخمسون عاما بينهم بخطوبها إلا كفاح مرهق
خمسون عاماً قدمضت ، ووراءها سعى لإدراك المرام موفق
خمسون عاما اوقرت فضلا بلا من ، كما يهمى السحاب ويغدق
خمسون عاماً وهى عمر حافل بالصالحات بها المنى تتعلق
خمسون عاماً كالسبائك زانها صفو من الأدب الرفيع ورونق

ومن قصيدة الشاعر الشيخ عبد الله نعمة فى تكريم الزين :

أطل بعرفانه أحمد شعاعاً من الحق لايخمد
أطل به مستطير السنا يضيء الحياة ويستوقد
أطل وظل طوال السنين كما قد بدا فى العلى يصعد
أطل على العرب فى ساعة توارى بها المصلح الأمجد
أطل يهيب بأحرارها على حين كانت تغل اليد
أهاب بها وهى فى غمرة لأصنامها رهبة تسجد
فكم صنم حولهم باسط ذراعيه من خشية يعبد
وعجل يخور ولكنما بعنق سواه له المقود
أطل وعرفانه « آية تدل على أنه » الأوحد
يهيب بأمته للعلى ويوقظ فيها الذى يرقد
وظل الحريص بإصلاحها وظل النزيه الذى ننشد
وظل كما شاء ذا طاقة تفيض صلاحا ولا تنفد
تطل بعرفانك المستنير وغيرك فى ليله يهجد
وضعت النواة مع المصلحين وأنت بإخلاصك المفرد
وحركت من نومها أمة على الذل لما تزل ترقد
وأطلعت جيلا لدرب الحياة يغم به قبلك المورد

وأنفقت عمرك لاتستكين ولو يعبس الدهر أو يزبد
وأنفقت للشعب شرخ الشباب وخمسين عاما — ولا تنجد
وأنهضت فى (عامل) أمة وباب الحياة بها موصد
وأشعلت فيها منار الحياة فأنت لها المنهض الموقد
وجاهدت لا تختشى ظالما وإن أنت تسجن أو تبعد
ويعلو إذا جمجم المصلحون بصوتهم صوتك المزبد
وشاهدت لبنان فى رقه وكيف استبد به الانكد
وشاهدته وهو فى عزه يضيق بمصدره المورد
أأحمد بوركت من ناهض وبورك (يوبيلك) الأسعد
فلا زلت ترقى إلى قمة تطامن من دونها الفرقد

وديع فلســـطين

(١)

وديع فلسطين صحفى موهوب ، وأديب مطبوع ، وناقد جرىء ، وباحث عميق الفهم ، وكاتب رصين الديباجة ، ويجمع إلى ذلك إدراكا عميقا لشئون الفكر والحياة والاقتصاد والاجتماع .

إنه مجموعة من المواهب التى تكفى إحداها لأن تصعد بصاحبها إلى قمة المجد .

وقد أتيح له مع ذلك عدة رحلات إلى أوربا وأمريكا والشرق العربى كان لها أثرها فى تفكيره وقيمه ومثالياته .

وبينما تقرأ له مقالة فى الأدب والنقد ، تقرأ له أبحاثا عميقة عن الاقتصاد والسياسة والاجتماع ، ومؤلفات مترجمة أو غير مترجمة عن القصة - والبترول وصناعة السيارات وسواها ، وتستمع إليه محاضرا ممتازا ، رائع الصوت جليل الإلقاء ، حاضر الشخصية .

ويكاد ينطق لسانه وبيانه بأنه ابن الأزهر ، وإن كان هو ليس ابن الأزهر بل ابن الجامعة الأمريكية .

ووديع فلسطين لا يضحى بمثالياته فى سبيل شىء من الأشياء ، ولو كان هذا الشىء هو المجد أو المال ، إنه يحافظ على سلوكه وشخصيته وقيمة ومثله ، كما يحافظ على طابعه العام والخاص ، إذا صح أن نعرف وديع فلسطين فحسبنا أن نقول عنه : إنه الإنسان المثالى المحافظ ، ولم يرث هذه المحافظة عن بيئة دينية أو عن ثقافة قديمة يقرؤها .. إنما أراد أن يعتز بنفسه فلم يتشيع لثقافة حديثة أو قديمة ، إنما أحب الحق حينما كان ، وهذه المحافظة التى نعرفها فى وديع فلسطين سواء فى الأدب أو الأسلوب أو التفكير ، هى مع ذلك عدوة الرجعية والجمود ، إنها تحب الانطلاق والكفاح والعمل والبناء ، وتحب الخطة الوسطى دائما فى كل الأشياء والأمور ، وهذه المحافظة ذاتها هى التى دعته إلى

أن يهاجم المدارس الأدبية الجديدة ، وإلى أن يهاجم التشيع للعامية ، وإلى أن ينكر على مدعى الأدب بل وزعمائه اعوجاج تفكيرهم ولسانهم جميعا .

ومن أجل هذه المحافظة أحببت وديعا وقدرته وصادقته ، إنه إنسان يؤدى الواجب كاملا لإخوانه ولأصدقائه ، ويضحى فى سبيل هذا الواجب بالكثير من وقته وصحته وذات يده .

وأنا مدين فى صداقتى لوديع فلسطين للدكتور أحمد زكى أبى شادى طيب الله ثراه ، فقد كان مع وجوده فى نيويورك هو السبب فى تعارفنا واجتماعنا فى ندوة المقتطف الاسبوعية .

وفى كل مناسبة أجد وديعا أمامى يشاركنى السرور والفرح ، أو يقاسمنى الالم والحزن ، وهكذا هو فى صداقاته للناس جميعا .

ووديع فلسطين - وهو ابن مصر البار ، وفتى العروبة الوثيق عظيم الإلمام بشئونها واتجاهات السياسة والتفكير فيها - كثير الصداقات ، كثير الإخوان ، وقل أن يفكر إلا فى أصدقائه هنا فى مصر ، أو هناك خارج مصر فى كل مكان من أنحاء الدنيا الجديدة أو القديمة على السواء .

ووطنية وديع ، وإيمانه بأمته وشعبه وبلاده ، من سمات شخصيته الموهوبة .

(٢)

وقد كتب أعلام النهضة الفكرية والادبية فى مصر والعالم العربى عن وديع فلسطين فى مناسبات عديدة ؟ فماذا قالوا ؟ إن الإحاطة بما كتب عنه مما يمثل آراء المعاصرين فيه صعب وغير ميسور ، لفقدان الصحف والمجلات التى نشرت فيها هذه الآراء ، ومع ذلك فيمكن أن أشير إلى قليل من كثير مما عثرنا عليه من كتابة المعاصرين عنه :

ويقول عنه الدكتور خليل طوطح فى كتاب « ديناميت فى الشرق الأوسط » الذى صدر فى الولايات المتحدة فى عام ١٩٥٥ وترجمته دار العلم للملايين فى بيروت فى عام ١٩٥٦ ما يلى : « لقد تم اتصالى الأوثق بالصحافة القاهرية من خلال المؤتمر الصحفى الذى أعده لى محرر جريدة « المقطم » وهذا المحرر الشاب ، واسمه وديع فلسطين ، قبطى مصرى ، وهو إلى جانب تحريره « المقطم » يدرس الصحافة فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وطوال إقامتى فى القاهرة تتبعت افتتاحياته فى عناية ، فوجدت فيها تفكيراً صافياً ، وتعبيراً سلساً ، وعرضاً قوياً . فأفكاره حسنة التنظيم جيدة العرض، ولاريب فى أن هذا المحرر الشاب خليق به أن يكون موضع اعتزاز أية هيئة تحريرية فى جريدة أمريكية كبرى لو انضم إليها » .

وقال عنه الدكتور أحمد زكى أبو شادى فى جريدة الإصلاح النيويوركية بتاريخ ١٥ أكتوبر سنة ١٩٥١ ما يلى : « أذيع أن المطبعة العصرية فى القاهرة تستعد لإخراج الجزء الأول من كتاب « سوانح » للأديب المصرى القدير وديع فلسطين الأستاذ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ومحرر الشؤون الخارجية بجريدة « المقطم » وصاحب المقالات الوصفية الشائقة فى مجلة « الأديب » البيروتية وغيرها . « وخبر كهذا يستحق اهتمام الأدباء به ، وعلى الأخص أدباء العرب فى أمريكا ، لأن وديع فلسطين هو قبل كل شىء من الوجهة التعليمية ثمرة الثقافة الأمريكية ، ولأنه من أجرأ أحرار المصريين وأخلصهم فى كل ما يكتب ، ولأنه يعمل دائماً لتوثيق الروابط بين الأحرار المصريين والأحرار فى كل قطر وفى الطليعة الأحرار الأمريكيون والدموقراطية الأمريكية . « ويتألف كتاب « سوانح » من نفثات ممتازة دبجها قلم هذا الأديب الموهوب فى جريدة « الإنذار » بمدينة المنيا بمصر ، وهى فى منزلتها الوقورة المحسنة لا تفوقها أية صحيفة أسبوعية معلمة فى أى قطر عربى ، « ونحن نعلم أن كتاباته عامة يتهافت عليها القواد المثقفون الأحرار ، ولذلك نعد من الغنم الكبير جمع جانب منها فى هذا الكتاب المرتقب ، لأننا نؤمن

بأن الصداقة بين الشعوب لاتعتمد على المكرمات وإنما تعتمد على تآزر الأحرار وقيادتهم للجماهير فى حكمة وحزم . « ولعل « سوانح » ستكون مقدمة لتآليف أخرى من قلم وديع فلسطين ، فإن جولاته فى التصوير للشخصيات وفى الشعر المنثور وفى النقد الأدبى وفى التاريخ المعاصر كلها روائع جديرة بالصيانة وكلها مرآة صافية لنبوغه وإخلاصه لمثالياته الرفيعة التى تذهب عن بهارج الافتعال والصنعة التى يحتمى بها كثيرون من الناثرين والناظمين » .

وقال عنه أبو شادى فى مقال نشره بجريدة « الهدى » النيويوركية بتاريخ ١٨ سبتمبر ١٩٥٠ ما يلى بعنوان « الأدباء الأقباط » : « سأقصر كلمتى الأولى عن أدباء الأقباط على وديع فلسطين أستاذ فن صياغة الأنباء بقسم الصحافة بالجامعة الأمريكية فى القاهرة ، ولعله أصغر أساتذتها سناً وإن كان من أنضجهم رجولة وخلقاً ومعرفة . « فهذا المصرى القح الذى أنجبته مدينة أخميم بصعيد مصر وتهافتت عليه صحف ومجلات عربية شتى فى طليعتها « الأهرام » يرأس الآن قسم الأنباء الخارجية بجريدة « المقطم » ويتحفها يومياً بتعليقاته المشهورة عن « السياسة الدولية » وبمقاله التحليلى المعنون « عجلة الحوادث » وهما يستوعبان نحو صفحة كاملة يوميا ، وهذان المقالان كان يحررهما خليل ثابت حتى تخلى منذ عامين عن التحرير فى « المقطم » . وقد فاز الاستاذ وديع فى العام الماضى بجائزة الصحافة الشرقية لأحسن مقالات نشرت فى عام ١٩٤٩ فى الصحف الشرقية عن السياسة الخارجية . ولا عجب ، فقد نشرت ترجمات كثيرة لمقالاته فى صحف عالمية ، كما تنقل وكالات الانباء خلاصات منها ، وكذلك يترجمها مكتب هيئة الامم للاستعلامات فى مصر ودور السلك الدبلوماسى الاجنبى . وقد فاز مرتين بجوائز أدبية . . .

« ومعظم ما يكتبه الاستاذ وديع يدور حول ما يلى : إما ترجمة لفصول باللغة الانكليزية وأحيانا بالفرنسية ، وإما تحليل لشخصيات عرفها ، وإما نقد لكتب ممتازة ، وإما تعليقات سياسية حصيفة ، وإما بحوث قيمة على هامش علم النفس ، وإما أقاصيص راقية أصيلة . ومن أمثلة حسن اختياره فى

الاقتباس الأدبى مقال « الجيل المجرم » وهو ذلك المقال الافتتاحى الذى دبجته براعة الأستاذ سلام مكرزل . فقد اهتم به الأستاذ وديع فلسطين اهتماما خاصا وأعاد نشره فى جريدة « المقطم » ممهداً له بكلمة وجيهة من قلمه حتى يتنبه الرأى العام إلى مغزاه .

« وأهم ما يعنينى من كتاباته مقالاته الوطنية الصريحة العظيمة ، التى تظهر بجريدة « الإنذار » بالمنيا — كبرى الصحف فى صعيد مصر — ومقالاته الأدبية الشائقة التى تظهر فى مجلتى « المقتطف » بالقاهرة و « الأديب » فى بيروت ، ففيها تتجلى روائع قلمه الرشيق وفكره الحر ونفسه السمحة وروحه الأبية وإنسانيته العالية . . . . ، ولا أعرف إن كان هذا الأديب الموهوب يقرض الشعر ، ولكنه على بصر عظيم به .

« وصفوة القول إن هذا الأديب الإنسانى النابه من مفاخر الجيل الحاضر فى مصر ، وهو جوهرة شريفة متألقة فى تاج الأدب العربى الحديث » .

وفى معرض حديث الدكتور أبى شادى عن ترجمة وديع فلسطين لكتاب « إنشاء وإدارة محل لإصلاح السيارات قال : « أما الأدباء ، فيبهرهم منه أسلوب غاية فى الفصاحة والحلاوة والصفاء ، لا نعرف نظيره إلا عن قلة من أدبائنا المعاصرين ، أمثال الأساتذة محمد عبد الغنى حسن وحسن كامل الصيرفى ورضوان إبراهيم مصطفى (فى مصر) والاخوين إيليا أبى ماضى ومراد أبى ماضى ، ونعمة الحاج (فى أمريكا) . ولا نقلب صفحة : فى هذا الكتاب المفيد الجامع إلا ونترحم على فقيد الادب واللغة الشيخ إبراهيم اليازجى الذى نفح الادب العربى بتصحيحاته للكتب ، التى كان من أشهرها كتاب « ضبط النيل » الذى صدر منذ نصف قرن من دار المعارف نفسها ، فترنح لجمال بيانه الادباء على الرغم من علمية موضوعه . . . . « لقد أثبت وديع فلسطين بترجمته الناصعة لهذا الكتاب الإدارى الميكانيكى صلاحية اللغة العربية لمثل هذا التأليف ، كما أثبت غيره من القادرين صلاحيتها لآداب وعلوم وفنون شتى . . . . « إن اللغة العربية لغة فوارة بالحياة ، وفية لمن يحبها ،

ولا أدل على ذلك من أدب وديع فلسطين فى صوره الرومانسية والواقعية ، الفنية والعلمية على السواء ، وقد رأيناها فى « سوانحه » الاسبوعية المشهورة بجريدة « الإنذار » وفى نقداته الشعرية ومن ألطفها ماكتبه عن الشاعرين الوجدانيين البارعين محمد عبد الغنى حسن ومحمود أبو الوفا ، وفى مقالاته الاجتماعية والفكرية العديدة ، وفى ترجماته الموفقة المختلفة ، ومن بينها ترجمته لكتاب الدكتور أبى على خير الله عن الجزيرة العربية ، والكتاب الفنى الإدارى عن إصلاح السيارات الذى نحن بصدده الآن . « وفوق هذا أثبته الاستاذ وديع أن الاديب الجهير قد يبغضه الكيد والحسد فى الاشتغال بالادب، ولكن روحه الادبية المطبوعة ساقته إليه ، فأنتج وما زال ينتج عن غير عمد شهداً طيباً زكيا جاء نصراً ونعمة لمحبيه ومحبى الادب عامة ، وجاء هزيمة ونقمة لمن تجنوا عليه »[1] .

وداعبه الشاعر إبراهيم ناجى عندما أهدته الحكومة الأسبانية نيشان الاستحقاق المدنى بقوله :

قد هنأوك بمجدك الأسبانى فتى تكون مصارع الثيران
أمنحت أوسمة ومجدك أول ماذا يهمك من نشان ثان
إنى أهنيك الغداة لأننى أهواك من قلبى ومن وجدانى
إن « المقطم » والزمان كلاهما الخالدان وكل شىء فان

وكتب عنه محمد رضوان أحمد فى جريدة الإنذار بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩٥٢ ما يلى : سألنى الكثيرون عن الأديب المعروف الأستاذ وديع فلسطين ، هل هو فلسطينى ؟ فرأيت أن يكون جوابى على صفحات «الإنذار» ليعلم من لم يكن يعلم من هو وديع فلسطين . « الأستاذ وديع فلسطين شاب فى الحلقة الثالثة من حياته المديدة إن شاء الله . نابه نابغة برز فى ميدانى السياسة والأدب معاً ، كثير الإنتاج ، قوى الذاكرة ، شديد الملاحظة ، جم الأدب ،

---

(١) وللدكتور أبى شادى آراء عديدة فى وديع فلسطين — راجع رائد الشعر الحديث، للخفاجى .

كريم الخلق ، صافى الطوية ، شديد الحساسية . « وقد لمست من حرارة قلبه وشدة قذائفه وقوة حجمه وسلامة عبارته فى ذوده عن فلسطين ـ وما كنت اتصلت به بعد ـ أنه فلسطينى يدافع عن وطنه . « وقد كانت دهشتى وكان تقديرى لشخصه حين قرأت فى إحدى مقالاته أنه مصرى عريق فى مصريته ولد وربى فى إحدى قرى الصعيد ، وما فلسطين سوى اسم أبيه . « ازددت به إعجاباً ، وقد رأيته فى الصفوف الأولى من قادة الإنسانية والرأى الحر ، الذين يكتبون للحق والعدالة ، غير متأثرين بعصبية أو بيئة أو دين . فالدنيا عندهم وطن واحد ، والإنسان هو الإنسان أنى وجد وحيث كان والظلم هو الظلم من أى يكون . « أما جولاته فى السياسة فقد كانت أثراً لأستاذه الكاتب الكبير والسياسى العالمى القدير الشيخ خليل ثابت الذى كان يكتب افتتاحية المقطم ، وقد أغرم القارئون بها وأعجبوا بما تحتويه من تلخيص عام شامل لمشاكل السياسة فى جميع ميادينها . « فرأينا الشاب يملأ الفراغ كله الذى خلفه خليل ثابت فى المقطم ، حتى إن الأستاذ الكبير خليل ثابت أبدى إعجابه بخليفة ازدهر فى سماء السياسة كما ازدهر فى ميادين الأدب والاجتماع وآمن بتقديس الرأى وحريته . « هذا هو وديع فلسطين الشاب الأبى الوديع المتمكن . ولا شك أن الأمة تسعد به وبأمثاله ، وأمامنا شاعر إنسانى هو الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، وقد ترك بلاده وهى تتعثر فى تحركها والوطن مفتقر إلى الأحرار الأبرار » .

وكتب عنه سلامه موسى فى جريدة الأخبار بتاريخ ٩ يناير ١٩٥٥ :
« الفرحة الأولى أن الكاتب المعروف وديع فلسطين قد ترجم كتاباً بعنوان « إنشاء وإدارة محل لإصلاح السيارات » . والفرحة الثانية أن الجمعية المصرية للزيوت والصابون أرسلت إلى مجلة بعنوان « الزيوت والصابون » ، « فرحت لأنى وجدت أن التجارة والصناعة قد شرعتا تجدان المناخ الاقتصادى الذى تستطيعان أن تعيشا فيه فى بلادنا ، وأن تجدا الأقلام التى تكتب فى شرحهما والبحث عن أهدافهما ووسائلهما ، « ومناخ التجارة والصناعة هو مناخ التمدن

« وواضح أن هذه المجلة وهذا الكتاب ليسا لكل قارىء . وكذلك ليسا هما للتسلية . وإنما هما جد ، يطلبهما الشاب الجاد الذى يهوى الاشتغال بصناعة الصابون أو ينوى افتتاح جراج ، « وفهمت من صفحة الغلاف الأخيرة للكتاب أن هناك مشروعاً لترجمة سبعة كتب أخرى بشأن التجارة والصناعة سوف يقوم بها الاستاذ وديع فلسطين . وهو كاتب معروف بقدرته فى الترجمة ، كما أنه يمتاز بأسلوب واضح مفهوم » .

وجاء فى ديوان « على ربى الإلهام » للشاعر عامر محمد بحيرى الصادر عام ١٩٤٨ ما يلى تحت عنوان « مسرحية الاب ـ ص ١٥٦ : « نقل الكاتب الاديب الاستاذ وديع فلسطين مسرحية « الاب » للكاتب السويدى أوجست ستر ندبرج إلى العربية وأهدها إلى الشاعر خاطباً مودته . . .

كتابك أجمل مايوهب ... وودك أكرم مايخطب
وما هو إلا زهور البنفـ ... ـسج فاح لهـا الأرج الاطيب
فأنت الاديب وهذا الكتاب ... فنعم الاديب وما يكتب
وها أنا هز فؤادى اثنتان : ... وداؤك ، والنسق الاعذب
وعلمت من هذه المسرحية ... كيف يعانى ويشقى « الاب »
دروس الحياة أجل الدروس ... فأين المعـــلم والمكتب ؟
وموقف حواء من آدم ... خفى الطلاسم مستغرب
فحينا هى العسل المشتهى ... وحينا هى النحل والعقرب
وعقل المفكر فى حيرة ... وصدع العفافة لا يرأب
ونحوك أن تجلو الخافيات ... كأنك ليل السرى كوكب
وتمعن فى الاختيار الجميل ... وكل أديب له مذهب
وديع أخى تلك باكورة ... من الغيث يتبعهـا صيب
وشبهتها باقة الاقحوان ... فكل بألوانها معجب
صغيرة حجم ولكنهـا ... وراء النجوم لهـا مسرب
ولؤلؤة فاض لألاؤهـا ... فمنه المفضض والمذهب

فلا ينقطع منك أشالهـا وبورك إنتاجك الطيب

وقال عنه الاديب اللبنانى يوسف أبو رزق فى مجلة « ثمرة الفنون » التى تصدر فى صيدا بتاريخ فبراير ١٩٥١ ما يلى - ص١٠٢ : « نعمت بمعرفة الاستاذ وديع فلسطين ، هذا الاديب الجبار الذى يقوم بعدة أعمال فى وقت واحد . فمن رئاسة تحرير المقطم إلى تدريس الصحافة فى الجامعة الامريكية إلى مكاتبة الصحف والمجلات . وقدوجدت فيه أديبا كريما يحب لبنان واللبنانيين ويعرف الكثير عن أخباره . فالمقطم بفضله ، تعنى أكثر من غيرها بين الصحف المصرية بنشر أخبار لبنان ، وهو بدوره يكتب بين شهر وشهر إلى مجلة الاديب فى بيروت مقالات قيمة راقية » .

وقال عنه الربيع الغزالى فى مقال نشره بمجلة « صوت العروبة » بتاريخ أول إبريل ١٩٥٦ : « الاستاذ وديع فلسطين مجاهد بالقلم والرأى . ولكنه فى جهاده لايضرب كغيره فى ميدان واحد ، إنه يجاهد من ميادين الرأى والقلم فى كل ميدان .. السياسة .. الادب .. الاقتصاد .. النقد .. إلى غير ذلك من ميادين الرأى والقلم . » وهو فى كل ذلك صاحب الرأى الحكيم والفكره الناضجة والديباجة المشرقة والاسلوب الجذاب ، » ومع ذلك فهو من التواضع والحياء وأدب النفس والخلق مايبلغ من فضيلة هذه الخلال أرفع معانيها وأجمل مباديها . «هذا الحياء وهذا العلم وهذا الجهاد وهذه الخلال تجتمع كلها فى وديع فلسطين » .

وبعنوان « بين النبل والفضل » نشر الاستاذ محمود أبو رية الكلمة التالية فى جريدة «منبر الشرق» بتاريخ ١١ مارس ١٩٥٥ . وقال : « قالوا فى آدابهم: إن المعروف لايفكه إلا المكافأة أو الشكر . وقالوا : إذا قصرت يداك على المكافأة فليطل لسانك بالشكر . وكل هذا حق لاريب فيه . ولكنهم لم يبينوا للناس ماذا يصنع من غمرته المنن حتى أعجزته عن القيام بحق شكرها . وليتهم قالوا تماماً على ذلك : إن العجز عن أداء الشكر يجزىء فى الشكر ،

ذلك بأن هناك من النعم والايادى مالايستطيع الإنسان أن ينهض بشكرها أو يؤدى حق حمدها ، وهذا ولا جرم هو شأنى مع الصديق الوفى والإنسان الكامل الاستاذ وديع فلسطين الذى لايبرح يفيض على كل يوم من أفضاله ويمدنى بألطافه حتى لقد عجز لسانى وجنانى عن شكر بعضها بله كلها. «ترادفت على أرزاء الحياة بفقد أعزائى ، وكان آخرها فجيعتى فى زوجتى التى أضرحت لها فى قبر ولدها الاكبر الذى تلقفته مصحة حلوان غداة تخرجه فى كلية الهندسة وبعد أن لبث فيها حوالى ثلاثين شهرا يعانى آلام المرض ، دليته منها إلى قبره « وبعد أن تلقيت عزاء من واسونى فى موت عزيزتى بما جرى به العرف من الكلمات التى لا تخفف جزعا ولا تذهب حزنا ، ألفيتنى وحدى فى عزلة لاأجد فيهامن يسأل عنى أويلم بدارى ، وتنكرت لى الدنيا كلها حتى من كنت أصطفيهم وأحسن الظن بهم . » وفى دجنات هذه الخطوب المدلهمة من حزن وأسى وجحود وكنود ، بدالى فى سماء النبل والوفاء كوكب زاهر أخذ يرسل إلى من نوره مايؤنس وحدتى وينسخ ما تكاثف من ظلمات حالكة على قلبى ذلكم هو الصديق الوفى النبيل الاستاذ وديع فلسطين ، فأخذ يتولانى بعوارفه وأفضاله ، ويخصنى بكرمه ونواله ، لايفتأ يقرع بابى كل أسبوع مرة أومرتين بما يجود به من أسفار علمية وآثار أدبية حتى أصبحت لاأستطيع لها عدا . هذا غير مايرسله من كتب كريمة يستفسر بها عن صحتى وأحوالى من جميع نواحيها ،

« وقد كان من منن هذا الصديق الوفى أن كتب عنى تلك الكلمة البليغة المؤثرة التى نشرت بجريدة « الإنذار » الغراء فى ١٩٥٤/١٢/٢٦ ، وقد تلاها عشرات الالوف من القراء ، ولكن لم يهتز لها أو يتأثر بها غير شاعرنا الكبير الاستاذ أحمد زكى أبو شادى وهو فى مكانه السحيق عنا بالبلاد الامريكية ، فمست شغاف قلبه الرقيق وقدحت زناد فكره الملتهب ولم تلبث سحائب قريحته الفذة أن جادتنا بتلك الخريدة [١] العصماء التى حملت من بارع الحكم ومخترع

---

(١) هى قصيدة الدكتور أبى شادى وهى بعنـــوان « تعزية إلى الأستاذ محمود أبو ريه » .

المعانى ما كان له ولا ريب أثر بعيد فى نفسى وسلوان بالغ لقلبى ، وما أوجب على أن أزجى له خالص الشكر وموفور الحمد ، وأن أدعو الله له أن يجزيه عنى أحسن الجزاء ، « أما أنت يا وديع ، فليس لى معك ولا أملك لك إلا أن أتمثل بقول أبى عتبة المهلبى :

لو كنت أعرف فوق الشكر منزلة أوفى من الشكر عند الله فى الثمن
أخلصتها لك من قلبى مهذبة حذواً على مثل ما أوليت من حسن

وهذه هى قصيدة أبى شادى فى تعزية أبى رية :

قال الصديق (وديع) فى (سوانحه) « تقسو الحياة على الأخيار أرزاء »
وراح يذكر من آثاره مثل المحسنين ، أسر الدهر أم ساء
من رتق الأدب العالى بنفحته وحظه من عقوق الدهر ما شاء
لم يكفه الخطب فى زوج وفى ولد حتى أراه جحود الناس أنواء
فسيم التفجع والدنيا فواجعها لا تنتهى ، وتعيد الأمس أصداء ؟
خل احتمالك ثأراً من نكايتها واسخر بها حينما تشقى الألباء !
جئنا إلى الكون فى الذرات من قدم ولم نفارقه أطيافاً وأضواء
وليس يعرف منا كنهه أحد وإن تغلغل فى ماضيه مشاء
وإن عرفنا عرفنا بعض أخيلة كأنما البحر ما نلقاه أنداء
ليست نقاط حروف لا نكيفها قصيدة راودتنا اليوم عصماء
ولا المآسى التى غاضت مدامعنا من نارها ستزيد الكون أشلاء
ساوى النشوء دماراً فى مسارحه كما عرفت ، وساوى البؤس نعماء
وما شكوت التياعاً بل مسايرة للفن أجتاز أمواتاً وأحياء
فسر معى يا أديباً عيشه حرق فى مهمه العمر مغمورين أهواء
نحيا لهيباً كأنا شبه آلهة ونغتدى بإنتهاء النار إيحاء !

وكتبت عنه السيدة جميلة العلايلي في مجلة الأهداف عدد يوليو — أغسطس ١٩٥٧ ، ما يلي : « خصصنا في مجلة الأهداف مكاناً شهرياً يقف على منصته أحد أبطال أدباء الشباب يحمل كتاب جهاده الأدبي لتشهد له في غير نفاق بما أحرزه في هذا الميدان من سبق ولتثبت مدى الشوط الذي قطعه في طريق كفاحه الوعر . وبطلنا اليوم الكاتب الأديب وديع فلسطين عرفناه يحمل على أكتافه رسالة رابطة الأدباء بجانب الشاعر العاطفي الموهوب المغفور له الدكتور إبراهيم ناجي . فقد كان المصباح الذي يستضيء بتوجيهه الأدباء الناشئون وهواة الصحافة الموهوبون . ووديع فلسطين أديب بالفطرة ، وله أسلوب يمتاز بالموسيقى المحببة ، يتمشى فكره مع أدبه ، وهو ماهر في مسايرة التطور الأدبي والصحفي . ورغم ثقافته الأجنبية ، فهو حريص على الاحتفاظ بروح ثقافته العربية الأصيلة من حيث العمق والفلسفة والأستاذ وديع يعيش الآن في برجه الأدبي يرقب من وراء مرصده التطور الأدبي ، ويولي الادب عنايته واهتمامه عن طريق إشعاعاته الروحية ملقحاً الادباء الناشئين بمصل إلهامه الذي يلمسه كل من يحوم حوله أو يدنو منه ، ولوديع فلسطين إنتاج أدبي بارز ممتاز ، وله جولات أدبية خالدة منذ ظهر في عالم الادب والصحافة . والذي نرجوه هو أن يخرج من برجه من حين إلى حين ليطلع على قراء أدبه المحبين لخواطره التي تكفي لان يعيش على ضفاف ذخائرها شباب الجيل المتعطش للري من كل منهل صاف وينبوع عذب رقراق ، والاستاذ وديع رغم شهرته وقدرته على أن يملأ فراغ الصحف إذا شاء فعيبه أنه يقنع بأن يعيش في برجه يتأمل أحداث الادب من وراء مرصده ، ولشد ما يحوز الادب والادباء أن يقف بجانبهم يشد أزرهم — كما كان — ويسمع العالم ألحان أدبه وأغاني خواطره .. وألا يهرب من الميدان وهو لم يزل في باكورة الشباب ونضرة الصبا الادبي ، فاخرج من برجك ، وعش كما كنت طائراً محلقاً هنا وهناك » .

وقد عقب الاستاذ محمد جاد الرب المفتش بمنطقة القاهرة الجنوبية على

مقال السيدة جميلة بكلمة فى الاهداف بتاريخ سبتمبر ١٩٥٧ جاء فيها :
« ذكرنى اسم الاستاذ وديع فلسطين بأسبوعياته فى جريدة الإنذار التى كان يصدرها بالمنيا المرحوم صادق سلامه ، وما كانت تتسم به سوانحه فيها من حصافة وإشراق وطرافة ، حتى لقد كنت أقرأ له فأتخيله شيخاً جاوز الستين ودلف إلى السبعين ! ! . أضم صوتى لصوت الاهداف ، عسى أن يخرج هذا الاديب الذى يظهر من صورته ومن حديث الاهداف عنه أنه فى شرخ الشباب وميعة الصبا ، ولعلنا نقرأ له فى الاهــــداف مثل ما كنا نقرأ له فى الإنذار ، وإنه بطبيعة الحال لا بد قد ازداد قوة بيان ، وجديد تجارب ، وجمال ديباجة ، فليرض الاستاذ وديع الاهداف وقراء الاهداف ، وما إخاله إلا عند حسن الظن به كريماً مجيباً » ، هذا وقد أدى المترجم له ضريبة الحرية التى يتعين على كل مفكر حر أن يؤديها ، فلم يسلم من الاعتقال مدسوساً باسمه فى جريمة لفقها من خلت نفوسهم من كل ضمير ومن أجدبت عقولهم من كل ذرة من ذرات الوعى القومى . فحز ذلك فى نفسه ، ولكنه حز بالأكثر فى نفوس عارفيه فأشرعوا أقلامهم للذود عنه .

فكتب صادق سلامه فى جريدته « الإنذار » بتاريخ ٢٦ أكتوبر ١٩٥٢ مايلى مستعيداً لنفسه إمضاءه المعهودة « شيرول » : « الأستاذ وديع فلسطين شاب فى طليعة الكتاب المجاهدين . برىء فى اتجاهاته ، عظيم فى أخلاقه . لا نقول هذا لأنه يعاون الإنذار بآرائه الجديدة الصريحة وكشف عيوب المجتمع بأسلوبه الهادىء ، ولكننا نذكره من باب الواقع وحده . وقد التقيت به للمرة الأولى منذ ثمانى سنوات فى نادى نقابة الصحفيين حين كان أحد أصدقائنا يقيم له حفلة تكريم بمناسبة انتقاله من عمله الإدارى فى الأهرام إلى عمله التحريرى فى جريدة المقطم . ثم كان له اتصاله بنا ، وفى كل يوم نكتشف جديداً من سمو فى أدبه وسمو فى أخلاقه مع براءة الغاية . ثم كانت له فى الأسبوع الماضى ظروف خاصة ، وذهبنا مع الذاهبين لنلتقى به ، ونهنئه بالقرائن الرسمية التى تقطع بترفعه عن الاشتباكات الخبيثة . وفى صفاء نفس

قال : « إن الواحد لايستطع أن يترفع عن اتهام الناس له ،ولكنه يزهو عند ثبوت بطلان هذه الاتهامات ، ولقد أنصف الشاعر حين قال :

ليس يخلو المرء من ضد ولو   حاول العزلة فى رأس الجبل

« وها قد رأينا فيه فى أشد أيام محنته الإيمان الكامل والثقة المطلقة بعدم انحرافه . وهو الذى ينشد الكمال للناس فى تصرفاتهم ويسعى جاهداً لتحقيق هذه الأهداف . وعقيدتنا أن الشدائد تزيد صاحب الرسالة استمساكاً وقوة فى أداء رسالته » .

وكتب الأديب العراقى مشكور الأسدى فى جريدة « الاتحاد الدستورى» العراقية ما يلى بتاريخ ١٩ أكتوبر ١٩٥٢ : « الأستاذ وديع من ألمع مثقفى الكنانة ، وهو محرر جريدة المقطم وأستاذ فى معهد الصحافة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ومراسل مجلة الأديب البيروتية . واشتهر إلى جانب مشاركته الأدبية الرفيعة بتعليقاته القيمة فى السياسة الخارجية . وهو شاب وديع ـ كاسمه ـ من صميم مصر ولادة ونسباً وثقافة رغم أن لقبه قد يوحى لمن لا يعرفه بأنه من سوريا أو فلسطين . وقد عرف بين أصدقائه بالاريحية والادب الجم ودماثة الخلق والوفاء » .

وكتب الاستاذ أنور الجندى فى أسبوعيته فى مجلة « الرسالة » كلمة بتاريخ ٢٩ ديسمبر ١٩٥٢ قال فيها ما يلى : « أعجبنى تصوير الاستاذ وديع فلسطين للمفكر فى هذه الايام حيث يقول فى جريدة الإنذار : « إن الاديب فى مصر محكوم عليه بالفاقة المبرحة حتى يهجر الادب ، والصحفى الشريف فى مصر حتم عليه أن يشرب المرحتى يهجر الصحافة، والمفكر فى مصر يبقى دائما هدفاً للريبة والشك حتى يتخلى عن تفكيره . والكاتب فى مصر يبيع أثاث داره قبل أن يطبع كتاباً من كتبه ، والشاعر فى مصر بائس حتى يترك الشعر، والثقافة فى مصر محنة لان الناس عنها معرضون . فتجارة الكتب إلى بوار ، والادب السمين ليس له طلاب ، والناس لاتقرأ إلا قصص الجان ومغامرات

الفرسان وفضائح الملك السابق وتخريف المخرفين والهازلين » . « تلك كلمات صادقة ، لانها صادرة من قلب مأزوم . إن الاستاذ وديع صحفى وأديب ومثقف وقد عمل طويلا . . . وكان كبير الأمل فى أنه يستطيع أن يخدم بلاده عن هـذا الطريق ، غير أنه أحس بأن عليه أن يتخذ طريقاً آخر . ويبدو أنه مع الأسف الموجع قد ودع الصحافة والادب بعـد أن شـعر بأنهما لايـكرمان المجاهد العامل ، إلى العمل فى الميدان الاقتصادى .

ووصفه الأستاذ محمد رضوان أحمد فى كـتابه « فى جنة الفردوس مع سبعة من زعماء الشرق » صفحة ١١٤ بقوله : « الوطنى الحر المخلص فى وطنيته ومصريته والسياسى الشرقى الواسع الاطلاع » .

وقالت عنه جريدة « الصباح » التى تصدر فى تونس فى عددها الصادر يوم ١١ مارس ١٩٥٥ مايلى :

« الأستاذ وديع فلسطين أديب كبير ذو عقل خصب وقلم ملهم . وهو صحفى قدير عالج المشاكل السياسية ويجيل فيها قلمه بلباقة وصدق فيخرج منها بالموعظة والتوجيه الصحيح والنظرة الصائبة ، كان يرأس تحرير صحيفة « المقطم » الـكبرى التى احتجبت عن قرائها منذ سنوات قليلة ، وكان يراسل « الصباح » من القاهرة فى سنواتها الأولى ، فـكان قراؤنا يعجبون بآرائه الحصيفة وأسلوبه الممتاز وجرأته فى مجابهة العرب والمسلمين بأخطائهم ودعوتهم إلى تلافيها حتى يكونوا واعين بروح عصرهم ، وهو اليوم أستاذ الصحافة فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، ورجال الأدب فى تونس يذكرون إلى جانب كل ذلك فصوله الأدبية الرائعة فى الأدب والنقد والقصة والاجتماع التى كانوا يستمتعون بها على صفحات مجلة « الأديب » البيروتية وغيرها » .

وعقب الاستاذ صديق شيبوب على ترجمة كـتاب « إنشاء وإدارة محل لإصلاح السيارات » بمقال نشره فى جريدة البصير السكندرية بتاريخ ٤ فبراير ١٩٥٥ ، قال : « الـكتاب أمريكى ويكفى للدلالة على قيمته أن يعنى بترجمته كاتب أديب وصحافى قدير كالاستاذ وديع فلسطين الذى عرف كيف يصوغ

هذه الترجمة فى أسلوب صحيح بليغ ولكنه سهل المأخذ، قريب إلى الافهام .
وهذا ما نرجوه من أمثال هذه الكتب التى يجب أن ترفع عامة قرائها إليها من
حيث التعبير بالفصحى ، ولكن دون أن يتزمت أصحابها فى أساليب من البلاغة
لا تتمشى مع الموضوع .

وهناك العديد من المقالات والآراء التى كتبت عن وديع فلسطين ، وهى
كلها تنم عن شخصيته ، وإيثاره ، وخلقه والنبيل :

(٣)

ويقول عن نفسه إنه صحفى « متقاعد ، أما الأدب فيعده هواية ينصرف
إليها إذا ساعفته ظروفه ويصدف عنها إذا ثقل عليه عبء العمل ، وهو متعدد
الميول وفى وسعه أن يعالج شئون الاقتصاد والسياسة والعلم بنفس السهولة
التى يعالج بها شئون الادب والنقد يساعده على ذلك سعة اطلاعه وتمكنه من
فن الكتابة ، ويمكن القول إنه تسلل إلى الادب عن طريق الصحافة ، فظهرت
فصوله الادبية والعلمية فى المقتطف « والاديب » و « الآدب » و « الرسالة »
المصرية ، و « الرسالة » اللبنانية و « الكتاب » و « الراوى الجديد » المصرية
و « الثقافة العربية » السورية ، و « العلوم » اللبنانية ، و « الحج » السعودية ،
و « القلم الجديد » الاردنية ، و « حياتك » المصرية ، و « الوعى » الباكستانية .

على أنه يمكن تقسيم المقالات التى كتبها إلى الفصول التالية :

١ — مقالات فى السياسة ، وأغلبها افتتاحيات لجريدة المقطم كتبت
لمعالجة السياسة الجارية .

٢ — مقالات فى الاقتصاد ، وكلها تعالج الاقتصاد العربى والاقتصاد العالمى ،
ونشر أغلبها فى مجلة الاقتصاد والمحاسبة .

٣ — مقالات علمية ، تتناول مسائل العلم بالتبسيط ومسائل الفلسفة
وعلم النفس .

٤ ــ مقالات فى النقد الادبى ، وكلها فى مناوأة الاتجاهات الضارة فى الادب المعاصر .

٥ ــ مقالات عن رجال عرفهم الكاتب معرفة وثيقة أو عرفهم عن طريق بحوثهم الادبية أو العلمية .

٦ ــ قصص مترجمة وقصص مؤلفة .

٧ ــ مسرحيات من روائع الادب الغربى مترجمة :

٨ ــ نقد الكتب الجديدة .

٩ ــ صور وصفية عاطفية تمثل نماذج مثالية من فضليات النساء .

١٠ ــ خطرات اجتماعية ، وتسجيل لرحلات الكاتب .

١١ ــ محاضرات فى فنون الصحافة .

(٤)

وقد ولد فى إخميم التابعة لمديرية جرجا فى أول أكتوبر ١٩٢٣ لأبوين مصريين صعيديين . وكان أبوه فلسطين حبشى موظفا فى حكومة السودان، فسافر بعيد مولده فى رفقة والديه إلى عطبره بالسودان ، ومكث هناك إلى عام ١٩٣٠ عندما أحيل أبوه إلى المعاش ، وسافر إلى مصر ليتقاعد هناك .

وفى العام التالى ، أى سنة ١٩٣١ توفى أبوه ، ولم تكن عمره إذ ذاك تزيد على ثمانى سنين ، فعاش فى رعاية أمه وفى كنف أسرته حتى أتم دراسته وخرج إلى الحياة العملية .

أما دراسته فقد بدأت بالفرنسية فى طفولته ، ثم التحق بمدرسة الجيزة الابتدائية الأميرية حتى نال شهادة الابتدائية . وذهب بعد ذلك إلى المدرسة الانجليزية بجزيرة الروضة ، ومنها نال شهادة الثقافة العامة عام ١٩٣٨ .

ونال التوجيهية من القسم المصرى بالجامعة الأمريكية بالقاهرة فى السنة

التالية ، والتحق بعد ذلك بمعهد الصحافة التابع لتلك الجامعة فنال درجة البكالوريوس فى الصحافة فى عام ١٩٤٢ .

ومما يذكر أنه فى جميع سنى دراسته لم يضطر إلى إعادة سنة واحدة ، وأنه كان معتدل الذكاء مع تغير مستمر فى ميوله ، وأنه خرج إلى الحياة العملية وسنه أعلى قليلا من الثامنة عشرة .

بعيد تخرجه فى الجامعة الأمريكية عمل مفتشا للتوزيع فى إدارة جريدة الأهرام بالقاهرة ، وكان عمله إداريا بحتا يحتم عليه أن يراقب توزيع الجريدة نفسها وسائر الصحف الأخرى التى كان يوكل إلى جريدة الأهرام توزيعها . وبقى فى عمله ذاك قرابة ثلاث سنين ، وتركه ليلتحق بجريدة المقطم ابتداء من أول مارس ١٩٤٥ كرئيس لقسم الأخبار الخارجية ومحرر للشئون الدبلوماسية، وعند تخلى الأستاذ خليل ثابت عن عمله فى الجريدة وامتناعه عن كتابة افتتاحياتها ، كلفه الدكتور فارس نمر كتابة هذه الافتتاحيات فقبل هذا التحدى ، وظل يكتب افتتاحيات الجريدة إلى قرب يوم إقفالها فى ١٦ نوفمبر ١٩٥٢ . وفى السنوات الأخيره الثلاث من عمر المقطم ، عين عضوا فى مجلس إدارتها وزيدت أعباؤه . فكان يكتب التعليقات السياسية الخارجية والعربية ويتناول مسائل الاقتصاد بالتعقيب والتعليق ، وكان يعالج المسائل الاجتماعية المحلية ، ويتناول الموضوعات الأدبية ويكتب باب نقد الكتب، ويتحدث إلى الساسة والعلماء المارين بمصر وينشر أحاديثهم ، كما كان يحرر فى مجلة المقتطف منذ عام ١٩٤٣ ،

وبعيد إقفال دار المقطم والمقتطف ، أسندت إليه رياسة تحرير مجلة الاقتصاد والمحاسبة ، التى يصدرها نادى التجارة فى مصر ، فحرر المجلة لمدة تربى على عامين ، وأسندت إليه بمجلة الأهرام الاقتصادية الشهرية التى تصدرها جريدة الأهرام مهمة الإشراف على تهيئة الأعداد الخاصة التى كانت تتناول الشئون الاقتصادية لدول شتى .

وفى الوقت عينه أسندت إليه الجامعة الأمريكية مهمة تدريس الصحافة فى معهدها ، فقام بالتدريس سبع سنين متوالية . وكان فى أثناء اشتغاله بالصحافة لا يكف عن الكتابة ومراسلة الصحف ، فنشرت مقالاته فى مصر والولايات المتحدة الأمريكية ولبنان وسوريا والمملكة العربية السعودية ، والعراق وباكستان والأردن وفلسطين قبل ضياعها وتونس والمغرب والكويت والبحرين ، ونقلت مقالاته عن طريق وكالات الأنباء إلى جميع أرجاء العالم . وبلغ عدد ما كتبه من مقالات فى الأدب والسياسة والاقتصاد والاجتماع والعلوم ما يربى على عشرة آلاف مقال ، قسم كبير منها بغير إمضاء .

وفى عام ١٩٤٩ نال جائزة الصحافة الشرقية عن مقالاته ، وهى جائزة كانت تقدم باسم رئيس الدولة .

كما منحته حكومة أسبانيا فى عام ١٩٥٢ نيشان الاستحقاق المدنى من رتبة كوماندور تقديرا لأدبه .

تتلمذ على أعضاء المدرسة الشامية ، إذ كان على صلة وثيقة بأعلامها الأفذاذ كفؤاد صروف وخليل ثابت وخليل مطران ونقولا الحداد وإلياس أنطون إلياس وفارس نمر ويوسف نحاس ، ولكل من هؤلاء فضل عليه ، ولكنه تأثر بفؤاد صروف وبخليل ثابت أكثر من سواهما فى حياته الصحفية والأدبية وفى منحاه العام .

نشر فى عام ١٩٤٥ ترجمة عن اللغة الانجليزية لمسرحية « الأب » من تأليف الكاتب السويدى أوجست ستريندبرج . وترجم فى عام ١٩٥٤ كتاب « إنشاء وإدارة محل لاصلاح السيارات » الذى نشرته دار المعارف . وأصدر فى عام ١٩٥٢ ثلاث رسائل عن الكفاح الصحفى لقرياقص ميخائيل وهو صحفى مصرى أقام فى انجلترا أكثر من ٤٠ عاما كان فيها مناضلا عن جميع القضايا العربية ، وأشرف على تهيئة وإعداد كتاب « القطن فى خمسين عاماً » للدكتور يوسف نحاس الذى صدر عام ١٩٥٣ ، وكتاب ذكريات السودان

للدكتور نحاس وقد صدر سنة ١٩٥٥ . وشارك فى ترجمة كتب أخرى لم يظهر عليها اسمه . وراجع وحرر كتاب « تطور صناعة الزيت فى الشرق الأوسط » الذى صدر عام ١٩٥٧ .

وله كتب مخطوطة لما تظهر ، مثل « بعث جزيرة العرب » وهو ترجمة الكتاب من تأليف الدكتور جورج خير الله . ومثل مسرحية « دعوى قذف » للروائى الانجليزى إدوارد وول ، ومثل « رحلة صيف » وهو خواطر رحلة إلى الولايات المتحدة ولبنان ، ومثل : « أقاصيص من الشرق والغرب » وأغلبها أقاصيص مترجمة ، و « سوانح » وهى خطرات وآراء ، و « صور وصفية » ، و « فى الأدب المعاصر » . . وغيرها .

وعندما ألفت رابطة الأدباء فى عام ١٩٤٥ برياسة الدكتور إبراهيم ناجى ، اختير وكيلا لها ، وظل يشغل هذا المنصب إلى أن حلت الرابطة ، واختير بعد ذلك عضواً فى مجلس إدارة رابطة الأدب الحديث ، وهو الآن عضو فيها .

(٥)

ومن صور كتابته النقدية مقالة كتبها بعنوان وقفة « عند الباب » مع فؤاد صروف ، قال :

وأى باب هو ذاك الذى يقف عنده فؤاد صروف ويطيل الوقوف ؟ هل هو باب كبير ، وقد اعتاد الناس أن يقفوا بأبواب الكبراء التماساً لعطفهم وتقربا منهم ؟ هو هو الباب المفضى إلى القوة والجاه والسلطان ؟ أو هل هو الباب الذى يحتشد الناس أمامه ويتزاحمون كلما انفرج ، لأنها يفضى إلى صومعة للغلال فى وقت إمحال ، أو مركز للمؤن فى زمن شح ؟ كلا ، لم يقف فؤاد صروف بباب من هاته الأبواب ، لأنها (أبواب ضيقة) على حد تعبير الانجيل .

ولكنه وقف بالباب الذى يفضى إلى القدس الداخلى ، رغبة منه فى اكتناه أسرار الحياة وأسرار العظمة الحقيقية لا العظمة المصطنعة أو المدعاة . وقف فؤاد صروف لا وقفة المتفرج الذى يرى ويسمع ولا ينفعل ، ولا وقفة المتطفل الذى يلهيه العرض عن الجوهر ، بل وقفة رجل العلم فى مختبره ،

يمحص ما يتداعى إليه من أحاجى العلم ، ويجيل النظر فى كل ظاهرة وإن هان أمرها ، ويستخلص من ركام الحقائق التى يميط العلم عنها اللثام ماهو بمقام الصفوة أو الجوهر ، حتى وإن كان هذا الجوهر دفينا .

ففؤاد صروف ينبذ المقاييس المعروفة فى الحكم على الناس والأشياء . فالمصطلح عليه فى عقائد الناس أن القوة المادية هى ذروة القوة وأن من دانت له مقاليد القوة المادية فقد صار فى حصين من الأمان منيع . ولكن فؤاد صروف يرى غير هذا الرأى ، وما كان فى يوم مسايراً للكثرة مشايعاً للغوغاء فى ما تذهب إليه . فمن رأيه أن القوة المادية لاتغنى مادام زمامها فى أيد أخرى ، ومادام الزمن يبلى وسائلها أو يخلق جدتها، « أما الذى أقوله ولا أرى بديلا منه ، فهو ان القوة تبدأ فى النفوس والعزائم ، إيمانا لاينثنى ، وفى العقول والأيدى علما دقيقا مبدعا وعملا دائبا مجديا لايكف ، وفى الجماعة تعاونا على تنمية أصول القوة واستخراجها من الموارد التى أغدقتها الطبيعة على الأرض ، أو القوى الزاخرة التى أودعها الله فى الإنسان ، فهذه هى القوة التى إذا ملكناها ، فلن يدخل فى طوق أحد أن يسلبنا إياها » .

وقد أساء الناس فهم الحضارة فحسبوا أن الحضارة هى إغفال القيم الخلقية وانتهاب لذا ذات الحياة من سلطان أو ثروة أو شهرة أو متعة . ولكن فؤاد صروف يرى فى ذلك التحول فجيعة لأن الحضارة المادية قد مهد لها بفضائل العقل والخلق . فإن أردنا حضارة صحيحة تنهض بالإنسانية ؛ وجب أن يتحرى البشر مناقب التقوى والصبر والصدق والحلم والجهد الدائب الصامت ، فلا تغدو عنايتهم بالقيم الانسانية الثابتة على الدهر أضعف ما تكون .

وكلما تناول فؤاد صروف مسألة من مسائل الاجتماع أو الأخلاق ، خالف فيها النـاس ، لاعن رغبة فى انتحاء ركن قصى يعتزل فيه الناس ، بل عن بصيرة بالامور وحرص على المثل من أن تتلوث بالمطامع أو بالجهالة أو بالانسياق فى تيار الدعاوى . فمن رأى فؤاد صروف مثلا أن كل حاجز يقـام بين الدول هو حاجز وهمى لا وجود له « لأن

العالم يعيش فى واجهة ، ولا يغنى عن الحقيقة ولا يخفيها قول مهما يكن بليغا . . . . وفى وسع من أراد أن يستقصى من فوره حقيقة كل قول أو فساده » . ومن رأيه كذلك أن « التعليم القائم على التلقين هو تعليم عقيم وميت، وسرعان ما تمحى آثاره من العقول الملقنة ، فيرتد أصحابها إلى الجهل أو إلى ما هو أوهى من الجهل ، إلى غرور الجاهل الذى لا يدرى ، أو لا يريد أن يعترف فى وداعة وإخلاص بأنه جاهل » . ولو طبقنا هذا المبدأ على نظم التعليم المألوفة عندنا ، لوجدناه مصداقا لقول فؤاد صروف فى كثير من الأنحاء ، فلم يعد التعليم تربية ، بل صار ترديدا ببغائيا لمقررات مدونة فى الكتب . فلا الأستاذ يضيف إليها شيئا من ثمار بحثه ، ولا الطالب يحتفل إلا بالحفظ عن ظهر القلب . وفى هذا علة إمحال الشرق من العلماء المبتدعين أو المفكرين الذين يضيفون إلى المعرفة جديدا . وإن سألنا فؤاد صروف عن علاج لهذه الحال ، أشار بأمرين : التحدى والتجربة من ناحية والاتصال بالعقول الخالدة من ناحية أخرى . فلا بد من أن يكون أمام النشء المتعلم هدف سام يتحداه ، ولا بد من أن تهيأ له التجربة الكافية . فبهذين الأمرين ، وباتصالهما المستمر الوثيق بالعقول الخالدة المعاصرة والفارطة ، يستطيع هذا النشء أن يساهم بجديد فى ميادين العلم والفكر والفلسفة .

ويتحدث فؤاد صروف عن الأزمات التى تحيق بالعالم ، فلا يكاد يسلم من ضائقة حتى تحل به ضائقة أنكى وأضرى ، فيقول : « إن تتالى الأزمات ينبغى أن يعلمنا كيف نعيش فى أزمة ، وكيف لا نأخذ أنفسنا بأدق الرياضة النفسية والعقلية لمواجهتها حتى نتغلب عليها ونخرج منها أقوى عودا وأصلب ، وادنى شيئا ما إلى ما نريد ونتمنى » . وكأنه يقول فى عبارة صريحة : أهلا بالأزمات فالشدائد هى التى تصنع الرجال وتخلق المواهب ، وهى المدرسة الدهرية التى يتخرج منها صناع المجد .

ومن الناس من يقف « عند الباب » فلا يدخل ولا يدع غيره يدخل . ولكن فؤاد صروف ليس من هذه الشاكلة المعوقة التى توصد أبواب المعرفة

دون الكافة وتروم احتكار العلم أو الفكر أو الثقافة لنفسها . فهو يدعو فى كتابه هذا إلى العلم فى أرحب نطاق وأبعده ، وهو يحاول تبسيط الكشوف العلمية الحديثة حتى تهضمها العقول التى لاتزال قليلة التلافيف . ولكن فرق بين تعميم العلم بتبسيطه ، وبين تعميمه بامتهانه . فللعلم حرم « قدسى » لا يصح دخوله إلا لمن بلوه دهرا طويلا وحذقوا أساليبه ووسائله . وفى ساحة العلم لا مجال إلا للتخصص والخبرة ، أما الهواة والمجتهدون فمجالهم فى غير هذه الباحة.

ويرى فؤاد صروف أن المادية تتفشى فى العالم اليوم على حساب الروحيات والقيم الإنسانية الباقية ، حتى صارت الدول فى صراع على الظفر بالماديات ، وصار بنو الإنسان رهن نتيجة هذا الصراع ، ولا منقذ من هذا الصراع إلا « عقول تفهم طبيعة تلك القوى حتى تسيطر عليها ... ونفوس طبعت بطابع البشر الأسنى المخلف فى تراثهم المتراكم بين أدب وفلسفة وحكمة ، حتى توجه القوى التى تسيطر عليها إلى الخير » .

« فالعقل » فى عرف فؤاد صروف ، هو الملاذ من الوهدة التى يوشك العالم أن يتردى فيها منذ مافتق الإنسان نواة الذرة وعرف سبيل أدوات التدمير والهلاك . فلا ينفك ، وقد تكشفت له هذه الحقيقة ، يدعو إلى تمجيد العقل وائتمان ذوى العقول على مصير العالم . فهو يقول : « إن العصر الذى نعيش فيه لا يزال فى أمس الحاجة إلى أولى العقول والعزائم التى تطل على عوالم وراء المتطور ، وتقدم على أعمال يقوم كل دليل من منطق وخبرة على استحالة تحقيقها » . وهو يقول أيضا : « والعقل خير مشير ضمه النادى » . ويقول : « إن السيطرة العاقلة » على الطاقة النووية هى منجاة من تدمير العالم .

وليس « العقل » الذى يقصده فؤاد صروف هو هو « العقل الآلى » أو « العقل السفسطائى » فالأول عديم الحكمة ، والثانى يشغله الجدل والبلاغة والثرثرة عن النظر إلى الأمور نظرة مشارفة حكيمة . ولكن العقل الذى يعنيه الكاتب هو الحجى والحنكة ، فالعقل هو الذى يصد عن العالم تيار الرعونة ، وهو الذى يلغى الجهالة حتى ولو بلغت أعلى المراتب ، ويعيد الناس إلى رشاد السلام بدلا

من هوس الحرب ، ويسخر قوى العلم والمعرفة فى سبيل رفعة الإنسانية ونشر الرخاء والهناءة فى كل مكان ، والعقل هو الذى يرود المجهول ، فإن وقف على جديد طوعه لخدمة البشر فى يومهم وغدهم ، وفى كل أرض يعيشون فيها . والعقل هو الذى يغلب القوة الروحية على القوة المادية . وليس معنى ذلك أن المادة ممجوجة ، بل معناه أن المادة بغير روح تنال الإنسانية بكثير من السوء . فالعالم بغير عقل كالطائرة بغير قائد ، لن تسلم حتى وإن صعدت فى طبقات الجو العليا ، وإذا كانت الطائرة الصغيرة — نسبيا — تحتاج إلى أكثر من مجرد قائد واحد ليديرها ويسيطر على جميع أجزائها ، فان العالم ، وذلك هى ضخامته المعهودة ، يحتاج إلى عقول كثيرة لتدبير شؤونه ، عقول تتنافس على الخير لا على العدوان ، وتتعاون فى سبيل تحقيق الرفاهية لأهل الأرض جميعا .

فالباب الذى وقف عنده فؤاد صروف هو باب العقل ، وهو أوسع الأبواب المفضية إلى قدس الأقداس . فان تعقل الناس ورشدوا فى بلد واحد أو فى بلاد العالم أجمع ، هيأوا لأنفسهم رغدا فى العيش وهناءة فى الحياة وسلامة من أحداث الأيام ، وطمأنينة فى حاضرهم ومستقبلهم ، وسكينة نفس مشتهاة .

(٦)

وكتب عن « الإنسانية عند خليل مطران » يقول :

كان آخر لقاء لى مع خليل مطران قبل وفاته بيومين اثنين ، ذهبت لأعوده جريا على مألوف عادتى فى أخريات أيامه ، لأطمئن على صحته التى كانت تتدهور سريعا ، ولأتحدث معه فى شؤون الأدب وشجونه ، ثم لأسأله عما إذا كانت له حاجة أستطيع أن أقضيها . فلما هممت بدخول غرفته فى منزله المطل على شارع سليمان باشا بالقاهرة ، رأيت خليل مطران كالشبح ، واهيا واهنا معروقا ، يكاد مكانه أن يكون « إلا من الطيف خاليا » على حد تعبيره . وكان مطران يهم بالوقوف مستندا على عكازة باحدى يديه ، وعلى ذراع خادمه بالأخرى ، ليهجع إلى فراشه بعد أن أبلت الأمراض جسده وأتت على ما بقى له من صحة . فلما لمحنى الخليل قال لى بصوت مختنق فيه معنى اقتراب النهاية : « هون عليك يا صديقى دعنى لأخرتى فقد صرت فانيا . وليرعك الله ويكتب لك التوفيق » ، ثم رقد على فراشه يتشكى من الآلام المبرحة التى انتابته لحرمته النوم والطعام بل حرمته شرب

الماء القراح ، وجملته يكاد يحسد خادمه على ساقيه اللتين تحملانه ، لأن خليل مطران لم تقو ساقاه على حمله رغم ضآلة جسمه ورقته .

وانصرفت من دار الخليل متحسرا ، أغالب الحزن الطاغي ، فقد عراني شعور خفي بأن تلك الزيارة كانت آخر تطواف لي بكعبة الشاعر ، وأن وجه مطران لن يعود يصافح وجهي ، لأن الركب أذعن بالرحيل . وبعد يومين اثنين ، في الثلاثين من يونيو عام ١٩٤٩ ، رأيت الشاعر الفحل محمولا على الأكتاف ، ولكنه كان جدثا مسجى في تابوت يشيع إلى مرقده الأخير .

أما اللقاء الأول مع خليل مطران ، فكان قبل ذلك بنحو سنوات خمس ، وكان في حديقة النادي الشرقي بالقاهرة ، وبناء على دعوة كريمة تفضل بتوجيهها إلي . فقد اتصل بي تليفونيا وسألني : « ألا من سبيل إلى الحظوة بمعرفتك ؟ » . فقلت : « بل كل السبل متاحة لتشرفي بلقياك » . وذهبت في الموعد المعين إلى النادي ، فوجدت مطران جالسا يصطلي ، وكان لا يزال في دور النقه من مرض ألم به فأكرهه على اعتزال الناس في ضاحية حلوان .

ولم يكد مطران يراني حتى ابتدرني قائلا : « حسبتك أكبر من ذلك سنا » ، فقلت : « هي عين الرضا » . وجلسنا نتسامر ، وراح مطران يسألني عن نفسي وعن أحوالي ، فكان اللقاء الأول للتعارف ، ولكنه كان لقاء بين روحين ، إذ سرعان ما ربط الود بيننا رباطا وثيقا لم يفصمه إلا الموت ، وصرت صفي مطران وصديقه وموضع سره ورسوله عند الناس ، وكنت أزوره بلا موعد وفي كل وقت ، وكان يلقاني هاشا باشا على الرغم من أدوائه ، وكان يسر إلي بكثير مما يجول في صدره ، ولم يكن فارق العمر ، وهو نحو ستين عاما ، ليحول دون نشوء هذه الصداقة الملهمة الحبيبة بين أديب شارف آخر العمر ، وأديب لا يزال في ريق العمر .

ولقد أتاحت لي هذه الصداقة العزيزة أن أقف على الشيء الكثير من أحوال مطران . كنت أحسبه مثريا ، كما صورته الصحف . ولكنني وجدته فقيراً يعاني المسغبة والمتربة في إباء . أما الثراء الوحيد الذي كان ينعم به ، فهو ثروة الأصدقاء الذين قال فيهم :

. . . إني كثير باخوا ني وماموسر له رأسمالي

ولولا عطف نخبة من أولئك الأصدقاء عليه ، لعز على مطران فى أخريات أيامه أن يجد اللقمة يتبلغ بها ، وهو الذى كان يفرغ جيبه فى أيدى البائسين كلما صادفه واحد منهم ، ولا سيما من المشتغلين بالأدب أو من الذين يدعون الانتساب إلى الشعر . وفى طليعة أولئك الأصدقاء الذين شملوا مطران بعطفهم زميله وصنوه الاقتصادى الكبير المرحوم الدكتور يوسف نحاس ، الذى أسند إلى مطران منصبا فخريا كسكرتير للنقابة الزراعية المصرية العامة ، وظل يجرى عليه مرتبا شهريا ، ثم قرر له مكافأة سخية أعانته فى أخريات أيامه .

ومن هؤلاء الأصفياء النبلاء جماعة « النادى الشرقى » برياسة الأستاذ الكبير خليل ثابت ، تلك الجماعة الخيرة التى إليها يرجع الفضل فى إقامة مهرجانات تكريم خليل مطران عام ١٩٤٧ والتى أشرفت على إعادة طبع الجزء الأول من « ديوان الخليل » ، وأظهرت الأجزاء الثلاثة التالية من الديوان فى طبعة مترفة أنيقة ما كان مطران ، وهو على مارويت من قلة الموارد ، يطمع فى شىء يماثلها . وبفضل جماعة «النادى الشرقى» ارتفعت الروح المعنوية لخليل مطران فى أواخر أيامه ، على الرغم من زهده المألوف فى جميع المظاهر الدنيوية الخلابة . بل لعلى لا أجاوز الحق إن قلت إنه بفضل هذه الجماعة طال عمر مطران بضع سنين (عامين بالتحديد) لأنه هان على الخليل أن يتابع العلاج الطبى ، وما أكثر نفقاته .

وكانت فى غرفة الخليل آلة طرب ، هى «البيان» ، ولكن هذه الآلة « ازدانت » بأكثر من مثنى زجاجة دواء رصت على حافتها العليا ، فكلما جاءه طبيب أوصاه بأدوية جديدة ونهاه عن استعمال الأدوية السابقة ، حتى كاد « البيان » يتحول إلى صيدلية عجيبة .

رأيت الصديق خليل مطران فى مغيب العمر يغالب الألم بعد ماهجره الأمل ، ويستذكر صور الماضى بعد ماأوصد المستقبل أبوابه أمامه ، وينبذ الجاه والشهرة بعد ما أدرك - فضلا عما كان يدرك - مدى بطلانهما وزوالهما . رأيته يتململ ويتضجر من النهار الطويل ، وما كنت أحس بطوله ورأيته يشكو شدة البرد ، وما شعرت بشدته . رأيته يموت كل يوم من هول الوحدة ، فقد هجره أصدقاؤه حتى الذين شملهم ببره وفضله ونعمته ، فظل يترقب منيته حتى جاءته بعد تمنع .

ومع ذلك ، فلا المرض ، بل الأمراض ، ولا تقدم السن ، ولا هم الأيام ،

ولا انعدام الزوجة والولد.. لم يقو شيء من كل هذا على أن يسلب خليل مطران حبه للخير واستجابته السريعة لداعي البر. كنت معه ذات أمسية، وكان جوفه يمج حتى الماء الزلال، وكان يشكو كلالا في عينيه وصداعا يكاد يشج رأسه، وكان ديرة قد تهرأ بسبب إدمانه الجلوس في مقعده طوال النهار. وبينما مطران على هذه الحال جاءه وفد يمثل جمعية خيرية، وقال كبير الوفد: «سنقيم حفلة في يوم كذا، ونطمع في قصيدة منك تهز قلوب الأريحيين» فسكت مطران برهة، ثم قال «لكم ما تريدون». ولما انصرف الوفد قال لي خليل مطران: «أرأيت؟ لم يرحموني حتى في النزع». وعلى الرغم من حالة الانهيار التي كان خليل مطران يجتازها، أخذ يستحث الشاعرية الخصبة فيه، فأبدع قصيدة بعث بها إلى كبير تلك الجمعية.

كان خليل مطران ملاك عصره. رجل اجتمعت فيه الفضائل جميعا، فلم يعاد أحدا ولم يقس على أحد. اقرأ ديوان الخليل بأجزائه الأربعة، فلن تجد فيه قصيدة هجو واحدة، ولكنك ستجد فيه مدائح لا تحصى ساقها في مناسبات أغلبها شخصي. ومع أن مطران عاصر المعارك الأدبية التي دارت على موضوع إمارة الشعر، ومع أنه كان واحداً من الذين نالهم شواظ هذه المعارك، فقد عصم قلمه من أن يتأثر بتلك المعارك، مؤمنا، كما قال في مقدمة ديوانه عن تواضع جم، بأن «هذا شعر ليس ناظمه بعبده». بل لعله كان ينكر على شاعريته، إذ قال في تلك المقدمة: «أبى علي فريق من الأصفياء والعشراء إلا أن يكون لي ديوان كسائر الشعراء. فلئن صح لدى أولئك النفر الأفاضل من إخواني أن أمثال هذه الكلم المقفاة جديرة بأن تسمى في مجموعها ديوانا، لقد استعنت الله، وهذا ديواني».

وكان خليل مطران عامر القلب بالحب، بل كان ضعيفا أمام الناس جميعا لأنه كان متعشقا للانسانية هائما بها. وأحسب أن الخليل آثر حياة الوحدة على حياة الزواج، لأنه أراد أن يكون حبه للناس مشاعا لا مقتصرا على الزوجة والولد. ولهذا لم يتزوج ولم يعقب، وكان شاعرا متعففا في عبارته، متعففا في مسلكه، يأبى أن يصيب أحداً بضيم، ولهذا كان كتوما في حبه لا يفضي به إلى أحد خشية أن يخدش حياء الحبيبة قول واش. وفي الحب العفيف قال مطران مخاطبا فتاة اسمها «هند»:

وإني لأهواك ملء عيوني وملء حشاشتي الصابرة
وملء الزمان وملء المكان، ودنياي أجمع والآخرة

فإن يستملك إلى الهوى ، وعين العفاف لنا خافرة
أليس الهوى روح هذا الوجود كما شاءت الحكم الفاطرة؟(١)

ثم انظر مطران يزور حسناء والشمس قد تنزلت عن عرشها القائم ، ثم يختلس منها قبلة يحرص على وصفها فى عنوان القصيدة بأنها « قبلة عفاف »(٢) فيقول:

خالستها فى ثغرها قبلة وكان كالدرة فى الخاتم

ومع أن هذه القبلة كانت عفيفة فى نظر مطران ، فإنه لم ينج من نقد نفسه وتقريعها ، إذا قال فى القصيدة عينها : « فياله من متق آثم » .

وشعر مطران جميعه عفيف المعانى ، عفيف اللفظ ، ولا غرو ، فالشعر مرآة الشاعر ، وان تجد شعراً يتستر على صاحبه مهما حاول وجاهد . فمطران كان يهوى ، ولكن هواه كان عفاً ، وفى هذا يقول :

أهوى وما الغانيات من وطرى السالبات العقول والفكر(٣)

فالحب عند مطران عاطفة نبيلة فى حد ذاتها ، وهو لذلك حريص على أن يبدىء هذه العاطفة من « الأوطار » التى تشدها إلى الأرض ، وهو يسمو بها دائماً عن الإثم لأنه « من صنعه البشر » فعاش مطران بهذه المثل العليا غريباً عن الناس ، يرى كل شاعر ينسج القصيد تلو القصيد فى الحديث عن مغامرات حبه ووصاله ، أما هو ، فقد كانت له فى الحب فلسفة أخرى أعرب عنها بقوله :

أقسمت ما أشركت فيك ولم يكن لى فى الهوى دين سوى التوحيد(٤)

فليس الحب عند مطران قنصاً للغوانى وانتهابا للذات ، بل الحب فى شرعته دين قدسى لا مذهب فيه إلا للتوحيد . وهو يكبر الحب ويجله عن أن يكون متاعا أرضياً ، اعتقادا منه بأن الحب يجعل الناس كالملائكة يأتلفون فى الفردوس

---

(١) ديوان الخليل — الجزء الأول — الطبعة الثانية — ص ٥٤
(٢) الديوان — الجزء الأول ص ١٣١ و ١٣٢
(٣) الديوان — ج ١ — ص ٢٩٢ .
(٤) الديوان — ج ١ — ص ١٩٩

ويرتعون . وقد أحسن الإعراب عن هذه المعانى جميعاً فى قصيدته الموسومة « شقاء الحب » وهى فصل من « حكاية عاشقين » ، إذ قال :

كنا وكان الحب يجعلنا ملكين فى فلك يجللنا
روحين فى روح يظللنا نورين فى نور تكللنا
متقلدين قلائد الشهب

كنا وكان الحب ينصبنا ملكين تاج السعد يعصبنا
لا شىء يحزننا ويغضبنا والدهر يخدمنا ويرهبنا
وسريرنا عال على السحب

كنا وكان الحب يجمعنا إلفين فى الفردوس مرتعنا
لا شى بعد الحب يطمعنا لانبتغى أمراً فيوجعنا
إخفاقنا فى المطلب الصعب

كنا كغصنى دوحة نبتا بل زهرتى غصن تعانقتا
بل حبتين بزهرة نمتا وتساقتا لما تعاشقتا
نار الغرام مع الندى العذب (١)

وإنسانية مطران متعددة النواحى فى شعره كما فى حياته . فقد كان دائما الرجل الوديع الحى الكبير القلب اليقظ الضمير الذى يهتز كلما لمس شغاف إنسانيته طارىء . كان أكثر الناس مجاملة ، ولكنه كان أقلهم رياء . كان أفسح الناس صدراً ، ولكنه كان يضيق بنفسه فيكبت هذا الضيق حتى لايظهره أمام الناس . كان حليما صبوراً دؤوبا عكوفا ، وكل هذه صفات عبقريته . وقد قال مطران نفسه « إن العبقرية كما عرفوها الصبر الجميل » (٢) . وحين بلغ الشاعر الخامسة والأربعين من عمره ، وصف حياته بقصيدة نظمها فى ليلة عيد الميلاد قال فيها :

إنى امرؤ فوق الشكاة ، ساء ماساء الزمن
أمنح رزقى من همومى قدر ما له وجب
فإن ربا الوقت خصصت الفضل منه بالأدب
أعطى ولا أعطى وأستوفى حقوقى ناقصة
ونيتى للخير فى كل مقام خالصة

---

(١) الديوان — ج ١ ص ٢٠٩ — ٢١٠
(٢) « ذكريات السودان » للدكتور يوسف نحاس ، ص ٧٤

أنا الذى يجده العافى إذا خطب ألم
مداركا ومدركا بقلبه معنى الألم
شركة خيرية فى كاسب منفرد
ساع صنوف السعى أو مستنفد ما فى اليد
ما كان أغناه بما يسديه لو يجمعه
لكن رجا من دهره ما الدهر لا يسعه

إلى أن يقول :

أستنزل الوحى لنفع الناس إن يسر لى
وأمنح العذر بلا ضن وأكفى عذلى
أستنكر الأذى، وإن قل الأذى ، ما أكثره
وأستزيد المأثرات بامتداحى مأثره (١)

ثم يقول : مطران إنه يلقى ربه ، بل يلقى ضميره آمنا ، لأنه عاش إنسانا خيرا يحنو على الناس فلا يبخل عليهم بماله ولا بمواهبه ولا بمشاعره ولا بحياته كلها وقد كان مطران دائما ملاذا لأصحاب الشكاوى وطلاب المنافع ، يأتونه طالبين وساطته أو شفاعته أو عونه ، ولم يكن يصرف منهم أحد خاوى الوفاض ، بل كان يصل له من سبل الخير ما يرد عنه عادية الأيام .

وبسبب إنسانية مطران الفياضة البرة ، جاءت دواوينه الأربعة المنشورة مكتظة بقصائد الإطراء والتهنئة والتعزية فى المناسبات المختلفة التى قد لا يكون لمعظمها صلة بالتاريخ الوطنى أو بالحياة العامة . ولكن عذر مطران أنه كان رجلا يعيش بقلبه وبعاطفته ، وأنه كان لا يضن بشعره عن أن يبذله فى مناسبة تتعلق بصديق أو بزميل أو برفيقه فى صباه أو بجماعة خيرية أو طائفية . ولمطران قصائد غير التى وردت فى الأجزاء الأربعة من ديوانه أوصى بنشرها فى ديوان منفصل بعنوان « طائفيات » ، ولكن يلوح أن هذه الوصية قد نسيت بعدْ وفاته .

ولكنه على الرغم من طبيعة المجاملة الإنسانية التى لم تفارق الشاعر فى حياته

(١) الديوان — ج ٢ — ص ٢٥١ — ٢٥٣ .

حرص على أن يجعل شعره عاما لا يتناول المناسبة وحدها . اللهم إلا إذا كانت مناسبة وطنية فذة فى المناسبات .

فمثلا رثى مطران والد الدكتور عبد العزيز فهمى رثاءا بليغا يصح لبلاغته الاستشهاد به فى معرض الرثاء العام دون رثاء شخص بذاته . فاستهل مرثيته قائلا :

أترى جازعا وأنت صبور | إن خطبا أكبرته لكبير
ثكلت «مصر» من جزعت عليه | ثكل أم فقلبها مفطور
لا يبرح بك الأسى فإذا العزم | الذى كان قاهرا مقهور
وعظيم الرجال تعلم من جل | على قدر ما تجل الأمور
هكذا هكذا الوجود وما الأر | واح إلا الصبا وإلا الدبور(١)

ومثل هذا يصدق على كثير من شعره الإنسانى . فما المناسبة إلا التكأة التى يتكىء عليها الشاعر فى إيراد فلسفته وفى التعبير عن خلجات نفسه . ومما يذكر لمطران أنه كان دائما صادق الشعور ، يكره الرياء وينفر من الملق الكاذب ، وينادى بالحق مجاهرا غير متردد ، ويقول قولته المأثورة التى صرخ بها فى وجه رئيس وزارة توعد الشاعر بالنفى من مصر :

أنا لا أخاف ولا أرجى | فرسى مسوهبة وسرجى
فإذا نبا بى متن بر | فالمطية بطن لج
لا قول غير الحق لى | قول وهذا النهج نهجى
الوعد والإيعاد ما كانا | لدى طريق فلج

ومن آيات إنسانية مطران قصيدته البارعة المدوية التى نظمها احتجاجا على اضطهاد الأحرار ، ولا سيما أحرار الفكر . فالإنسانية الصادقة تأبى أى نوع من الإذلال مهما يكن ، فكان صوت مطران كالقارعة فى يوم بالخطوب مدلهم . قال :

شردوا أخيارها بحرا وبرا | واقتلوا أحرارها حرا فحرا

---

(١) الديوان — ج٢ — ص ٢٦٧ .

إنما الصالح يبقى صالحا آخر الدهر ويبقى الشر شرا
كسروا الأقلام هل تكسيرها يمنع الأيدى أن تنقش صخرا ؟
قطعوا الأيدى هل تقطيعها يمنع الأعين أن تنظر شزرا ؟
أطفئوا الأعين هل إطفاؤها يمنع الأنفاس أن تصعد زفرا ؟
أخمدوا الأنفاس ، هذا جهدكم وبه منجاتنا منكم ... فشكرا !

كان مطران شاعرا إنسانيا ، شاعرا نبيلا ، شاعرا ذا رسالة . وكان نموذجيا فى خلقه وفى حياته وفى أدبه . وكان حبيبا للجميع ، يرى العالم كله وطنا وأهلا . لا يحقد ولا يحسد ولا يضمر سوءا ولا يمشى بنميمة ولا يسعى لمنفعة ذاتية ولا يحب الختل ولا يعيش إلا حياة الصدق والإباء والشرف .

فهل يعوض شاعر كمطران ؟ وإن عوض ، فهل يعوض إنسان كمطران ؟ لا أظن . فقد عدا الموت على الصديق الكبير ، وهيهات للدنيا أن تخلف مثل مطران .

(٧)

ومن صوره الفنية « صورته الوصفية » : ساشا (١)

إذا كانت للجمال كعبة ، فكعبته منذ القديم بلاد اليونان ، تلك البلاد التى تكتنفها مياه البحر أينما وليت وجهك ، وتطل عليها الجبال من كل صوب ، وتغوص فيها الوديان خضراء ناضرة ، ويعيش فيها شعب ودود ساذج مخلص عميق الإيمان بالمعنويات ، يأخذ من الشرق كثيرا ، ويأخذ من الغرب كثيرا ، ولكنه يعرف كيف يأخذ وكيف يختار .

من تلك الفتنة التى تضفيها الطبيعة سابغة على هاته البلاد ، ومن ذلك النسيم الرقراق الذى يهب على اليونان ذات البهاء ، ومن هذه البيئة التى لا هى بشرق ولا هى بغرب ، جاءت فتاة يانعة شاعرية الجمال ، شاعرية الحركات ، تهش وتبش ، تمرح وتفرح ، فيها عذوبة تكتنفها من هامة الرأس إلى أخمص القدم ، تنطق بألسنة كثار ولغات شتى ، ولكن جفاف تلك اللغات وتنافر بعض ألفاظها يسوغ فى فمها الدقيق الفتان .

(١) نشرت بمجلة الأديب عدد ديسمبر ١٩٤٩

وجه أبيض ناصع البياض . عينان عسليتان سحرهما نفاذ ، شعر يبهجك أن تراه منسقا ويسرك أيضا أن تراه منسدلا فى غير تهذيب ولا تشذيب ، فأيا صففته ، وكيف عقدته ، أفاض عليها من سلاسته جمالا باهرا . اليدان رقيقتان ، بحيث لو شئت لعصرتهما بين كفيك ، والقوام مياس كغصن البان ، والنحر ممشوق فيه كبرياء ، والخصر ضامر كأنه واد غير غائر ، والحياة فيها دفاقة ، والبشر يشيع فى محياها .

« ساشا » هو اسمها . وهو اسم شاعرى النغم والجرس . فاذا قيل إن الأسماء فى مسمياتها صدى كانت ساشا مصداقا لهذا القول ؛ لأنها أغرودة تنشدها بلابل ، وقصيدة وجدانية تجيش بالعاطفة النبيلة .

رأيت هذا الوجه الملائكى الفائض بالبراءة ، فلم أجرؤ لأول وهلة أن أجاهره بالنظرات ، وكيف ذلك والعينان تخشعان أمام هذا الحرم القدس من فتنة وجمال يجللهما إكليل من العذوبة الساحرة .

رأيتها إذا فاهت بكلام تقول : شعراً ، والشعر أسمى مراتب الأدب . وما أعنى أنها تقول نظما مرتجلا ، بل أعنى أن وسامتها وروحها الممراحة ولسانها الموهوب كانت جميعا تكيف عباراتها ، فكأنها ترتل ترتيلا أو تنشد نشيداً .

إذا جاءت ساشا ، أشرقت الوجوه التى كانت عابسة ذات جهامة .

وإذا مضت ساشا ، ودعتها حسرات ، لتستقبلها فى اليوم التالى قلوب خفاقة كثيرة النبض .

وإذا تحدثت ساشا مع أحد رمقته العيون وحسدته النفوس . ولا غرو ، فهذا ملاك يخفق بجناحيه ، فنعم من يحدب عليه ويوليه عنايته .

وإذا دق تليفون ساشا ، أصغى الكل ، لا ليسمعوا فحوى الحديث ، بل ليصغوا إلى هذا الصوت المنغم ذى الطرب .

وإذا اكتأبت ساشا ، بادرها الصحب بالسؤال القلق ، فكيف يغتم هذا الكائن الجميل ، وكيف يربد هذا الوجه الذى نبذ الأصباغ والألوان ، ورأى فيها صناعة زائفة .

أحببت اليونان ، وكثيرون مثلى منحوها الحب ، لأجل ساشا .

أحببت الجبال ، وغدوت أعشق مرآها ، لأن ساشا نشأت فى بلاد كثيرة التلال

أحببت اللون الأبيض الصارخ ، لأن ساشا تؤثره فى اختيار ألوان ثيابها ، فتبدو حقيقة ملائكية المظهر فضلا عن المخبر .

أحببت الحياة ، فحسب الدنيا نعيما أن تعيش على أديمها ساشا .

أحببت القدود الممشوقة لأن ساشا رقيقة الظل ضامرة البدن .

وذات يوم ، قالت : إنى راحلة .

— إلى أين يا ساشا ؟

— إلى جزيرة تتوسط الطريق بين مصر واليونان

— وهل تطول غيبتك ؟

— سأغيب نصف شهر قد يمتد إلى شهر كامل .

— وهل هذه السفرة حتم ؟

— نعم ، في شوق إلى الراحة حيث الجمال الشامل ، والجزيرة سخية بجمالها .

— وهل نسمع منك أنباء يا ساشا ؟

— لن يفوتنى أن أكتب إليك .

وبعد أيام كانت الطائرة تنقل هذا البلبل الغريد إلى تلك الجزيرة النائية . ولو درى ذلك الطائر أى قلب أصاب لما حسبته ينعم براحة . ولكنه ملاك ساذج واسع القلب .

ألا ما أصدق قول الشاعر : « ليالى بعد الظاعنين شكول » . فتالله ترادفت الأيام كئيبة رتيبة طويلة متثاقلة ، تسير الهوينى والمرء يستحثها ، وهل تنخس الأيام كما تنخس الدابة ؟ فقد مضت الأيام بغير قلب . مضت آخذة معها أملا عريضا ، بل آخذة معها صحة بدأت تذوى ، وبدنا بدأ يسلس للداء قياده . فما انتصف الشهر ، إلا كانت القدمان كليلتين ، لا تكادان تحملان سائر جسمى ، فقد واتانى خمول لست أدرى مصدره ، ولكن أتتنى فى ذلك اليوم رسالة من سطور عدة ، رسالة من ساشا تقول فيها : إنها لا تنسى أصدقاءها ، فنفخ فى المريض روح جديد ، ودب فى الجسم دبيب الحياة بعد أن كاد البلى يعرف إليه السبيل ، وارتد القلب إلى مكمنه ، بعد ما خيل لى أنه اختفى فجاءة .

كانت تلك الرسالة الدواء الذى عجز الأطباء عن وصفه . فهى الترياق الشافى ، والقلوب لا يشفيها إلا القلوب ، وعند ساشا برء لمرضى القلوب .

وشــــاة بلا قلب يداووننى بها ، وكيف يداوى القلب من لا له قلب

علمان من أعلام العراق فى العصر الحديث

(١)

علمان خالدان ، وشيخان جليلان ، هما العلامة المجاهد الشيخ عبد الحسين مطر الخفاجى ، وأخوه الحجة الشيخ محمد جواد مطر الخفاجى ، رحمهما الله وأسبغ عليهما رحمته ورضاه .

توفى عبد الحسين عام ١٣٦٣ ﻫ ، وتوفى أخوه عام ١٣٧٥ ﻫ . . وهما من آل مطر الخفاجيين من النجف الأشرف ، ومن أشهر الأعلام فى تاريخ العراق الحديث .

(٢)

كان الشيخ عبد الحسين مطر الخفاجى بطلا من أبطال العروبة ، وشيخا من شيوخ الإسلام ، ولد عام ١٢٩٢ ﻫ فى النجف الأشرف ، من بيت ينتهى بنسبه إلى عشيرة خفاجى ، القاطنين فى لواء المنتفك ، بين بلدتى الناصرية والشطرة ، وقد نزح جده مطر الخفاجى إلى النجف نحو عام ١٢٠٠ ﻫ

وتوفى (١) الشيخ مطر عن ولدين وحفيدين ، اما الحفيدان فقد نزحا إلى أخوالهما فى جهات البصرة وانقطع الاتصال فيما بينهما وبين أعمامهما إلى اليوم . وأما ولداه فقد بقى الكبير منهما (الشيخ يوسف الخفاجى) خلفاً لأبيه فى محله ، ورجع الصغير منهما « الشيخ حسن الخفاجى » إلى النجف فى حدود سنة ١٢٧٢ ﻫ ، واشترى داره التى هى دارهم اليوم وأكب على طلب العلم الدينى حتى حصل على مرتبة الاجتهاد فكانت له منزلة عالية بين الطبقات العلمية وألف تأليفاً نافعاً فى علمى الفقه وأصوله لايزال مخطوطاً ، وتوفى عام ١٣٢٩ ﻫ ، وأعقب ولدين أحدهما الأكبر الشيخ عبد الحسين الخفاجى ، وثانيهما الأصغر الشيخ محمد جواد الخفاجى .

---

(١) راجع ص٥ من كتاب : ذكرى علمين من آل مطر — الذى نشره السيد الشيخ عبد المهدى مطر الخفاجى : عام ١٩٥٧

وترعرع (الشيخ عبد الحسين) فى بيت أبيه ونشأ نشأة علمية دينية وكان والده قد شغل منصبا روحيا للإرشاد فى بلدة الناصرية وبنى له فيها مسجداً لاقامة الجماعة هناك وهو أول مسجد بنى فيها فاشتغل المترجم له فى هـذا المنصب فى بلدة الناصرية فى حياة أبيه وبعده ، فكان فيها معتمداً من قبل علماء النجف يزودونه بأوراق الاعتماد والوكالات أولهم حجة الإسلام الشيخ محمد طه نجف ، ثم آية الله السيد محمد كاظم اليزدى ، وآخرهم الحجة الميرزا حسين النائينى .

وكان الشيخ مطمح أنظار العالم المنتفكى هناك والمرجع الوحيد لبث الفتوى الشرعية وحل الخصومات على اختلاف أنواعها عشائرية ومدنية ، عرفية وشرعية إذ كان الناس فى العهد التركى يرجعون فى حل خصوماتهم ومنازعاتهم إلى المراجع الدينية .

وكان نافذ الكلمة ، قوى الإرادة . وطالما كان واسطة التفاهم بين الحكومة التركية وبين العشائر المنتفكية التى تحيط بمدينتى الناصرية والشطرة حينما تتمرد على مطالب الحكومة المحلية غير المشروعة أو غير المقدورة لديهم ، فيحصل من ذلك القتال وتسيل الدماء ، فكان هو المصلح الوحيد لحقن تلك الدماء .

وكانت حكومة الأتراك تكبره وتقدر مواقفه بمقدار مايكبره أبناء ذلك اللواء ويحترمون مقامه السامى ، وكان يشطر عامه شطرين يقضى شطراً منه فى لواء المنتفك قائما بالقضايا الإصلاحية من جهة وبالتربية وتهذيب الأخلاق من جهة أخرى ، ويقضى الشطر الآخر منه فى بلدة النجف يطلب العلم الدينى كجملة المشايخ الدينيين الذين اتخذوا لحياتهم مقرين .

وكان له موقفه هو والسيد محمد كاظم اليزدى ، والسيد محمد سعيد الحبوبى ، فى الحركات الوطنية فى العراق عام ١٣٣٣ هـ — ١٩١٤ ضد قوات الانجليز . وكان عبد الحسين الخفاجى ومعه عشيرته بنو خفاجة ، يدافعون عن أرض العراق دفاع الأبطال حتى لاتسقط فى قبضة الاستعمار البريطانى ، ولكن سقط العراق فى أيدى جنود انجلترا ، وظل الشيخ يقاوم حتى صارت المقاومة عبثا ، فعاد إلى الهدوء متحينا الفرصة السانحة للجهاد من جديد .

وكذلك اشترك فى ثورة عام ١٣٣٨ هـ — ١٩٢٠ التى قام بها الشعب العراقى

يطالب بحريته واستقلاله . وكذلك كان له مواقف خالدة ضد المستغلين والمحتكرين في العراق ، وعلى الجملة فهو يعد من أبطال الحرية في العراق في العصر الحديث .

وقد رثاه العلامة الجليل : الشيخ عبد الحميد السماوي بمرثية بليغة عنوانها « أيتها الشريعة المنكوبة » وجاء فيها :

طرقتك رائعة الحوادث فاصمدى ... لا تخدعي يومي ببارقة الغد

ثلى عروش الحادثات بمثلها ... وإذا تهدد طارف فتنهدى

كم راح يعبث في جمالك عابث ... أو ماضربت على يمين المعتدى؟

أو ما سما لك من شعورك هاجس؟ ... إن الشعور الحى غير مصفد

من لم يخلده علاه فإنه ... بالرغم من ذكراه غير مخلد

جفت ينابيع الشعور فلم يجد ... معنى أمام يراعه لم يوصد

إن ضل سعيك يا خطوب فهيمنى ... أو طاش سهمك ياحوادث فاقصدى

شأت الليالى شأوها فتحدرت ... كالسيل مرقلة بأفضل سيد

حتى إذا قضت الصروف نحيبها ... عثرت قوائمها بضاح أجرد

فهوى (أبو المهدى) عن صهواتها ... متشحطا بدم العلى والسؤدد

شق الطريق إلى الخلود وخف ... بالغر الحسان إلى الحسان الخرد

يا باقه الشرف الصريح وجذوة ال ... علم الصحيح وزهرة الروض الندى

لك منعة الجبل الأشم ورهبة ال ... بحر الخضم وبأس ليث ملبد

وتليد مجد لايزال مطاولا ... (شيخ الغرى) به شيوخ (المربد)

متضامن الحلقات تحسب أنها ... حلقات سلسلة الحديث المسند

يلقى الصباح بمثله فاذا خلا ... هو والظلام الجون في متهجد

فهناك تلمس عالما في عالم ... وتحس نغمة معبد في معبد

وهنالك العقل المجرد ساخراً ... مما يروح به الخيال ويغتدى

وهنالك النفس البسيطة تنضوى ... شوقا إلى سلطانها المتأبد

وترى الجبابرة الأعاظم خشعاً ... وترى قريشاً سجداً لمحمد

فكم انتشوا من نفحة قدسية ... عبقت لهم من ناسك متعبد

وترى هناك الشيخ في محرابه ... كالشيخ في كرسيه صدر الندى

سبعون عاما في الكفاح ومن يعش ... سبعين عاما في كفاح يجهد

يرتج صوت الفاتحين بمسمع منه وعزف الجائرين بمشهد
فاذهب شهيداً أو فعش متمتعا في ظل صرح من علاك ممرد

وقال عنه الأستاذ المرحوم يوسف رجيب :

« عاش فقيدنا الجليل الشيخ عبد الحسين آل مطر وهو ركن من أركان المجد وعلم من أعلام الفضائل ، ومات وهو ميمون النقيبة نقي العرض طاهر الازار عفيف الجيب كريم الشمائل ، فلقد جاهد ولقد كافح حتى لقى الله .

كان فقيدنا الذى نحتفل بذكرى أربعينه الباكية علما من أعلام الوطنية وقطبا من أقطاب الجلاد لم تأخذه ، في الله لومة لائم فلم يخش بأسا ولم ترهبه المخاوف ، تنزوى بين جنبيه روح المجاهد المغامر وتدفعه للإقدام عزيمة الليث الخادر ، حتى استأثرت به يد العناية » .

ورثاه الشيخ محمد حسن حيدر بقصيدة رائعة جاء فيها :

أيعرب أين منك النصر والظفر ؟ طاح اللواء وفل الصارم الذكر
وهل ترجين من بعد (الحسين) فتى تهوى لعزمته التيجان والسرر
فاطو الحشاشة لا علل ولا نهل قد فاتك الورد في كفيه والصدر
الحالب العام إذ لا ضرع معتصب والواكف الغيث إذ لاصوب ينهمر
عزت علينا (أبا المهدى) نازلة حلت فطاشت لها الأحلام والفكر
فليس نعيك إلا الهول صرخته فلا يقيم عليها السمع والبصر
خلفت خلفك حزنا يستقل به قلب يكاد من الأشجان ينفطر
المجد بعدك رزء جل نازله تتلى على الأرض من آلامه سور
كنت المجاهد من دون البلاد بما أسديت من خدمات ليس تنحصر
(مواقف لك كانت كلها شرفا) في جبهة الدهر من آياتها غرر
أردى مصابك قلب الدين فابتدرت عليك عين حماة الدين تنهمر
تثير ذكراك من وجدى عليك ومن شوقى اليك هوى في القلب يستعر
آثار فضلك في التاريخ خالدة كالشمس ، والشمس لا يعفو لها أثر
نعيت للمجد فاستكت مسامعه وكاد يقدح في أحشائه الشرر
كنت الرجاء إلى الجلى إذا نزلت يمشى الرجاء ويمشى خلفه القدر

ورثاه الشاعر إبراهيم الوائلي فقال :

رزىء الفرات بواحد من أهله　　أبلى فكل حياته أرزاء

شيخ على السبعين أربى عمره　　واجتاز لم يقعد به استخذاء

هو فى البنين كواحد من أهله　　وأب إذا ما عدت الآباء

عرك الحياة فلم ينل من بأسه　　وطء السنين ولم يعقه بلاء

ومشى على اسم الله يستبق الخطى　　أسدا تضيق بعينه الصحراء

رب السفينة لم يكفكف عزمه　　موج وليس تخيفه الأنواء

وأبو الكتائب فى الوغى ملمومة　　تهفو وتهتف لاسمها الهيجاء

هزأت بأصوات المدافع وانبرت　　تقتادها الحربة الحمراء

ورثاه الشيخ عبد المهدى مطر أكبر أنجال الفقيد ، فقال :

أبت المنية أن تكفكف عن دمى　　حتى تخضب منه راحة مجرم

فأتت وسود نيوبها محمرة　　من شيخ أطنابى وقطب مخيمى

فكأن لحمى لم يسدد نهمة　　من صرفها فتنشبت فى أعظمى

فغدوت لا درعى بمحكمة العرى　　عنها ولا حصنى لها بمطلسم

ان صلت فى ناب أصل بمهتم　　أو ذدت فى ظفر أذد بمقلم

أستنشق الأمل المضاع بمعطس　　دقت مناشقه وأنف مرغم

ذهبت بآمالى المنية فارتمت　　من فوق أفلاك السعادة أنجمى

فانصاع يبرى القدح ليس بناكل　　منها ويورى الزند غير مذمم

هذا هو التاريخ لا ما تدعى　　أمم بكل حديث فخر مبهم

نثرت كنانتها الحوادث عنده　　فأتت بآخر نبلة لمحكم

ألبسنه ثوب السقام وفوقه　　للصبر درع قط لم تتفصم

وتقسمت فرقاً عليه ضروبها　　وثبات هذا الجلد غير مقسم

أفهل رأت غير امرىء من صابر　　جلد يعد السقم أكبر مغنم ؟

لله أنت على جهاد حوادث　　من غاشم منها تروح لأغشم

فقضيت تشكرك المكارم لم تدع　　نقصا بها تشكوه غير متمم

ومضيت فى أيدى الكرام مشيعا　　وقلوبهم من فوق نعشك ترتمى

وأحبة ودوا بأنك سالم　　منها وأن الكون لما يسلم

(٣)

أما الشيخ محمد جواد مطر الخفاجي (١٣٠٧ هـ — ١٣٧٥ هـ) فقد ولد(١) بالنجف الأشرف عام ١٣٠٧ هجرية ونشأ في ظل والده المغفور له الحجة (الشيخ حسن مطر) الذي ينتهي نسبه إلى أحد قبائل خفاجة ، القبيلة الشهيرة المعروفة في أغلب مناطق العراق لاسيما في لواء المنتفك . وقد تربى الفقيد كما تربى أبناء البيوت العلمية . فدرس المقدمات وبعد أن أكملها اتجه إلى دراسة الفقه وأصوله وتوابعهما .

وتلمذ في الأصول على جماعة من الأعلام : أولهم آية الله الحجة شيخ الشريعة الأصفهاني ، وآخرهم أستاذه الوحيد الذي لازمه ملازمة الظل وهو آية الله الشيخ مهدي المازندراني ، وفي الدراية على المرحوم الحجة السيد أبو تراب ، وللشيخ المازندراني عدة تقاريظ على قسم من مؤلفات الفقيد يستنتج منها تضلع المترجم له في علمي الفقه وأصوله وإعجاب أستاذه به ، وما يقال في تضلعه في الأصول والفقه يقال في تضلعه في علم الرواية أيضاً ، فقد حصل في هذا العلم على شهادة عالية من أستاذه الحجة المغفور له « السيد أبو تراب » .

وللفقيد مؤلفات تزيد على الخمسين مؤلفاً في مختلف المواضيع التي لها علاقة بمقامه وضمن حدود اختصاصه ، وكلها لاتزال خطية ، فمن مؤلفاته في الفقه :

١ — رفيع الدرجات : وهو كتاب استدلالي ينتهي الجزء الأول منه بمبحث الوضوء . وقد صدره بكراسة في الأصول جمع بها جميع أبوابه وذيله بكراسة في علم الرجال ويقع الكتاب في ٤٨٠ صفحة .

٢ — الدرجات الرفيعة : ويقع في ٥٥٠ صفحة وهو كتاب استدلالي يبدأ بمبحث المياه وينتهي بالوصايا .

٣ — نظام الإيمان : ويقع في جزءين وعدد صفحاته ٤٨٠ صفحة وهو أرجوزة تشبه أرجوزة المغفور له العلامة بحر العلوم .

٤ — نيل الطلبات : وهو أيضا استدلالي يقع في جزءين وعدد صفحاته تزيد على ٦٠٠ صفحة .

---

(١) راجع ص ٥٨ ذكرى علمين من آل مطر — من كلمة العلامة السيد هادي فياض .

٥ — مختار الأحكام ٦ - بلوغ المرام ٧ - معظم الأحكام ٨ - الوجيز المنتظم ٩ — غاية المرام . وكلها بأسلوب سهل دقيق .

ومن مؤلفاته فى الأصول :

١ — نضارة المعقول فى شرح كفاية الأصول : لآية الله المحقق الخراسانى ينتهى بمبحث صيغة أفعل . وقد صدر الكتاب بتقريظ أستاذه الشيخ المازندرانى تقريظا عاليا ويقع الكتاب فى ٢٩٠ صفحة .

٢ — غاية المأمول فى شرح معالم الاصول ٣ - اختيارات الأصول ٤ - تلخيص الاختيارات فى التعادل والترجيح ويقع فى ١٥٠ صفحة - وكلها من نفائس الكتب فى الموضوع .

ومن مؤلفاته فى الرجال :

١ — سبائك المقال فى علم الرجال : ويعرض فيه قواعد الدراية والإجازة فى النقل ، ويقع الكتاب فى ١٦٠ صفحة .

٢ — إجابة السائل .

٣ — جلوة الغريزة فى إيضاح الوجيزة : وهو شرح لوجيزة الشيخ البهائى .

ومن مؤلفاته فى المنطق : الروض المونق فى شرح تهذيب المنطق - مرآة العقول - غنيمة المعقول - الرشحات المطرية على كتاب الشمسية - تلخيص البيان فى علم الميزان - التعليقات العامرية - نشر عبير المنشق فى شرح روض المونق . وكلها ذات جودة واتقان بالاضافة إلى حسن البيان .

وله مؤلفات متفرقة فى المعانى والبيان والبديع وفى الأفلاك وفى آداب الأكل والشرب .

وللفقيد نزعة أخرى هى النزعة الأدبية بالإضافة إلى النزعة العلمية ، وتنجلى فى ديوانه المسمى « بدائع القريض » ، ويحتوى على سبعة آلاف بيت من الشعر المقبول فى مواضيع مختلفة وهو مرتب على الحروف الهجائية ، وله ديوان آخر خاص بالتوسلات إلى الله وإلى النبى صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام - وله أرجوزة فى الفقه وأرجوزة فى الدراية وأرجوزة فى المنطق .

وكان رحمه الله ذا سيرة محمودة محفوفة بمكارم الأخلاق وجليل الأعمال الخيرية ، وكان بهديه وتواضعه وتطرفه فى العبادة والتهجد آناء الليل وأطراف النهار ، كان فى كل هذا خير نموذج لرجل الدين الصحيح الذى يجب أن تكون سيرته مظهراً من مظاهر الدعاية للدين .

وقد خلف عدة أبناء ، منهم أكبر أنجاله الأستاذ عبد الغنى مطر الخفاجى المحامى ، وقد رثاه ابن أخيه ، الشيخ عبد المهدى مطر الخفاجى بمرثية بليغة عنوانها « دمعة على العم » : وقال فيها :

لى بيت عز فيك كان مشيدا ... دكت دعائم جانبيه يد الردى

وهززت فيك على النوائب عاملى ... لدنا تقصفه الردى فتقصدا

وثلم العضب الذى أعددته ... عند النوائب مصلتا ان يغمدا

وخبا من البيت الرفيع سراجه ... ألقا وكنت أخاله ان يخمدا

وغدت تهش عصى المنون بشوكتى ... فنحت بيانع نبعها فتخضدا

منى بفقدك يا بقية شيختى ... قد شتت الشمل الجميع وندا

إذ كنت ارفع فيك صوتى عاليا ... واليوم لا الصوت المرن ولا الصدى

وأذاب فقدك من صفايح مهجتى ... زبرا وجز من فؤادى جلمدا

فرجعت اسأل عن علاك محابراً ... جفت ومحرابا أضيع ومسجدا

فعسى ترد لمسمعى أصداؤها ... نبأ عن الثاوى وان شط المدى

فاذا المحابر فيك تنعى حبرها ... وإذا المساجد تفقد المتهجدا

آأبا غنى والحياة تكاثر ... يحلو إذا شيخ القبيلة عددا

وتدافعت زمر النفوس منضدا ... تاجا لهامة مجده ومنضدا

وتساندت منها الظهور لبعضها ... بعضا فان زل ابن أم أسندا

وتبادل الرحم التعاون واغتدى ... يعتز طارفه بمن قد أتلدا

وتلفتت عينى لتبصر هل يد ... فى الخطب تعضدها فلم تبصر يدا؟

أو لست بالأمس القريب دعامتى ... إن صوب الخطب الملم وصمدا

ولأنت آخر من اعلل خاطرى ... فيه إذا الزمن الملح تعقدا

وأزيح هم النفس فى اشراقة ... منه إذا الجو المغيم تلبدا

وأعد أنى منك فى مجموعة ... إن سار منبت العشيرة مفردا

فاذا ابتسمت بعثت من دنياى لى ... أملا توغل فى الزمان فابعدا

واليوم عدت لخيبتي أحسو الشجى جرعا وأنتهل النوائب موردا
أستاف مرقدك المضوع تربه قدست يامثوى المكارم مرقدا
فأراه قبراً أنت بين ضلوعه وأراه بحراً بالفضيلة مزبدا
أأبا غني يا مكثر قلتي ومغيظ من حنق على الحسدا
هب من محامدك الحسان لمزبرى روحا يعب بها البيان معربدا
فلقد وجمت من الذهول وجف بي حس أصيب بعاصف فتجمدا
لك من طباعك خصلة لو أنها نشرت ملأت بها البسيطة سؤددا
أو لست إن عد الاباة من الأولى لا ينحنون إذا القوام تأودا
وإذا تعفرت الجباه لحاجة ذلا فانك شامخ ان تسجدا
ومكارم جارك فيها متعب قصرت يداه لأن تنال الفرقدا
فأراك عبدا إن رأيتك في القرى وأراك في قمم المكارم سيدا
فلئن طوت منك المنية هيكلا في الله كان بما تحمل مجهدا
لم تطو من آثارك الغر التي ضمنت لذكرك أن يعيش مخلدا
فلأنشرن لك التي اخفيتها من كل مكرمة أبت أن تجحدا
أأبا غني صال بعدك صائل فرقته بك حقبة فتحشدا
وراى ضلوعي فيك يوقدها الشجى ضرما لخطب فوقهن واوقدا
وغدا يريني بسمة من ساخر فأريه مثل الراسيات تجلدا
غاو سلكت به السبيل فما ارعوى وأنرت مصباحي لديه فما اهتدى
حتى إذا أطلعت من حسناتك الغر الحسان له استقام وأرشدا
وانصاع يصغي لي . وكان يعير لي اذنا موقرة وطرفا أرمدا
فإذ عددت لديه منك فضيلة لك عد عشراً مثلها أو ازيدا
بغض الظهور هو الذي غطى على مصباح فضل من سناك توقدا
حوشيت من حب الظهور فإنه مقياس ما طلب المريب وانشدا
ولانت ازكى أن يجاذبك الهوى برداً وان تعطيه منك المقودا
أأبا غني خار بعدك ناكصا عزمي وكنت أعد ليثا ملبدا
ولرب نائبة صمدت أمامها قصر الزمان أمامها ان يصمدا
لانت عريكتها الجموح بثابت مني على عرك الزمان تعودا

حتى إذا فوجئت منك بفادح | دام أقام العاطفات واقعدا
وإذا بقلبي وهو ذاك الصخرة | الصماء يصدعه المصاب مبددا
فنحرت أشلاء الفؤاد ضحية | للحتف دونك عله يرضى الفدا
لكن قاسية الحتوف إذا رمت | غرضا ابت إلا الصميم من الهدى
فإذا المكارم والسماح صريعة | وإذا (الجواد) مقطر هو والندى
وإذا بآمال عليك عقدتها | ذهبت كأن وطيدها ان يعقدا
افهل تسالمت الحتوف وصممت | أن ليس تبقى المتاهة مرشدا
ولقد نعاك إلى الفضيلة ناعب | حتى عددت له خصالك غردا
وغدا يميط عن المكارم حجبها | وعن الفضيلة غيمها المتلبدا
وإذا الزوايا فيك تخرج كنزها | وتنظم التاج الخفي ليعقدا
فنظمت فيك من الثناء خرائدا | سيارة غاضت وقوفا ركدا
تشتاق نغمتها المسامع رقة | وتلذ للحادي الطروب إذا حدا
فإذا ذكرتك للفخار اهتز لي | فكأني اسقيه باسمك صرخدا
فسموت فيك على الضراح وان علا | ووطئت فيك باخمصي الفرقدا
وزهت اساريرى وراح مقطبا | وجه إذا شام الفضيلة اربدا
فظننت ان الحادثات بغفلة | عني وان شواظها قد اخمدا
فإذا الخطوب تدير لي من صرفها | كأسا مصبرة ويوما انكدا
وإذا بيومي عاد بعدك مظلما | واذا بليلي عاد بعدك سرمدا
أفهل وفيت ابا غنى منك ما | طوقت جيدي من علاك مقلدا
ولئن قصرت فان عذرى أن لي | ذكراً بدنيا الهم بات مشردا
واصارع الأحداث وهي كثيرة | وحدي واقتحم المغارة مفردا
نكبت وارفة الحياة خصيبة | وسلكت منها الصحصحان الاجردا
ونعى على شحوب وجهى ناقم | يبدو بوجه بالنعيم توردا
أدرى بأني لست ممن يشترى | ذل الحياة إذا الإباء تمردا
فلتخسأ الدنيا الغرور تمد لي | يدها فاني لاأمد لها يدا
إني أصيخ إلى الهوان وإن لي | حسبا على مر الإباء تعودا
ولقد شحذت عزيمتى فنصلتها | سيفا على حرب الزمان مجردا
ووقفت ما بين اثنتين إذا دهت | نوب فاما الأمنيات أو الردى

وقنعت من نفسي بأني رضتها ... لترى الحياة القفر عيشا أرغدا

ولربما انطلق الهوى فكبحته ... فمشى لناعمـــة الحياة مقيدا

وعلمت أني لست أحمل منة ... حتى لواكفة السحاب ولا يدا

وأمام عيني المغريات فلا أرى ... دربي على شره لهن معبدا

ولرب عيش قـــد تذوقه فمي ... عذبا ولم يك مرطبا أو مزبدا

فكأنما شظف الحياة لناظري ... قدكان - إن تقذى النواظر - مرودا

وأعود أصلح بالإباء كرامتي ... من أن يعيث بها الهوان فتفسدا .

فلرب عرض كان أبيض ناصعا ... قد عاد من مسح المناكب أسودا

وامط من خد تصعر خسة ... خد على عفر التراب توسدا

وأعز من كاس تعرت نفسه ... من عفة عار بعفته ارتدى

ولقد رأيت على الرواسي عزتي ... فعلمت أن الشم لم تخلق سدى

(٤)

وكان لأسرة آل مطر ، وللشيخ الجليل الأستاذ العلامة ، عبد المهدي مطر الخفاجي ، فضل تخليد ذكرى هذين العلمين الجليلين ، بنشر كتاب عنهما عنوانه « ذكرى علمين من آل مطر » ، وقد نشر هذا الكتاب ، عام ١٩٥٧ م بمطبعة النجف بالنجف الأشرف ، وكان مصدرنا الوحيد الذي اعتمدنا عليه في كتابة هذه الدراسة .

أحمد شـــعراوى

(١)

أديب موهوب ، وعالم جليل ، وشيخ من شيوخ العربية فى مصر ، ومؤلف مصقول العبارة ، بليغ الأسلوب ، قوى الديباجة ، محكم النسج .

وكتابه المخطوط « تاريخ البلاغة العربية » يشهد له بالفضل والسبق والابتكار جميعا ، وقد كان هذا البحث هو الرسالة التى تقدم بها لنيل العالمية من درجة أستاذ فى البلاغة والأدب من كلية اللغة العربية إحدى كليات الأزهر الشريف ، فمنح عليها هـذا اللقب العلمى الرفيع بتفوق وامتياز ، وبشهادة الأساتذة وأعضاء لجنة الامتحان له بالجدارة والسبق .

يقول الأستاذ الشعراوى فى مقدمة كتابه « تاريخ البلاغة العربية إلى نهاية القرن الرابع الهجرى(١) » ، متحدثا عن موضوع هذا الكتاب .

« موضوع هذا البحث دراسة اللغة العربية من إحدى نواحيها فترة من الزمن ، هـذه الناحية هى بيانها وبلاغتها إلى نهاية القرن الرابع الهجرى وما قبل عهد عبد القاهر الجرجانى منظم هذا البيان »

وقد تحدث عن اللغة العربية وخصائصها ، ثم عن مثيرات البحث البلاغى ، مقرراً أن علم البلاغة إسلامى لاعهد للجاهليين به ، وأن له بواعث عاونت على نشأته من : قصور الملكات فى الفهم والإنشاء وفساد الذوق بسبب الاختلاط والحضارة ، وظهور طبقة من الزنادقة الطاعنين على القرآن ، واختلاف الآراء فى سر إعجازه ، ثم نضوج النقد الأدبى واشتداد المعركة بين العلماء والأدباء .

ثم تحدث عن البيئات التى نبتت بينها أصول البلاغة ، وهى بيئة : النحاة واللغويين ، والمفسرين ، والفقهاء والأصوليين ، والنقاد ، والمتكلمين .

ويحلل فى الكتاب طائفة من كتب البلاغة والمتصلة بها ، ومن بين هذه الكتب مجاز القرآن لأبى عبيدة ، والبيان والتبيين للجاحظ ، ومشكل القرآن لابن قتيبة

---

(١) رسالة خطية فى ١٧٠ صفحة فى مكتبة كلية اللغة العربية برقم ٣٤٠ بلاغة

وقواعد الشعر لثعلب ، والبديع لابن المعتز ، ونقد الشعر لقدامة ، والبيان أو نقد النثر لقدامة أيضا ، والصناعتين لأبى هلال ، وإعجاز القرآن للباقلانى .

ويوضح الصلة بين البيان العربى والثقافات الأجنبية ، متهديا إلى أن علماء العربية قد استقلوا بدراسة بيانهم ، وأنه لا أثر لخطابة أرسطو فيه .

(٢)

وللشعراوى سوى هذا الكتاب كتاب آخر هو « دراسات فى الأدب العربى وتاريخه » ، طبع لكلية اللغة العربية عدة طبعات .

وقد ولد فى ٥ أغسطس عام ١٩٠٩ م فى الجعفرية من أعمال مركز السنطة التابعة لمديرية الغربية . وحفظ القرآن الكريم ثم التحق بمعهد طنطا الدينى عام ١٩٢٣م ، ونال منه الشهادة الثانوية عام ١٩٣١ ، وفى هذا العام أيضا التحق بكلية اللغة العربية ووالى دراساته بها على أعلام الأدب وفحول البلاغة وجلة شيوخ العربية فى الأزهر الشريف ، حتى نال الشهادة العالية عام ١٩٣٥ م ، ثم التحق بقسم الدراسات العليا (الأستاذية) وتخرج منه عام ١٩٤٢ يحمل شهادة العالمية من درجة أستاذ فى البلاغة والأدب والنقد ، وعين مدرسا بالكلية فى ١٧ أكتوبر عام ١٩٤٢ ، وظل مدرسا بها حتى نقل فى نوفمبر عام ١٩٥٧ مفتشا للعلوم الدينية والعربية بإدارة الأزهر الشريف .

ويمتاز الشعراوى بذكاء نادر ، وبديهة حاضرة ، وخلق رفيع ، وشخصية جليلة ، وأسلوبه فى الحديث والمحاضرة والكتابة يملك اب السامعين والقارئين ، ويعد أول من خرجتهم كلية اللغة العربية من قسم الأستاذية ، وشهد له أساتذته بالتفوق والعلم الغزير ، وبالملكة الأصيلة فى الفهم والمناقشة والاستنتاج ، وتبسيط مسائل العلوم ومشكلاتها .

وهو قوى الحجة ، شديد المراس بالجدل العلمى ، مع الدقة والفطنة ، والنفاذ إلى أعماق الأمور ، وجوهر الأشياء .

إنه إنسان مرح ، لطيف المعاشرة ، ظريف الخلال ، كثير الصداقات والأصدقاء ، ودود محب لإخوانه ، محبوب بينهم ، لا يميل إلى التكلف أو الاغراب أو التعقيد ، وله كثير من الآراء فى الأدب والنقد والبلاغة ، وبعض هذه الآراء مدون فى مؤلفاته ، وعلى الجملة فهو من خيرة أساتذة الأدب العربى فى مصر والأزهر .

أحمد شفيع

(١)

أستاذ جليل من أساتذة الأدب والنقد فى مصر ، يتولى كرسى الأستاذية للأدب العربى فى كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف ، وله تلامذة عديدون يتولون تدريس الأدب فى كليات الأزهر ومعاهده ، وفى المدارس الثانوية والإعدادية ؛ كان لى حظ التلمذة عليه والإفادة منه وأنا فى نهاية الدراسة الثانوية بالزقازيق ، وأسعدنى الحظ كذلك بأن أستفيد من توجيهه وأدبه ، وأتتلمذ على شعره قبل أن أبدأ دراستى فى كلية اللغة العربية وبعدها ، وكان شعره الذى يلقيه فى الحفلات العامة التى يقيمها الأزهر أستاذا لكثير من شعراء الشباب فى جامعة الأزهر : كلياته ومعاهده .

وكان عضوا فى لجنة مناقشة رسالتى عن « ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان » ، وكان أكثر أعضاء اللجنة إنصافا وتقديرا ، ثم أصبحت مدرسا فى كلية اللغة العربية ، وزاملته سنوات كثيرة ، كنت فيها مستفيدا متعلما متتلمذا عليه ، وكنت أعرض عليه مايعن لى من مشكلات ، فأجد عنده الكثير من دقة النظر ، وعمق الخاطر ، وحضور الذهن ، والملكة الموهوبة فى الاستنتاج والموازنة ، وكان كذلك مع الكثيرين من أبنائه ، والمستفيدين من فضله وأدبه وعلمه .

إنه صديق وزميل وأستاذ فى كل المراحل التى قضيناها ونعمنا فيها بصحبته ، ويمتاز بخلق نبيل ، ونفس وديعة ، وقلب نقى ، وفؤاد طاهر ، وتواضع جم ، إلى البديهة الحاضرة ، والنكتة العميقة ، والثقافة المنوعة ، والاطلاع الواسع .

(٢)

وأحمد شفيع شاعر قبل كل شىء ، نظم الشعر بذوقه وطبعه ، قبل أن يتعلمه صناعة ودراسة ، ونهج فيه منهج فحول الشعراء العباسيين فى أصالة التعبير وجزالته وقوته وبلاغته جميعا .

ومن صور شعره قصيدته « رسالة الأزهر » ، التى يقول فيها منوها بجهود الشيخ المراغى فى إصلاح الأزهر :

معقل الدين وهو فى ريعانه   ومنار الهدى ومعلى مكانه

نهض الشرق بالرسالة فى النا   س وشب الحنيف فى إيوانه
لم يقم جوهر بثأر ولكن   شاد صرح العلوم فى تبيانه
كان منه الهداة فى ظلمة الد   هر وفيه النجاة من طوفانه
كم تولى بلاد مصر ولاة   فاستمدوا الولاء من سلطانه
زعماء البلاد منه أفاضوا   وحماة البيان من فرسانه
لغة العرب فى ذراه استظلت   فأواها فى وارف من جنانه
جنة الأرض حين أقفرت الأر   ض ولج الزمان فى عدوانه
قل لمن رام للكنانة كيدا   فى الكنانى عصمة من طعانه
سائلوا مصر يوم ثار بنوها   كيف كان الجهاد من فتيانه
يا زعيم الإصلاح فى الشرق أنقذ   أمة تنشد الهدى فى معانه
لذكرنا بيمن عودك فينا ..   عود موسى بالحق من برهانه
شهد الشرق المفاخر حفلا   عشى الغرب من سنا مهرجانه
يا عميد القضاء تغضب للعد   ل وتغلى النفوس من ميزانه
وترد الحقوق غير مبال .   بعسوف يلج فى بهتانه
نضرة الشعر من جلالك لاحت   فتجلى للناس حسن بيانه
نضر الله أوجها تزن المجـ   ـد وتعلى بين الورى من شانه
همة لا تنال منها الليالى   ومضاء كالنجم فى دورانه
يا لمرجى بمصلح عبقرى   نهضة العلم نفحة من جنانه
علمتنا الأيام أن نرصد الشر   إلى أن يزول فى طغيانه
يا بشير الهناء واصلنا الد   هر وكان الملح فى هجرانه
لان بعد الشموس حتى حمدنا   بعد ذاك الشموس حسن ليانه

ويقول فى تحية العام الهجرى ، مطلع عام ١٣٧١ هـ :

تألق بساما وأشرق زاهره   هلال على الآفاق لاحت بشائره
طوى الكون آلاف السنين فما ونت   ركائبه يوما ولا كل واتره
وكم تشخص الأبصار فى مستهله   ومن عجب لا يسأم الدهر ناظره
تعد به الأعوام مهما تطاولت   فيا لسجل لم تحبر دفاتره

يمثل ألوان الحياة : طفولة . يليها شباب يقطر الحسن ناضره
وبعدهما شيب ، كذلك هلاله يكمل بدرا ، والمحاق أواخره
يذكرنا مسراه فى هدأة الدجى بسرى رسول الله يرعاه آمره
تخيفه ظلم عســوف مخاطر ولم يدر أن الشرك تهوى مخاطره
رفيقان فى غار خفى تواريا بعزة مأثور تفيض بواهره
لقد عشيت عن مشرق النور أعين برين عليها من ضلال دياجره
وما يبصر الخفاش فى روعة الضحى فأنى يرى الكفار ما الله ساتره ؟
وليس فرارا ما أتاه محمــد فليس يطيق الضيم إلا أصاغره
يقيم النعام وادعا فى كناسه ويخلو عن الآجام ظلما مغاوره ؟ !
إلى طيبة الخير استقلت ركابه فأثل مجدا فى السماء مفاخره
فياهجرة المختار قد كنت فيصلا رأينا به الإشراك قطع دابره
وبدل دين الله بالضعف قوة وفارق أهلا فاستفاضت عشائره
فيالك سوأى قد تحولت خيرة وشرا جاء بالخير واليمن طائره
فلم ينصر الكفار والله فوقهم ولم يخذل المختار والله ناصره
سماء تعالت لن تنالوا عنانها وإن تطفئوا نورا وذو العرش ناشره
وما عرفت هذى الدنا كمحمد كريما يرجى أو شجاعا تحاذره
ألم يحى هذا الكون من بعد موته وتسكب على الوادى الجديب مواطره ؟ !
ألم يأتهم بالذكر نورا وحكمة موارده تزكو وتزكو مصادره ؟ !
ألم يبن من أبناء يعرب أمة إليها عنا كسرى ودانت قياصره ؟ !
أياديه فى الانسان بيض كأنها أيادى الربيع الطلق يبسم زاهره
ومهما بدا فى الكون نور معارف ففى مشرق الإسلام كانت بواكره
فيا قادة الإسلام هذا رسولكم تمرس بالأحداث وهى تساوره
فكونوا جنود الدين والعلم تنصروا ومن ينصر الإسلام فالله ناصره

ويقول فى حفل تكريمه بمناسبة نقله إلى كلية اللغة العربية عام ١٩٣٧ :

أصخ لداعى العلى ياباعث العرب واهتف بنجواك هذا منتدى الأرب
هذا عكاظ أعاد الدهر جدته فعاد يختال فى أثوابه القشب

شبابنا الناهض الوثاب حليته ... وللشباب على موصولة السبب

ما بهجة الزهر يكسوه الضحى ذهبا ... أبهى إلى ناظرى من روعة الأرب

وما الصباح تفيض السحر بسمته ... ألذ فى خاطرى من سحره العجب

وما الربيع وقد غشى الربا حللا ... من الجمال كوشى من الكتب

والشعر والسحر عز الفصل بينهما ... والشعر أبقى على الأيام والحقب

يا قوم هذى يد الإصلاح قد بسطت ... وليس يخدع أن القيد من ذهب

إن يدفع الناس عن أوطانهم سعدوا ... أولا فبين فم الأهوال والنوب

أو ذادت الطير عن أوكارها حدبا ... فالنيل من أهله أولى بذا الحدب

هذى محالفة ليست بمجدية ... إن لم تكونوا إلى العلياء فى أهب

يا بانى المجد لا تهتف بمنقبة ... إن لم تشده على الأرماح والقضب

طغى على الناس دين لا مرد له ... قوامه فى الحديد الصلد واللهب

ما بال مصر أقال الله عثرتها ... تمشى الهوينى ولا تستن فى الدأب

عن الدفاع توانت وهو عدتها ... والأمر جد وقد أصغت إلى اللعب

لكن فى النفس آمالا معلقة ... على العوارف من أبنائها النجب

أبا الميمون لقد أنهضتها هِمما ... وثابة كأتى الزاخر اللجب

أحييت ما يبعث الفصحى بنهضته ... بهمة لسوى العلياء لم تطب

والمراغى آلاء مخلدة ... سرى بها الدهر فى عجم وفى عرب

إنى أودع صحبا قد لقيت بهم ... صفو الحياة بلا ريب ولا كذب

الواصلون إذا الآمال قد قطعت ... والسائرون إلى العلياء فى خبب

الناسجون من الآداب أبرعها ... حكما من الشعر أو سحرا من الخطب

فاض الوفاء بيانا لا كفاء له ... كوابل الغيث دفاقا إلى صبب

هم الصحاب فلا زالت مودتهم ... ما خلد الدهر درعا غير منشعب

(٣)

وقد ولد أحمد شفيع بن السيد بن حسين بن الشافعى . ببلدة « الإبراهيمية » من أعمال مديرية الشرقية فى شهر إبريل سنة ١٩٠٣ م وتعلم فى كتاب البلدة وحفظ القرآن الكريم فى العاشرة من عمره والتحق بالجامع الأزهر سنة ١٩١٦ بالقاهرة ونال الشهادة الابتدائية بتفوق سنة ١٩٢٣ والشهادة الثانوية سنة ١٩٢٤

والشهادة العالمية سنة ١٩٢٦ واشتغل بالمحاماة الشرعية فور تخرجه زهاء عامين بالشرقية ، وعين مدرسا فى معهد الزقازيق الدينى عام ١٩٢٨ ، ورقى إلى كلية اللغة العربية مدرسا للبلاغة والأدب فى مارس عام ١٩٣٧ وهو الآن أستاذ الأدب بها ، وهو من أسرة كريمة متوسطة الحال متدينة جل رجالها من حملة القرآن الكريم وأهل العلم : فوالده كان يحفظ القرآن أجود حفظ ويواظب على تلاوته ليل نهار وحضر فى الأزهر أربع سنين ، وأخواه الأستاذان محمد فهمى السيد من كبار نواب المحاكم الشرعية وعلى راغب أستاذ بمعهد القاهرة الدينى ، وعمه المرحوم الأستاذ محمد المصيلحى حسين الشافعى من علماء الأزهر . . وأسرته معروفة بغيرتها الدينية والمحافظة على كرامتها ومجادتها وكرمها .

وله مؤلفات عدة منها :

١ — كتاب فى تاريخ الأدب العربى فى عهد الفاطميين والأيوبيين والمماليك والأتراك والعصر الحديث طبع ونفد .

٢ — مجموعتان من النصوص الأدبية (مطبوعتان) .

٣ — ترجمات وافية لصفى الدين الحلى والبارودى والمنفلوطى والبشرى (مطبوعة)

٤ — مجموعة ثالثة من النصوص الأدبية .

٥ — مجموعة من المقالات والموضوعات الأدبية (تحت الطبع)

٦ — ديوان شعر (تحت الطبع) .

(٤)

وأسلوبه فى الكتابة يمتاز بالروعة والبلاغة والجزالة وقوة التعبير ، وكاد أن يلحق بأسلوب ابن العميد ، وابن زيدون وغيرهما من فحول الكتاب ، وأعلام العربية . . ويضيق المقام عن الاستشهاد بصور من كتابته وبلاغته .

وقد كتب أحمد الشرباصى محاضرة عن شعره وأدبه ، ألقيت فى جمعية الشبان المسلمين عام ١٩٥٦ ، وكتب عنه كذلك تلميذه الوفى الأديب الشاعر الموهوب الأستاذ رجب البيومى الأستاذ بالمدارس الثانوية بوزارة التربية والتعليم المصرية ، وخريج كلية اللغة العربية ومعهد التربية العالى . . ومن جملة تلاميذه الأوفياء : أحمد الشرباصى وحسن جاد ، وسواهما من أعلام أدباء الأزهر المعاصرين .

الشيخ محمد الخضر حسين[1]

(١)

فى ظهر الاثنين ١٤ رجب ١٣٧٧ هـ — ٣ فبراير ١٩٥٨ شيعنا جنازة شيخ من شيوخ الإسلام ، وإمام من أئمة الدين ، هو المغفور له الشيخ محمد الخضر حسين ، طيب الله ثراه .

تولى الشيخ الخضر مشيخة الأزهر الشريف فى ظلال الثورة المصرية وبعطف ثوار مصر الأحرار ، وذلك يوم الأربعاء ٢٧ من جمادى الأولى ١٣٧١ هـ — ١٧ سبتمبر ١٩٥٢ ، وكان خلال توليه لهذا المنصب الإسلامى الجليل يضرب الأمثلة الرفيعة فى العزة والسمو والكرامة والغيرة على الأزهر ورجاله ، وعلى الإسلام ومستقبل المسلمين ، واستقال من المشيخة لظروفه الصحية فى الثانى من جمادى الأولى عام ١٣٧٣ هـ — ٨ يناير ١٩٥٤ .

وتولى تحرير مجلة نور الإسلام منذ أصدرها الأزهر الشريف ، كما كان رئيسا لتحرير مجلة لواء الإسلام . وعين عضوا فى المجمع اللغوى بالقاهرة منذ إنشائه ، واختير عضوا فى جماعة كبار العلماء بالأزهر الشريف عام ١٩٥١ ، وهو منشئ مجلة الهداية الإسلامية وجمعيتها ، وقد تولى التدريس فى كلية أصول الدين سنين عديدة قبل اختياره لمنصب المشيخة الرفيع .

(٢)

ولد الشيخ الخضر بمدينة نفطة بالقطر التونسى فى ٢٧ رجب عام ١٢٩٣ هـ ، وتلقى ثقافته الأولى وحفظ القرآن الكريم فى بلاده وفى هذا الحين كان قد انتقل مع أسرته إلى العاصمة « تونس » عام ١٣٠٦ هـ ، ودخل الكلية الزيتونية عام ١٣٠٧ هـ ، وتلقى تعليمه الدينى فيها على شيوخ أجلاء ، وفى عام ١٣١٧ هـ

---

(١) راجع الجزء الأول من كتاب الأزهر فى ألف عام للمؤلف .

رحل إلى طرابلس ثم عاد إلى تونس ، ووالى دراسته فى الزيتونة إلى عام ١٣٢١ ، وأنشأ فيها مجلة السعادة العظمى ، ثم ولى القضاء فى مدينة بنزرت عام ١٣٢٣ ه ، وعمل كذلك فى الخطابة والوعظ والتدريس فى جامعها الكبير ، وسرعان ما استقال ، ورجع إلى العاصمة ، وتطوع للتدريس فى الزيتونة ، وأشرف على خزائن الكتب فيها . وفى عام ١٣٢٣ ه اشترك فى تأسيس جمعية زيتونية ، وعين مدرسا رسميا فى الزيتونة ، وفى عام ١٣٢٦ ه اختير كذلك بالإضافة إلى عمله مدرسا بالمدرسة الصادقية ، وفى المدرسة الخلدونية .

وأخذ يكافح الاستعمار ، واشترك فى الكفاح فى الحرب الطرابلسية التى نشبت بين الطليان والعثمانيين ، ونشرت له قصيدته :

ردوا على مجدنا الذكر الذى ذهبا يكفى مضاجعنا نوم دها حقبا

ورحل إلى الجزائر ، فزار مدنها ، وألقى الدروس فى مساجدها ، ثم عاد إلى تونس ، يوالى تدريسه فى الزيتونة .

وفى عام ١٢٣٠ ه سافر إلى دمشق مارا بمصر ، ومنها سافر إلى القسطنطينية وأقام فيها وقتا قليلا ، ثم عاد إلى تونس فى آخر هذه السنة ، ونشر رحلته المفيدة عن عاصمة الخلافة ، وعين عضوا فى اللجنة التى ألفت لكتابة التاريخ التونسى وتحقيقه .

ثم هاجر إلى مصر ، وسافر إلى دمشق فالمدينة المنورة ، فالقسطنطينية ، ثم عاد إلى دمشق وعمل مدرسا بالمدرسة السلطانية فيها ، ونشبت الحرب وثار الشيخ مع الأحرار ضد الاستبداد التركى ، فاتهمه جمال باشا حاكم سوريا بالتآمر ، واعتقله أكثر من ستة شهور ، وحوكم فبرأته المحكمة ، وأطلق سراحه فى ربيع الثانى عام ١٣٣٥ ه ، فعاد إلى التدريس فى المدرسة السلطانية ، ثم هاجر إلى استامبول عام ١٣٣٦ ه ، فعين محررا بالقلم العربى بوزارة الحربية ، ثم أرسلته الحكومة إلى ألمانيا ، ليعظ الجنود المسلمين فيها ، ورجع إلى الشام مدرسا بالمدرسة السلطانية ، ولما احتلت فرنسا الشام عام

١٣٣٦ هـ هاجر إلى مصر وأقام فيها مكرما من شعبها وحكومتها وشتى الهيئات العلمية والدينية والأدبية فيها .

وألف عدة كتب مرموقة ، منها الرد على آراء الدكتور طه حسين فى الأدب الجاهلى .

وظل عاكفا على المحاضرة فى جمعية الهداية والكتابة فى المجلات التى تولى التحرير فيها ، والتدريس فى كلية أصول الدين بالأزهر الشريف ، والبحث فى المجمع اللغوى ، حتى اختير عضوا فى جماعة كبار العلماء ، فشيخا للأزهر الشريف .

ولما ترك الأزهر عاد إلى نشاطه العلمى والإسلامى مبجلا مهيبا مرموقا ، حتى توفاه الله إلى رحمته ورضوانه ، مذكورا بالخير والتقدير والإكبار من جميع عارفى فضله ، ومبجلى علمه ، ومن تلامذته ومريديه والمستفيدين من تفكيره ، رحمه الله . وأكرم مثواه .

انتهى الكتاب

فهرست الكتاب

للمؤلف

١ ـــ قصة الأدب في مصر (٥ أجزاء)
٢ ـــ قصة الأدب في الأندلس (٥ أجزاء)
٣ ـــ قصة الأدب المعاصر (٤ أجزاء)
٤ ـــ صور من الأدب الحديث (٤ أجزاء)
٥ ـــ دراسات في الأدب والنقد
٦ ـــ مع الشعراء المعاصرين
٧ ـــ الأزهر في ألف عام (٣ أجزاء)
٨ ـــ في ظلال الإسلام (بالاشتراك)
٩ ـــ مواكب الحرية في مصر الإسلامية
١٠ ـــ التراث الروحي للتصوف الإسلامي في مصر
١١ ـــ الشعر والتجديد
١٢ ـــ رائد الشعر الحديث (جزءان)



